الجامعة الاردنية
كلية الدراسات العليا

ظاهرة الحذف في القرآن الكريم

حفظي حافظ محمد اشتية

إشراف
الأستاذ الدكتور محمد بركات حمدي أبو علي

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات نيل درجة الدكتوراة في تخصص اللغة العربية وآدابها من كلية الدراسات العليا في الجامعة الأ ردنية

كانون الأول ١٩٩٥

٧٢٤/٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢٣/ ١٢/ ١٩٩٥، وأجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
١. الأستاذ الدكتور محمد بركات أبو علي (مشرفاً)	.....
٢. الأستاذ الدكتور محمود السمرة (عضواً)	.....
٣. الأستاذ الدكتور نهاد الموسى (عضواً)	.....
٤. الأستاذ الدكتور محمود حسني (عضواً)	.....

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قائمة المحتويات

الموضوع	الصفحة
قرار لجنة المناقشة	ب
المحتويات	جـ
الملخص باللغة العربية	هـ
المقدمة	١
الفصل الأول الحذف عن النحاة	٧
تمهيد: المصطلح والحدود	٩
أسباب الحذف	١٣
أدلة الحذف	٣٣
ضوابط الحذف	٤٦
تحفظات النحاة على بعض المحذوفات	٥٩
من مواطن الحذف في القرآن الكريم	٦٥
الفصل الثاني الحذف عند البلاغيين	٩٧
تمهيد الإيجاز في العربية أصل فيها وطبع في أهلها	٩٩
موقع الإيجاز في ائتلاف اللفظ والمعنى	١٠٧
حد الإيجاز وأنواعه	١١٣
الحذف قبل عبد القاهر الجرجاني	١١٨
الحذف عند عبد القاهر الجرجاني	١٢٨
البلاغة تتخذ مسارين	١٣٨
الحذف عند المدرسة الأدبية	١٤٣
الحذف عند المدرسة الكلامية	١٦٧
الحذف عند الزمخشري	١٨٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث دراسة تقييمية	٢٠٠
تقييم الجهد النحوي	٢٠٢
ظاهرة الحذف: أهي واقع لغوي أم اختلاق نحوي؟	٢٠٢
النحاة بين المعنى والصنعة النحوية	٢٢٣
النحاة والمعنى	٢٢٤
النحاة والصنعة النحوية	٢٣٣
نظرة في تقييم المحدثين لدراسة ظاهرة الحذف عند النحويين	٢٥٢
تقييم الجهد البلاغي	٢٦٨
الشواهد	٢٧٠
الذوق	٢٧٤
التعليل	٢٧٧
التقسيم والتنظيم	٢٨٥
نظرة في تقييم المحدثين لدراسة ظاهرة الحذف عند البلاغيين	٢٨٧
الحذف بين النحو والبلاغة	٢٩٣
الخاتمة	٣١١
المصادر والمراجع	٣١٣
الملخص باللغة الإنجليزية	٣٢٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملخص الدراسة

ظاهرة الحذف في القرآن الكريم

حفظي حافظ محمد اشتية

إشراف

الأستاذ الدكتور محمد بركات حمدي أبو علي

هذه دراسة عنيت بتتبع آراء النحاة والبلاغيين بظاهرة الحذف عامة، وتطبيقاتها على القرآن الكريم خاصة.

وقد تقاسمتها ثلاثة فصول كمايلي:

الفصل الأول : الحذف عند النحاة

وتم فيه تتبع آراء النحاة في ظاهرة الحذف، وعرض آرائهم في أسبابها وعواملها مثل: كثرة الاستعمال، وطول الكلام، وعلم المخاطب، والضرورة الشعرية، والرواية الشعرية، والقراءات القرآنية، والفرق الإسلامية، ومنهج النحاة في التقعيد، واختلافاتهم، ومراعاتهم صنعتهم النحوية.

ثم عُرضت أدلة الحذف، التي عُني بها النحاة، وتواصوا -كثيرا- بها، وأشاروا إليها، وهي كما رأوا أدلة لفظية صوتية أو قولية، وأدلة عقلية، وأدلة حالية. ثم كانت وقفة متأنية عند ضوابط الحذف التي رددها النحاة، وتوارثوها، وهي في مجملها كوابح تحد من الإيغال في تقدير المحذوفات، ومن هذه الضوابط:

التقيد بالسماع عند الحذف، وضرورة تقليل المحذوف ما أمكن، ومالا يتعين تقديره لايجوز إضماره، وغيرها...

وتلت ذلك إشارات إلى تحفظات النحاة على بعض المحذوفات، كالنداء، والصفة، والموصوف، والحال.....

وكان لابد من موازنة كل مامضى بنماذج تطبيقية من القرآن الكريم، فجُمعت طائفة كبيرة من مواضع الحذف التي قدرها النحاة، ليُقابلَ كلامهم النظري والتطبيق، تمهيداً لتقييم جهدهم في الفصل الأخير.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني: الحذف عند البلاغيين

وقد مُهد له بما يثبت أن الإيجاز قيمة عربية ذوقية، وأنه سمة بارزة من سمات الفصاحة في الإرث النقدي العربي. تلت ذلك محاولة تحديد موقع الإيجاز في إطار مقابلة اللفظ والمعنى، قياساً إلى العنصرين المقابلين الآخرين وهما: الإطناب والمساواة، وأعقب ذلك تعريف الإيجاز، وبيان نوعيه: القصر، والحذف، والثاني هو محط العناية.

ثم كان عرض لآراء البلاغيين في ظاهرة الحذف، وتطبيق ذلك على القرآن الكريم، وجرى الحديث موزعاً إلى خمسة عناصر افترعها اختلاف الأعصار، والأنظار وهي:

الحذف قبل عبد القاهر الجرجاني، الحذف عند عبد القاهر الجرجاني، والحذف عن المدرسة البلاغية الأدبية، والحذف عند المدرسة البلاغية الكلامية، والحذف عند الزمخشري.

وقد حرص البحث على عرض نظرة تقييمية خاصة بكل عنصر من هذه العناصر الخمسة تصف جهده في دراسة ظاهرة الحذف، لتكون هذه الأنظار مجتمعة البناء الائتلافي لتقييم جهد البلاغيين في الفصل الأخير أيضاً.

الفصل الثالث: تقييم الجهد النحوي والبلاغي في دراسة ظاهرة الحذف

أما الجهد النحوي، فقد تقدمته إلماعة عامة أظهرت أن الحذف ظاهرة لغوية واقعية، وأن النحاة، رغم ما مس منهجهم في السماع من هنات، لم يختلقوا هذه الظاهرة، بل قام معظم جهدهم على وصفها.

ثم وُضع معيار لتقييم الجهد النحوي في معالجة هذه الظاهرة يقوم على مراعاة المعنى والصنعة النحوية معاً. فتبين أن النحاة في مواضع كثيرة كانوا محقين فيما قدروا من محذوفات لأن المعنى تطلب ذلك.

ولكنهم في مواضع كثيرة أخرى، انحازوا إلى الصنعة النحوية، وقدروا مالايتطلبه المعنى بل مايفسده أحياناً، وبدت فجوة كبيرة بين ضوابطهم النظرية وتطبيقاتهم.

وكان لابد من وصل الماضي بالحاضر، فعُرضت بعض أنظار المحدثين في تقيم الجهد النحوي العربي القديم، ظهر من خلالها أن هذا البحث وإن وافقهم في بعض ماقالوا، إلا انه يخالفهم في المبدأ الذي انطلقوا منه، وهو مبدأ قائم على تبني أفكار المدارس اللغوية الغربية الحديثة التي زعموا أن النحو العربي يجافيها.

وأما تقييم الجهد البلاغي، فقد تم في هذا الفصل جمع ماتفرق من أنظار تقييمية في الفصل الأول، سيقت من خلال أربعة عناصر رئيسية هي: الشواهد، والذوق، والتعليل، والتقسيم والتنظيم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمّ الوقوف على كل عنصر منها، وعرض نظرة شمولية معززة بالشواهد، تبين الميزات والهنات.

ثم كانت محاولة توضيح الحدود بين علمي النحو والبلاغة في دراسة ظاهرة الحذف، فتبين أن العلمين تداخلت أنظارهما في دراسة هذه الظاهرة، فحلق النحاة أحيانا إلى آفاق البلاغة، وانكفأ البلاغيون أحياناً إلى قيود النحو. وبدت للفريقين بدوات التزم فيها كل فريق حده، وعرف هدفه، فقصده، ووقف عنده.

حفظي حافظ محمد اشتية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تعود فكرة هذا البحث (ظاهرة الحذف في القرآن الكريم في النحو والبلاغة)، إلى فترة دراستي لنيل درجة الماجستير، فقد استوقفتني ظاهرة الحذف التي كثر دورانها في الكتب النحوية، وتكررت إشارات النحاة إليها، واعتمادهم عليها في إظهار استقامة قواعدهم، فتناولت جزءاً من هذه الظاهرة، جعلته موضوعاً لرسالتي آنذاك، وقد كان محورها حول حذف الاسم في النحو العربي.

وفي أثناء رجوعي إلى الكتب النحوية القديمة لجمع مادة تلك الرسالة، راعني ذلك القدر العظيم من تقدير المحذوفات، والاتكاء عليها للحفاظ على سمت القواعد النحوية، فبدأت تتسلل إلى نفسي أسئلة، مثل:

- أهذه الظاهرة ظاهرة واقعية في الاستعمال اللغوي، أم أنها مختلقة، تُستحضر لنصر القاعدة النحوية؟
- إن كانت هذه الظاهرة واقعية، فهل هي حقا كثيرة كما تظهر الكتب النحوية، أم استكثر منها؟
- إذا كان التقدير أحد أسباب الشكوى من صعوبة النحو العربي المزعومة، والحذف أحد عناصر التقدير المهمة، فهل يمكن إلغاء التقدير بالحذف، والوقوف عند حدود الكلام الظاهر؟
- إلى أي حد نستطيع أن نسلّم بسلامة المنهج النحوي في معالجة هذه الظاهرة؟

ثم أخذت هذه الأسئلة وغيرها شكلا مستوفزاً، عندما استعرضتها في ذهني لأعرضها على القرآن الكريم، فاعترضتني أسئلة أخرى أكثر حدة وخطراً، ومنها:

- هل كان للنحاة الحق في تقدير محذوفات في القرآن الكريم؟
- هل يمكن أخذ جميع المعاني في القرآن الكريم وفق ظاهر الألفاظ دون حاجة إلى تقدير محذوفات؟
- هل راعى النحاة المعنى عندما قدروا تلك المحذوفات؟ أم أنهم انصاعوا لمتطلبات صناعتهم النحوية؟
- ماهو موقف الفرق الإسلامية من ظاهرة الحذف؟

ثم أخذ الموضوع عندي بعدا آخر يتمثل في الرجوع إلى آراء البلاغيين في هذه الظاهرة، ومقابلتها بأنظار النحويين، وتواردت أسئلة أخرى، منها:

- هل أقر البلاغيون بوجود الحذف في القرآن الكريم؟ وكيف عالجوا ذلك؟

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ماصلة الحذف بالبلاغة وسماتها، وما أوجه الإلتقاء أو الافتراق بين الجهد النحوي والجهد البلاغي في دراسة هذه الظاهرة؟
- إلى أي مدى خدمت هذه الجهود مجتمعة القرآن الكريم، فجلّت معانيه، وأنارت سمات بلاغته، ومواطن الإعجاز فيه؟

وهكذا، تشكلت لدي قناعة بأن هذا الموضوع يستحق أن يطرق، فهو يتعلق بظاهرة شائعة كثيرا في العربية، التفت حولها أنظار النحويين والبلاغيين والمفسرين،أوردوها جميعا، ثم انسلكت بهم مصادرهم شعباً، كل فريق يلم بمراده، ويمضي.

واتخاذ القرآن الكريم ميداناً تطبيقياً لهذه الظاهرة، يعطي هذه الدراسة بعداً عميقاً في أهميتها، فهو الأنموذج اللغوي العربي الأعلى، وهو المستوى الثابت المحفوظ المحتذى، وهو المورد الموحد للأنظار النحوية والبلاغية الذي يُسّهل وصفها وتقييمها والموازنة بينها.

وبدأت أسترجع الجهود السابقة التي درست هذه الظاهرة قديما وحديثا، وأبحث عن كل مايمكن أن يكون فاتني الوصول إليه سابقا، وأحاول معرفة الذي صدر حولها لاحقاً، فراودتني فكرة مؤداها أن هذه الظاهرة المهمة مازالت تستدعي جهداً دراسياً إضافياً، يستثير بالجهود السابقة ليعطيها بعداً جديداً مفيدا؛ فالظاهرة منثورة في الكتب النحوية القديمة، ونـدر أن وجد من النحاة من يبحثها في موطن واحد كما فعل ابن جني في الخصائص، وابن هشام في مغني اللبيب* .

أما في كتب البلاغة، فإن دراستها تواكب تطور الجهد البلاغي، فهي ملاحظات منثورة عند أوائل البلاغيين، وهي إحدى الصور التي تعكس اختلاف المناهج والأنظار البلاغية، عند عبد القاهر الجرجاني، ولاحقيه من البلاغيين.

وأما في الدراسات الحديثة، فقد كانت هذه الظاهرة موضوعاً لرسالتين جامعيتين هما:

- ظاهرة الحذف في الجملة العربية، وهي رسالة ماجستير قدمها الباحث أحمد فالح في جامعة اليرموك.
- ظاهرة الحذف في الحديث الشريف، وهي رسالة ماجستير قدمها الباحث أحمد فليح في جامعة اليرموك.

---

* ممن تناولها –مجموعة– كذلك: السيوطي في الإتقان، والزركشي في البرهان، وكلا الكتابين كما هو معروف في علوم القرآن.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد دار الحديث في الثانية على أمثلة من الحديث النبوي الشريف، كما يظهر عنوان الرسالة، بينما كان تركيز الباحث الأول على أسباب الحذف دون أن يستقصيها، وأدار الأمثلة في فلك تلك الأسباب.

وللدكتور طاهر سليمان حمودة، كتاب بحث فيه هذه الظاهرة عنوانه: ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، وهو يمثل صورة عامة لهذه الظاهرة، ويكاد يقف عند حدود وصفها، دون أن يتجاوز ذلك إلى الدراسة الدقيقة والتقييم، ولم يُعن كثيرا، بأمثلة القرآن الكريم، ولم يقابل جهود النحاة بجهود البلاغيين والمفسرين.

أما الدكتور عبد الفتاح الحموز، فقد اعتنى بدراسة هذه الظاهرة في أبحاثه:

"ظاهرة التأويل في القرآن الكريم"، "والمبتدأ والخبر في القرآن الكريم"، "معجم الأفعال التي حذف مفعولها غير الصريح في القرآن الكريم"، "والحذف في المثل العربي".

وبعض هذه الأبحاث يلتقي هذه الدراسة في جزء منها، وبعضها الآخر يمسّها عن بعد، وهذه الأبحاث في مجملها تنم عن جهد عظيم ينصب على جمع الشواهد، كما أنها تتناول الجانب النحوي فقط، ولم تتطرق للجانب البلاغي قط.

ويتعين على الاعتراف هنا بأني مدين بالكثير لكل الباحثين المذكورين الذين كان لهم سبق الريادة وفضلها؛ فقد استهديت بآرائهم، واستنرت بجهودهم، ولن أنسى فضلهم. إلا أن الأمر استقر لدي بأن هناك شيئا رديفاً لتلك الجهود يمكن أن يقال، وأن الظاهرة مازالت تنتظر من يستثمر ماسبق لتجليتها، وجمع عناصرها، وإبرازها بوجه أكثر إشراقاً، وأعظم فائدة، ويتمثل ذلك في الاستقصاء الدقيق لآراء النحاة والبلاغيين في هذه المسألة، لرصد آرائهم النظرية، ثم استحضار أمثلتهم وشواهدهم من القرآن الكريم لإجراء حوار بين النظر والتطبيق، ثم إجراء حوار آخر بين الجهد النحوي والجهد البلاغي لاستبصار صنيع كل منهما في خدمة القرآن الكريم، واستجلاء أثره في إيضاح المعاني والأحكام ووجوه البلاغة والإعجاز.

وتراءت أمام ناظري مسالك البحث الوعرة، ومزالقه الخطرة، وامتداده المضني، فاثّاقلت، ومسني الوهن... فسارعت إلى زيارة أستاذي الدكتور محمد بركات أبو علي، فوجدت عنده إيماناً بالموضوع، ساعدني في استعادة ثباتي، واستثارة حماستي. فعزمت، وتوكلت على الله.

وبدأت الاتصال بالمصادر، فكان لزاماً علي، في الجانب النحوي من الدراسة أن أرجع الى الجزء الأعظم من المكتبة النحوية بدءاً بكتاب سيبويه، وانتهاء بمؤلفات السيوطي، لأضمن للبحث دراسة تأصيلية مقنعة، وكذلك الأمر في الجانب البلاغي، فقد تتبعث الآراء البلاغية حول هذه الظاهرة، في كتب النحاة والنقاد الأوائل إلى أن ظهر للبلاغة خطها الواضح، وكتبها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاصة، فرجعت إلى تلك الكتب التي يمتد تأليفها من القرن الثالث الهجري إلى السيوطي أيضا في القرن العاشر الهجري.

وينضاف إلى ذلك بعض كتب التفسير، وبعض الكتب التي تتحدث عن الفرق الإسلامية وافتراقها في أفكارها، وكيف اعتمدت كل فرقة على القرآن الكريم لتعزيز مواقفها.

وحتى لا تبقى هذه الدراسة حلقة من الماضي، منقطعة عن الحاضر، كان من المجدي الاستئناس بآراء اللغويين المحدثين في تقييم الجهد النحوي والجهد البلاغي العربيين القديمين، والاستهداء كذلك بآراء المدارس اللغوية الحديثة، فأوجب ذلك الرجوع إلى كثير من الكتب الحديثة بهذا الشأن.

وقد فرضت طبيعة الظاهرة المدروسة، وأنظار دارسيها، فرضت على الباحث أن يتتبعها تاريخياً في منابعها، ثم يصفها اعتمادا على شواهدها المنتقاة من القرآن الكريم، فكان نتيجة كل ذلك، أن ظهر هذا البحث بهذه الصورة موزعا على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الحذف عند النحاة

وقد تتبعت فيه آراء النحاة في الحذف: أسبابه، وأدلته، وضوابطه، وأكدت تأكيدهم أن الحذف خلاف الأصل، وأظهرت تحفظاتهم -نظرياً- على حذف بعض العناصر النحوية، ومنعهم حذف بعضها الآخر.

وقد حرصت على تقفية ذلك كله بالجانب التطبيقي، إذ انتقيت طائفة كبيرة من شواهد القرآن الكريم التي قدر فيها النحاة محذوفات، لتسهل موازنة أقوالهم النظرية بما طبقوا، وحرصت على انتقاء تلك الشواهد من كتب منوعة، تشمل كتب النحو، وإعراب القرآن الكريم، وتفسيره.

الفصل الثاني: الحذف عند البلاغيين

ومهدت له بالحديث عن الإيجاز، وأنه إحدى علامات البلاغة في العرف النقدي العربي، وبينت أنه يقف قبالة الإطناب عند مقابلة الألفاظ بالمعاني، وتتوسطهما المساواة، ثم عرفت الإيجاز وبينت نوعيه القصر والحذف، وتتبعت الإشارات البلاغية الأولى للإيجاز والحذف في كتب النحاة والنقاد والبلاغيين، وتم ذلك في أربع وقفات هي:

الحذف قبل عبد القاهر الجرجاني، والحذف عند عبد القاهر الجرجاني، والحذف عند المدرسة البلاغية الأدبية، ثم الكلامية. وخصصت وقفة أخرى للحذف عند الزمخشري، فهو

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بلاغي يمثل آراء فرقة المعتزلة. وحرصت على أن أختتم الحديث في كل وقفة مما ذكر بنظرة تقييمية للنظر البلاغي في دراسة ظاهرة الحذف، لتعطى كل مرحلة طابعها الخاص، وليأتلف من ذلك البناء العام لتقييم الجهد البلاغي في دراسة هذه الظاهرة.

وكان الفصل الثالث دراسة تقييمية للجهد النحوي والجهد البلاغي.

وقد تصدر الحديث عن تقييم الجهد النحوي إلمامة عامة بالمنهج النحوي في السماع، بدا منها أن ظاهرة الحذف واقع لغوي، لم يختلقه النحاة، وما كان بمقدورهم تجاوزه، وأن منهجهم في سماعه على الرغم ممّا ماشابه من هنات، يصح الاعتماد عليه، والاطمئنان إلى مادته. أما منهجهم في التعامل مع هذا المسموع والتقعيد له، فقد حالفه التوفيق أحياناً؛ فهم وإن راعوا أصول صناعتهم، إلا أنهم ما أغفلوا المعنى؛ بل إن المعنى كان يستلزم تقدير المحذوفات في كثير من الأحيان، حتى وإن لم تتطلب ذلك الصنعة النحوية. لكنهم في أحيان أخرى، كانوا أسرى صناعتهم النحوية، فقدروا مالا يطلبه المعنى أحياناً، بل قدروا مايشوش المعنى أحايين. وكان اقتراف ذلك في القرآن الكريم خطأ عظيما.

ثم عطفت على أنظار المحدثين في تقييم الجهد النحوي القديم، فبينت أن هذا البحث وإن كان يتفق وبعض المحدثين في انتقاداتهم ذلك الجهد، إلا أنه يفترق عنهم كثيرا في المنطلق، إذهم يَصْدرون عن نصرة المدارس اللغوية الحديثة، ويرون أن المناهج العربية النحوية القديمة خالية منها، وهذا البحث يرى عكس ذلك.

وأما تقييم الجهد البلاغي فقد سار وفق خطة من أربعة عناصر هي:

الشواهد، والذوق، والتعليل، والتقسيم والتنظيم.

وقد عرضت الآراء البلاغية على هذه العناصر، وبينت مافيها من ميزات تحسب لها، أو هنات تحسب عليها، وعززت كل ذلك بالحجة والدليل.

ثم قابلت الجهدين: النحوي والبلاغي معا في دراسة هذه الظاهرة، وكشفت عن اختلاط أنظارهما أحياناً، ووضوح الرؤية لديهما في التزام كل فريق حدّه، أحياناً أخرى. وأوضحت أن المنهج النحوي الأمثل يقوم على إعطاء الصنعة النحوية حقها، مع عدم إغفال متطلبات المعنى، وأن المنهج البلاغي الأمثل، يستند إلى ذلك، ثم ينطلق إلى ماهو أبعد، بحثاً عن مستلزمات البلاغة، وعناصر الجمال.

وأود هنا الاستباق بالاحتراس مبيناً أن بعض الأفكار أو الشواهد قد تكرر قسراً؛ لاختلاف مناسبة إيراده، أو تغاير الاعتناء بموضع الشاهد فيه، وقد حرصت على الإحالة إلى مواضع التكرار، كلما عرض ذلك، وكان التنبيه عليه ضرورياً.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد، فهذه ثمرة جهد، أضعها وجلاً خجلاً بين يدي أستاذي: الدكتور محمد بركات أبو علي، المشرف على هذه الرسالة، وسأذكر له تواضعه ودمائته وطيب شمائله.

ويشرفني أن تصافحها أعين أساتذة أجلّهم، وأحبهم، قدر ما أهابهم، وأعرف لهم قدرهم. وسأحفظ لهم فضلهم، وأسعى مخلصا للإفادة من توجيهاتهم، وهم: الأستاذ الدكتور محمود السمرة، والأستاذ الدكتور نهاد الموسى، والأستاذ الدكتور محمود حسني. وغاية أملي أن يلقى عملي هذا بعض رضاهم، فإن كان ذاك، فالشكر بعد الله لهم؛ فما أنا إلا بعض غرسهم. وإن لم أحظ بالرضا منهم، ففاية ألمي أني لم أعكس صورة صادقة لجهودهم المخلصة.

والحمد لله في الأولى والآخرة.

حفظي حافظ محمد اشتية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

الحذف عند النحاة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحذف عند النحاة

- تمهيد: المصطلح والحدود.
- أسباب الحذف.
- أدلة الحذف.
- ضوابط الحذف
- تحفظات النحاة على بعض المحذوفات.
- من مواطن الحذف في القرآن الكريم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحذف عند النحاة

تمهيد

- المصطلح، والحدود:

الحذف لغة هو القطع: حذف الشيء يحذفه حذفاً، أي: قطعه من طرفه(١). والحذف في الاصطلاح هو:

إسقاط جزء الكلام أو كله لدليل(٢).

وأول مايمكن الالتفات إليه هنا هو أن النحاة زاوجوا في الاستعمال بين مصطلحي الإضمار والحذف، واستخدموهما لمعنى واحد. وكان القرطبي قد انتقدهم في هذا، وأثبت تناقضهم إذ قال:

٤٥٩٤٩٦

".... والنحويون يفرقون بين الإضمار والحذف، ويقولون -أعني حذاقهم- إن الفاعل يضمر ولا يحذف، فإن كانوا يعنون بالمضمر ما لابد منه، وبالمحذوف ماقد يستغنى عنه، فهم يقولون: هذا انتصب بفعل مضمر لايجوز إظهاره، والفعل الذي بهذه الصفة لابد منه، ولايتم إلا به، وهو الناصب، فلا يوجد منصوب إلا بناصب.

وإن كانوا يعنون بالمضمر الأسماء، ويعنون بالمحذوف الأفعال، ولا يقع الحذف إلا في الأفعال، أو الجمل لا في الأسماء، فهم يقولون في قولنا: "الذي ضربت زيد"، إن المفعول محذوف تقديره: ضربته، فإن فُرق بينهما بما هو مقطوع بأن المتكلم أراده، وبما يُظن أن المتكلم أراده، ويجوز ألا يريده فهو فرق، لكن إطلاق النحويين لهذين اللفظين لا يأتي موافقاً لهذا الفرق"(٣).

حقا، لقد تسامح النحاة في استخدام المصطلحين بما يُرهق الباحث الذي يتتبعهم لفهم مرادهم؛ فتارة يظن أن المضمر عندهم هو الضمير، فهم يقولون:

---

(١) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ج٩، ص٣٨.

(٢) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت، ج٣، ص١٠٢.

(٣) ابن مضاء القرطبي، أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن، الرد على النحاة، تحقيق شوقي ضيف، ط٣، دار المعارف بمصر، ص ٩٢،٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"المضمر، ويسمى الضمير"(١). ويقولون: "المضمر، وهو الموضوع لتعيين مسماه مشعرا بتكلمه أو خطابه أو غيبته"(٢).

ثم يستخدمون المصطلح ذاته للفعل، فتظن أنه خاص به؛
يقولون : "المفعول به يجيء منصوبا بعامل مضمر مستعمل إظهاره أو لازم إضماره"(٣).
ويقولون: "وأما مايجوز فيه الفعل مضمراً ومظهراً... "(٤).
ويقولون: "باب ماجرى من الأمر والنهي على إضمار الفعل"(٥).
ولكنهم أيضا يقولون: "باب مايحذف الفعل فيه لكثرته في كلامهم"(٦).
ويقولون : "ويحذفون الفعل معه"(٧).
وتقول: لعلهم يقصدون الاسم بالحذف فهم يقولون:
"حذف المفعول به كثير"(٨). "وقد يحذف المنادى"(٩). "ويحذفون المبتدأ والخبر"(١٠).

---

(١) ابن هشام: جمال الدين بن هشام الأنصاري، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، نشرة محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٣، مؤسسة الطباعة والنشر، دار الهجرة، إيران، ١٤١٤، ص١٣٤. وينظر شبيه في: ابن الأنباري، كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد، أسرار العربية، تحقيق محمد بهجت البيطار، مطبعة الترقي بدمشق، ١٩٥٧، ص١٠٤، و"أبو حيان الأندلسي"، محمد بن يوسف بن علي، ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق مصطفى أحمد النمّاس، ١٩٨٤، ص٤٦٢.

(٢) ابن مالك: أبو عبد الله محمد جمال الدين، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، تحقيق محمد كامل بركات، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧، ص ٢٢.

(٣) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، المفصل في علم العربية، ط٢، دار الجيل، بيروت، ص٧٢.

(٤) سيبويه، أبو بشر عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ط٣، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٨٨، ج١، ص٩٨.

(٥) الأعلم الشنتمري، أبو الحجاج يوسف بن سليمان، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، معهد المخطوطات العربية، الكويت، ١٩٨٧، ج١، ص٣٣٦.

(٦) سيبويه، الكتاب، ج١، ص٢٨٠.

(٧) ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى، مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ج١، ص٢٦٦.

(٨) الزمخشري، المفصل، ص٥٣.

(٩) المصدر نفسه، ص٤٨.

(١٠) نفسه، ص ٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكنك تراهم يقولون في موضع واحد: "حُذف المبتدأ، وأضمر المبتدأ"(١).
بل ترى الخلط في العنوان أحيانا: "المبتدأ مضمر، والمضاف محذوف"(٢).

وقد تستشعر أنهم يقصدون بالمضمر مالا بد منه، وبالمحذوف مايمكن الاستغناء عنه، كقولهم -مسوّغين عدم حذف حرف الجر- : "لأن المجرور داخل في الجار، فصارا عندهم بمنزلة حرف واحد، فمن ثمّ قبح، ولكنهم قد يضمرونه ويحذفونه فيما كثر من كلامهم"(٣).
وقولهم: الفاعل محذوف لا مضمر(٤).

لكنّ في قول القرطبي السابق ردا عليهم، فإن كان لابد من المضمر فكيف جاز حذفه؟ وابن فارس، يعرض لهذا الأمر بما يجعلنا على يقين بأن النحاة لم يقصدوا التفريق بين لفظي الإضمار والحذف، فقد عقد باباً أسماه باب الحذف والاختصار(٥) ، عرض فيه أمثلة لمحذوفات مختلفة، ثم عقد بابا آخر للإضمار(٦)، عرض فيه أمثلة بعضها مشابه تماما لما عرضه في الباب الأول.
وقد حاول بعض المتأخرين التفريق بينهما، فجعلوا من شروط المضمر بقاء أثر المقدّر في اللفظ، ولم يجعلوا ذلك شرطاً للحذف(٧). لكنهم أضافوا ما يثبت أن النحاة خلطوا في الاستعمال إذ قالوا: "وقد يستعمل كل منهما بمعنى الآخر"(٨).

ولذلك، فإن استخدام هذا البحث مصطلح الحذف، يجعله معنيا بما أورده النحاة عن الإضمار كذلك.

---

(١) الزجاج أبو اسحق إبراهيم بن السري، إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج، تحقيق إبراهيم الأبياري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٢٠٤.
(٢) نفسه، ص ١٩١.
(٣) سيبويه، الكتاب، ج٢، ص ١٦٣.
(٤) ابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، ط٦، دار الفكر، ١٩٨٥، ص٧٩٢.
(٥) ابن فارس، أبو الحسين أحمد، الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق مصطفى شويمي ، مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٤، ص٢٠٥.
(٦) المصدر نفسه، ص ٢٤٠.
(٧) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج٣، ص ١٠٢، وابن الزملكاني، كمال الدين عبد الواحد، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن الكريم، تحقيق خديجة الحديثي وأحمد مطلوب، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٤، ص٢٣٢، وينظر قريب من هذا في: ابن قيم الجوزية، عبد الله محمد أبي بكر، بدائع الفوائد، إدارة الطباعة المنيرية، ص ١٢٣.
(٨) حاشية الشهاب، على تفسير البيضاوي، ج٦، ص ٤٢٦، نقلا عن عبد الفتاح الحموز، ظاهرة التأويل في القرآن الكريم، مكتبة الرشد، الرياض، ١٩٨٤، ج١، ص١٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكن البحث لن يعنى بتقدير الضمائر، فذلك شائع في القرآن الكريم وشعر العرب، ونثرهم، بما يجعل التمثيل له، بله استقصاءه جهدا ليس هذا محله. ولن يهتم البحث كثيرا بالتفريق بين الحذف الجائز والواجب إلا في المواضع التي تكون فيها مناقشة لجهد النحاة وتقييم لصناعتهم. وسيتجاوز البحث -كثيرا- الحديث عن الحذف في الحركات، وفي الصيغ؛ ليجعل همه منصبا على حذف الكلمات والجمل ليكون ميدان البحث النحوي والبلاغي موحدا، يسهّل أمر مقابلة جهديهما وتقييمهما. وسيمتد نظر البحث في جهد النحاة من بدايات ما وصلنا من تدوين نحوي إلى جهود السيوطي.

وسيعنى هذا الفصل بتقديم صورة إجمالية لظاهرة الحذف، كما تعرّض لها النحاة، ووضحوها، ومثلوا لها، وسيكون للحديث وقفات في المحطات التالية:

- أسباب الحذف.
- أدلة الحذف.
- ضوابط الحذف.
- تحفظات النحاة على بعض المحذوفات.
- أمثلة الحذف في القرآن الكريم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أسباب الحذف

تضافرت أسباب وعوامل عديدة أدت إلى بروز ظاهرة الحذف في العربيـة؛ منهـا أسباب نجمت عن توالي الاستعمال، وطبيعة التركيب، ومنها أغراض يقصدها المتكلمون، أو تفرضها ظروف المقام، أو نوع الكلام، ومنها عوامل نجمت عن المادة اللغوية المجموعة لتقعيد القواعد، وما ترتب عليها من اختلاف مناهج النحاة، ضمن ظروف فكرية وعقدية منوعة، وفيما يلي تفصيل ذلك:

التخفيف لكثرة الاستعمال:

ليس مستغرباً أن مايكثر استعماله يجرئ الناس على التخفيف منه بإسقاط بعضه اعتماداً على أن جريان ذكره، وكثرة استعماله، وشيوعه، توحي بما تم إلقاؤه، وتجعل الالتزام بذكره وافيا عبئا ثقيلا قليل الفائدة.

ويبدو أن الحذف تخفيفا لكثرة الاستعمال ارتضي منهجا في اللسان العربي(١)، فشاع، واطرد في كثير من المواضع. وقد حرص النحاة على أن يشيروا إليها ويمثلوا لها. فهذا سيبويه قد اهتم بذلك اهتماما بالغا، وفي كثير من أبوابه كان يرد قوله: وإنما حذفوا ذلك تخفيفا، أو حذفوا هذا لكثرة استعمالهم إياه؛ فالعرب كما يقول يستخفون، ويحذفون التنوين والنون، ثم يذكر آيات، ويتبعها أبياتا من الشعر حذف فيها التنوين تخفيفا(١).

ويعلق على حذف التنوين في قولهم: (لد الصلاة) قائلا:

" واختص هذا الكلام بحذف التنوين لكثرته كما اختص لا أدر، ولم أبل، لكثرتهما"(٢).

وفي ماشاع من قولهم "لاعليك" قال: "إنما تريد لا بأس عليك، ولا شيء عليك، ولكنه حذف لكثرة استعمالهم إياه"(٣).

وعلل حذف جواب لو في قولهم: لو أن زيدا هنا، فأوضح أنهم "يريدون لكان كذا وكذا، فكل ذلك حذف تخفيفا"(٤). وفي حذف المبتدأ من قولهم:

---

(١) عده ابن فارس من العربية. ينظر الصاحبي في فقه اللغة، ص٢٠٥.

(١) سيبويه، الكتاب، ج١، ص١٦٥.

(٢) نفسه، ج٢، ص ٢٠٤.

(٣) نفسه، ج٢، ص ٢٩٥.

(٤) نفسه، ج٢، ص ٣٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لولا عبد الله لكان كذا، أوضح أنهم "حذفوه لكثرته في الكلام"(١). ورغم تحفظه على حذف حرف الجر(٢)، إلا أنه بين أنهم "قد يضمرونه ويحذفونه فيما كثر من كلامهم؛ لأنهم إلى تخفيف ما أكثروا استعماله أحوج"(٣). ويبين أنهم حذفوا "من" استخفافا(٤).

وفي قولهم: آلله لتفعلن، قال : "أضمروا الحرف الذي يجر، وحذفوا تخفيفا على اللسان"(٥).

وجعل ياء الإضافة بمنزلة التنوين؛ فهي لم تثبت مع النداء كما لايثبت التنوين مع المفرد، "وصار حذفها هنا لكثرة النداء في كلامهم"(٦). والترخيم كما يبين تحذف فيه أواخر الأسماء المفردة، ولا يكون ذلك إلا في النداء، إلا أن يضطر شاعر، "وإنما كان ذلك في النداء لكثرته في كلامهم(٧). والفعل من إياك حذف "لكثرة استعمالهم إياه في الكلام فصار بدلا من الفعل"(٨).

وفي موقع آخر، يوضح أنهم "حذفوا الفعل في هذه الأشياء حين ثنوا لكثرتها في كلامهم"(٩) ويكثر حذف الفعل لكثرته في الكلام، فيكون بمنزلة المثل كقولهم: هذا ولا زعماتك(١٠). ويؤكد ذلك لاحقا في قوله: "لأنه قد كثر في كلامهم حتى صار بمنزلة المثل، فحذف"(١١). وفي قولهم: تاالله رجلا، وسبحان الله رجلا، يقول: "وإنما أراد تاالله مارأيت رجلا، ولكنه يترك الإظهار استغناء، لأن المخاطب يعلم أن هذا الموضوع إنما يضمر فيه الفعل لكثرة استعمالهم إياه"(١٢).

---

(١) سيبويه، الكتاب، ج٢، ص ١٢٩.

(٢) ينظر هذا البحث، ص ٦٢.

(٣) سيبويه، الكتاب، ج٢، ص١٦٣.

(٤) نفسه، ج٢، ص ١٥٧.

(٥) نفسه، ج٢، ص ١٦١.

(٦) نفسه، ج٢، ص ٢٠٩، وينظر أيضا ص٢١٤، ٢٧٨.

(٧) نفسه، ج٢، ص٢٣٩.

(٨) نفسه، ج١، ص٢٧٤.

(٩) نفسه، ج١، ص٢٧٥.

(١٠) نفسه، ج١، ص٢٨٠.

(١١) نفسه، ج١، ص٢٨٤.

(١٢) نفسه، ج٢، ص ٢٩٣، ٢٩٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولولا خشية الإطالة لكان هناك المزيد من الأمثلة، ويكفي أخيرا أن أشير إلى أنه عقد بعض أبوابه، وخصصها للحديث عن الحذف بسبب كثرة الاستعمال، ومنها: "باب يحذف منه الفعل لكثرته في كلامهم حتى صار بمنزلة المثل"(١).

وهو يوجز المسألة في أحد المواضع بقوله: "وما حذف في الكلام لكثرة استعمالهم كثير(٢).

لعل ماسبق من أمثلة، وما لم يذكر، وهو أكثر، يؤكد أن سيبويه تناول هذا السبب، ومد أطنابه، واستقصاه، فوجده أحد العوامل المهمة في ظهور الحذف، وتكاثره، وانتشاره، حتى غدا ظاهرة ممتدة في واقع الاستعمال، واستدعى نظرا نحويا يكافئها ويوازيها.

وما جرى عليه سيبويه، وانتبه إليه، تنبه له لاحقوه، فأقبلوا على الأمر يحللون، ويعللون، ويرددون أمثلة سيبويه تارة، ويستحضرون أمثلة غيرها تارة أخرى؛ فابن الشجري في أماليه يرى أن اسم الإشارة إن وقع مبتدأ يحذف غالبا لكثرته على الألسنة(٣). وكذلك يكثر الحذف في النداء تخفيفا لكثرة استعماله(٤). والزجاجي يعلل للحذف بكثرة الاستعمال ويعقد له بابا(٥). والزمخشري يبين أن المستثنى يحذف تخفيفا كما في قولهم ليس إلا، وليس غير(٦). وفي حذف الفعل في النداء يقول: "حذف لكثرة الاستعمال، وصار (يا) بدلاً منه"(٧).

وابن الأنباري يرد المسألة، ويرددها كثيرا في الإنصاف؛ فالفعل يحذف تخفيفا(٨). ويحذف لكثرة الاستعمال(٩). وكذلك حرف الجر(١٠)، وقد تقام الألف واللام -كما أورد- مقام "الذي " لكثرة الاستعمال طلبا للتخفيف، واستشهد بقول الفرزدق(١١):

---

(١) سيبويه، الكتاب، ج١، ص٢٨٠.

(٢) نفسه، ج٢، ص١٣٠.

(٣) ابن الشجري، أبو السعادات هبة الله بن علي، الأمالي الشجرية، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٤٩هـ، ج١، ص٣١٩.

(٤) نفسه، ج١، ص٣٢٧.

(٥) الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق، كتاب الجمل في النحو، تحقيق وتقديم علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، دار الأمل، ١٩٨٤، ص٣١٤.

(٦) الزمخشري: المفصل، ص٧٢.

(٧) نفسه، ص٣٥.

(٨) ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، نشرة محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت، ١٩٩٣، ج١، ص٧١.

(٩) نفسه، ص٧٢.

(١٠) نفسه، ص٣٩٦، ٣٩٧.

(١١) نفسه، ج٢، ص٥٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما أنت بالحكمِ الترضى حكومتُه ولا البليغِ ولا ذي الرأي والجدل أي: الذي ترضى.

وأورد رأي الكوفيين في حذف لام الأمر من فعل الأمر؛ فعندهم أن أصل "افعل" هو ليفعل، وقد حذفت اللام لكثرة الاستعمال(١). وكذلك أيش أصلها: أي شيء، وعم صباحا أصلها: أنعم صباحا.. ويوضح أنهم حذفوا في هذه المواضع لكثرة الاستعمال(٢). وجعل الحذف برمته تخفيفا، ومع طول الكلام يناسب الحذف والتخفيف(٣). وأجمل رأيه في أحد المواضع قائلا: "والحذف في كلامهم لدلالة الحال، وكثرة الاستعمال، أكثر من أن يحصى"(٤). وقد مضى على النهج نفسه في أسرار العربية(٥).

وابن يعيش ينبه على ذلك في غير موضع، ويرى في أحدها أن الحال وصاحبه يمكن حذفهما تخفيفا لكثرة الاستعمال(٦).

وأما السيوطي، فقد حط عند هذا الأمر الرحال، وجعل له عنوانا بارزا في "الأشباه والنظائر" هو "كثرة الاستعمال اعتمدت في كثير من أبواب العربية(٧)"، وقد خصص جزءا كبيرا منه للحذف، فعرض آراء السابقين، وردد أمثلتهم، وذكر أمثلة كثيرة غيرها، وأوصلنا إلى قناعة بأن كثرة الاستعمال هي أهم دواعي الحذف، وأبرزها، وما ازدحام أقلام النحاة على تناول هذا الأمر إلا تأكيد واف واهتمام ضاف هو به حقيق؛ فكثرة الاستعمال هي التي تستثير المتكلم للتحرر من بعض قيود اللغة، والتحلل من بعض قواعدها، اعتمادا على أن توارثها، وتعاقبها، واعتيادها، تكفل الاستراحة إلى أن التواصل والتفاهم ممكنان رغم الجنوح إلى التخفيف بالحذف.

الحذف لطول الكلام

معروف أن الجملة إذا طالت تشعبت، فكثرت عناصرها، وترامت أطرافها، فيكون ذلك سبباً في ثقلها، وترهلها، مما يرهق المتكلم، ويزعج المتلقي، ولذلك فإن المتكلم النابه يميل إلى إسقاط بعض العناصر التي قام عليها الدليل، ليرم الشعث في عباراته، ويلم أشتاتها، حتى تخف، وترشق، فتقل ألفاظها وتزخر معانيها.

---

(١) ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، ج٢، ص٥٢٨.

(٢) المكان نفسه، وينظر ص٥٤١.

(٣) نفسه، ج٢، ص٥٧٥.

(٤) نفسه، ج١، ص٧٣.

(٥) ابن الأنباري، أسرار العربية، ص٧٤، ١٠٥، ٢٧٦، ٣١٩، ٣٧٢.

(٦) ابن يعيش، موفق الدين بن يعيش بن علي النحوي، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، مكتبة المتنبي، القاهرة، ج٢، ص٦٨.

(٧) السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن، الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة، ١٩٧٥، ج١، ص٢٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أشار سيبويه إلى أن طول العبارة قد ينجم عنه حذف بعض أجزاء إحدى كلماتها ومما مثل به لذلك قول الشاعر:

الحافظو عورةَ العشيرة لا يأتيهم من ورائنا نَطَفُ

وعلق عليه قائلاً : "لم يحذف النون للإضافة ... ولكن حذفوها كما حذفوها من اللذين والذين حيث طال الكلام"(١). وهو يشير بهذا إلى حذف النون من كلمة "الحافظو" وأصلها "الحافظون". واهتم بالحذف الواقع في الاسم الموصول ومثل له أيضا(٢).

وجعل حذف تاء التأنيث مما يحسن إذا طال الكلام كما في قولهم : حضر القاضي امرأة؛ لأنه كما قال: "إذا طال الكلام، كان الحذف أجمل"(٣).

واهتم النحاة من بعد بما اهتم به سيبويه، وأكدوه، واهتدوا إلى أن طول العبارة يقود إلى الحذف تخفيفاً؛ فالمبرد يردد ذلك، وهو يرى أن استطالة الكلام هي سبب حذف اللام في قوله تعالى: ﴿**قد أفلح من زكاها**﴾(٤) جواباً للقسم الذي بدئت به السورة الكريمة وهو قوله تعالى: ﴿**والشمس وضحاها**﴾(٥)، فحذفت اللام لبعد ما بين القسم وجوابه واستطالة الكلام(٦).

وابن الشجري يرى طول العبارة سبباً للحذف في كثير من المواطن:

خبر ليت(٧)، وحذف المبتدأ من الصلة(٨)، وحذف الخبر(٩)، وحذف الأجوبة(١٠)، وحذف الباء(١١)...إلخ.

---

(١) سيبويه، الكتاب، ج١، ص١٨٦، وقد نُسب البيت إلى عمرو بن امرئ القيس الخزرجي وغيره. ينظر: الأعلم الشنتمري: النكت، ج١، ص٢٩٣. وينظر النحاس: أبو جعفر أحمد بن محمد، شرح أبيات سيبويه، تحقيق وهبة متولي عمر سلامة، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٥، ص٩٣، وجمل الزجاجي ص٨٩. والشاهد في البيت حذف النون من كلمة "الحافظون"، وإعمالها النصب في "عورة"، وينظر البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لسان العرب، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٧٩، ج٤، ص٢٧٢.

(٢) ينظر : الكتاب ج١، ص ١٨٦، ١٨٧.

(٣) نفسه، ج٢ ص ٣٨.

(٤) الشمس، ٩.

(٥) الشمس، ١.

(٦) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٣٨٦-١٣٩٩هـ، ج٢، ص ٣٣٦.

(٧) الأمالي الشجرية، ج١، ص ٣٢.

(٨) المصدر نفسه، ج١، ص ٧٥،٢١٦.

(٩) المصدر نفسه، ج١، ص٣٢١.

(١٠) المصدر نفسه، ج١، ص٣٥٥.

(١١) المصدر نفسه، ج١، ص ٣٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وابن الأنباري يشير إلى الحذف لطول الكلام، ويمثل له(١).

وابن يعيش يستعرض كثيراً من الآيات التي حذف فيها عائد الصلة تخفيفاً؛ لطول الكلام(٢).

والسيوطي ينقل رأي الزمخشري في الحذف الذي يتعرض له الاسم الموصول مبيناً أنهم "لاستطالتهم إياه بصلته مع كثرة الاستعمال خففوه من غير وجه؛ فقالوا: اللذِ بحذف الياء، ثم اللذْ، بحذف الحركة، ثم حذفوه رأساً، واجتزوا بلام التعريف الذي في أوله، وكذا فعلوا في التي(٣). وردّد بعض أمثلة الكتاب(٤).

وإذا كان الطول سببا في حذف بعض أجزاء الكلمة الواحدة، فإنه كذلك سبب في حذف الكلمة كاملة أو الكلام. ويكثر ذلك حيثما اشتبكت عناصر الجملة كما في أساليب الاستفهام، والعطف، والشرط، والقسم وغيره؛ فكثيرا مايُبتدأ الكلام بسؤال، فإن طال تُرك الجواب نزوعا إلى التخفيف، واعتمادا على أن أدلة المقال، أو قرائن الحال، ترده إلى حزبه.

وكذا الأمر في إسقاط أجوبة الشرط، والقسم ، في كثير من الأحيان، لاسيما في القرآن الكريم. وسترد أمثلة مطولة على هذا الحذف لاحقا(٥)، ويكتفى هنا بإيراد أحد الأمثلة لابن هشام، فقد جعل لحذف جواب الشرط شرطين، أحدهما: أن يكون معلوما، والثاني: أن يكون فعل الشرط ماضيا. ومثل لذلك بقوله تعالى:

﴿وإن كان كبُر عليك إعراضُهم، فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض، أو سلّما في السماء فتأتيهم بآية﴾(٦).

في الآية الكريمة حذف جواب الشرط وتقديره -على الأرجح- "فافعل". وقد علق ابن هشام قائلا:

"والحذف في هذه الآية في غاية الحسن، لأنه انضم لوجود الشرطين طول الكلام، وهو مما يحسن معه الحذف"(٧).

---

(١) الإنصاف في مسائل الخلاف، ج٢، ص ٧٥٤.

(٢) شرح المفصل، ج٢، ص٣٩، وينظر ج٣، ص ١٥٢، ١٥٤.

(٣) الأشباه والنظائر: ج١، ص٢٦٨.

(٤) نفسه، ج١، ص٢٩٠.

(٥) ينظر هذا البحث، ص ٨٨- .

(٦) الأنعام، ٣٥.

(٧) ابن هشام، شرح شذور الذهب، ص٣٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علم المخاطب وأمن اللبس

غني عن القول، أن هدف اللغة هو التواصل، وأن المراد يجب أن يضمن وصوله إلى المخاطب دون لبس، أو تعمية، وذلك يتطلب الوضوح، والحرص على ذكر عناصر الجملة كاملة. لكن إذا كان العنصر المحذوف معروفا لدى المخاطب: إما بسابق ذكره، أو بلاحق يدل عليه، أو بتوافر القرائن التي تهدي إليه، فإن ذلك يكون أدعى إلى حذفه، إذ الغرض المقصود بذكره قد تحقق، وارتفع اللبس.

وقد جرى اللسان على ذلك توخيا للإيجاز، وبعدا عن ذكر ما لافائدة في ذكره. ومن ذلك قولهم: ماكل سوداء تمرة، ولا بيضاء شحمة. إذ حذفت "كل" الثانية لعلم المخاطب بها، فقد سبق ذكرها، والتقدير: ولا كل بيضاء شحمة. وعلى هذا قول أبي دؤاد الإيادي:

أكلُّ امرئ تحسبين امرءا ونارٍ تَوَقَّدُ بالليل نارا

وقد علق عليه سيبويه بقوله:"فاستغنيت عن تثنية (كل) لذكرك إياه في أول الكلام، ولقلّة التباسه على المخاطب(١)".

وفي قولهم: ليس غير، وليس إلا، حذف المستثنى، والأصل: غير ذاك، وليس إلا ذاك. "ولكنهم حذفوا ذلك تخفيفا، واكتفاء بعلم المخاطب مايعني(٢)".

وكذلك قولهم: لو أن زيدا هنا، فهم يضمرون: لكان كذا وكذا، وما حذفه إلا للتخفيف، والاستغناء بعلم المخاطب(٣).

وكذا القول في: من كذب كان شرا له: "يريد كان الكذب شرا له، إلا أنه استغنى بأن المخاطب قد علم أنه الكذب، لقوله كذب في أول حديثه"(٤).

وفي قولهم: تالله رجلا، وسبحان الله رجلا، يبين أن المقصود: تالله ما رأيت رجلا، "ولكنه يترك الإظهار استغناء؛ لأن المخاطب يعلم أن هذا الموضوع إنما يضمر فيه الفعل"(٥).

ومن ذلك قول الناس: كان البرقفيزين، وما يشبهه، فإنما استغنوا عن ذكر الدرهم لعلم المخاطب أن التسعير عليه. وحين عكس الأمر، قالوا:

---

(١) سيبويه، الكتاب، ج١، ص٦٦، وينظر النكت، ج١، ص ٢٠٤، والأمالي الشجرية: ج١، ص ٢٩٦، وينظر: السيوطي، شرح شواهد المغني، تصحيح وتعليق الشيخ محمد محمود الشنقيطي، مكتبة الحياة، بيروت، شاهد رقم ٤١، ص١١٦، وشاهد رقم ٤٦٢، ص٧٠٠، وخزانة الأدب، ج٤، ص٤١٧.

(٢) الكتاب، ج١، ص٣٤٤، ٣٤٥.

(٣) نفسه، ج١، ص٣٤٦، وقد مر ذكره شاهدا للتخفيف.

(٤) نفسه، ج١، ص٣٩١.

(٥) نفسه، ج٢، ص٢٩٣، ٢٩٤، وقد مر ذكره شاهدا لكثرة الاستعمال.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البر بستين. فتركوا ذكر المكيال(١).

وكل ذلك وقع فيه الحذف اطمئنانا إلى علم المخاطب، واستثقالا إعادة المعلوم لديه. ولعل من أفضل مايمكن الاستشهاد بـه للحذف بسبب علم المخاطب مايرد من أمثلة في باب التنازع؛ فثمة عاملان يطردان معمولا واحدا قد حذف أخوه لعلم المخاطب به(٢). ومما يرد شواهد دالة على الحذف لعلم المخاطب كذلك، حذف المخصوص بالمدح أو الذم، ومن ذلك قوله تعالى":

﴿نعم العبدُ إنه أواب﴾(٣). وقوله تعالى: ﴿فنعم الماهدون﴾(٤).

أي: نعم العبد أيوب، ونعم الماهدون نحن(٥).

ولأهمية علم المخاطب، واقتناعا بأنه من أهم دواعي الحذف، فقد عقد له المبرد بابا عنوانه: "هذا باب مايحذف استخفافا لأن اللبس فيه مأمون(٦)". وقد رفد فيه جهود من سبقه من النحاة في توضيح هذا السبب المؤدي إلى الحذف، وإجلاء أمره، فأشار إليه في كثير من المواضع(٧).

وابن الشجري لم يفته الالتفات إلى هذا الأمر، والتمثيل له(٨)، وكذلك الزمخشري(٩). وبذلك، قَرَّ في الأذهان أن علم المخاطب يمنع اللبس، ويجيز الحذف؛ لأن العنصر المحذوف إن كان معلوما لدى المخاطب أصبح بمثابة المذكور.

---

(١) سيبويه، الكتاب، ج١، ص ٢٩٣. وينظر أمثلة أخرى، وقع فيها الحذف لعلم المخاطب وأمن اللبس، في الكتاب، ج١، ص٧٤،٧٥.

(٢) ينظر الكتاب، ج١، ص ٧٣، ومابعدها. والنكت، ج١، ص٢١١، ومابعدها، وتنظر المسألة مبسوطة في الإنصاف في مسائل الخلاف، ج١، ص٨٣، ومابعدها.

(٣) ص، ٣٠، ٤٤.

(٤) الذاريات، ٤٨.

(٥) ينظر الزمخشري، المفصل، ص ٢٧٤.

(٦) المقتضب، ج١، ص٣٨٣.

(٧) نفسه، ج٤، ص٧٢،١٢٩،١٣٠،١٥٩، ١٦٠، ٤٢٩. وينظر ج٢، ص٧٩.

(٨) الأمالي الشجرية، ج١، ص٣٢٣.

(٩) المفصل، ص١٠٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحذف للضرورة الشعرية

إن كثيرا من أحكام النحاة وقواعدهم، بنيت على شواهد شعرية، فقد كانوا يحتفون بالشعر، ويحتشدون له ويحتفلون، وكان بيت الشعر ضالة عزيزة يطيلون البحث عنها، حتى إذا ظفروا بها كانت عماد حجتهم، بها يقهرون الخصم، ويفلجون المحاجج فيستخذي ويستكين.

وطبيعة الشعر بما تستدعيه من قيود أوزان وقوافٍ تثقل على الشعراء الذين يلجأون كثيرا إلى الإيماء، فيضطرون إلى النفاذ من صرامة القواعد النحوية فيركبون الضرورة، ويكسرون المتعارف عليه من الأصول المطردة، والضوابط المرضية.

وقد تعامل النحاة مع ضرورات الشعر، وعدوها أمرا واقعا لامحالة، وما جعلوا للشعر قواعد نحوية تختلف عن النثر. وسار جمهور النحاة على تقبل الضرورة الشعرية، لكن بعضهم تقبلها سواء أكان للشاعر عنها مندوحة أم لا(١)، بينما أجاز بعضهم الضرورة للشاعر فيما ليس عنه مندوحة، ولعل هذا هو موقف سيبويه على الرغم من أنه لم يفصح عنه صراحة إذ قال تحت باب عنوانه هذا باب مايحتمل الشعر:

"اعلم أنه يجوز في الشعر مالايجوز في الكلام"(٢).

ثم عدد بعض الضرورات، ومثل لها، وختم الباب بقوله:

"وليس شيء يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجهاً"(٣). غير أن سيبويه لم يكن يقر كل الضرورات، بل كان يبادر إلى نقض بعضها إن وجد إلى ذلك سبيلا. وإن وجد وجها لكلمة يسعف في تجنب تقدير الحذف، كان إلى ذلك أميل(٤).

وقد تشدد ابن مالك فرأى "أن الضرورة هي ماليس للشاعر عنه مندوحة"(٥) لكن ابن عصفور رد عليه قائلا:"الشعر نفسه ضرورة"(٦).

وكان ابن فارس قد انحاز إلى سلامة القواعد النحوية أمام ضرورات الشعر، إذ امتدح الشعراء طالما التزموا بسلامة اللغة". أما لحن في إعراب، أو إزالة كلمة عن نهج صواب، فليس

---

(١) الآلوسي: محمود شكري، الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر، مكتبة دار البيان، بغداد، دار صعب، بيروت، ص٦.

(٢) الكتاب، ج١، ص٢٦.

(٣) نفسه، ج١، ص٣٢.

(٤) ينظر ، مثلا، الكتاب، ج١، ص٨٢، وما بعدها.

(٥) الآلوسي: الضرائر، ص٨.

(٦) المكان نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لهم ذلك، ولا معنى لقول من يقول: إن للشاعر عند الضرورة أن يأتي في شعره بما لايجوز"(١).

ثم ذكر بعضا من تجاوزات الشعراء لأحكام اللغة وقواعدها، وفصل الأمر قائلا: "فكله غلط وخطأ، وما جعل الله الشعراء معصومين... فما صح من شعرهم فمقبول، وما أبته العربية وأصلها فمردود"(٢).

وممن تناول الضرورة الشعرية، ورسم لها حدودا، وقيدها بأنظمة، الأعلم الشنتمري، فقد مر سريعا على ذكر ماأورده سيبويه في هذا الباب في كتابه، ثم بسط الحديث مبينا أن ضرورة الشعر تسعة أوجه(٣)، وقد جعل الحذف أحدها، فقال: "اعلم أن الشاعر يحذف مالا يجوز حذفه في الكلام لتقويم الشعر"(٤). ومن الحذف للضرورة الذي ذكره ومثل له حذف الفاء في جواب الشرط، وشاهده قول الشاعر(٥):

من يفعلِ الحسناتِ اللهُ يشكرُها والشرُّ بالشرِّ عند الله سيّان

ومنه كذلك، حذف الحركة، وشاهده قول امرئ القيس(٦):

فاليوم أشربْ غيرَ مستحقب إثما من الله ولا واغل

وقد مثل أيضا للحذف للترخيم(٧)، وقصر الممدود(٨)، وحذف النون الساكنة في آخر بعض الحروف والأدوات، وحذف الياء من الاسم المعتل...(٩).

ويلاحظ أن الحذف لضرورة الشعر يكاد يكون محصورا في أجزاء الكلمة، وقلما يتجاوز ذلك إلى حذف كلمات تامات أو جمل، فمثل هذا نادر الوقوع، وإن وقع، فهو يكاد يقتصر

---

(١) الصاحبي، ص ٢٧٥.

(٢) المكان نفسه.

(٣) الأعلم الشنتمري، النكت، ج١، ص١٣٥، ويشار هنا إلى أن عدد أوجه الضرورة موضع خلاف، فالزجاجي مثلا يراها عشرين وجها وأكثر، (ينظر: الجمل ص٣٩٣). وذكر الآلوسي أن الزمخشري جعلها عشرة، وغيره جعلها مائة، وبعضهم قال: لايمكن حصرها، (ينظر: الآلوسي، الضرائر، ص ٢٤،٢٥).

(٤) النكت، ج١، ص١٤٠.

(٥) نفسه، ج١، ص ١٤٥. والبيت ينسب إلى كعب بن مالك وغيره، وهناك خلاف حول روايته أيضا. ينظر هذا البحث ص ٢٠٧.

(٦) النكت، ج١، ص١٤٥، وينظر هذا البحث، ص ٢١٤، ويدرك البحث ضعف الاعتماد على شاهد مشكوك فيه لكنه يورد هذين البيتين لكثرة دورانهما.

(٧) نفسه، ج١، ص١٤٠.

(٨) نفسه، ج١، ص ١٤٣.

(٩) نفسه، ج١، ١٤٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على حروف المعاني، وجملة الشرط(١). وبخلاف ذلك جاءت الضرورات في الأبيات التي استشهد بها النحاة ضمن الأطر التي سمحوا بها، ولم تستقو لتطيح بقاعدة نحوية من الأساس. ومع ذلك فإن إيراد مثل هذه الضرورات، وإثباتها في هذا المقام تدليل على أن الشعر كان سببا رديفا في أن يطفو الحذف مشكلا ظاهرة لابد من مواجهتها ومناقشتها.

رواية الشعر

بقي معظم الشعر يروى، ويتناقله الناس شفاها قرونا من الزمان قبل أن تشيع الكتابة، وتعجم الحروف، وترسم الحركات. وبدهي أن الشاعر عندما يطلق قصيدته لايلجأ إلى تنويع حركة إحدى كلماتها، فالأصل أن ترد جلّ القصائد، ولكل كلمة فيها حركتها التي قصدها الشاعر. لكنه بدهيّ أيضا أنّ القصائد التي يتلقاها آلاف الناس، والرواة، وتعيش معهم مئات السنين يتوارثونها جيلا إثر جيل، قد تتنوع حركة بعض كلماتها بأثر تنوع الرواية جهلا أو قصدا، فيتلقى النحاة هذه القصائد، وعليها اعتمادهم الأكبر في التقعيد، ومنها معظم الشواهد، فيجدون حركة إحدى الكلمات كما رويت لهم لاتتفق وقواعدهم فيجدّون في التأويل ويقدرون محذوفات سدا للثغر، وجبرا للكسر. وستكون لهذه المسألة وقفة لاحقة عند تقييم جهد النحاة، توضح، ويمثل لها(٢).

القراءات القرآنية

ليس القصد هنا عرض هذا الموضوع بكل تفصيلاته، فهو خارج حدود البحث، لكن لا بد من الإشارة إلى أن القرآن الكريم نزل بلسان العرب، وعلى سننهم، وقد أجاز رسولنا العظيم، صلى الله عليه وسلم، للناس بعض مرونة في قراءته بما يتفق ولهجاتهم، كي لايعنتهم بلي ألسنتهم لتتفق مع مالم يعتادوا ويألفوا.

وكان الحديث النبوي الشريف:"نزل القرآن على سبع لغات كلها شاف كاف"(٣) مصدرا خصبا لتغاير الفهم والاختلاف.

---

(١) ينظر أمثلة للحذف تشمل الحركة والحرف والكلمة والجملة في: ابن عصفور الإشبيلي، علي بن المؤمن، ضرائر الشعر، تحقيق السيد إبراهيم محمد، ط٢، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ١٩٨٢، ص٨٤-١٨٦.

(٢) ينظر هذا البحث، ص: ٢١٢.

(٣) ينظر ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ص ٢٦،٢٧. وينظر ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت، ج١، ص١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مايهم البحث هنا، هو أن بعض هذه القراءات كان يصطدم بالقواعد النحوية، فيلجأ النحاة إلى تقدير المحذوفات إقرارا للقراءة وحفاظا على القواعد(١).

ولهذا كان للقراءات دور في التأويل بالحذف، بل هي "من أكبر العوامل التي ساهمت في ذلك لاسيما عند متأخري النحاة"(٢).

وقد التفت النحاة إلى هذا الأمر منذ عهد سيبويه:

يقول تعالى: ﴿الزانيةُ والزاني فاجلدوا كلَّ واحد منهما مائةَ جلدة...﴾(٣).

ويقول تعالى: ﴿والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما...﴾(٤).

قرأ الجمهور الآيتين بالرفع، أي: رفع "الزانية" في الأولى، والسارق في الثانية(٥).

وقرأها بعضهم بالنصب، أي: نصب الكلمتين المذكورتين. وهذا الاختلاف في القراءتين أوجب تقديرين نحويين مختلفين:

ففي رواية الرفع، أُضمر الخبر أو المبتدأ. وأصل الكلام:

-في الفرائض: الزانية والزاني...

- أو الزانية والزاني في الفرائض(٦).

وأما رواية النصب، فالمضمر فيها فعل فسره الفعل المظهر(٧).

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿وامرأتهُ حمالةَ الحطب﴾(٨) قال فيها سيبويه(٩):

"بلغنا أن بعضهم قرأ هذا الحرف نصبا: وامرأته حمالةَ الحطب (يقصد حمالة)، لم يجعل الحمالة خبراً للمرأة، ولكنه كأنه قال: اذكر حمالة الحطب شتما لها وإن كان فعلا لايستعمل إظهاره".

ومن طريف مايذكر هنا، أن بعض الأمراء كان يلحن في قراءة القرآن الكريم وهو يؤم المصلين أو يخطب بهم، فيصر على الخطأ خجلا أو كبرا، ويستنصر بالنحاة لتخريج خطئه،

---

(١) في هذا البحث حديث عن موقف بعض النحاة من القراءات، ينظر، ص٢٤٤.

(٢) عبد الكريم بكار، أثر القراءات السبع في تطور التفكير اللغوي، دار القلم، دمشق، ١٩٩٠، ص١٠٤.

(٣) النور، ٢.

(٤) المائدة، ٣٨.

(٥) سيبويه، الكتاب، ج١، ص١٤٢،١٤٣.

(٦) نفسه، ج١، ص١٤٣.

(٧) نفسه، ج١، ص١٤٤.

(٨) المسد، ٤.

(٩) الكتاب، ج٢، ص٧. ينظر مشابه في ابن هشام، شرح الشذور، ص٤٣٤. وينظر أيضا: الأخفش، أبو الحسن سعيد بن مسعدة، معاني القرآن، تحقيق فائز فارس، ط٢، ١٩٨١، ج٢، ص٥٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيهبون لنجدته؛ روى المازني(١):

"غلط محمد بن سليمان يوما، فقرأ على المنبر: ﴿إن الله وملائكتُه يصلون على النبي﴾(٢) ثم استحيا أن يرجع، ثم أرسل إلى النحويين فقال: احتالوا لي. فقالوا: عطفت وملائكته على موضع الله، وموضعه رفع، فأجازهم. ولم تزل قراءته حتى مات، وكره أن يرجع عنها فيقال: إن الأمير لحن".

القرق الإسلامية

على الرغم من أن القرآن الكريم نزل بلسان العرب وعلى أساليبهم، إلا أنه بهرهم بفصاحته، وشآهم بإعجازه، وأعياهم بمطاولته، إذ اشتمل على ألفاظ وأساليب عز عليهم فهمها، فلم تكن معانيه كلها قريبة مكشوفة، وتفاضل الناس في تفهمه وتبين أسراره، وكانوا يلجؤون إلى النبي عليه الصلاة والسلام لشرح المشكل، ويستعينون بنوابغهم كعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما... ومع ذلك كان القرآن أعظم من أن يحاط به فهما. واستعصى كثير من الآيات، حمالة الأوجه، على النفاذ إلى فهم يقيني، فكثر حولها اللجج والخلاف، وجاء تنوع القراءات ليوسع دائرة الخلاف، ويذكي نيران الجدل، وزاد الأمر حدة ماورد في القرآن الكريم من آيات التشبيه والتجسيم والجبر والاختيار... التي يناقض -في الظاهر- بعضها بعضا:

يقول تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾(٣).

ويقول سبحانه: ﴿ثم استوى على العرش﴾(٤)، ﴿وجاء ربُّك﴾(٥)، ﴿يدُ الله مغلولة﴾(٦)، ﴿واصنع الفلكَ بأعيننا﴾(٧)، ويقول تعالى: ﴿فمن شاء فليؤمنْ ومن شاءَ فليكفر﴾(٨).

ويقول سبحانه: ﴿من يهدِ الله فهو المهتدي ومن يضلل فلا هادي له﴾(٩).

---

(١) الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن إسحق، مجالس العلماء، تحقيق عبد السلام هارون، ط٢، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، ١٩٨٣، ص٤٤. وفي المكان نفسه تفصيلات أخرى يحسن الرجوع إليها. وينظر للزجاجي كذلك: أمالي الزجاجي، تحقيق عبد السلام هارون، المؤسسة العربية الحديثة، ١٣٨٢هـ . ص٢٢٦، ٢٢٧. ومحمد بن سليمان هو أحد أمراء البصرة.

(٢) الأحزاب، ٥٦.

(٣) الشورى، ١١.

(٤) الأعراف، ٥٤، ويونس آية ٣.

(٥) الفجر، ٢٢.

(٦) المائدة، ٦٤.

(٧) هود، ٣٧.

(٨) الكهف، ٢٩.

(٩) الأعراف، ١٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مثل هذه الآيات، وغيرها كثير، فرض على المسلمين إنعام النظر، وتقليب الفكر لمحاولة فهمها، وإزالة الظاهر من تضاربها بعد أن لقي في مثل هذه الآيات الطاعنون صيدا ثمينا للطعن والتشكيك، فظهرت الفرق الإسلامية للدفاع عن الدين في وجه الطاعنين، ثم اشتبكت فيما بينها شجارا ومقاولات، وغذت ذلك كله شؤون السياسة، وصراعات الحكم، فتكوّن من كل ذلك مناخ عظيم، إذ عكفت كل فرقة على القرآن الكريم، ووجد الجميع فيه موئلا، ونبعا ثرا يستمدون منه شرعيتهم، ويدعمون به حججهم، وكانت ظاهرة الحذف مصدر عون لهم، يلجأون إليها لتقدير مايدعم رأيهم، أو ينقض رأي خصومهم. وسوف يكون للبحث وقفة مع فرقة المعتزلة(١)، يوضح فيها كيف اعتمدت على الحذف للدفاع عن آرائها، ودفع آراء خصومها، وهي بذلك ممثل صادق يوضح أثر الفرق الاسلامية في إثراء الحذف.

البيئة الزمانية والمكانية للاحتجاج اللغوي

معروف أن علماء اللغة العربية بعامة، والنحاة بخاصة، أقاموا بناء قواعد اللغة الفصيحة على أساس اتسع مكانا ليشمل أنحاء شتى من أواسط الجزيرة العربية، وما يسكنها من قبائل. واتسع زمانا ليستوعب موروثا تضرب جذوره عميقا في العصر الجاهلي، ويمتد إلى أواخر القرن الرابع الهجري.

فعلوا ذلك بحثا عن اللغة المثالية التي لم يخالطها الفساد، ولم يفش فيها اللحن، لتسعفهم في فهم لغة القرآن.

أما اختيار قبائل وسط الجزيرة العربية؛ فلأنها لم تختلط بغير العرب، فبقيت لغتها على نقائها. وأما تحديد آخر عصر الاحتجاج بالنصف الثاني من القرن الهجري الثاني في الحضر، وبآخر القرن الرابع في البوادي؛ فذلك حرصا منهم على التقاط اللغة السليمة من فصحائها الموثوق بعربيتهم التي لم يفسدها الاختلاط بالموالي وطغيان التحضر(٢).

ولعل أول من تنبه إلى تحديد بيئة الاحتجاج المكانية هو أبو نصر الفارابي، إذ ينقل عنه السيوطي قوله:

---

(١) ينظر هذا البحث، ص ١٩٢.

(٢) يحسن الرجوع إلى : نهاد الموسى، الخطأ في العربية، نموذج من التردد بين منازل المثال والواقع، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت، السنة ٣١، ١٩٨٣، ص٥٥- ، وإلى المؤلف نفسه أيضا في بحث آخر هو: فيها قولان، أو أضواء على مسألة التعدد في وجوه العربية، مجلة أفكار، عمان عدد٢٨ تموز، ١٩٧٥، ص٣٨ ومابعدها.

وفي كلا البحثين توضيح كاف للبناء الائتلافي الذي قامت عليه قواعد العربية زمانا ومكانا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"والذين عنهم نقلت اللغة العربية، وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربي من قبائل العرب هم: قيس، وتميم، وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ماأخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب، وفي الإعراب والتصريف. ثم هذيل وبعض كنانة، وبعض الطائيين"(١).

ثم عدد كثيرا من القبائل العربية التي سكنت أطراف الجزيرة، وخالطت الأجانب، فظن بها فساد لغتها، وامتنع عن الاحتجاج بها(٢).

المفيد هنا، ليس مناقشة مدى صحة مافعله النحاة، ومدى سلامة هذا النهج وهذا المنهج، فذلك له موضع آخر في هذا البحث(٣)، لكن الاهتمام هنا موجه إلى أن سعة رقعة الاحتجاج زمانا ومكانا أدت إلى فيضان لغوي، تلقاه النحاة بصبر وتصبر، واستقروه، واستخلصوا مافيه من قواعد، وأحكام، فتحصّل بين أيديهم أشتات مجتمعات أحيانا، وغير مجتمعات أحيانا أخرى، فحاروا في أمرهم:

هل يلقون الشاذ ويطرحونه لتستوي قواعدهم دون نتوءات؟ قد يبدو هذا سائغا، لكنهم تحرجوا؛ فالمجموع صحت عليه قواعد الاحتجاج زمانا ومكانا، ولاسبيل إلى إلقائه، فاللغات كلها حجة(٤). فلم يملكوا أن يردوها، ولم يجدوا بدا من استقطابها، وكل مااستطاعوه هو ترتيبها حسب درجات الفصاحة، فهذا وجه فصيح، وذلك وجه أفصح، وكلاهما معتمد لايرد(٥). فإن وافق ظاهر الكلام القاعدة المرسومة فبها ونعمت، وإن كان غير ذلك استنجدوا بتقدير المحذوفات ليستقيم الكلام ويستوي مع القاعدة. وقد يستدعي اختلاف اللهجات اختلافا مماثلا في تقدير المحذوفات: فأصحاب اللهجة ينطقون على طبائعهم، والنحاة يدورون في فلك قواعدهم يدافعون عنها تأويلا وتقديرا.

ومن أمثلة ذلك:

تتسم لهجة طيئ وأزد شنوءة بجمع الفعل مع الفاعل، والمثال الفاقع على ذلك: أكلوني البراغيث(٦)، وقد جاء في القرآن الكريم ما وافق ظاهره هذه اللهجة كقوله تعالى:

---

(١) السيوطي: الاقتراح في أصول النحو، تحقيق أحمد سليم الحمصي ومحمد أحمد قاسم، جروس برس، ١٩٨٨، ص٤٤.

(٢) نفسه، ص٤٤، ٤٥.

(٣) ينظر هذا البحث، ص٢٠٥.

(٤) ينظر السيوطي الاقتراح، ص٥٢، وينظر المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، البابي الحلبي بمصر، ج١، ص٢٥٧.

(٥) السيوطي، الاقتراح، ص١٢١.

(٦) تعرض لها سيبويه منذ بدايات الكتاب، ينظر الكتاب، ج١، ص١٩، ٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾(١) وقوله تعالى: ﴿ثم عموا وصموا كثيرٌ منهم﴾(٢).

هذا لايستوي وقواعد النحو التي تنص على التزام إفراد الفعل إن سبق الفاعل، ولايختلف الفعل باختلاف حالة الفاعل إفرادا وتثنية وجمعا. فكان هنا الفرار إلى تقدير محذوفات تقعد الكلام ليوافق القاعدة. يقول سيبويه: "وأما قوله جل ثناؤه: وأسروا النجوى الذين ظلموا"، فإنما يجيء على البدل، وكأنه قال: انطلقوا. فقيل: من؟ فقال: بنوفلان، فقوله جلّ وعز على هذا فيما زعم يونس(٣)".

ومن ذلك ماقاله ثعلب في مجالسه(٤):"أهل الحجاز يقولون: مبرورا مأجورا. وتميم: مبرور مأجور". واضح أن كل لهجة قامت على إضمار شيء مغاير لما أضمرته أختها: فلهجة الحجاز أضمرت فعلا، والتقدير: اذهب مبرورا مأجورا. وتميم أضمرت مبتدأ، أي: أنت مبرور مأجور.

وشبيه بهذا ماورد في الكتاب أن العرب تقول: "حمدا وشكرا لاكفرا. وعجبا.... فإنما ينتصب على إضمار الفعل كأنك قلت: أحمد الله حمدا، وأشكر الله شكرا... وأعجب عجبا"(٥).

ولكن بعض مذحج، كما قال، قد يرفع ذلك ابتداء ويبني عليه، ويروي عن يونس شعرا لهنيّ بن أحمر الكناني يقول فيه(٦):

عجبٌ لتلك قضية وإقامتي فيكم على تلك القضية أعجبُ.

ويرى أن مثل هذا يقع في النثر أيضا فيقول: "وسمعنا بعض العرب الموثوق به يقال له: كيف أصبحت؟ فيقول: حمد الله وثناء عليه، كأنه يحمله على مضمر في نيته هو المظهر، كأنه يقول: أمري وشأني حمد الله وثناء عليه(٧)".

---

(١) الأنبياء، ٣.

(٢) المائدة، ٧١.

(٣) الكتاب، ج٢، ص٤١، وللتوضيح ينظر "أبو عبيدة"، معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تعليق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي بمصر، ج٢، ص٣٤، وابن هشام، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، نشرة محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الخامسة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٦، ج١، ص٣٤٥.

(٤) ثعلب، مجالس ثعلب، ج١، ص٧٣.

(٥) الكتاب، ج١، ص٣١٨،٣١٩.

(٦) نفسه، ج١، ص٣١٩، وينظر عبد السلام هارون، معجم شواهد العربية، مكتبة الخانجي بمصر، ١٩٧٢، ص ٢٣٩.

(٧) الكتاب، ج١، ص٣١٨،٣١٩، ٣٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فها هي اللهجات التي لم يملك النحاة ردها، تشكل عاملا هاما يستدعي الحذف، وينوع المحذوفات، وتترسخ هذه الظاهرة مع توالي العهود، وتكرار النظر.

الإعراب والصنعة النحوية

يعد كل منهما سببا صناعيا ينجم عنه حذف في الصيغة أو في التركيب: أما الإعراب فيقصد به أثر العوامل على المعمولات، فقد "جيء به لبيان مقتضى العامل من حركة أو حرف أو سكون أو حذف"(١). والأثر بالحذف هو موضع الشاهد هنا، ذلك أن الإعراب أحيانا يتمثل في حذف حركات، أو تقصير صوائت طويلة، فالمضارع المرفوع تسلب حركة آخره عند الجزم ويسكن، والمعتل منه يحذف حرف العلة من آخره، ومن وسطه إن كان أجوف. وقد يحذف حرف غير حروف العلة كحذف نون الأفعال الخمسة عند تعرّضها لعامل نصب أو جزم، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا...﴾(٢). إذ جردها كل من الجازم والناصب من نون الرفع.

وأما الصنعة النحوية، فسوف يكون لها حديث في أدلة الحذف، وحديث آخر عند تقييم جهد النحاة، ولا مناص من الإشارة إليها هنا أيضا لأنها سبب من أسباب تقدير المحذوفات:

استدعت صناعة النحو جمع اللغة أولا، ثم شرع النحاة في استنتاج الأحكام، فحددوا العوامل، وقاسوا، وعللوا، وكان واضحا منذ البداية أن القواعد المستخلصة لم تكن متطابقة مع كل المسموع المجموع، فندت أمثلة عن القواعد الضابطة، وهنا، انبرى النحاة للدفاع عن قواعدهم، فاقتادوا النواد، وردوا الشوارد، وسلكوها -غصبا- في جمهرة القواعد.

يقول سيبويه: "إن من الحروف حروفا لاينكر بعدها إلا الفعل، ولا يكون الذي يليها غيره مظهرا أو مضمرا"(٣). فهو يتحوط لسلامة قاعدته النحوية إذ يقول: مظهرا أو مضمرا، ففي هذا مخرج أمين عندما تصطدم القاعدة بما يخالفها، وهاهو يستعرض أمثلة لم يتفق ظاهرها والقاعدة التي نص عليها، فاستعان بالإضمار لضمان سلامة التعميم في القاعدة، يقول: "أعبد الله ضربته، وأزيدا مررت به، وأعمرا قتلت أخاه، وأعمرا اشتريت له ثوبا، ففي كل هذا قد أضمرت بين الألف والاسم فعلا هذا تفسيره"(٤). يقصد أن الفعل الظاهر في كل جملة مما ذكر، يفسّر الفعل

---

(١) ينظر ابن مالك: تسهيل الفوائد، ص٧.

ينظر أمثلة للحذف الإعرابي في الجمل للزجاجي، ص٥، وفي الأشباه والنظائر، ج١، ص٨٠،٨١.

(٢) البقرة، ٢٤.

(٣) الكتاب: ج١، ص٩٨.

(٤) نفسه ج١، ص ١٠١، وينظر الأمالي الشجرية، ج١، ص٣٣، ٣٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المضمر بعد همزة الاستفهام لأنها كما قال: لايذكر بعدها إلا الفعل. وتظهر آثار الصنعة النحوية أحيانا على مسميات عناوين الكتاب، كقوله:

"هذا باب مايضمر فيه الفعل المستعمل إظهاره بعد حرف(١)" ويمثل له بقولهم: إن خيرا فخير، ويؤكد بجلاء "أنه لاينتصب شيء بعد (إن) ولايرتفع إلا بفعل"(٢).

وفي إضمار (أن) ينص صراحة على اختصاص الحروف: ففي قولهم جئتك لتفعل ذلك لابد من إضمار أن، "ولو لم تضمرها لكان الكلام محالاً، لأن اللام وحتى إنما يعملان في الأسماء فيجران وليسا من الحروف التي تضاف إلى الافعال، فإذا أضمرت (أن) حسن الكلام لأن (أن) و(تفعل) بمنزلة اسم واحد(٣).

اختلاف النحاة(٤)

لهذا الأمر علاقة كبيرة بما سبقه؛ فالصنعة النحوية فتحت باب الاجتهاد، فاختلف النحاة، وكان هذا عاملا رئيسا في تفشي ظاهرة الحذف، واعتمادها متكأ لتمرير اجتهادات النحاة التي تغذيها اختلافاتهم سواء أكانت اختلافات منهجية مسوّغة، أم مماحكات شخصية مفتعلة، ولعل من المجزئ هنا الإيجاز بعرض بعض أمثلة للمنهجين الرئيسيين اللذين يمثلان صورة الخلاف النحوي وهما مدرسة البصرة، ومدرسة الكوفة(٥).

لقد اتسع منهج مدرسة الكوفة في قبول المسموع من العرب، واتسم بالمرونة في توسعة قواعده بما يوافق هذا المسموع. أما منهج مدرسة البصرة، فكان أكثر احترازا، وأقوى انحيازا إلى القاعدة، فتعامل مع المسموع بقدر أكبر من الصرامة، إذ أسقط مايمكن إسقاطه مما ند عن التيار العام، وأجهد علماؤه أنفسهم في التأويل لما يمكن تأويله كي يتسق مع الغالب الأعم(٦).

ومن الأمثلة الدالة على ذلك مايلي:

---

(١) الكتاب، ج١، ص٢٥٨.

(٢) نفسه، ج١، ص٢٦٣.

(٣) نفسه، ج٣، ص٦، ينظر في اختصاص الحروف: الأشباه والنظائر، ج١، ص٢٣٩.

(٤) من المفيد النظر في: نهاد الموسى، فيها قولان، ص٤٧- + الخطأ في العربية ص ٥٨- .

(٥) تجدر الإشارة هنا إلى أن بعض الباحثين يبدي تحفظه على مصطلح (مدرسة)، ينظر في ذلك: نهاد الموسى، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، ط٢، دار البشير ومكتبة وسام، الأردن، ١٩٨٧، ص٣٣، وإبراهيم السامرائي، المدارس النحوية أسطورة وواقع، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٧، وعلي أبو المكارم، تقويم الفكر النحوي، دار الثقافة، بيروت، ص٢٤٤- .

(٦) هذه مسألة شائعة، وقد حوت معظم مسائل الإنصاف للأنباري إشارات إلى اختلاف المنهجين، وينظر السيوطي، الاقتراح، ص١٢٨، ١٢٩، وينظر من المحدثين مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ط٢، البابي الحلبي بمصر، ١٩٥٨، ص٣٥٠- .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجد النحاة أنّ (ليس) تدخل في الغالب الأعم على جملة اسمية كقوله تعالى:
﴿ليس الذكرُ كالأنثى﴾(١) وقوله تعالى:﴿أليس الله بأحكمِ الحاكمين﴾(٢). وقول العرب: ليس الخبر كالعيان. وقول شاعرهم: فليس سواء عالم وجهول(٣). فأقروا أن (ليس) تدخل على الجملة الاسمية لترفع المبتدأ فيها، وتنصب الخبر، نافية إسناده إلى المبتدأ. لكن سرعان ما فجأتهم جمل أخرى دخلت فيها (ليس) على جملة فعلية مثل:
ليس خلق الله أشعر منه، أو ليس خلق الله مثله. فظهر هنا اختلاف المنهجية:
أما الكوفيون فقد اختصروا الطريق، متمسكين بظاهر الكلام، ومحتكمين إلى المعنى، إذ قالوا: إن ليس هنا أداة نفي، تماما مثل ما، ولا عمل إعرابيا لها(٤). وأما البصريون فقد قدروا لها اسما محذوفا.

وشبيه بهذا مادار من خلاف حول (حتى)، فقد وجد النحاة أنها غالبا ماتدخل على الأسماء فجعلوها مختصة بذلك، ثم استوقفتهم أمثلة دخلت فيها (حتى) على الأفعال، كقوله تعالى: ﴿حتى يرجعَ إلينا موسى﴾(٥) وقوله تعالى: ﴿وزلزلوا حتى يقولَ الرسول﴾(٦).
وقول العرب: اذكر الله حتى تطلع الشمس.

هنا أيضا، وقف الكوفيون عند ظاهر النص، ولم يتجاوزوه، فقالوا:

عامل النصب في "تطلع" هو حتى.

لكن البصريين تبصروا، وأصروا على أن حتى لاتدخل إلا على الأسماء، وهذه الأمثلة أيضا لاتخرج عن هذا النظام، فإن بدا فيها ظاهرا أن حتى دخلت على فعل، فإنها في الحقيقة لم تغاير طبيعتها إذ قدروا حرفا ناصبا محذوفا هو "أن" لتصبح الجملة: اذكر الله حتى أن تطلع

---

(١) آل عمران، ٣٦.
(٢) التين، ٧.
(٣) صدره: "سلي إن جهلت الناس عنا وعنهم" وهو للسموأل بن عاديا الغساني اليهودي، ينظر الأشموني أبوالحسن علي بن محمد، شرح الأشموني على ألفية بن مالك، شركة عيسى البابي الحلبي، ج١، ص١٨٤.
(٤) ينظر، ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١٥، دار الفكر، ١٩٧٢، ج١، ص٢٦٢، وابن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ص٣٨٩. وكان سيبويه قد أشار إلى هذا الأمر حين قال: "وقد زعم بعضهم أن ليس تجعل كما وذلك قليل لايكاد يعرف"، (الكتاب ج١، ص١٤٧)، وينظر توضيح في: (الأعلم الشنتمري، النكت، ج١، ص٢٧٠ .
(٥) طه، ٩١.
(٦) البقرة، ٢١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أدلـة الحذف

لشدّ ما انتبه النحاة إلى هذا الأمر، وتواصوا به، ففي كثير من المواطن التي ذكروا فيها حذفا، أشاروا إلى وجوب وجود دليل عليه، يبينه، ويهدي إليه، لتتحقق الخفة والوجازة من ناحية، ويصل المراد إلى المتلقي من ناحية أخرى.

وابن جني مثل موقف النحاة بوضوح واختصار إذ يقول:

"قد حذفت العرب الجملة، والمفرد، والحرف، والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه، وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته"(١).

وقد جعل الدليل محط العناية، ومناط الاهتمام عند ترخيص الحذف؛ فيقبل وقوع الحذف منشرح الصدر عند توافر الدليل، حتى إذ عز الدليل كان الحذف ممتنعاً.

ويبسط حديثا فائق الإمتاع والإقناع يدلل به على أن للدليل الكلمة الفصل في جواز الحذف من عدمه، فبعد أن يستعرض أمثلة حذفت فيها الصفة لقوة الدليل يعقب قائلا:"فأما إن عريت من الدلالة عليها (يقصد الصفة) من اللفظ، أو من الحال، فإن حذفها لايجوز؛ ألا تراك لو قلت وردنا بالبصرة فاجتزنا بالأبلة على رجل، أو رأينا بستانا وسكت لم تفد بذلك شيئا: لأن هذا ونحوه مما لايعرى منه ذلك المكان، وإنما المتوقع أن تصف من ذكرت، أو ماذكرت، فإن لم تفعل كلفت علم مالم تدل عليه، وهذا لغو من الحديث، وجور في التكليف"(٢).

واضح أن كلمات ابن جني تقطر فهما لوظيفة اللغة، فهي للإبلاغ والتواصل، والأصل فيها الوضوح والإبانة، فان جنح إلى الحذف فلا بد من إقامة دليل على المحذوف يسعف في رده إلى أرومته ليلتحم مع أقرانه، وينهض بأداء وظيفته، وإلا فقد كلف المستمع فوق طاقته، وسمح لخياله بالشرود كيفما اتفق، وأصبح التفاهم عسيرا، وفهم المطلوب عزيزا.

وعلى ذلك مضى النحاة، يجيزون الحذف بوجود الدليل، ويعدون ما حذف وفي اللفظ على حذفه دلالة في حكم الثابت. ويمنعونه بعدم وجود الدليل ولا يجيزونه(٣).

هذا وقد عاين النحاة، الأدلة المجوزة للحذف، فوجدوها فرعين رئيسيين:

---

(١) الخصائص، ج٢، ص٣٦٠.

(٢) نفسه، ج٢، ص ٣٧١.

(٣) ينظر أمثلة في الزجاجي، الجمل، ص٢٧٤، وابن الأنباري، الإنصاف، ج١، ص٩٦، ٣٩٨، ٣٩٩، وفي ابن يعيش، شرح المفصل، ج٢، ص٢٤، ٦٨، و ج٣، ص ٢٣، ٥٩، ٦٣، و ج٧، ص ١٣٥، وابن هشام، أوضح المسالك، ج٢، ص٣٥، وشرح الشذور ص ٢١٤، ٣١٧- ، وتنظر له وقفة مطولة في المغني، ص٧٨٦- .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأول منهما: لفظي، والثاني حالي. ويهدينا واقع الاستعمال، وتعليقات النحاة إلى افتراع فروع أخرى من هذين الفرعين الرئيسيين المذكورين، وفي ما يلي توضيح ذلك:

الدليل اللفظي*

(أ) الدليل الصوتي:

معلوم أن للغة جانبين : أحدهما مكتوب، يتم التواصل فيه بقراءة المكتوب، والجانب الثاني منطوق، يتم التواصل فيه بسماع المنطوق.

ويبدو أنّ هذا الجانب الأخير يشكل مجالاً أرحب للحذف من سابقه لأنه معضود بظروف مصاحبة تسعف في الإبلاغ بأخصر كلام استناداً إلى قرائنها الدالّة .

ويجدر البدء بالدليل الصوتي لأنه يشكل أولى اللبنات في النظام اللغوي، وبه يمكن التحكم بشكل كبير في مضمون ما يراد إبلاغه، ذلك أن اللفظ قد ينقل مضموناً ما، فتسهم طريقة النطق في قلب المضمون، وتوحي بما يغايره على الرغم من أن اللفظ واحد ما تغيّر.

ونصاب بالدهشة عندما نقف على ملاحظة النحاة العرب هذا الأمر، ومعالجته بشكل يسامت أحدث النظريات اللغوية، وأرفعها .

وقد أتى ابن جني بالعجاب عندما التقط إشارة الكتاب "سير عليه ليل"(١) فقال :

"وهم يريدون: ليل طويل، وكأن هذا إنما حذفت فيه الصفة لما دلّ من الحال على موضعها، وذلك أنك تحسّ في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله طويل، أو نحو ذلك "(٢).

ويستحضر ما تيسر من وسائل صوتية رديفة، تسارع إلى اجتذاب ما يقصد المتكلم حذفه، فتردّه إلى أصله لفهم مراده، فيقول :

"وأنت تحسّ هذا من نفسك إذا تأملته، وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه فتقول: كان والله رجلاً ! فتزيد في قوّة اللفظ بـ "الله"، هذه الكلمة، وتتمكن في تمطيط اللام، وإطالة الصوت بها وعليها أي: رجلاً، أو شجاعاً، أو كريماً، أو نحو ذلك"(٣).

إن ما سبق ينم عن فهم عميق لظاهرة الحذف، فالإيجاز والتخفيف مطلبان ضروريّان ومفضلان إذا توافرت الوسائل التي تسند الكلام الذي أسقط بعضه، فتشي به، وتومض إلى المستمع بمعرفته، وتدله عليه.

---

(١) ينظر سيبويه ، الكتاب ، ج١ ص ٢٢٠ .

(٢) ابن جني ، الخصائص ، ج٢ ص ٣٧٠ ، ٣٧١ .

(٣) نفسه ، ص ٣٧١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد سبق ابن جني عصره كثيراً بالتنبه إلى مسألتي النبر والتنغيم المصاحبتين للكلام، واللتين يلقى على عاتقهما كثيرٌ من عناصر الإفهام، فـ " التنغيم عامل مهم في تصنيف الجمل إلى أنماطها المختلفة من إثباتية، واستفهامية، وتعجبيّة، ونداء.... حيث يكون لكل منها لون موسيقي معيّن، ومن ثمّ فإنه يمكن ورود الحذف فيها بدرجة أكبر اعتماداً على هذه القرينة، كما أن الفواصل الصوتية أو ما يعرف بالوقفات والسكنات ذات اعتبار هام في التوجيه الإعرابي، وفي تحديد عناصره المحذوفة"(١).

وكم وُفّق ابن جني عندما استفزع باللغة، فجادت عليه بألفاظ ناطقة مثل : التطويح، والتطريح، والتفخيم، والتعظيم، والتمكين، ليرسم صورة حيّة لإنسان ناطق أمامنا بعد ألف عام يُكتفى بطريقة نطقه للدلالة على كثيرٍ مما ألقى.

(ب) الدليل القولي:

يفرض التواصل اللغوي التخلّي عن كثير من أجزاء الكلام التي سبق ذكرها، أو سيلحق، وغدت معلومة لدى المستمع، وتصبح إعادتها نَفَلاً لا نفع فيه، ويناقض طبيعة أهل اللغة، الذين يميلون إلى الاقتصاد، وسرعة التواصل، وسهولته، وتلك ميزة تتوق إليها النفس الإنسانية السويّة لما تودّ ادخاره من جهد، ووقت، وكثيراً ما يظهر هذا في مواقف السؤال، فلو سأل أحدهم:

من الذي زار الجامعة أمس، والتقى الرئيس، ثم دخل المكتبة، وأهداها مجموعة من مؤلفاته .. ؟ وأجيب على سؤاله : وزير الإعلام، لوفّى ذلك المرادَ، على الرغم من تساقط جميع عناصر الجمل التي وردت في السؤال؛ وذلك لسابق ذكرها؛ ولأنها أصبحت معلومة لدى السائل والمجيب، ولا داعي لإعادتها(٢).

وقد تفهم النحاة هذا الأمر، فأشاروا إليه، ودلّلوا عليه، ومثّلوا له، ومن أمثلتهم المبنية على سؤال، قوله تعالى(٣):

---

(١) طاهر حمودة، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٨٢ ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، وينظر كلام مشابه في : تمام حسّان : اللغة العربية معناها ومبناها، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩ ، ص ٤٧.

(٢) من المفيد النظر في كتاب الجمل للزجاجي ، باب المخاطبة، ص ٢٦٦ .

(٣) تنظر هذه الأمثلة أو بعضها أو مثلها في: مجالس ثعلب، ج٢، ص ٥٩٢، وابن هشام، المغني، ص ٧٨٧، وشرح الشذور، ص٢١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

﴿ولئن سألتهم من خلق السمواتِ والأرضَ وسخر الشمسَ والقمرَ ليقولنّ اللهُ﴾(١).

﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربُكم قالوا أساطيرُ الأولين﴾(٢).

﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربُكم قالوا خيراً ﴾(٣).

﴿وما أدراك ماهيه نارٌ حاميـة﴾(٤).

في كل آية كريمة مما سبق، حذف عنصر في الجواب لأنه ذكر سابقاً في السؤال.

وقد يقع مثل هذا في غير مواقف السؤال، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿والحافظين فروجَهم والحافظاتِ، والذاكرين اللهَ كثيراً والذاكراتِ﴾(٥).

فلم يعمل الآخر فيما أعمل فيه الأول استغناء عنه بما ذكره من قبلُ(٦).

ومنه قوله تعالى : ﴿إنّ الله بريءٌ من المشركين ورسولهُ﴾(٧).

فاستغنى بذكر خبر الأول عن ذكر خبر الثاني لعلم المخاطب أن الثاني دخل في ذلك(٨).

ومما يصح الاستشهاد به في هذا المقام، ما أسماه النحاة "الإضمار على شريطة التفسير"(٩) ويتجلى ذلك في حذف مفعول المشيئة كما في قوله تعالى: ﴿فلو شاء لهداكم﴾(١٠).

ومن أكثر ما يمثل جواز حذف عنصر من الكلام استغناء بذكره سابقاً أو لاحقاً باب التنازع. ومع اختلاف البصريين والكوفيين في أي العاملين أولى بالعمل، إلا أنّ هذا لا يغيّر من موطن الشاهد في الأمر، وهو أن ثمة عاملين يتنازعان معمولاً واحداً قد حذف قبيلُه بدلالته(١١).

وقد حشدوا لهذا الأمر كثيراً من الأمثلة منها قول امرئ القيس(١٢):

فلو أنّ ما أسعى لأدنى معيشةٍ كفاني ولم أطلبْ قليلٌ من المال

---

(١) العنكبوت، ٦١، وفي الزمر، ٣٨، ولقمان، ٢٥ (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله)

(٢) النحل، ٢٤.

(٣) النحل، ٣٠.

(٤) القارعة، ١٠، ١١.

(٥) الأحزاب، ٣٥.

(٦) ينظر الأمالي الشجريّة، ج١، ص٣٢٣، وابن الأنباري ، الإنصاف ج١، ص ٩٣ .

(٧) التوبة، ٣.

(٨) ينظر الزجاجي، الجمل ، ص ٥٥ . وينظر ابن الأنباري ، الإنصاف، ج١ ص ٩٣ ، ٩٤ .

(٩) ينظر السيوطي، الأشباه والنظائر، ج٣، ص ١٩٢ .

(١٠) الأنعام، ١٤٩.

(١١) ينظر جمل الزجاجي، ص١١١ ، ١١٦ ، وينظر المسألة ١٣ في الإنصاف لابن الأنباري ج١، ص ٨٣.

(١٢) ينظر الإنصاف، ج١، ص ٨٤، وينظر معجم شواهد العربية، ص٣١٠. والرأي بوجود تنازع هو رأي الكوفيين، وقد تحفظ عليه المحقق وهو محق في ذلك.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقول ضابئ البرجمي(١):

فَمَنْ يكُ أمسى بالمدينة رحلُه فإنـي وقيارٌ بـهـا لغـريب

وقول درهم بن زيد الأنصاري(٢):

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأيُ مختلف

والشاهد في كلّ ما تقدّم أن جزءاً من الكلام قد أسقط بدلالة جزء آخر عليه، قصداً إلى الاقتصاد، واطمئناناً إلى قوّة الدلالة على ما حذف.

الدليل العقلي

ولعل من المفيد ذكره هنا، أن النحاة في بحثهم الدؤوب عن الدليل القولي كانوا يفزعون إلى الآيات أو الأقوال السابقة المشابهة، فيستنطقونها المحذوف فيما بين أيديهم.

ومن أمثلة ذلك أنهم رجحوا حذف الفعل: لا الخبر في قوله تعالى(٣):

﴿ولئن سألتهم مَن خلقهم ليقولُنّ الله﴾(٤)، بدليل قوله تعالى في آية كريمة سابقة :

﴿ولئن سألتهم مَن خلق السمواتِ والأرضَ ليقولُنّ خلقهن العزيز العليم﴾(٥).

وأكثر من هذا أنهم كانوا عند نشدان الدليل يحشدون معتقداتهم، يسترشدون بها للوصول إلى مقرّ تهدأ له نفوسهم، ويستبينون به طريق رشد، ومن ذلك أن ابن جني كان لا يستحسن حذف الحال(٦) فلما صادفته محذوفة احتشد لها فقال(٧): " فأما ما أجزناه من حذف الحال في قوله تعالى: ﴿فمن شهد منكم الشهرَ فليصمْه﴾(٨) أي: فمن شهده صحيحاً بالغاً، فطريقه أنه لما دلت الدلالة عليه من الإجماع والسنة جاز حذفه تخفيفاً، وأما لو عريت الحال من هذه القرينة، وتجرّد الأمر دونها لما جاز حذف الحال على وجه".

ومن ذلك يبدو حرص النحاة على استخلاص الدليل من العناصر اللغوية، فإنْ عزّ ذلك استفتوا العقل والشرع.

---

(١) ابن الأنباري، الإنصاف، ج١، ص٩٤، ٩٥، وينظر معجم شواهد العربية، ص٣٩.

(٢) نفسه، ج١، ص٩٥، وينظر معجم شواهد العربية، ص٢٣٩.

(٣) ينظر ابن هشام ، المغني ، ٧٧٦ .

(٤) الزخرف، ٨٧ .

(٥) الزخرف، ٩ .

(٦) الخصائص، ج٢، ص٣٧٨ .

(٧) الخصائص، ج٢ ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

(٨) البقرة، ١٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يهرعون إلى موروث اللغة وأحكامها(١) يستجوبونها عند اشتباه الأمور، ففي قول ليلى الأخيلية:

أقسمتُ أبكي بعد توبةَ هالكاً وأحفلُ من دارت عليه الدوائر.

قال الزجاجي(٢): "قولها أقسمت أبكي بعد توبة هالكاً أي: لا أبكي بعد توبة هالكاً ..... والعرب تضمر (لا) في القسم مع المنفي لأن الفرق بينه وبين الموجب قد وقع بلزوم الموجب اللام والنون كقولك والله لأخرجَنَّ".

وبهذا الحكم اللغوي الموروث تأكد لديه أن هناك حرف نفي محذوفا.

وفي قول امرئ القيس:

فقلتُ يمينَ الله أبرحُ قاعداً ولو قطعوا رأسي لديكِ وأوصالي

يرى ابن جني كذلك وجاهة تقدير حرف النفي "لا" محذوفاً، وذلك لقوّة المعرفة بالموضع؛ "لأنه لو أراد الواجب لما جاز؛ لأن أبرح هذه لا تستعمل في الواجب، فلا بدّ من أن يكون أراد: لا أبرح ، ويكفي من هذا قولهم : ربّ إشارة أبلغ من عبارة"(٣).

وتقودنا عبارة ابن جني الموجزة الزاخرة إلى الحديث عن الدليل الحالي، وقبل الخوض في ذلك، لعلّ من المفيد الاستذكار أنّ العربية لغة جموح إلى الإيجاز، وأنّ أهلها ذوو فطنة، تكفيهم اللمحة، فوسّعوا دائرة التواصل، وتجاوزوا العبارات، واكتفوا بالإشارات، ولطالما افتخروا بذلك، ورددوه شعراً ونثرا وكان النحاة أبناءً بررةً للغتهم، فهم روّادها، وقد استرضعوها كل لبانات فصاحتها، واستلهموها أمارات ميزاتها، واستفهموها، ومدّوا قواعدهم على بسطها الرحبة فشققوا عجباً.

ههنا شاعر يسترفد اللغة من غير الألفاظ، ونحوي بارع يلاحظ ذلك ويرصده، يقول عمر بن أبي ربيعة المخزومي :

أشارت بطرف العين خيفةَ أهلها إشارةَ محزونٍ ولم تتكلم

فأيقنتُ أنّ الطرفَ قد قال مرحباً وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتَيَّم

يستثير هذا الكلام فطنة ابن هشام، فيحلق، ويفّرق بين كلام لفظي، وكلام لغوي فيقول:

---

(١) تقع ضمن هذا أحكام الصنعة النحويّة وقد سبقت الإشارة إليها في أسباب الحذف، وسيكون لها وقفة أخرى في الفصل الأخير.

(٢) أمالي الزجاجي ، ص ٧٨ .

(٣) الخصائص ، ج٢ ص ٢٨٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" فإنما نفى الكلام اللفظي لا مطلق الكلام، ولو أراد بقوله (ولم تتكلم) نفي غير الكلام اللفظي لانتقض بقوله : فأيقنت أن الطرف قد قال مرحباً، لأنه أثبت للطرف قولاً بعد أن نفى الكلام، والمراد نفي الكلام اللفظي وإثبات الكلام اللغوي".

إنّ هذا الفهم النحوي الثاقب يساوي عبقرية اللغة، ويظهر عظمة الشاعر في حشد عناصر غير لفظية في الخطاب، ويظهر أيضا بعد نظر النحوي في الاستلهام والاستنتاج. ثم يشير ابن هشام صراحة إلى لغة لسان الحال، فيقول:

والدليل عليه فيما نطق به لسان الحال قول نصيب:

فعاجوا فأثنَوْا بالذي أنت أهلهُ ولو سكتوا أثنتْ عليك الحقائب(١).

ومجالسهم، مُذ كانوا، تفصح أنهم يتناغون بالنظرات، ويتعاتبون ويتساءلون ويتنازعون، فتنقل بينهم رسائل صامته صمّاء لكنها بالغة البيان والإبانة.

جاء في مجالس ثعلب ما ملخصه أن معاوية بن أبي سفيان يوم الحكمين كان يخشى ابن عباس لفطنته وقدرته على توجيه الناس واستثارتهم، فقال لأخيه عتبة بن أبي سفيان: اكفنيه. فلما أخذ القوم في الكلام، افتعل عتبة مع ابن عباس ملاحاة وملاسنة استجرّت مشادّة أدّت إلى تنحيتهما معاً من المجلس. يقول عتبة : "فجئت، فقربت من عمرو بن العاص، فرماني بمؤخر عينيه أي: ما صنعت؟ فقلت له : كفيتك التقوالة، فحمحم كما تحمحم الفرس للشعير"(٢).

فيا لها من نظرة مترعة بالسؤال!! ويا له من فهم ثاقب وجواب !! تلته عبارات استطابة، وعجب، واستغراب، تجول كلّها في حمحمة تبين كثيراً دون أن تبين.

ليس القصد مما مضى التدليل، بل التذكير بأن القواعد ولدت في مهاد اللغة، ورضعت لبانها، فجاءت صورة منها، ولذلك جاءت اهتمامات النحاة بظروف الحال المصاحبة للكلام المنتج اهتمامات عظيمة، واستدلوا بها على تقدير ما تحذف بحذفه اعتماداً على فهمه ضمن ما يحيط به من قرائن، وفي ما يلي أمثلة ذلك:

الدليل الحالـيّ

استهمت أقلام النحاة الحديث عن هذا الدليل، وتناصروا عليه، وتعاضدت آراؤهم لتجليته، وتراكمت لتشكل موروثاً ثريّاً ينافس بحق ما استحدث من نظريات لغوية، ويسامت الأجداد الأفذاذ بضعف الإمكانات، وتقادم العهد، أعاظم علماء اللغة المعاصرين.

---

(١) ينظر شرح الشذور ، ص ٣٠ .

(٢) مجالس ثعلب ، ص ٤٠٩ ، ٤١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بثاقب الفكر، أدركوا منذ رائدهم "سيبويه" أن الألفاظ هي أحد عناصر الموقف الكلامي، وأن ثمّة عوامل مصاحبة توازي الألفاظ، وتتاكبها لتفصح عن المقصود، فهو على نحو ما يلاحظ "أنّ الكلام يتألف من عناصر لغويّة خالصة، يلاحظ أنه قد يقوم على عناصر غير لغويّة، وعناصر أخرى من العالم الخارجي نراها، أو نسمعها، أو نحسّها، أو نشمّها، أو نذوقها، وتصبح هذه الأشياء الواقعة في مجال خبرة الحواس عنده كأنها أجزاء في بناء اللغة تقوم مقام العناصر اللغوية الخالصة من الألفاظ"(١).

وقد جمع ذلك كله في موطن واحد تحت باب ما يكون المبتدأ فيه مضمراً، ويكون المبنيّ عليه مظهرا فيقول:

" وذلك أنك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص، فقلت: عبد الله وربّي، كأنّك قلت : ذاك عبد الله ، أو هذا عبد الله. أو سمعت صوتاً فعرفت صاحب الصوت فصار آية لك على معرفته فقلت : زيد وربي. أو لمست جسداً، أو شممت ريحاً ، فقلت : زيدٌ، أو المسك. أو ذقت طعاماً فقلت: العسل"(٢).

نستعظم إدراك سيبويه هذا الأمر، حين نستذكر أن هذا الذي قاله قبل اثني عشر قرناً يوجد بين ظهرانينا اليوم من يدعي أنه اكتشف جديداً عندما يقوله، وتسارع إلى ادعائه مدارس لغوية حديثة اتكأت على موروث إنساني يمتد مئات السنين، وتظن أنها استقطرت خلاصة فوائده فأتت بجديد لم تسبق إليه، وها هو سيبويه يلقيه سهلاً مقنعاً مكتفاً(٣).

وربّما يتبادر إلى الذهن أن تلك فكرة عارضة ألمت وتولّت، ولكن نظرة سريعة في الكتاب تكفي لملاحظة أن هذه المسألة تصافحنا أنّى توجهنا، وأنها لا تنفك تطلّ علينا لتؤكد لنا أن

---

(١) نهاد الموسى ، نظرية النحو العربي ، ص ٩٩ .

(٢) الكتاب ، ج٢، ص ١٣٠.

(٣) الأمثلة التي عرضها سيبويه، وتمثلها النحاة من بعده، لا تجعلنا مبالغين إذ نقول : إنهم قاربوا بجدارة نظرية (فيرث) التي تأخرت عنهم عشرة قرون، وظن روّادها أنهم أتوا بما لم تستطعه الأوائل.
ينظر : نهاد الموسى، نظرية النحو العربي، ص٩٣، وينظر له أيضاً : الأعراف أو نحو اللسانيات الاجتماعية في العربية، الملتقى الدولي الثالث في اللسانيات، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، ١٩٨٥ ، ص ١٤٥ وما بعدها.
عن نظرية فيرث ينظر : محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار المعارف بالإسكندرية، ١٩٦٢ ، ص ٣٣٨ – ، وينظر : كمال بشر، دراسات في علم اللغة، القسم الثاني، ط٢ ، القاهرة، ١٩٧١ ، ص ١٧٢ – ، وطاهر حمودة، دراسة المعنى عند الأصوليين، الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، ص ٢١٣ – ، وحلمي خليل ، الكلمة، دراسة لغوية معجميّة، ط٢، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣، ص ١٥٧ – .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرجل يعني ما يقول، وأنه يدرك جيداً أنّ ما يُرى ويسمع من الظروف المصاحبة للكلام له دور كبير في التخفف بالحذف اتكاءً على أن تلك الظروف الحالية المصاحبة تدل على المحذوف، وأن تعمُّد الذكر في مثل هذه الحالة يفضي بنا إلى غثاثة وترهل، وأنّ الحذف هنا هو الأعلى طبقة، والأرفع شأناً. والأمثلة كثيرة، وفي كلّ منها دخل عنصر غير لغوي ليجيز الحذف، ويوجز الكلام:

فرؤية الرجل المتوجه وجهة الحاج القاصد في هيئته تجيز لك أن تحذف فتقول :

مكة وربّ الكعبة. أي: يريد.

ورؤية الرجل يسدد سهماً قبل القرطاس تجيز لك أن تحذف فتقول:

القرطاس والله. أي: يصيب.

ورؤية الناس ينظرون الهلال وأنت بعيد، فإذا كبروا جاز لك أن تحذف فتقول :

الهلال وربّ الكعبة. أي: أبصروا.

ورؤية رجل يوقع فعلاً، أو رؤيته في حال من أوقع فعلاً، أو أخبرت عنه بذلك تجيز لك الحذف فتقول :

زيداً. أي: اضرب، أو أتضرب؟ أو أضربت؟(١)

ورؤية رجل أو إخبارك أنه أتى أمراً يجيز لك أن تقول:

أكلّ هذا بخلاً؟ أي: أيفعل؟

ورؤية الرجل قدم من سفر تجيز لك أن تقول:

خير مقدم. أي: قدمت.

وتراه يصرّح أحياناً بأنه يعني أن ما حذف كان لظروف الحال، فيعلق على المثال السابق قائلاً : "فإن قدومه ورؤيته إيّاه بمنزلة قوله: قدمت"(٢).

ولا ينسى عنصر السماع فيقول:

وإن سمعت قولهم: حدث فلان بكذا، تقول : صادقاً والله. أي: قاله(٣). ومثله أن تسمع الرجل ذكر رجلاً فتقول :أهل ذاك والله. أي: ذكرت أهله، لأنك في ذكره تحمله على المعنى(٤).

ويعكس الأمر أحياناً ليؤكد فكرته، ويوضح مغزاه، فيعرّي الموقف من أدلة الحال، ويسارع إلى منع الحذف، يقول:

---

(١) ينظر ما سبق من أمثلة في: الكتاب ج١ ص ٢٥٧ .

(٢) نفسه ، ج١، ص ٢٧٠ .

(٣) نفسه ، ج١، ص ٢٧١ .

(٤) نفسه ، ج١، ص ٢٧٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" فأما الفعل الذي لا يحسن إضماره، فإنه أن تنتهي إلى رجل لم يكن في ذكر ضرب، ولم يخطر بباله، فتقول : زيداً. فلا بدّ له من أن تقول له : اضرب زيداً..."(١).

واضح أنه يقلب الأمر على وجهيه، لأنه يعي ما يقول، ويدرك أنّ الحذف مرهون بظروفه وأحواله المصاحبة، وما هو عن كلام (فيرث) ببعيد.

وهنا أمر لعلّ من المفيد الإشارة إليه، ذلك أن سيبويه اعتمد في كثير من مواطن كتابه على اللغة المنطوقة، وإن لم يذكر ذلك صراحة، هذه اللغة التي تدور مشافهة بين طرفين تشكل بيئة خصبة للحذف عندما تعضدها قرائن الأحوال المصاحبة، فيصبح الحديث إشارات موجزة ذكية، يكون ما تنقله من معانٍ أكبر بكثير من حجم الألفاظ وطاقتها، " فالعناصر التي تسعى اللغة المكتوبة في أن تسلكها في كلّ متماسك، تبدو في اللغة المتكلمة منفصلة منفصمة متقطعة الأوصال، بل إن الترتيب نفسه يختلف فيها عنه في الأولى كلّ الاختلاف، إذ ليس هنا ذلك الترتيب الذي تمليه قواعد النحو، بل ترتيب له منطقه أيضا، ولكنه منطق انفعالي قبل كلّ شيء، فيه تُرص الأفكار لا وفقا للقواعد الموضوعية التي يفرضها الفكر المتصل، بل وفقا للأهمية الذاتية التي يخلعها عليها المتكلّم أو التي يريد أن يوحي بها إلى سامعه"(٢).

ولهذا تأتي هذه المواقف مع ما يرافقها من ظروف الحال لتحوّل اللغة إلى إيماءات موجزة، لكنها غنية متخمة بالمعاني والدلائل.

ومن هذه المواقف التي يشيع فيها الحذف اعتماداً على ظروف الحال:

مواقف المجاملة:

" ومن ذلك قولهم : مرحباً وأهلاً ... فإنما رأيت رجلاً قاصداً إلى مكان أو طالباً أمراً، فقلت مرحباً وأهلاً. أي: أدركت ذلك وأصبت فحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إيّاه، وكأنه صار بدلاً من رحبت بلادك ، وأهلت ... "(٣).

مواقف المبايعة:

ثمّة ازدحام، وتراشق بموجز الكلام، والاعتماد على الفطنة في الفهم، والتقاط المقصود، ومن ذلك قولهم: "بيع الملطى لا عهدَ ولا عقدَ، وذلك إن كنت في حال مساومة، وحال بيع، فتدع (أبايعك) استغناء لما فيه من الحال "(٤).

---

(١) سيبويه، الكتاب، ج١، ص ٢٩٦ .

(٢) محمود سليمان ياقوت، التراكيب غير الصحيحة نحوياً في الكتاب لسيبويه، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص ٢٨٢ . والرأي لغيره.

(٣) الكتاب ، ج١، ص ٢٩٥، وينظر جمل الزجاجي ص ٣٠٥ ، وشرح المفصل ج٢ ص ٢٨ .

(٤) الكتاب ، ج١، ص ٢٧٢ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مواقف التحذيـر:

الخطر فيها داهم، والوقت هنا ثمين، فالحذف جدّ مطلوب،" وذلك قولهم ... إيّاك، كأنك قلت: إيّاك نحّ، وإيّاك باعد"(١).

ومنه أيضا: " أهلك والليل، كأنه قال : بادر أهلك قبل الليل ... وإنما حذفوا الفعل في هذه الأشياء...لكثرتها في كلامهم، واستغناء بما يرون من الحال"(٢).

وما يسري على المواقف السابقة، يسري على كثير من المواقف المشابهة التي تسعف فيها ظروف الحال في تقدير المحذوف، ومنها : مواقف الحزن، والفرح، والتوجع، والمفاجأة، والذمّ، والتعظيم، والفخر، ....إلخ وكل ذلك منثور في ثنايا الكتاب.

والحال تخلق الأمثال، هذه العبارات الموجزة المشبعة بالمعاني، التي تساقط كثير من عناصرها فرتّبها قرائن الحال، وهي شائعة كثيراً في الكتاب:

فإن رأيت متمادياً في الغضب، قلت: غضب الخيل على اللجم، فرؤيته على تلك الحال بمنزلة قولك : غضبت غضب الخيل على اللجم(٣).

ويقول الرجل لمن أخلف وعده : مواعيد عرقوب أخاه بيثرب، " كأنه قال: واعدتني مواعيد عرقوب أخاه. ولكنه ترك واعدتني استغناء بما هو فيه من ذكر الخلف، واكتفاء بعلم من يعني بما كان بينهما قبل ذلك"(٤).

والحال قد تخرج السؤال عن غاية الاستفهام، فيلف تحت جناحه كثيراً من خفايا الكلام، ومن ذلك قولهم : أتميميّاً مرّة وقيسيّاً أخرى ؟ فالسائل لا يقصد السؤال، بل رأى الرجل في حال تلوّن وتقلّب فسأله أتحوّل تميميّاً ... يوبخه(٥).

ويروي سيبويه: "حدّثنا بعض العرب أن رجلاً من بني أسد قال يوم جَبَلة واستقبله بعير أعور فتطير منه فقال: يا بني أسد، أعور وذا ناب؟ فلم يرد أن يسترشدهم ليخبروه عن عوره وصحته، ولكنه نبّههم، وحذف الفعل لدلالة الحال كأنه قال : أتستقبلون أعور وذا ناب ؟"(٦).

---

(١) سيبويه، الكتاب، ج١، ص ٢٧٣ وينظر أمثلة أخرى في الصفحة نفسها وما بعدها .

(٢) نفسه، ج١، ص ٢٧٥ وينظر شرح وافٍ في النكت ج١ ص ٣٤٥، وتعليل فصّله الرماني، ونقله السيوطي في الأشباه والنظائر، ج١، ص ٢٦٨ .

(٣) الكتاب، ج١، ص ٢٧٣ . وينظر النكت، ج١، ص ٣٤٤، والميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي، ج٢، ص٤١٢.

(٤) الكتاب، ج١، ص ٢٧٢، وينظر النكت، ج١، ص ٣٤٤، والميداني، مجمع الأمثال، ج٣، ص٣٣٠.

(٥) الكتاب، ج١، ص ٣٤٣ .

(٦) المكان نفسه، وينظر النكت، ج١، ص٢٨٣، وشرح المفصل، ج ٦٩/٢ . وينظر أمثال أخرى في الكتاب: ج١، ص ٢٦٨، ٢٧٢، ٢٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويطول المقام لو تابعنا الطواف، فكلها أمثلة حيّة، وعاها سيبويه، وأحسن التمثيل بها والاستدلال، لترسيخ القناعة بأنه أدرك مبكراً أن كثيراً من عناصر التواصل تقع خارج الألفاظ، وتمنحها قرائن الأحوال، فتجيز حذفها، وتسهّل فهمها.

وقد كانت له وقفات عالج فيها الحذف بوعي لافت، وبصيرة نافذة، فهو يذكر أنك عندما ترى رجلاً يعالج شيئاً تقول له : رويداً . أي: علاجاً رويداً. ويجيز لك أن تقول لشخص تقدمك منفرداً: "رويداً" فتحذف كاف الخطاب، ولا تدعوه باسمه، ولكن إن استبطأته بين قوم فليس لك إلا أن تقول مثلاً : رويدك زيداً. وما الحذف في الأولى إلا لأن الحال دلّت على أنك تعنيه دون غيره، وما الإثبات في الثانية إلا خشية ضياع المقصود وسط الجمع(١).

وهنا مثال يحسن إيراده ختاماً لما سبق، لما فيه من قوّة الدلالة على فهم سيبويه العميق وإدراكه ظروف الحال، وأثرها في الذكر والحذف، ومقام كلٍّ منهما، يقول:

" إن رجلاً من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه، أو عن غيره بأمر، فقال : أنا عبد الله منطلقاً، وهو زيد منطلقاً، كان محالاً؛ لأنه إنما أراد أن يخبرك بالانطلاق، ولم يقل هو ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية؛ لأن هو وأنا علامتان للمضمَر، وإنما يُضمِر إذا علم أنك قد عرفت من يعني. إلا أن رجلاً لو كان خلف حائط أو في موضع تجهله فيه فقلت : من أنت ؟ فقال: أنا عبد الله منطلقاً في حاجتك، كان حسناً"(٢).

تناهى -رحمه الله- إلى أرقى درجات الفهم، والحسّ اللغوي في هذا النصّ، ولم يدع حاجة لمستزيد، فظروف الحال هي التي توجه عناصر المقال فتفرض الذكر حيناً، وتجيز الحذف حيناً آخر، ولكلّ مقام مقال.

وارتضاء سيبويه شيخاً ورائداً يحتكم إلى كتابه، ويستدل بأقواله، لا يعني إغفال موكب النحاة التابعين، فقد كانت لهم في هذه المسألة موارد مشابهة، ومصادر، وبحثوها فأوفوها حقّها، ويتجنب البحث سرد آرائهم اجتزاءً برأي رائدهم تجنباً للإطالة، ولأن كثيراً مما قالوا يدور في فلك ما قال، وكثير منهم ردد أمثلته، واستشهد بشواهده، وأعاد أقواله، ولعلّ في الإحالة إلى بعض المواضع شيئا من فائدة(٣).

---

(١) الكتاب ، ج١، ص ٢٤٤ .

(٢) الكتاب ، ج٢، ص ٨٠ ، ٨١.

(٣) ينظر الزمخشري، المفصل، ص٢٥ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٦ ، ٦٥ ....إلخ.
والنكت، ج١، ص٣٣٦، ج١، ص٣٣٧ ، .... إلخ، وحيثما ورد شرح لما قال صاحب الكتاب.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أدرك بعضهم أن الحال مسوغ رئيسي للحذف، فقال ابن الأنباري : والحذف في كلامهم لدلالة الحال... أكثر من أن يحصى"(١) وابن هشام وقف مطوّلا عند هذا الأمر، وعرض له ضمن أدلة الحذف التي بين أنواعها ومثل لها فأحسن التمثيل(٢).

وأما السيوطي، فيعقد للمسألة عنواناً هو:"قرائن الأحوال قد تغني عن اللفظ"(٣).

ويجمل فيه رأي سابقيه من النحاة مبيناً أنّ " المراد من اللفظ الدلالة على المعنى، فإذا ظهر المعنى بقرينة حالية، أو غيرها لم يحتج إلى اللفظ المطابق، فإن أُتي باللفظ المطابق جاز، وكان كالتأكيد، وإن لم يؤت به، فللاستغناء عنه ...."(٣).

وهذا في المسألة قول فصل ، وهو يلاحي الشمس وضوحاً.

---

(١) الإنصاف ، ج١ ص ٧٣ .

(٢) المغني، ص٧٨٦ وما بعدها .

(٣) الأشباه والنظائر ، ج١ ص ٢٦٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ضوابط الحـذف

أقرّ النحاة بوجود الحذف في اللغة، لكنهم أظهروا – نظريّاً – حرصاً دائباً في ضبط هـذه الظاهرة، فتحوطوا لها، وحاصروها، ورسموا محدّدات تقيّدهـا، وتحدّ من المبالغـة فـي الاعتمـاد عليها، ولا تسمح بالبعد في التقديرات، وسرعة الاتكاء عليها، وتشيع هذه الضوابط في كتبهم لتشكل عوائق أمام الإيغال في تفشي التقدير عند هواته، أو المستكينين له. ومن هذه الضوابط:

الإضمار خلاف الأصل

صحيح أن سيبويه تنبه في كتابه لظاهرة الحـذف، فعرضهـا، ومثّل لهـا، لكـن مـن المهم تذكّر أنه فعل ذلك تحت باب ما يكون في اللفظ من الأعراض، وواضح أنه يعنـي بهـذا مـا يطـرأ على الكلام فيجعله ينحرف عن أصله(١).

وقد أكّد النحاة من بعدُ ذلك، فتكرر هذا القول في تآليفهم، وردّوا تقديرات لا دليـل عليهـا، فقد صرّح ابن الأنباري بأنّ " العدول عن الأصل والقياس والنقل مـن غير دليل لا وجـه لـه"(٢). ويقول:" ما لا يفتقر إلى تقدير أولى مما يفتقر إلى تقدير"(٣).

وذكر ذلك السيوطي، فقال إنهم ردّوا قول من قال: إن الاسم بعد لـولا مرتفـع بفعـل لازم الإضمار، لأن الإضمار خلاف الأصل، ولا دليل على مثـل هـذا التقدير، وفـي قولـه تعـالى: ﴿**ألا يومَ يأتيهم ليس مصروفاً عنهم**﴾(٤) ردّ رأي من قال : إنّ "يوم" منصوب بفعل تقديره يلازمهم، لأنه لاحاجة إلى تقدير ذلك مع أن الإضمار خلاف القياس(٥).

ويعترض على تقدير حذف مبتدأ في مكان ثـان "لأن الكـلام إذا أمكـن حملـه علـى التمـام امتنع حمله على الحذف، لأنه دعوى خلاف الأصل بغير بينة، ولهذا امتنع أن يُدّعى في نحو جاء الذي في الدار أن أصله: الذي هو في الدار"(٦).

---

(١) الكتاب ، ج١ ص ٢٤ ، وينظر الحاشية ٢ في الصفحة نفسها .

(٢) الإنصاف ، ج٢ ص ٧٥٧ .

(٣) نفسـه ، ج١ ص ٢٤٩ .

(٤) هـود، ٨.

(٥) الأشباه والنظائر، ج١، ص ٧٢ .

(٦) نفسه، ج٤ ، ص ٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويجعل بعض الاحتمالات الإعرابية مرجوحة في أحايين كثيرة؛ لأنها تحوج إلى تقدير محذوف، وعنده الأصل : عدم الحذف، وعدم التقدير(١).

التقيّد بالسماع عند الحذف

أكّد النحاة في مواطن كثيرة حرصهم على أن القواعد هي التي تتبع اللغة، وتجنبوا أن يحملوا اللغة على اتباع القواعد، لذلك كان شأن السماع كبيراً عندهم، لا سيما الرواد العظام منهم، وشيخهم سيبويه، الذي استلهم قواعده مما التقطه من شائع كلام العرب المحتج بهم، وكان حازماً في ضبط ظاهرة الحذف، فالتزم بالمسموع، ورفض القياس عليه، أحياناً، بشكل صريح، ومن ذلك قوله:

" واعلم أنه ليس كلّ حرف يظهر بعده الفعل يحذف فيه الفعل، ولكنك تضمر بعدما أضمرت فيه العرب من الحروف والمواضع، وتظهر ما أظهروا"(٢).

وفي موضع آخر، يجيز أن تقول : ويلك، وويحك، وويسك، ووييك، ويمنع أن تقول: سقيك، ويعلّق قائلاً :" إنما تجري ذا كما أجرت العرب"(٣).

وقد أوضح السيرافي أن سيبويه التزم بما سمع من العرب،"ولم يجز سقيك لأن العرب لم تدع به،وإنما وجب لزوم استعمال العرب إيّاها لأنها أشياء قد حذف منها الفعل، وجُعلت بدلاً من اللفظ به على مذهب أرادوه من الدعاء، فلا يجوز تجاوزه؛ لأن الإضمار، والحذف، وإقامة المصادر مقام الأفعال ليس بقياس مستمر فيتجاوز فيه الموضع الذي لزموه"(٤).

وحتى عندما شاع تعليل النحاة للحذف بكثرة الاستعمال، انبرى بعضهم إلى دفع الوهم بأن هذا جائز في كل حين، فصرّح بأنّ " كثرة الحروف لا تكون علّة موجبة للحذف، وإنما يوجد ذلك في ألفاظ نقلت عنهم على خلاف الأصل والقياس، فيجب الاقتصار على تلك المواضع، ولا يقاس عليها غيرها إذ ليس الحذف للكثرة قياساً مطرداً"(٥).

---

(١) السيوطي، الأشباه والنظائر، ج٤ ، ص ١١٢ . وتنظر أمثلة مشابهة لنحاة آخرين في: الزجاج، إعراب القرآن، ج١ ص ٥٢، وابن يعيش، شرح المفصل ج٢ ، ص ٢٨، والزركشي يقول : إذا دار الأمر بين الحذف وعدمه كان الحمل على عدمه أولى لأن الأصل عدم التغيير.. ينظر البرهان في علوم القرآن، ج٣، ص١٠٤.

(٢) الكتاب ، ج١ ص ٢٦٥ .

(٣) نفسه ج١ ص ٣١٨ .

(٤) المكان نفسه ، الحاشية ٢ .

(٥) ابن الأنباري ، الإنصاف ، ج٢ ص ٧٥٧ ، ٧٥٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما لا يتعيّن تقديره لا يجوز إضماره

أجاز النحاة إضمار ما قام عليه دليل يُسَهّل تقديره، ويحصره في احتمالات محدّدة، أما إذا كان الحذف سبباً في خلق احتمالات غير محصورة، فذلك يمنعه، لأنه يستدرج الفوضى، ويخلق اللبس.

يقول السيوطي موضحاً رأي النحاة في هذه المسألة إذ يناقش إعراب :" ضربي زيداً قائماً" "اختلف الناس في إعراب هذا المثال، فقال بعضهم : ضربي مرتفع على أنّه فاعل فعل مضمر تقديره: يقع ضربي زيداً قائماً، أو ثبت ضربي زيداً قائماً. وقيل عليه: إنّه تقدير ما لا دليل على تعيينه؛ لأنه كما يجوز تقدير ثبت يجوز تقدير قَلّ أو عدم، وما لا يتعين تقديره لا سبيل إلى إضماره"(١).

ولعلّ هذا هو السبب الذي جعل النحاة يهجمون على ابن جني انتقاداً عندما توسع في إجازة حذف المضاف(٢).

ضرورة تقليل الحذف ما أمكن

عَنّى بعض النحاة أنفسهم في وضع محدّدات لتقدير المحذوفات، تحدوهم في ذلك رغبة عارمة في ضبط قواعد هذه الظاهرة، حتى لا تكون مراحاً خصباً للخيال، أو مسرحاً رحباً للجدال، فجعلوا وكدهم في حصارها، والتزموا البقاء قريباً من الأصل.

وقد أشار سيبويه مثابراً إلى هذا، وأكدّه، ففي قول العرب :" إن خنجراً فخنجر" وقولهم: إن خنجرّ فخنجر، فضّل التقدير الأوّل على الثاني قائلاً(٣):

" وإذا أضمرت فأن تضمر الناصب أحسن، لأنك إذا أضمرت الرافع أضمرت له أيضا خبراً، أو شيئاً يكون في موضع خبره، فكلما كثر الإضمار كان أضعف."

وفي قولهم: قبضت عشرة ليس غير، يقدر ابن هشام أن الأصل : ليس المقبوض غير ذلك، بإضمار اسم ليس، وحذف ما أضيفت إليه غير، وبنائها على الضمّ. ويضع احتمالاً ثانياً هو أن يكون الأصل : ليس غير ذلك مقبوضاً بحذف خبر ليس وما أضيفت إليه غير، لكنه يعلن أن الوجه الأول أولى لأن فيه تقليلاً للحذف، ولأن الخبر في باب كان يضعف حذفه جدّاً(٤).

---

(١) الأشباه والنظائر، ج٤ ، ص ٢٦٢ .

(٢) ينظر هذا البحث ، ص ٥٥.

(٣) الكتاب ، ج١، ص ٢٥٩، والزجاج يقول : كلما قلّ الإضمار كان أسهل، (إعراب القرآن ج١ ص ٥٢)، وابن يعيش يقول : كلما كثر الإضمار كان أضعف (شرح المفصل ج٢ ص ٩٧).

(٤) شرح شذور الذهب ، ص ١٠٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتكئ ابن هشام على آراء سابقيه، ويزيد المسائل جلاءً، ويغنيها أمثلة، فيوضح أنه ينبغي تقليل المقدّر ما أمكن لتقلّ مخالفة الأصل، لذلك تراه يرجح رأي الأخفش في " ضربي زيداً قائماً" على رأي باقي البصريين، فقد قدّر الأخفش: (ضربه قائماً). وقدّر البصريون: (حاصل إذا كان قائماً)، ذلك أن الأخفش قدّر اثنين، وقدّروا هم خمسة. وكذا تقديره في (أنت مني فرسخان) (بعدك مني فرسخان) جعله أولى من تقدير الفارسي: (أنت مني ذو مسافة فرسخين) وفي قوله تعالى: ﴿ **وأُشربوا في قلوبهم العجلَ**﴾(١) وهّن تقدير بعضهم: (حبّ عبادة العجل)، ورجّح (حبّ العجل). وكذلك في قوله تعالى :﴿ **واللائي لم يحضْنَ**﴾(٢) وهّى قول الفارسي : إنّ الأصل: واللائي لم يحضن كذلك . وكل ذلك تقليلاً للمحذوف(٣).

الأولى بتقدير حذفه عند سعة الاختيار

يتفق أحياناً أن يكون للمسألة الواحدة وجهان للتقدير أو أكثر، فيعالج النحاة مثل هذه المسائل في بعض الحالات ميّالين إلى سعة الاختيار ، لا صارم المعيار، ولهم بعض عذر في هذا؛ لأن الحذف كثيراً ما يتبع النيّة، والمعنى في كثير من الحالات متقارب. وحركة المعمرل قد تبقى كما هي، وقد تتغير تبعاً لتغيّر المحذوف المنوي في النفس.

وقد أدرك ذلك سيبويه، وأشار إلى نيّة المتكلم غير مرّة في كتابه، وتأثر خطاه النحاة من بعده.

ومن الأمثلة التي يتغير فيها العامل المحذوف، ولا تتأثر حركة معموله الباقي قولهم: "اللهم ضبعاً وذئباً "، يريدون الدعاء على غنم رجل.

"وإذا سألتهم : ما يعنون؟ قالوا: اللهم اجمع أو اجعل فيها ضبعاً وذئباً، وكلّهم يفسّر ما ينوي"(٤). وقد يختلف المعنى تماماً، ولا تختلف الحركة، "قال أبو العباس (المبرّد) : سمعت أنّ هذا دعاء له لا دعاء عليه، لأن الضبع والذئب إذا اجتمعا يتقاتلان، فأفلتت الغنم، وقال: أما ما وضعه سيبويه فإنه يريد ذئبا من ها هنا، وضبعاً من ها هنا"(٥).

---

(١) البقرة، ٩٣ .

(٢) الطلاق، ٤، والآية : واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدّتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن.

(٣) تنظر هذه الأمثلة في المغني، ص ٨٠٢ ، ٨٠٣ .

وقد نقلها السيوطي في الأشباه والنظائر ، ج١ ص ١٣٩ .

(٤) الكتاب، ج١، ص ٢٥٥ ، وينظر الزمخشري ، المفصل ، ص ٣٥ .

(٥) الشنتمري ، النكت، ج١ ، ص ٣٣٦ ، وهذا رأي السيرافي كذلك، ينظر الحاشية، في الكتاب ج١ ص٢٥٥ ، وقد تمثل ببيت شعري هو : تفرقت غنمي يوماً فقلت لها يا ربّ سلّط عليها الذئب والضبعا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد مرّن النحاة قواعدهم على تقبّل تعدّد الاحتمالات لتعدّد النوايا، ففي قولهم للقادم من سفر: خير مقدم، وما شابهه، أجاز سيبويه النصب إذ بناه على قوله: قدمت. ولكنّه أجاز الرفع أيضا على أنه مبتدأ، أو مبنيّ على مبتدأ، كأنه قال : هذا خير مقدم، وعلّق قائلاً:

" فإذا رفعت هذه الأشياء فالذي في نفسك ما أظهرت، وإذا نصبت فالذي في نفسك غير ما أظهرت وهو الفعل، والذي أظهرت الاسم"(١).

وفي تعليقه على قول عمر بن أبي ربيعة:

ربعٌ قواءٌ أذاعَ المعصراتُ به وكلُّ حيرانَ سارٍ ماؤُه خَضِلُ.

وقوله ايضاً :

دارٌ لمروةَ إذ أهلي وأهلُهم بالكاتسيّةِ نرعى اللهو والغزلا.

يستشف أنه يجيز في كلمه "ربع" في البيت الأول، وكلمة "دار" في البيت الثاني، الرفع على الابتداء، والنصب على المفعولية، ثم يضيف ما سبق أن قاله :

" فإذا رفعت فالذي في نفسك ما أظهرت ، وإذا نصبت فالذي في نفسك غير ما أظهرت"(٢).

ولكنهم قد يضجرون أحياناً بسبب تسيّب الاختيار، فتراهم في حيرة بين استحالة ضبط المنوي في نفس المتكلّم، واستقامة ضبط القاعدة النحوية، فيهتبلون كل سانحة مهما ضعفت لجعل وجه راجحاً، وآخر مرجوحاً، فإن وجدوا أن أحد الوجهين يوسع دائرة التقدير رغبوا عنه إلى صنوه، فاختاروه معلّلين بأنه الوجه الذي يقلّل المقدّر، وذلك شرطهم للحدّ من البعد عن الأصل(٣).

وحيناً تراهم يحاولون الحفاظ على سلامة العناصر الهامة في الجملةحتى إذا أرغموا على التضحية ببعضها تدبروا، وازدادوا تفكراً لإسقاط ما هو أقلّ أهمية، والحفاظ على ما عليه المعوّل والمعتمد، فإذا دار الأمر بين كون المحذوف فعلاً، والباقي فاعلاً، وكونه مبتدأ والباقي خبراً جنحوا إلى اختيار الخيار الثاني، واحتالوا في التعليل: فانسبتدأ عين الخبر، ففيما أُبقي غنى كافٍ عما أُلقي، وهو حذف كلا حذف، لكن الفاعل غير الفعل، ولا يسدّ مسدّه أو يغني عنه(٤).

---

(١) الكتاب، ج١، ص ٢٧١ . وينظر مسائل مشابهة في ٢٥٨، ٢٧١ .

(٢) الكتاب، ج١، ص ٢٨٢ .

(٣) ينظر ما سبق من أمثلة عن تقليل المقدّر.

(٤) ينظر المغني، ص٨٠٦ ، ٨٠٧ وينظر أمثلة أخرى ص ٨٠٥ . وينظر السيوطي ، الأشباه والنظائر، ج٢ ص ٤٩ ، ٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن متعلقات هذا الأمر ، حرصهم على دحر التقدير ليقع في أدبار الجمل لا في بواكيرها، ولهم في ذلك تعليلات لطيفة " فإذا تردد الإضمار بين أن نكون أضمرنا خبراً ،أو أضمرنا فعلاً كان إضمار الخبر وحذفه أولى من إضمار الفعل وحذفه؛ لأن آخر الجملة أولى بالحذف من أولها؛ لأن أولها موضع استجمام وراحة، وآخرها موضع تعب واستراحة"(١).

وكان ابن جني أكثر حزماً إذ قال : "الحذف اتساع ، والاتساع بابه آخر الكلام، وأوسطه، لا صدره وأوله"(٢). وفي حديثه عن قوله تعالى: ﴿ولكنّ البرّ من اتقى﴾(٣) يوضّح أن التقدير : برُّ من اتقى. ويعرض وجها آخر تقديره: ولكن ذا البر برّ من اتقى. لكنه يؤكد أن التقدير الأول هو الأفضل، وعلل ذلك بأنّ حذف المضاف ضرب من الاتساع، والخبر به أولى من المبتدأ، لأن الاتساع أولى بالأعجاز منه بالصدور(٤).

وقد تنبه حذاق النحاة لأمر يتسق مع روح العلم عندما اعتاصوا في بعض الحالات وحاروا فيما يختارونه محذوفا مقدّراً، فاهتدوا إلى الاستعانة بالمواضع المشابهة، فإن ذكر المحذوف في موضع مشابه رجحوا تقديره في الموضع الذي بين أيديهم(٥).

وفي دائرة ما سبق، بحث النحاة عن علّة ترجح تقدير أحد محذوفين عند تواردهما، فجعلوا الكثرة حجة مقبولة، وعدّوها سنداً للميل إلى تقدير محذوف دون الآخر عند تنازع الخواطر في المسألة الواحدة بين اختيار حذف وآخر. ولذا فقد وافقوا سيبويه على أن المرفوع بعد لولا مبتدأ محذوف الخبر، وخالفوا الكسائي في جعله فاعلاً محذوف الفعل؛ لأن إضمار الخبر أكثر من إضمار الفعل.

ورجحوا تقدير (أن) بعد (حتى) عندما تنصب المضارع لأنهم حملوها على عوامل الأسماء وهي الأصول ، والأكثر(٦).

ويتفكرون أحيانا في السؤال الذي جاء المحذوف في جوابه، فيسبرونه ليستكنهوا محط العناية فيه، ففي قولهم المشهور: " أو فرقاً خير من حبّ؟" رجحوا النصب في "فَرَق" على الرفع، استدلالاً بالسؤال الذي كان هذا القول جواباً له. وهذا القول الذي جرى مثلاً قد قاله رجل بين يدي الحجاج،وكان الرجل قد فعل للحجاج شيئاً فاستجاده، وسأله: أكلّ هذا حبّاً؟ يعني : أفعلت كل هذا

---

(١) السيوطي ، الأشباه والنظائر، ج٢ ، ص ٥٠ .

(٢) الخصائص ، ج١ ، ص ٢٩٠ .

(٣) البقرة، ١٨٩.

(٤) الخصائص، ج٣، ص ٣٦٢.

(٥) ينظر هذا البحث، ص٣٧.

(٦) ينظر في هذا ومثله، السيوطي ، الأشباه والنظائر، ج١، ص ١٨٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حبّاً لي؟ فأجاب الرجل بالقول المذكور، أي : أوَ فعلت فرقاً فهو أنبل لك، وأفضل عندك(١)؟ وقال سيبويه موضحاً : " وإنما حمله على الفعل لأنّه سئل عن فعله فأجابه على الفعل الذي هو عليه"(٢).

وقد يستبطنون الكلام، يبحثون عن المعنى، يحتكمون إليه لتقدير الأولى بالحذف، ففي قول الشاعر :

يشكو إليّ جملي طولَ السُّرى صبرٌ جميلٌ فكلانا مُبتلى

أقرّ سيبويه رواية البيت برفع كلمة "صبر" لكنه أضاف(٣) :" والنصب أكثر وأجود لأنه يأمره." ويؤكد الشنتمري هذا فيقول(٤):" النصب في هذا أجود لأنه يأمره بالصبر لمّا تشكى إليه طول السّرى".

وترى النحاة أحياناً يستفزعون بأحكام صناعتهم النحويّة لاستجازة وجه دون غيره، ففي قولهم: إن خيراً فخيرٌ، أجاز سيبويه النصب والرفع في "خير" الثانية، لكنه عاد فقال:" والرفع أكثر وأحسن في الآخر، لأنك إذا أدخلت الفاء في جواب الجزاء استأنفت ما بعدها، وحسن أن تقع بعدها الأسماء"(٥).

وهكذا ترى النحاة يفرّون -قسراً- من رحابة الاختيار، وينخرطون -طوعاً- في قيود الحصار حفاظاً على سلامة قواعدهم وانضباطها، وذياداً دونها أمام دواعي التسيب والشتات.

المحذوف إذا اجتمع مثلان

ذهب النحاة بعيداً في سبر أعماق ظاهرة الحذف، ففكروا مليّاً عندما كان يعرض لهم أمر فيه حُذف أحد مثلين، فانشعبوا فرقاً، وقد خفف عنا السيوطي عناء جمع مثل هذه المسائل من مظانّها، فعرض منها ثلاثاً وثلاثين مسألة(٦) اجتمع في كل منها مثلان قد حذف أحدهما، وبسط

---

(١) ينظر الكتاب، ج١، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، والنكت، ج١، ص ٣٤٣، والمفصل ص ٣٤ .

(٢) الكتاب، ج١، ص ٢٦٩ .

(٣) نفسه، ج١، ص ٣٢١ ، وهذا رأي السيرافي أيضا، تنظر الحاشية ٣ في المكان نفسه.

(٤) النكت، ج١، ص ٣٧٢. والبيت غير منسوب في الكتاب، لكن السيرافي نسبه للملبد بن حرملة، ينظر المكان نفسه، الحاشية، ٤ .

(٥) الكتاب، ج١، ص ٢٥٨ .

(٦) ينظر الأشباه والنظائر، ج١، ص ٣٥-٤٤، وينظر مسائل مشابهة في ج٤، ص ٨٧، وفي الزجاجي، مجالس العلماء، ص ٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

آراء سابقيه من النحاة في كلّ مسألة، وأدلّة كلّ منهم التي تدعم رأيه أو تدحض رأي خصمه. وفيما يلي إيجاز لإحدى هذه المسائل(١):

إذا اجتمعت نونا الرفع والوقاية ، جاز التخفف بحذف إحداهما، وقد اختار سيبويه أنّ المحذوفة هي الأولى، وتابعه في ذلك ابن مالك. ودعائم هذا الرأي هي:

- نون الرفع قد تحذف بلا سبب، ولم يعهد ذلك في نون الوقاية.
- نون الرفع نائبة عن الضمة، وقد عهد اختلاس الضمة بالحذف حتى في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿إنّ الله يأمركم﴾(٢).
- نون الرفع جزء من كلمة، بينما نون الوقاية كلمة، وحذف الجزء أسهل.

وقد ذهب كثير من النحاة كالمبرد، والسيرافي، والفارسي، وغيرهم إلى أن نون الوقاية هي المحذوفة، واحتجوا بما يلي:

- نون الوقاية لا تدل على إعراب بينما تدل نون الرفع على ذلك، وحذفها يستدعي عاملاً.
- الثقل نشأ من نون الوقاية فهي لذلك الأولى بالحذف.

واضح أن لكلّ من الرأيين وجهاً. وشاهد الأمر هنا أن النحاة حرصوا على وضع أسس لاختيار حذف دون آخر، ولم يتركوا الأمر هملا.

تقدير الحذف في الثاني بدلالة الأول وليس العكس

عندما يطلب عاملان معمولين حذف أحدهما، يرجح بعض النحاة أن يكون المحذوف هو الثاني بدلالة الأول، وهذا هو رأي سيبويه في تعليقه على بيت الفرزدق:

يا من رأى عارضاً أُسَرُّ به بين ذراعَيْ وجبهة الأسد.

فقد جعل الأسد مضافاً إليه لذراعَيْ، واستشهد بالبيت على الفصل بينهما بلفظة "جبهة"(٣).

وراجح أن منهاج من تبع سيبويه من النحاة يقوم على تقدير الحذف في الثاني بدلالة الأول(٤).

وأما قول الآخر:

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأيُ مختلفُ

---

(١) ينظر الأشباه والنظائر، ج١، ص٣٥،٣٦، وابن هشام، المغني، ص٨٠٨- ، والكتاب، ج٤، ص٤٧٦، وابن الأنباري، الإنصاف، ج٢، ص ٦٤٨ .

(٢) البقرة، ٦٧ ، ينظر ابن جني، الخصائص، ج٢، ص ٣٤٠ .

(٣) الكتاب، ج١، ص ١٨٠ .

(٤) ينظر ابن جني، الخصائص، ج٢، ص ٤٠٧ ، وابن يعيش، شرح المفصل، ج٣، ص٢١، وابن هشام، المغني، ص ٤٩٨-٨٠٩، والسيوطي، الأشباه والنظائر، ج١، ص ٤٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فعلى الرغم من أن الصيغة قرينة دالة على أن المحذوف هو الأول ، إلا أن عدم أُنس النحاة بذلك، وورود البيت مخالفاً للجادة التي ألفوها حملهم على التحيّل إذ جعلوا "نحن" ضميراً للمتكلم المفرد الذي يعظم نفسه ليسوغوا (راض) خبراً له لتقدمه، ويقدروا خبراً للمتأخر وهو أنت(١).

تقدير الشيء في مكانه الاصلي

يدرك النحاة – كما ذُكر – أن الحذف خلاف الأصل، ويُقبلون على ضبطه وتقييده كما مَرّ، وهنا يصرون على تقديره في مكانه الأصلي خشية مخالفة الأصل من وجهين وهما: الحذف ووضع الشيء في غير محله.

وبناءً على هذا فهم يوجبون – مثلاً – أن يقدّر المفسّر في نحو " زيداً رأيته" مقدّما عليه، فذلك محلّه، ولا يجوز تأخيره إلا عند تعذّر الأصل، كقولهم: أيهم رأيته ؟ إذ لا يعمل في الاستفهام ما قبله، أو عند اقتضاء أمر معنوي ذلك، كالبسملة الشريفة إذ تتقدّم تفخيما وتشريفا(٢).

وأكثر من ذلك، فالنحاة يحرصون على تقدير المحذوف من لفظ المذكور – ما أمكن – فيفضلون تقدير " ضربه قائماً" في "ضربي زيداً قائماً "؛ لأنه من لفظ المبتدأ، ويرغبون عن تقدير " إذا كان"؛ لأنه ليس من لفظه.

ملاطفة الصنعة

يثير النحاة الإعجاب وهم يتسلحون بالإصرار على الدفاع عن الأصول حتى وهم يسلّمون بوقوع خلافها، ويقرّون بوجود أعراضها، فبعد أن يقرّوا بوجود الحذف تراهم يلقون على هذه الظاهرة أسدال الألطاف، ويقدرون وقوع المحذوفات بخفة واستلطاف:

عقد ابن جني باباً في ملاطفة الصنعة، " وذلك أن ترى العرب قد غيّرت شيئاً من كلامها من صورة إلى صورة، فيجب حينئذ أن تتأتى لذلك وتلاطفه، لا أن تخبطه وتتعسفه"(٣).

وقد راقه في أمر الحذف مذهب أبي الحسن في قوله تعالى:

﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفس شيئاً﴾(٤)؛ لأنه ذهب إلى أنّه حُذف حرف الجرّ فصار تجزيه، ثم حذف الضمير فصار تجزي، فهذه ملاطفة من الصنعة، ومذهب سيبويه أنه حذف فيه دفعة واحدة"(٥).

---

(١) ينظر الشنتمري ، النكت ، ج١ ص ٢١٢ . وقد نسب البيت إلى قيس بن الخطيم . وينظر ابن هشام ، المغني، ص ٨١٠ ، ٨١١ ، والسيوطي ، الأشباه والنظائر ، ج٤ ص ٨٧ .

(٢) ينظر ابن هشام، ص ٧٩٩ ، ٨٠٠ . وينظر السيوطي، الأشباه والنظائر، ج١، ص ١٣٨.

(٣) الخصائص، ج٢، ص٤٧٠ .

(٤) البقرة، ٤٨.

(٥) الخصائص، ج٢، ص ٤٧٣. وينظر أمثلة أخرى في ابن هشام، المغني، ص ٨٠٣ ، ٨٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ألا يختلف عمل المحذوف مضمراً عنه مظهراً

ويتابع النحاة المحذوف، فيلاحقون آثاره بعد حذفه، ويصرون على أن يحافظ على عمله، فيظهر أثره على معموله، يقول سيبويه:

" وإذا أعملت العرب شيئاً مضمراً، لم يخرج عن عمله مُظهراً في الجرّ والنصب والرفع، تقول : وبلدٍ، تريد : وربَّ بلد. وتقول: زيداً، تريد : عليك زيداً . وتقول : الهلالُ تريد هذا الهلال، فكلّه يعمل عمله مظهرا "(١).

لا حذفَ إن خشي اللبس

كان من المناسب إفراد هذا الشرط بالحديث على الرغم من تداخله مع كثير مما سبق ذكره من شروط للحذف، وقواعد، وضوابط وأسباب ... وقد تصدر البحث في هذا الأمر كثيراً من مواطن الحذف التي ذكرها النحاة، ودارت بينهم حوله مساجلات شائقة، رجحت فيها كفّة الحذرين الذين نزّهوا اللغة عن مواطن التعمية وسموا بها عن وهاد الغموض، فأصروا على ضرورة تجنب الحذف كلما بدت بوادر اللّبس.

والواقع أن موطن الخلاف الرئيسي كان في قضية " المجاز"(٢) التي كان قد تنبه لها سيبويه، وعقد لها بعض أبوابه(٣)، وأفاض في الحديث عنها، ومثّل لها فأكثر التمثيل ومن ذلك قولهم : يا سارق الليلة أهل الدار(٤)، إذ جعلوا الليلة مسروقة على التوسّع، وحمل على ذلك قوله تعالى: ﴿بل مكرُ الليل والنهار﴾(٥)، وهما لا يمكران بل المكر فيهما، ومنه قوله تعالى: ﴿واسأل القريةَ﴾(٦). وغيره كثير .

وجاء ابن جني، فتوسّع في حذف المضاف مجازاً، وجعل منه كثيراً من باب الشجاعة في اللغة، وعقد له باباً اسمه " باب في فرق بين الحقيقة والمجاز"(٧). ثم عقد له باباً ألحقه فيه بالحقيقة إن كثر(٨)، وهنا ظهر خلافه مع جمهور النحاة إذ قال فأطال، واصطدم بكثير من الآيات، فأكثر

---

(١) الكتاب، ج١، ص ١٠٦ .

(٢) المجاز أو الاتساع ضرب من الحذف، تقيم فيه المتوسّع فيه مقام المحذوف، وتعربه بإعرابه، ينظر السيوطي، الأشباه والنظائر، ج١، ص ١٤،١٥. ينظر أمثلة في النكت ج١ ص٣١١ - والأشباه والنظائر ج١، ص١٤ .

(٣) ينظر الكتاب، ج١، ص ١٧٥ ، ٢١١ .

(٤) نفسه، ج١، ص ١٧٥ .

(٥) سبأ، ٣٣.

(٦) يوسف، ٨٢ ، ينظر ابن جني، الخصائص، ج٢، ص٤٤٢ .

(٧) ابن جني، الخصائص، ج٢، ص٤٤٧.

(٨) نفسه، ج٢، ص٤٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى هذا، فقد عاد بنا بعد كل هذا التطواف إلى مرتع الأمان، وهو أمن اللبس.

وبه صرّح الزمخشري إذ قال :

" وإذا أمنوا الإلباس حذفوا المضاف وأقاموا المضاف إليه مقامه، وأعربوه بإعرابه"(١).

وأكثر منه وضوحاً شارح كتابه الذي لم ينكر شيوع حذف المضاف، لكنه حدّد له شروطاً بقوله(٢): "اعلم أنّ المضاف حذف كثيراً من الكلام وهو سائغ في سعة الكلام، وحال الاختيار إذا لم يشكل، وإنما سوّغ ذلك الثقة بعلم المخاطب إذ الغرض من اللفظ الدلالة على المعنى، فإذا حصل المعنى بقرينة حال، أو لفظ آخر استغني عن اللفظ الموضوع بإزائه اختصارا ".

هذا، وقد ردّ ابن هشام(٣) على ابن جني في توسّعه بحذف المضاف، وردّ قوله : إنه يجوز جلست زيداً بتقدير مضاف، أي: جلوس زيد، لأن اللبس غير مأمون، إذ يحتمل أن يكون المحذوف حرفا هو " إلى " وعزّز موقفه بأمثلة فائقة رائقة كلها يثبت ألا حذف إلا إذا أمن اللبس.

ومما ذكر: يمتنع حذف الموصوف في نحو: رأيت رجلاً أبيض، بخلاف نحو: رأيت رجلاً كاتباً.

ويمتنع حذف المضاف في نحو جاء غلام زيد، بخلاف نحو قوله تعالى:

﴿وجاء ربُّكَ﴾(٤).

وينبغي ألا يفهم من هذا أن ابن جني كان هذا نهجه دوما في تقدير المحذوفات والتجوّز فيها، فقد بدت وقفات له معجبات كان يحرص فيها الحرص كلّه على منع الحذف لدفع اللبس(٥). وكان موقفه منسجما مع ما ينادي به النحاة الذين كان بعضهم يسارع إذا خشي اللبس – إلى منع ما أجازه بعضهم الآخر؛ فبعض النحاة أجاز حذف خبر لا التبرئة – إن علم – بإطلاق، ورأوا أنّ بني تميم لا يثبتونه في كلامهم أصلاً(٦). فاعترض ابن هشام –موفقا– فقال:

---

(١) المفصل، ص ١٠٣ .

(٢) ابن يعيش، شرح المفصل، ج٣ ، ص٢٣ .

(٣) ينظر المغني، ص ٧٨٧ ، ٧٨٨ ، وممن ردّ على ابن جني أيضا :

ابن قيم الجوزية ، بدائع الفوائد، ج٣، ص٢٤.

والسيوطي ، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق عبد السلام هارون وعبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، ١٩٧٥–١٩٨٠، ج٢، ص ٥ .

(٤) الفجر، ٢٢.

(٥) ينظر الخصائص، ج٢، ص٣٧١.

(٦) ينظر الزمخشري، المفصل، ص٣٠، وللتوضيح ينظر ابن هشام: المغني، ص٣١٥، وشرح الشذور، ص٢١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن ذلك لا يكون إلا بدليل، أما نحو (لا أحد أغير من الله)، فإثبات الخبر واجب(١). وكذلك اعترض على وجوب حذف الخبر بعد (لولا)، لأن خشية اللبس أحياناً توجب تجنّب الحذف، وفرّق بين الكون العام والخاصّ، وجعل الحذف الواجب ملازما للأول منهما بخلاف الثاني كقوله عليه الصلاة والسلام لعائشة رضي الله عنها:

لولا قومك حديثو عهد بالإسلام لأسست البيت على قواعد إبراهيم(٢).

ومما تقدم، يظهر ان النحاة كانوا شديدي الحرص على منع الحذف كلما نجم عنه الإبهام أو استدعى اللبس، والتفتوا في سبيل ذلك إلى أدقّ التفاصيل ليتجنبوا أوهى الأعذار التي تقود إلى الاستبهام والخلط، لقد منعوا حذف حرف النداء من اسم الإشارة لئلا تلتبس الإشارة المقترنة بقصد النداء، بالإشارة العارية من قصد النداء.

وأبعد غورا من هذا أنهم منعوا حذف حرف النداء من المستغاث به لئلا تلتبس لامه بلام الابتداء لأنها مفتوحة مثلها(٣).

ويحمد العود أخيرا إلى النبع الثرّ، كتاب سيبويه، لنرى كم استعنى وهو يستجلي هذا الأمر ، وما فتئ يعيد، ولا يملّ الترديد والتأكيد، أن هذا الحذف من المحرّمات كلما اقتاد لبساً أو قاربه. يقول في أحد المواضع:

" واعلم أنه لا يجوز أن تقول: زيدٌ ، وأنت تريد أن تقول: ليُضرب زيدٌ أو ليَضْرب زيدٌ إذا كان فاعلاً. ولا زيداً وأنت تريد: ليضرِب عمرو زيداً. ولا يجوز: زيدٌ عمراً، وأنت تخاطبني، فإنما تريد أن أبلغه أنا منك أنّك قد أمرته أن يضرب عمراً، وزيد وعمرو غائبان، فلا يكون أن تضمر فعل الغائب. وكذلك لا يجوز وأنت تريد أن أبلغه أنا عنك أن يضرب زيداً، لأنك إذا أضمرت فعل الغائب ظنّ السامع الشاهد إذا قلت زيداً أنك تأمره هو بزيد، فكرهوا الالتباس"(٤).

لعلّ ما زخر به هذا النصّ من دقة وحرص، يغفر للبحث إيراده بطوله، وتحمّل ما فيه من تضارب، فهو شاهد عدل على أن سيبويه كان يبحر في مسائله، فيسبر مداها ليصل إلى منتهاها، ويفترع منها أحكامها، فهو هنا يقلب الأمر على وجوهه كافة ينشد الاستيضاح فيجيز الحذف في كلّ وجه ظهر الوضوح فيه، ويتحسس اللبس فيمنع الحذف كلما بدت بواديه.

---

(١) ينظر المغني ، ص ٧٨٨ .

(٢) ينظر المغني ، ص ٣٦٠، وينظر التفريق بين الكون العام والخاصّ في شرح شذور الذهب، ص٣٦، ٣٧.

(٣) ينظر في ذلك السيوطي، الأشباه والنظائر، ج١، ص٢٧٣.

(٤) الكتاب، ج١، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ . وينظر كلام مشابه في النكت، ج١، ص ٣٣٦ ، ٣٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحفظـات النحاة على بعض المحذوفـات

إضافة إلى كلّ ما وضعه النحاة من ضوابط لتقنين الحذف، وتحديده، فإنهم أبدوا تحفظاتهم على كثير من المحذوفات، فلم يستحسنوا الحذف تارة ولم يجوّزوه تارات .

ومن أمثلة ذلك :

في النـــداء

درج النحاة في باب النداء على تقدير منادى محذوف في مثل قوله تعالى: ﴿ ألا يا اسجدوا﴾(١). وقد كان لبعضهم رأي مخالف، فابن جني يرى أن أداة النداء هي للتنبيه والنداء معاً في نحو يا زيد، ويا عبد الله، وقد تجّردها من النداء للتنبيه البتة، نحو قوله تعالى: ﴿ألا يا اسجدوا﴾ ..... وأما قول أبي العباس إنه أراد ألا يا هؤلاء اسجدوا فمردود عندنا"(٢).

وقد وجه الزمخشري الأمر وجهة أخرى حين قال:

يجوز حذف حرف النداء عمّا لا يوصف به (أيّ)، قال الله تعالى: ﴿يوسفُ أعرضْ عن هذا﴾(٣)، وقال: ﴿ربِّ ارني أنظرْ إليك﴾(٤)، وتقول: أيها الرجل، وأيتها المرأة ... ولا يحذف عمّا يوصف به (أيّ) فلا يقال : رجل، ولا هذا. وقد شذّ قولهم أصبح ليلُ....، ولا عن المستغاث والمندوب"(٥). وسيتعرض البحث لهذه المسألة لاحقاً، وسيتبين هناك أن جمهور النحاة قد غالى كثيراً إذ أصرّ على تقدير الحذف في النداء، وأنّ هذه التحفظات على صواب(٦).

في الصفة والموصوف

يتضح حذر النحاة تجويز القياس والتوسع في الحذف، في مواضع أخرى منها حذف الصفة والموصوف، وقد أوضح ذلك ابن جني بقوله: (٧)" وقد حذف الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه، وأكثر ذلك في الشعر، وإنما كانت كثرته فيه دون النثر من حيث كان القياس يكاد يحظره".

---

(١) النمل، ٢٥.

(٢) الخصائص، ج٢، ص ١٩٦. وينظر الصاحبي لابن فارس، ص ١٧٨ ، ١٧٩ ، وقد سبقه بهذا الرأي.

(٣) يوسف، ٢٩ .

(٤) الأعراف، ١٤٣ .

(٥) المفصل، ص٤٤،٤٥. وإلى ذلك ذهب ابن الأنباري في أسرار العربية، ص ٢٢٨، وينظر كلام مشابه في الجمل ص ١٥٦.

(٦) ينظر هذا البحث ، ص ٢٤٠ .

(٧) الخصائص، ج٢ ص ٣٦٦ . وينظر كلام قريب من هذا في ابن يعيش، شرح المفصل، ج٣ ، ص ٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويوضح أن الصفة من مقامات الإسهاب والإطناب لا من مظان الإيجاز والاختصار، فلا يليق بها الحذف، ويتحوط أكثر فيقول:(١) " إن عريت من الدلالة عليها من اللفظ أو الحال فإن حذفها لا يجوز".

وشبيه بذلك موقف الزمخشري إذ يقول:(٢) " وحقّ الصفة أن تصحب الموصوف إلا إذا ظهر أمره ظهوراً يستغني معه عن ذكره، فحينئذ يجوز تركه، وإقامة الصفة مقامه ".

وابن يعيش يجمل ما تقدّم قائلاً(٣): "اعلم أنّ الصفة والموصوف كانا كالشيء الواحد من حيث كان البيان والإيضاح إنما يحصل من مجموعهما كان القياس ألا يحذف واحد منهما؛ لأنّ حذف أحدهما نقض للغرض وتراجع عمّا اعتزموه، فالموصوف : القياس يأبى حذفه لما ذكرنا، ولأنه ربما وقع بحذفه لبس،..... ".

وأما السيوطي فأوضح أنه لا يجوز حذف الصفة؛ لأن حذفها ينافي معناها(٤).

الحـــال

ذكر ابن جني أن " حذف الحال لا يحسن، وذلك أن الغرض فيها إنما هو توكيد الخبر بها، وما طريقه التوكيد غير لائق به الحذف؛ لأنه ضدّ الغرض ونقيضه"(٥). وعندما وجد نفسه مضطراً إلى إجازة حذفها في مواضع ذكرها لما ظهر عليها من قرائن، قال:(٦) "لو عريت الحال من هذه القرينة، وتجرد الأمر دونها لما جاز حذف الحال على وجه."

مالايحذف عند النحاة:

العوض لا يحـذف

ذكر سيبويه أن العوض مما يعرض للكلم،وقرنه بالحذف، وجعلهما معاً على غير الأصل، ومثّل له. وقد وقف عند قول عباس بن مرداس:

أبا خراشةَ أمّا أنت ذا نفرٍ فإنّ قوميَ لم تأكلْهم الضبُع

وأوضح أن "أمّا" هي (أن) ضمّت إليها (ما)، وفي ذلك تعويض عن (كان) المحذوفة التي بقي أثرها ماثلا في نصب (ذا). ولا يجوز حذف ما عوّض به لأن في ذلك إجحافاً(٧).

---

(١) الخصائص، ج٢، ص ٣٧١ .

(٢) المفصل، ص ١١٦ ، وينظر مشابه في ابن يعيش، شرح المفصل، ج٣ ص ٦٣ .

(٣) شرح المفصل، ج٣ ، ص ٥٩ .

(٤) الأشباه والنظائر ، ج٢ ، ص ٢٣٠ .

(٥) الخصائص، ج٢، ص ٣٧٨ .

(٦) نفسه، ج٢، ص ٣٧٩، وقد سبق ذكره في هذا البحث لأمر آخر، ينظر ص ٣٧.

(٧) الكتاب، ج١، ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ . وسيكون لهذا البيت وقفة أخرى، ينظر هذا البحث، ص٢١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقف السيوطي مطوّلاً عند هذا الأمر، ويفرده بعنوان خاصّ، يوضح فيه المثال السابق، ويضيف أمثلة أخرى : فلا يجوز – مثلاً – حذف (لا) من قولهم: افعل هذا إما لا، فلو كانت كذلك لما جاز حذفها لأن العوض لا يحذف، ويعزز كل هذا بأمثلة فيها حذوف صرفية(١).

المؤكّد لا يحذف

يذكر ابن هشام أن أوّل من أشار إلى ذلك الأخفش، ففي قولهم : الذي رأيت زيدٌ، منع أن يؤكد العائد المحذوف بقولك : "نفسه" وعلل ذلك بأنّ المؤكّد يريد الطول، والحاذف يريد الاختصار، وهما لا يلتقيان. وعلى رأيه جرى الفارسي، وتلميذه ابن جني، وتبعهم ابن مالك. وهذا المثال الذي يكرره النحاة يبدو غير منسجم مع العنوان، فالمثال يدل على أن المحذوف لايؤكد. وعندما واجهوا قول الأعشى:

إنّ محلاً وإن مُرتحلاً وإن في السّفْر الذين مضوا مهلا.

وقد كان سيبويه قدر له خبرا محذوفا(٢)، أقرّوا بحذف الخبر على الرغم من أنه مؤكّد لكنهم تعلّلوا بأن المؤكّد هو نِسبة الخبر إلى الاسم، لا الخبر نفسه(٣).

المؤكّد لا يحذف

وقد نصّ ابن جني على أن المؤكّد أيضا لا يجوز حذفه، فهو يقول(٤): "ولم أعلم المصدر حذف في موضع، وذلك أن الغرض منه إذا تجرّد من الصفة أو التعريف أو عدد المرّات، فإنما هو لتوكيد الفعل، وحذف المؤكّد لا يجوز".

ثم يحزم أمره، فيجعل تنافي الحذف والتوكيد مذهبا عاماً للّسان العربي، فيقول(٥): "كلّ ما حذف تخفيفا لا يجوز توكيده لتدافع حاليه به من حيث التوكيد للإسهاب والإطناب، والحذف للاختصار، فاعرف ذلك مذهبا للعرب". وقد ذهب ببعضهم الأمر إلى أن عامل المؤكّد لا يجوز حذفه أيضا، فـ" المصدر المؤكّد لا يجوز حذف عامله، لأنه مسوق لتقرير عامله وتقويته، والحذف منافٍ لذلك"(٦).

---

(١) ينظر الأشباه والنظائر، ج١ ، ص ١٣٢ . ووازن بابن هشام ، المغني ، ص ٧٩٥ .

(٢) ينظر الكتاب، ج٢، ص ١٤١. والرواية هنا: "وإن في السفر مامضى مهلا".

(٣) ينظر ابن هشام، المغني، ص ٧٩٣،٧٩٤، وينظر السيوطي، الأشباه والنظائر، ج١، ص ٢٧٦،٢٧٧ للتوضيح.

(٤) الخصائص ج٢ ، ص ٣٧٩ .

(٥) نفسه، ج١، ص ٢٨٩ .

(٦) ابن عقيل، شرح ابن عقيل، ج١، ص٥٦٣، وينظر أوضح المسالك ج٢، ص٣٦، وينظر في هذه المسألة أيضا: الخصائص، ج٢، ص ٢٧٣، وشرح المفصل، ج٢، ص١٥، ج٨، ص٧، والأشباه والنظائر، ج١، ص٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المختصر لا يحذف

يرى النحاة أن المختصر لا يجوز حذفه، لأنّ الحذف اختصار، واختصار المختصر إجحاف. وقد جعلوا اسم الفعل من المختصر، فهو مختصر الفعل، فلم يجيزوا اختصاره بحذفه دون معموله، وعندما واجهوا رأي سيبويه في قول جارية الأنصار:

يا أيها الماتحُ دلوي دونكا إني رأيت الناسَ يحمدونكا

إذ قدّر : دونك دلوي. قالوا : إنما أراد تفسير المعنى لا تقدير الإعراب، وقدروا المحذوف فعلاً هو "خُذ". بل عززوا موقفهم بتخريج ثانٍ يبعدهم عن تقدير محذوف، فجعلوا دلوي مبتدأ ودونك خبره(١).

وعدّوا حروف المعاني من المختصر لأنها دخلت الكلام لضرب من الاختصار، ففي قولك: ما قام زيد، نابت (ما) عن "أنفي" وفي قولك: قام القوم إلا زيداً، نابت (إلا) عن أستثني، وإذا حذفت فأنت تختصر مختصراً، وذلك انتهاك وإجحاف، فالجارُ والناصب والجازم عوامل ضعيفة، ولا يجوز حذفها إلا في مواضع محدّدة حيث تقوى الدلالة على تلك المحذوفات، ويكثر الاستعمال، وفي كل الحالات لا يجوز القياس عليها، ذكر ذلك ابن هشام(٢)، ونقله السيوطي(٣).

وأضاف السيوطي في مكان آخر أن جمهور النحاة منع حذف إن، ولم يجز حذف غيرها من أدوات الشرط إجماعاً، وكذا لم يُجز حذف سائر الجوازم، ولا حذف حرف الجرّ(٤).

وزاد الأمر وضوحاً عندما أقرّ موقف بعض النحاة في أن الجازم أضعف من الجار، وبنى عليه أنه لا يضمر البتة مخالفاً في ذلك موقف الكوفيين، لا سيما في مسألة أن فعل الأمر مجزوم بلام محذوفة. وأكدّ الأمر برأي آخر نصّه: "الجازم في الأفعال نظير الجارّ في الأسماء وأضعف منه، لأن عوامل الأفعال أضعف من عوامل الأسماء، وإذا كان حذف حرف الجرّ وإبقاء عمله ضعيفا، فإن ضعف حذف الجازم وإبقاء عمله أولى وأحرى"(٥).

---

(١) ينظر ابن هشام، المغني ، ص ٧٩٤ .

(٢) ينظر المكان نفسه .

(٣) ينظر الأشباه والنظائر، ج١، ص ٢٥٠ – .

(٤) نفسه، ج٢، ص ١٠٩ .

(٥) ينظر الأشباه والنظائر، ج٢، ص ١١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذا يقود إلى الحديث عن حذف الجارّ الذي ناء النحاة بأمره، وحار سيبويه نفسه في ذلك متردداً بين ما يعلنه نظرياً من عدم جواز حذفه، وتبرير تجليات الواقع التي تثبت أن الحذف واقع على الرغم من أنف القاعدة المعلنة، فهو يقول مثلاً:

- " الجار لا يضمر"(١)، ويقول: " حرف الجرّ لا يضمر"(٢)، ويقول: " لا يجوز أن يضمر الجار"(٣)، ويتراخى حيناً فيقول : ليس في كل موضع يضمر الجارّ(٤). ثم يقول: ليس كل جار يضمر، ..... ولكنهم قد يضمرونه ويحذفونه فيما كثر من كلامهم ....(٥) وأخيرا تحت وطأة كثرة الأمثلة التي وقع فيها الحذف تراه يقرّه في كثير من المواضع(٦).

والسيوطي أيضا يعبر عن رأيه ورأي من سبقه من النحاة في غير موضع، مصّراً على أنّ حذف حرف الجرّ يأباه القياس، ولا يجوز إضماره(٧). ولعلّ ابن يعيش كان أكثرهم وضوحاً وأخصرهم طريقاً إلى هدفه إذ قال : " فقد ثبت حذف الجارّ في الاستعمال وإن كان قليلا "(٨). وموقفهم من حذف الجارّ يثبت أنهم كانوا أقرب إلى منعه، ولم يسلموا بوقوعه إلا عند تكاثر الأمثلة التي وقع فيها الحذف.

وقريب من قولهم : المختصر لا يختصر، قولهم: الجزء لا يحذف، وقد عدّوا الفاعل جزءاً من الفعل(٩).ولذلك لم يجيزوا حذفه.

فالمبرد يقول:(١٠)" لم يجزْ حذف الفاعل لأن الفعل لا يكون إلا بفاعل".

وابن هشام يقول:(١١) " لا يحذف الفاعل ولا نائبه".

وابن مالك يقول:(١٢) لا يحذف الفاعل إلا مع رافعه المدلول عليه ". وعلى ذلك مضوا إلا بعضهم كالكسائي والسهيلي وابن مضاء القرطبي الذين أجازوا حذفه.

---

(١) الكتاب، ج١، ص ٢٥٤ .

(٢) نفسه، ج١، ص ٩٤ .

(٣) نفسه، ج١، ص ٢٦٣ .

(٤) نفسه، ج٢، ص ١٦٦ .

(٥) نفسه، ج٢، ص ١٦٣ .

(٦) نفسه، ج٢، ص ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٢ .

(٧) ينظر الأشباه والنظائر، ج١، ص٣٥، ج٢، ص ١٠٩، ١٨٦ ، ٢٣٩ .

(٨) شرح المفصل، ج٣ ، ص ٢٧. وينظر الشنتمري، النكت، ج١، ص ٥٠١، والجارّ عنده يحذف كثيراً.

(٩) ينظر ابن الأنباري، أسرار العربية، ص ٧٩ - ، والسيوطي، الأشباه والنظائر، ج٢، ص٦٢، ١٦٢ .

(١٠) المقتضب، ج١، ص ١٥٧ .

(١١) شرح الشذور ، ص ١٦٥ .

(١٢) تسهيل الفوائد، ص ٧٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من مواطن الحـذف في القرآن الكريـم

تمهيد

مما يجدر التنويه إليه هنا أن ما يرد من شواهد هو للتمثيل، فالهدف تقديم نماذج، وليس استقصاءً لكلّ ما أورده النحاة من أمثلة للحذف في القرآن الكريم، ولو ذهب البحث يستقصي لثقل وترهل بما يجزي عن كلّه التمثيل ببعضه. والشواهد منثورة يجدها طالبها أنّى شاء في كتب النحو، وإعراب القرآن، وتفسيره، فهي تفيض بها، ولا تكاد تخلو صفحة منها(١).

وسأحرص -إلا متمثلاً- على عدم الإكثار من ذكر أوجه الخلاف في المسألة الواحدة، لما ينجم عن ذلك من تشتت. ولكني سأحرص -ما استطعت- أن تكون النماذج المقدّمة منوعة، ومن كتب مختلفة تشمل كتب النحو، وإعراب القرآن، وتفسيره، وأطمح في أن يسمح ذلك بتكوين صورة واضحة عن ظاهرة الحذف في القرآن الكريم كما رآها النحاة، وعرضوها، ومثّلوا لها، ليكون كل ذلك مستندا كافياً عند تقييم جهدهم في الفصل الأخير.

ولعلّ من المفيد أن تسير الأمثلة على النسق التالي :

- حذف الأسماء.
- حذف الأفعال والجمل.
- حذف الحروف.

---

(١) جمع منها عبد الفتاح الحموز طائفة عظيمة، ينظر كتابه التأويل النحوي في القرآن الكريم، ج١، ص١٣٣ ومابعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من مواطن الحذف في القرآن الكريم

حـذف الأسماء

حذف المبتدأ

- يكثر حذفه – كما أورد النحاة – في جواب الاستفهام لتقدّم الدليل عليه مثل :

﴿وما أدراك ما هي ، نارٌ حامية ﴾(١). أي : هي نار حامية.

﴿وما أدراك ما العقبة، فكُّ رقبة ﴾(٢). أي : هي فـك رقبـة.

- بعـد فـاء الجـواب، مثـل:

﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾(٣). أي: فعمله لنفسه، وإساءته لنفسه.

﴿فإن لم يصبها وابلٌ فَطَلٌّ ﴾(٤). أي: فهو طـلٌ.

- بعد القول ، مثل:

﴿وقالوا أساطيرُ الأولين﴾(٥). أي : هي أساطير.

﴿يسألونك ماذا ينفقون قل العفوُ﴾ (٦). أي: هو العفـو.

- في أسلوب المـدح والـذم ، مثل:

﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبدُ إنّه أواب﴾(٧). أي: نعم العبد هو.

﴿فحسبه جهنمُ ولبئس المهـادُ﴾(٨). أي : بئس المهاد جهنم.

---

(١) القارعة، ١٠،١١ . ينظر ابن خالويه، أبو عبد الله الحسين بن أحمد، إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، المكتبة الثقافية، بيروت، ص١٦٤، والزجاج، إعراب القرآن، ج١ ص ١٩١، وسأرجع إليه باسم الزجـاج، والعكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق علي محمد البجـاوي، عيسـى البابي الحلبي وشركاه، ج٢، ص١٣٠١، وسأرجع إليه باسم العكبري اختصـاراً، وابـن هشـام، المغنـي، ص٨٢٢. وسأرجع إليه باسم المغني.

(٢) البلد، ١٢، ١٣، ينظر الـزجـاج ج١ ص ١٩١. وينظر شواهد أخرى في المطففيـن، آية ٢٠، والواقعـة، ٢٧، ٢٨.

(٣) فصلت، ٤٦، والجاثية، ١٥. ينظر المغني ، ص ٨٢٢، ٨٢٣ .

(٤) البقرة، ٢٦٥، ينظر المغني، ص ٨٢٣. وينظر شواهد أخرى في البقرة، الآيات ١٨٤،١٨٥،٢٢٠،٢٨٢.

(٥) الفرقان، ٥، ينظر المغني، ص٨٢٣.

(٦) البقرة، ٢١٩، ينظر الزجاج ج١ ص١٩١. وينظر شواهد في الذاريات، ٥٢، الكهف، ٢٢، البقـرة، ٥٨، النساء، ٨١.

(٧) ص، ٣٠، ينظـر الزجاج ، ج١، ص١٧٥، والعكبري، ج٢، ص ١١٠٠، والمفصّـل ص ٢٧٤، وشـرح المفصل، ج٧، ص ١٣٩.

(٨) البقرة، ٢٠٦، ينظر العكبري، ج١، ص١٦٨. وينظر شواهد في البقرة، ١٢٦، النحل، ٢٩، الزمر، ٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- في الجمل المستأنفة المبدوءة بفعل مضارع، مثل :

﴿ستُدْعَوْن إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون﴾(١). أي: أو هم يسلمون.

﴿ومن الناس من يشتري لهوَ الحديثِ ليضلَّ عن سبيل الله بغير علم ويتخذُها هزوا﴾(٢). أي: وهو يتخذها هزوا .

- في الجملة المبدوءة بفعل مضارع مسبوق بواو الحال، وغير مقترن بقد :

لا يجيز النحويون أن يكون الفعل المضارع في مثل هذا الموضع حالاً، فيقدرون مبتدأ لتجاوز هذا الشرط الصناعي(٣). ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه﴾(٤). أي وهو يشهد.

- في صدر صلة الموصول، مثل :

﴿ثمّ لننزعنّ من كلّ شيعةٍ أيُهم أشدُ على الرحمنِ عتيا﴾(٥).

وفيها أقوال عدّة(٦). أحدها أن (أي) اسم موصول حذف صدر صلته أي: أيهم هو أشدّ(٧).

﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾(٨). أي: وهو الذي هو في السماء إله.

- يحذف المبتدأ بعد " بل " مثل:

﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربّهم يرزقون﴾(٩). أي: بل هم.

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عبادٌ مكرمون﴾(١٠). أي: بل هم.

- يحذف المبتدأ الموصوف، وتبقى صفته، مثل:

---

(١) الفتح، ١٦، ينظر المغني ص ٦٢٤ .

(٢) لقمان، ٦، ينظر العكبري، ج٢، ص ١٠٤٣ .

(٣) ينظر شرح ابن عقيل، ج١، ص ٦٥٦ .

(٤) البقرة، ٢٠٤، ينظر العكبري، ج١، ص ١٦٦ .

(٥) مريم، ٦٩ .

(٦) ينظر المغني، ص ١٠٧ وما بعدها .

(٧) ينظر سيبويه، الكتاب، ج٢، ص٣٩٩، والعكبري، ج٢، ص٨٧٨، وينظر ابن الأنباري: البيان في غريب إعراب القرآن، تحقيق محمد طه عبد الحميد طه، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠، ج٢، ص١٣٠. وسأرجع اليه باسم ابن الأنباري.

(٨) الزخرف، ٨٤، ينظر المغني، ص ٥٦٧، والأمالي الشجرية، ج١، ص٧٥، والعكبري، ج٢، ص١١٤٢.

(٩) آل عمران، ١٦٩، ينظر النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل، إعراب القرآن، تحقيق زهير غازي زاهد، مطبعة العاني ببغداد، ١٩٧٧، ج١، ص٣٧٧. وينظر العكبري، ج١، ص ٣٠٩.

(١٠) الأنبياء، ٢٦، ينظر ابن الأنباري، ج٢، ص ١٦٠، والعكبري، ج٢، ص ٩١٦، والمغني، ص١٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم﴾(١).

- يكثر حذف المبتدأ إن كان اسم إشارة مثل:

﴿لم يلبثوا إلا ساعةً من نهارٍ بلاغٌ﴾(٢). أي: ذلك بلاغ، أو هذا بلاغ.

﴿سورةٌ أنزلناها﴾(٣). أي: هذه.

- يحذف المبتدأ في ما ظاهره بقاء المشبه به وحذف المشبه، مثل:

﴿كدأب آلِ فرعونَ والذين من قبلهم﴾(٤). أي: حال الكافرين كدأب آل فرعون.

- يحذف المبتدأ في ما ظاهره وجود فاعلين لفعل واحد، مثل :

﴿وأسرّوا النجوى الذين ظلموا﴾(٥).

الذين ظلموا خبر لمبتدأ محذوف، كأنه قال : وأسروا النجوى، فقيل: من هم؟ فقال: الذين ظلموا .. أي: هم.

حذف الخبر

- يحذف الخبر إذا تقدم ذكره أو تأخر فيكون في ذلك دلالة عليه، مثل :

﴿إنّ الله بريءٌ من المشركين ورسوله﴾(٦). أي: ورسوله بريء، فقد تقدّم ذكره.

﴿الله ورسولُه أحقُّ أن يُرضوه﴾(٧). أي: الله أحق، وقد لحق ذكره.

- بعد لولا:

فرّق النحاة بين الكون العام والكون الخاصّ في هذه المسألة، فأوجبوا حذف الخبر إن دلّ على كون عام (مطلق)(٨). مثل: ﴿فلولا فضلُ اللـه ورحمتُه لَكنتم من الخاسرين﴾(٩). أي: لولا

---

(١) المائدة، ١٤، ينظر : مكي بن أبي طالب القيسي، مشكل إعراب القرآن، تحقيق حاتم صالح الضامن، الطبعة الثالثة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧، ج١، ص ٢٢١، ٢٢٢. وسأرجع إليه باسم القيسي.
وينظر شواهد أخرى في: مريم، ٧١، النساء، ٤٦، ١٥٩.

(٢) الأحقاف، ٣٥، ينظر العكبري ، ج٢ ص ١١٥٩ ، والخصائص ج٢ ص٣٦٢ .

(٣) النور، ١، ينظر الزجاج، ج١، ص ١٨٧ ، وابن الأنباري، ج٢، ص١٩١، العكبري، ج٢، ص٩٦٣.

(٤) آل عمران، ١١، ينظر العكبري، ج١، ص٢٤١،٢٤٢. وانظرالأنفال، ٥ .

(٥) الأنبياء، ٣، ينظر الكتاب، ج٢، ص٤١، والزجاج، ج١، ص١٨٣، وابن الأنباري، ج٢، ص١٥٨، والعكبري، ج٢، ص ٩١١ .

(٦) التوبة، ٣، ينظر الكتاب، ج١، ص٢٣٨، والزجاج، ج١، ص٣١١، والعكبري، ج٢، ص٦٣٤، وينظر أمثلة في المغني، ص ٨٢٤ .

(٧) التوبة، ٦٢، ينظر الزجاج، ج١، ص ٣١١، والعكبري، ج٢، ص ٦٤٨ .

(٨) ينظر المغني، ص ٣٥٩ –، وقد مرّ ذكر هذه المسألة سابقاً، ينظر هذا البحث ص ٥٨.

(٩) البقرة، ٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فضل الله حاضر، وقد لزم حذف الخبر لقيام العلم به، وطول الكلام بجواب لولا، وذهب الكوفيون إلى أن الاسم الواقع بعد لولا هذه فاعل لولا(١).

- في جملة الطلب التي لا يجوز أن تكون خبراً، مثل :

﴿والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديهما﴾(٢). أي: السارق والسارقة فيما يتلى عليكم. قاله سيبويه(٣) على مضض إذ هو يرجح النصب، ولا يجوز أن يكون قوله تعالى " فاقطعوا " هو الخبر، بل يجوز ذلك إن كان المبتدأ "الذي" وكانت صلته فعلا، لأنه عند ذاك يشبه الشرط، وهنا يجيز النحاة أن يكون فعل الأمر المسبوق بفاء الجواب خبراً.

ورأى الأخفش، والمبرد، وغيرهما أن الجملة الفعلية هي الخبر، إذ احتالوا للأمر، فعدوا الفاء زائدة، والألف واللام في "السارق" بمعنى (الذي)(٤).

- يحذف الخبر إذا كان معادل الهمزة، مثل:

﴿أفمن كان على بينة من ربّه...﴾(٥). ولم يأت المعادل، أي: كغيره، أو ما شابه.

- يحذف الخبر إذا كان معادل أم، مثل :

﴿أأنتم أعلمُ أم الله﴾(٦). أي: أم الله أعلم؟

﴿أأنتم أشدُّ خلقاً أم السماء﴾(٧). أي: أم السماء أشدّ؟

- يحذف الخبر إذا كان قسماً صريحاً، مثل:

﴿لعمرك - إنهم لفي سكرتهم يمرحون﴾(٨).

- يحذف الخبر بعد القول ، مثل:

﴿قالوا سلاماً ، قال سلامٌ ﴾(٩).

---

(١) ينظر العكبري، ج١، ص ٧٢ ، والمغني، ص ٣٦٠ .

(٢) المائدة، ٣٨.

(٣) الكتاب، ج١، ص١٤٣، وقد أجرى هذا الحكم أيضا على قوله تعالى : "الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما" النور، ٢.

(٤) ينظر في هذه المسألة: النحاس، ج١، ص ٤٩٥، والزجاج، ج١، ص٣١٠ ج٢، ص٧٤٣، والقيسي، ج١، ص٢٢٥، والعكبري، ج١، ص٤٣٥، وفي جملة الطلب، ينظر السيوطي، الهمع، ج٢، ص١٤.

(٥) هود، ١٧، ينظر العكبري، ج٢، ص٦٩٢، وينظر القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٤، ج٩، ص١٩. وينظر أمثلة في الأخفش، معاني القرآن، ج٢، ص٣٧٣، ٤٥٥.

(٦) البقرة، ١٤٠، ينظر العكبري، ج١، ص١٢٣، والمغني، ص ٨٢٤.

(٧) النازعات، ٢٧ ، ينظر العكبري، ج٢، ص ١٢٧٠ .

(٨) الحجر، ٧٢.

(٩) هود، ٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- عند القطع والاستئناف، مثل:

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر﴾(١).

بسط العكبري(٢) القول في هذه المسألة ووجوهها، إذ جاء قوله تعالى "والصائبون"بالرفع موضع إشكال فهو على أحد الأوجه مبتدأ لخبر محذوف تقديره (كذلك). والمسألة تقوم على التقديم والتأخير. قال ذلك سيبويه، وكان قد رفض تخريج المسألة على وجه ثان هو أن "الصابئون" معطوفة على موضع إنّ وما عملت فيه، وغلّط العرب فيما رُوي عنهم : " إنهم أجمعون ذاهبون" وما شابهها، وأوضح رأيه في الآية الكريمة قائلا: "وأما قوله عزّ وجلّ " "والصابئون" فعلى التقديم والتأخير، كأنّه ابتدأ على قوله (والصابئون) بعد ما مضى الخبر"(٣).

﴿اليوم أُحلّ لكم الطيباتُ وطعامُ الذين أوتوا الكتاب حِلٌّ لكم....والمحصنات..﴾(٤).

- بعد فاء الجواب، مثل:

﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدةٌ من أيام أخر﴾(٥). أي: فعليه عدّة أيام، ويجوز أن يقدر مبتدأ محذوف أي: فالواجب عدّة من أيام ..

ومما يجدر ذكره هنا أن هناك مواضع أجاز فيها النحاة تقدير أي من المحذوفين: المبتدأ والخبر، مثل:

﴿فصبرٌ جميلٌ﴾(٦). يحتمل حذف الخبر، أي: صبر جميل أجمل. أوالمبتدأ، أي: فأمري صبر جميل.

﴿طاعةٌ معروفةٌ﴾(٧). يحتمل حذف الخبر، أي: طاعة معروفة أمثل. أو المبتدأ، أي: أمركم طاعة معروفة.

﴿سورةٌ أنزلناها﴾(٨) يحتمل حذف الخبر، أي: فيما أوحينا إليك سورة. أو المبتدأ، أي: هذه.

---

(١) المائدة، ٦٩ .

(٢) العكبري، ج١، ص ٤٥٠ وما بعدها .

(٣) الكتاب ، ج٢، ص ١٥٥ .

(٤) المائدة، ٥، ينظر العكبري، ج١، ص ٤٢٠، والمغني، ٨٢٤ .

(٥) البقرة، ١٨٤، ومثلها كثير، ينظر ١٨٥ ، ١٩٦ ، ٢٢٩ ، ٢٦٥ .

(٦) يوسف، ١٨.

(٧) النور، ٥٣.

(٨) النور، ١، تنظر هي وغيرها في المغني ص ٨٢٦، والزجاج، ج٢، ص٧٤٦ .وينظر : السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت، ١٩٨٧ ج٣، ص١٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حـذف اسم ليـت

يرى جمهور النحاة أن ليت تعمل عمل ليس، ولا يذكر بعدها إلا أحد معموليها، وغالباً ما يكون المحذوف هو المرفوع، وعلى ذلك يُخرَّج قوله تعالى :

﴿ولات حين مناص﴾(١). أي: لات الحين حين مناص، وهذا ظاهر قول سيبويه فيها.

حـذف خبر إنّ وأخواتها

- يرد أحياناً في القرآن الكريم إخبار عن (إنّ) بإن ثانية مع اسمها وخبرها، مثل :

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إنّ اللـه يفصلُ بينهم يوم القيامة﴾(٢). يصح أن تكون إنّ الثانية واسمها والخبر خبراً لإنّ الأولى. ويجوز في أحد أوجه أن يقدّر خبرٌ لإنّ الأولى تقديره: مفترقون يوم القيامة، أو نحو ذلك.

- فيما يبدو أنه عطف على موضع إنّ، مثل :

﴿إنّ الله وملائكتهُ يصلون على النبي﴾(٣). وذلك على قراءة (أبي عمرو) برفع "ملائكته"، أي: إنّ الله يصلي وملائكته يصلون.

حـذف خبر لا

وهو مما يكثر حذفه، ومن أمثلته:

﴿لا تثريب عليكم﴾(٤). ﴿قالوا لا ضير﴾(٥). ﴿يا أهل يثرب لا مُقام لكم﴾(٦).

---

(١) ص، ٣، ينظر الكتاب، ج١، ص٥٧، والعكبري، ج٢، ص ١٠٩٧ .

(٢) الحج، ١٧، ينظر ابن الأنباري، ج٢، ص١٧٠،١٧١، والعكبري، ج٢، ص ٩٣٦ .

(٣) الأحزاب، ٥٦، ينظر المغني، ص ٧٩١ .

(٤) يوسف، ٩٢.

(٥) الشعراء، ٥٠.

(٦) الأحزاب، ١٣، ينظر ذلك في المغني، ص٣١٣. وكان قد قال عن خبر لا: يحذف كثيرا إن علم، المغني (ص٣١٥) وقال أيضا: كثر حتى قيل لايذكر. (المغني، ص٨٢٦).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حـــذف الفاعل ونائبــه

وقع خلاف في أمر حذف الفاعل بين مانع ومُجيز(١).

ومما وقع فيه حذف الفاعل:

- التعجب بصيغة أفْعِل، مثل:

﴿أبصِرْ به وأسمِعْ﴾(٢). فالهاء تعود على الله عزّ وجل، وموضعها رفع،لأن التقدير : أبصر الله، والباء زائدة. وهكذا في فعل التعجب الذي هو لفظ الأمر"(٣).

- يحذف فاعل المصدر، مثل:

﴿أو إطعامٌ في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة﴾(٤).

- يحذف فاعل المدح أو الذم ، مثل:

﴿بئس مثلُ القوم الذين كذبوا﴾(٥). أي: بئس المثل مثل القوم .

- يحذف الفاعل فيما ظاهره أن الفاعل جملة، مثل :

﴿ثمّ بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجُنُنّه﴾(٦).

رأى سيبويه(٧) أن الفاعل هو جملة "ليسجننّه". ورأى غيره(٨) أن الفاعل محذوف وتقديره: بداءٌ أو رأي.

- يحذف الفاعل فيما ظهر عَوْد الضمير إلى غير مذكور، مثل :

﴿كلاّ إذا بلغت التراقي﴾(٩). أي: الروح.

---

(١) سبقت إشارة إلى هذه المسألة ، ينظر هذا البحث، ص٧٢. وينظر مزيد من التوضيح وعرض الآراء في : ابن مالك، التسهيل، ص ٧٦ . والعكبري، ج٢، ص ٩٢١، والزركشي، ج٣، ص١٤٣. وابن هشام، شرح قطر الندى وبلّ الصّدى، نشرة محمد محيي الدين عبد الحميد، ص ١٨٣ والمغني ص ٧٩٢، والسيوطي، الأشباه والنظائر، ج٢، ص٦٣.

(٢) الكهف، ٢٦.

(٣) ابن الأنباري، ج٢، ص١٠٦، والعكبري، ج٢، ص ٨٤٤، وينظر القرطبي، الجامع الكبير، ج١٠، ص ٣٩٧.

(٤) البلد، ١٤، ١٥ .

(٥) الجمعة، ٥، ينظر المغني ، ص ٧٩٣ . والرأي لابن عطية .

(٦) يوسف، ٣٥ .

(٧) الكتاب، ج٣، ص ١١٠.

(٨) ينظر العكبري، ج٢ ص ٧٣٢ .

(٩) القيامة، ٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

﴿حتى توارتْ بالحجاب﴾(١). أي: الشمس. ومثل هذا اعتمد عليه الكسائي في تجويز حذف الفاعل مطلقاً إن وجد الدليل، إذ إن فاعل (توارت) هي (الشمس)، ولم يجرِ لها ذكر، ولكن دلّت الحال عليها(٢).

حـذف المفعول به

أوضح الزجاج كثرة حذف المفعول به في القرآن بقوله:

" ونحن نذكر من ذلك ما يدق النظر فيه، لأن ذلك لو حاول إنسان أن يأتي بجميعه توالت عليه الفتوق، ولم يمكنه القيام به لكثرته في التنزيل، وكان بمنزلة من يستقي من بئر زمزم، فيغلبه الماء"(٣). وكرر الإشارة إلى ذلك في مواضع أخرى(٤).

ولعلّ الزجاج لم يكن مبالغاً في قوله هذا، ويكفي للتدليل على مدى شيوعه في القرآن الكريم أن نستحضر كم حذف المفعول به في سورة "الكافرون" أو "الضحى" مثلاً، على الرغم من قصر كل منهما.

والناظر في نهايات الكثير الكثير من الآيات الكريمة يروعه فيض من حذف المفاعيل، وكثير من الحذوف مجلبة للهول والخوف، مثل قوله تعالى:

﴿كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون﴾(٥).

﴿كلا سوف تعلمون ثم كلاّ سوف تعلمون﴾(٦).

ويهم البحث هنا أن يعرف كيف رأى النحاة هذا الحذف، وكيف مثلوا له . والملاحظ أنهم درجوا على أن يقسموا حذف المفعول قسمين : حذف اقتصار، وحذف اختصار(٧).

---

(١) ص، ٣٢ .

(٢) ينظر الأمالي الشجرية، ج١، ص ٥٩ ، وابن والأنباري، ج٢، ص ٤١٧، والعكبري، ج٢، ص ١١٠٠، وشرح شذور الذهب، ص ٣٢ .

(٣) إعراب القرآن، ج٢، ص ٤٠٥ ، وقد أورد أمثلة كثيرة جداً في أكثر من ١٠٠ صفحة.

(٤) نفسه ، ص ٤٧٧، ٥٠٣.

(٥) النبـأ، ٤، ٥.

(٦) التكاثر، ٣،٤.

(٧) ينظر في هذين النوعين، وفي الأمثلة، المفصل، ص ٥٣، وابن مالك، التسهيل ، ص ٨٥، وابن هشام ، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، ج١، ص٣٢٢، والسيوطي، الأشباه والنظائر، ج٢، ص ١٧٥. والإتقان في علوم القرآن، ج٣، ص ١٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الاقتصار، وهو الحذف لغير دليل، فالمفعول به غير مذكور لفظاً، وغير مَنْويّ معنى، مثل:

﴿كلوا واشربوا﴾(١).

﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾(٢).

﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾(٣).

المعنى في كلّ ما تقدّم يقع على إيقاع الفعل، دون التفات إلى ما يقع عليه هذا الفعل، وقد جعل المفعول به هنا نسيا منسياً كأن فعله فعل لازم ..

- الاختصار : هو أن يحذف المفعول به لفظاً ويراد معنى وتقديراً، مثل :

﴿الله يبسطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويقدر﴾(٤).

﴿لا عاصمَ اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾(٥).

وهناك مواطن شاع فيها حذف المفعول به، وتعقبتها أقلام النحاة، ومنها:

- العـائـد:

يحذف المفعول به إن كان عائداً طلباً للتخفيف، وبعداً عن الإطالة، ومنه عائد الموصول، مثل: ﴿أهذا الذي بعث اللهُ رسولا﴾(٦). أي: بعثه .

﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾(٧). أي: تبدونه ، وتكتمونه .

ومثل هذا كثير في القرآن. وقد قال عنه الزجاج: " وحذف العائد من الصلة إلى الموصول أكثر من أن أحصيه لك في التنزيل"(٨).

ومنه عائد الموصوف، " وقد كثر مجيء الصلة محذوفا منها العائد إذا كان مفعولاً في التنزيل، حتى إنّ الحذف في التنزيل أكثر من الإثبات فيها ، والصفة كالصلة .... فإذا كان كذلك حسن الحذف منها حُسنه من الصلة"(٩). ومن الأمثلة:

---

(١) الطور، ١٩.

(٢) البقرة، ٢٥٨.

(٣) الزمر، ٩.

(٤) الرعد، ٢٦ .

(٥) هود، ٤٣ .

(٦) الفرقان، ٤١ .

(٧) البقرة، ٣٣ . ينظر الأمالي الشجرية، ج١، ص ٩٣ ، ٣٢٥، وشرح المفصل، ج٢، ص٣٩، + ج٣، ص١٥٢، والمغني، ص٨٢٩.

(٨) إعراب القرآن ، ج٢، ص ٤٧٨ .

(٩) نفسه، ص٣١٤. وينظر أمثلة أيضا. وينظر توضيح في الأمالي الشجرية، ج١، ص٩٣، وأمثلة لحذف العائد، ج١، ص ٣٢٦- ..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

﴿ومنهم من أغرقنا﴾(١). أي : أغرقناه.

- يحذف المفعول به رعاية للفاصلة، مثل:

﴿فقل هل لك إلى أن تزكّى، وأهديكَ إلى ربك فتخشى، فأراه الآيةَ الكبرى، فكذّب وعصى، ثم أدبر يسعى، فحَشَرَ فنادى﴾ ....(٢).

- يحذف مفعول المشيئة والإرادة من أسلوب الشرط:

يلزم من وجود المشيئة وجود المشاء، ولذلك اطرد حذف مفعولها، وقد ذُكر أن مفعول المشيئة والإرادة لا يذكر إلا إذا كان غريبا أو عظيما(٣). ومن أمثلة حذفه :

﴿فلو شاء لهداكم﴾(٤). أي: فلو شاء هدايتكم .

﴿ولو شاء اللهُ لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾(٥). أي: ولو شاء الله أن يذهب...

وقد يقع في غير الشرط، مثل:

﴿ولا يحيطون بشيءٍ من علمه إلا بما شاء﴾(٦).

- يحذف المفعول به في باب التنازع، مثل:

﴿قال آتوني أُفرغْ عليه قِطرا﴾(٧). أي: آتوني قطراً أفرغه عليه.

- في باب المفعولين قد يحذف أحدهما، مثل :

﴿ولسوف يعطيك ربُّك فترضى﴾(٨).

وقد يحذفان معا ، مثل :

﴿أين شركائي الذين زعمتم﴾(٩). ﴿فأما من أعطى واتقى﴾(١٠).

- يحذف في غير ما ذكر لتقدم الدليل، مثل:

---

(١) العنكبوت، ٤٠، ينظر العكبري، ج٢، ص١٠٣٣ .

(٢) النازعات، ١٨- ٢٣، وينظر شواهد في سورة النجم، آية ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٨، ينظر الزجاج، ج٢، ص٥٠٣، والمغني، ص٨٣٠، وينظر أمثلة في الإتقان ج٣، ص ١٧٢ .

(٣) ينظر الإتقان ، ج٣ ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٤) الأنعام، ١٤٩ ، ينظر المغني ص ٨٢٨ .

(٥) البقرة، ٢٠، وينظر شواهد في البقرة أيضاً آية، ٧٠ ، ٢٢٠ ، ٢٥٣ .

(٦) البقرة، ٢٥٥، ينظر الإتقان، ج٣، ص ١٧٢ .

(٧) الكهف، ٩٦، ينظر ابن الأنباري، الإنصاف، ج١، ص ٨٧ ، والبيان في غريب إعراب القرآن، ج٢، ص ١١٦، والعكبري، ج٢، ص ٨٦٢ .

(٨) الضحى، ٥ ينظر الزجاج، ج٢، ص ٥٠٣، والمغني، ص٨٣٠ .

(٩) القصص، ٧٤. ينظر الزجاج، ج٢، ص٤١٢ ، ٤٣٧.

(١٠) الليل، ٥ ، ينظر المغني، ص ٨٢٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

﴿فمن لم يجدْ فصيامُ شهرين﴾(١). ﴿فمن لم يستطعْ فإطعامُ ستين مسكينا﴾(٢).

أي: فمن لم يجد الرقبة ، ومن لم يستطع الصوم.

حذف المنادى

يُلحق النحاة في العادة المنادى في باب المفعول به، مفترضين أنه منصوب بفعل مضمر تقديره : أدعو أو نحوه. وقد عدوه محذوفا في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، مثل:

- ما ظاهره نداء ليت:

﴿يا ليتني كنت معهم فأفوزَ ..﴾(٣).

- ما ظاهره نداء المصدر:

﴿قال يا بشرى﴾(٤).

- ما ظاهره نداء الفعل:

﴿ألا يا اسجدوا﴾(٥).

حذف الحال

تحفظ النحاة على حذف الحال - كما مر - ومنعوا حذفها في مواضع. لكنهم أجازوا حذفها إن قام على ذلك دليل(٦). ومن ذلك :

---

(١) المجادلة، ٤، ينظر في هذا والذي يليه المغني ، ص ٨٢٩ .

(٢) المجادلة، ٤ .

(٣) النساء، ٧٣، ينظر العكبري، ج١، ص٣٧٢، والمغني، ص ٤٨٨. وينظر شواهد في الأنعام، ٢٧، ومريم، ٢٣، والفرقان، ٢٧ ، والزخرف، ٣٨ ، ويس، ٢٦ .

(٤) يوسف، ١٩، ينظر العكبري، ج٢، ص ١٠٨١، وابن الأنباري، الإنصاف، ج١، ص ٩٩. وينظر أمثلة له في بيان غريب إعراب القرآن، ج٢، ص ٢٩٨ .

(٥) النمل، ٢٥، والأمر موضوع خلاف بين النحاة بين تقدير محذوف، وعدم تقدير، ينظر الكتاب، ج٣، ص ٥٤٥، وينظر، الزجاج، ج٢، ص ٦٥٠، وابن جني الخصائص، ج٢ ص ٣٧٦، والزمخشري، المفصّل، ص٤٨، وابن الأنباري، البيان في غريب إعراب القرآن ، ج٢، ص ١٢١، وابن يعيش، شرح المفصل، ج٨، ص ١٢٠، وابن هشام شرح شذور الذهب، ص ١٨.

وسيكون للبحث وقفة لتوضيح مجمل آراء النحاة في هذا الأمر، ينظر هذا البحث ، ص ٢٤١.

(٦) ينظر شرح ابن عقيل، ج١،ص ٦٦١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

﴿فمن شَهِدَ منكم الشهرَ فليصمه﴾(١). أي: فمن شهده صحيحاً بالغاً، ودليل الحذف كما يراه ابن جني هو الإجماع والسنة(٢). وقد عدّ الزجاج هذا الشاهد من باب حذف الحال والصفة جميعا، وعلّق قائلاً : وهو شيء لطيف غريب"(٣).

- تحذف الحال في القول:

ويرى ابن هشام أن أكثر حذف الحال يقع في القول(٤). مثل:

﴿والملائكةُ يدخلون عليهم من كل باب سلامٌ عليكم﴾(٥). أي: قائلين سلام عليكم.

﴿إذ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيلُ ربّنا تقبّلْ منا﴾(٦). أي: قائلين ربنا...

حـذف التمييز

ذكر ابن جني أن حذفه جائز عند دلالة الحال(٧). وقد خصه ابن هشام بعنوان(٨)، ومن أمثلته: ﴿عليها تسعةَ عشرَ﴾(٩).

﴿إن يكن منكم عشرون صابرون﴾(١٠)، فالحال تدل على تمييز العددين في الآيتين السابقتين. ومثل ذلك أيضا: ﴿قال قائلٌ منهم كم لبثتم﴾(١١).

حذف المضاف إليه

ذكره كل من ابن جنيّ(١٢)، وابن هشام(١٣)، وأفرده كل منهما بحديث خاص. وهو يكثر في:

---

(١) البقرة، ١٨٥ .

(٢) الخصائص، ج٢، ص ٣٧٨ ، ٣٧٩ .

(٣) إعراب القرآن، ج٢، ص ٧٨٣ .

(٤) المغني، ص٨٣٠ .

(٥) الرعد، ٢٣ ، ٢٤.

(٦) البقرة، ١٢٧. تأمل أمثلة أخرى في البقرة، ٦٣ ، ٩٣ ، وآل عمران، ١٩١ ...

(٧) الخصائص، ج٢، ص ٣٧٨.

(٨) ينظر المغني، ص٨٣١ .

(٩) المدثر، ٣٠.

(١٠) الأنفال، ٦٥، ينظر في هذا وسابقه المغني، ص٨٣١ .

(١١) الكهف، ١٩. ينظر ابن الأنباري، البيان، ج٢، ص ١٠٣.

(١٢) الخصائص، ج٢، ص٣٦٣.

(١٣) المغني، ص٨١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ياء المتكلم مضافا إليها المنادى ، مثل:

﴿ربِّ اغفرْ لي﴾(١).

- وقد تعوَّض الياء عند حذفها بالتاء، مثل:

﴿إذ قال يوسفُ لأبيه يا أبت﴾(٢).

- يحذف المضاف إليه بعد أي، وكلّ، وبعض، وغير(٣). ومن الأمثلة:

﴿كلٌّ له قانتون﴾(٤).

تقديره : كلّ أحد منهم، لأن الأصل في كلّ أن تستعمل مضافة، ومن هنا ذهب الجمهور إلى منع دخول الألف واللام عليها لأنها تختص بالإضافة حتى وإن حذفت فهي منويّة(٥).

﴿تلكَ الرسلُ فضلنا بعضَهم على بعض﴾(٦).

- يحذف المضاف إليه بعد الغايات، مثل:

﴿للّه الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ﴾(٧). أي: من قبل ذلك ومن بعده، أو نحوه.

حذف الجار والمجرور

- يحذف الجار والمجرور إن كان فيما بقي من الكلام دليل عليهما، مثل :

﴿فإنّه يعلم السرّ وأخفى﴾(٨). أي: : وأخفى من السرّ .

﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئا﴾(٩). أي: عملاً صالحاً بسيىء، وآخر سيئاً بصالح.

---

(١) الأعراف، ١٥١، ينظر الأمالي الشجرية، ج١، ص ٣٢٧، وينظر شواهد في يوسف، ٣٣، وإبراهيم، ٣٥ ، ٣٦، ٤٠، والإسراء، ٨٠ ، وص ٣٥ ، ونوح، ٢٨.

(٢) يوسف، ٤، ينظر القيسي، ج١، ص٣٧٧، ٣٧٨، وابن الأنباري، البيان، ج٢، ص٣٢، والعكبري، ج٢، ص ٧٢١،

(٣) ينظر في ذلك، الأمالي الشجرية، ج١، ص ٣٢٨، والمفصل، ص ١٠٦، وشرح المفصل، ج٣، ص ٣٠، والمغني، ص٨١٤.

(٤) البقرة، ١١٦، وينظر ١٤٨ وآل عمران، ٧.

(٥) ينظر العكبري، ج١، ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٦) البقرة، ٢٥٣، ينظر الزركشي، ج٣، ص١٥٢، وينظر الأنبياء، ٣٣ في الموضع نفسه .

(٧) الروم، ٤، وينظر البقرة، ٨٩ – ٩١ ، ١٠٨ ، والمائدة، ١١٥، والأنفال، ٧٥، والشعراء، ١٢٠ .

(٨) طـه، ٧ . ينظر العكبري، ج٢، ص ٨٨٥ .

(٩) التوبـة، ١٠٢، ينظر الزركشي، ج٣، ص ١٥٣، وفيه أمثلة أخرى كذلك.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- يكثر حذف الجار والمجرور بعد ألفاظ الكفر والإيمان:

﴿إن الذين كفروا سواءٌ عليهم﴾ ... (١).

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا﴾ ... (٢).

- يحذف العائد المجرور تخفيفاً، مثل:

﴿واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً﴾(٣). أي: لا تجزي فيه.

﴿فاقض ما أنت قاضٍ﴾(٤). أي: قاضيه.

حذف المضـــاف

به بدأ ابن هشام(٥) ذكر أماكن من الحذف ليتمرّن عليها المعرب، وما ذلك إلا لكثرته، واقتناعه بأهميته. وكان ابن جني قد أشار إلى سعته، وردد النحاة من بعده ما قال، فقد نسب إليه الزركشي أن في القرآن منه زهاء ألف موضع(٦).

وكان ابن الشجري أيضا قد أشار إلى كثرته فقال: " حذف المضاف في كلام العرب، وأشعارها وفي الكتاب العزيز أكثر من أن يحصى، وأحسنه ما دلّ على معنى، أو قرينة أو نظير أو قياس"(٧)..

- والواقع أن كثيراً مما أورده النحاة أمثلةً لحذف المضاف، يطلبه المعنى، مثل :

﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولُنا يبيّن لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾(٨) ... فلا بد هنا من تقدير مضاف مثل : كراهة أن تقولوا، أو مخافة أن تقولوا...(٩).

﴿حتى إذا فُتحت يأجوجُ ومأجوجُ﴾(١٠).

---

(١) البقرة، ٦، ينظر الزجاج، ج١، ص ٣٠٩ .

(٢) البقرة، ٦٢، ينظر الزجاج في المكان نفسه.

(٣) البقرة، ٤٨، ينظر النحاس، ج١، ص ١٧١ وفي الأمر خلاف. وينظر الأمالي الشجرية، ج١، ص ٧٨، والعكبري، ج١، ص ٦٠ .

(٤) طـه، ٧٢ . ينظر السيوطي، الهمع، ج١، ص ٣١٠.

(٥) ينظر المغني، ص ٨١١ .

(٦) البرهان، ج٣، ص ١٤٦، وقد سبق حديث عن توسع ابن جني في حذف المضاف، ينظر هذا البحث ص:٥٥.

(٧) الأمالي، ج١، ص ٥١ ، ٥٢ .

(٨) المائدة، ١٩ .

(٩) ينظر العكبري، ج١، ص ٤٢٩ . وينظر شواهد في النحاس، ج١، ص ١٤٤ ، ١٩٩، ٢٣٠، ٢٤٥.

(١٠) الأنبياء، ٩٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

﴿ولا تجهرْ بصلاتك ولا تخافتْ بها﴾(١).

﴿إذاً لأذقناك ضِعفَ الحياةِ وضِعفَ الممات﴾(٢).

- وقد يستدعي الفهم العقدي أو المذهبي تقدير مضاف محذوف، مثل :

﴿وَجاءَ ربُّك﴾(٣). أي: أمره .

﴿لترونّ الجحيم﴾(٤). أي: عذاب الجحيم، لأن الوعيد بالعذاب لا بالرؤية فقط، فالمؤمنون أيضا يرونها، قال تعالى: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾(٥).

- وقد يستدعيه مستلزم الحكم الفقهي، مثل:

﴿حُرّمتْ عليكم الميتةُ﴾(٦). أي: تناولها ..

﴿حُرّمتْ عليكم أمهاتُكم﴾(٧). أي: الاستمتاع بهنّ ...

- وقد تفرضه الصناعة النحويّة، مثل:

﴿لمسجدٌ أُسس على التقوى من أولِ يوم﴾...(٨). أي: من تأسيس أول يوم؛ لأن "من" عند البصريين لا تدخل على الزمان .

﴿بل الإنسانُ على نفسه بصيرة﴾(٩). أي: ذو بصيرة لتتجانس مع الإنسان وهو مذكر.

- وقد يحذف مضافان معاً، مثل:

﴿وأُشربوا في قلوبهم العجلَ﴾(١٠). أي: حبّ عبادة العجل .

﴿الشهرُ الحرام بالشهر الحرام﴾(١١). أي: انتهاك حرمة الشهر الحرام .

﴿فقبضت قبضةً من أثرِ الرسول﴾(١٢). أي: من أثر حافر فرس الرسول.

- وقد تحذف ثلاثة متضايفات، مثل:

---

(١) الإسراء، ١١٠.

(٢) الإسراء، ٧٥. ينظر في ذلك الزركشي، ج٣، ص ١٤٧، وأمثلة غيرها ..

(٣) الفجر، ٢٢.

(٤) التكاثر، ٦ .

(٥) مريم، ٧١، ينظر في ذلك الزجاج، ج١، ص٧٨ ، والزركشي، ج٣، ص١٤٨، والمغني، ص٨١١ - . وينظر أمثلة أخرى في الأمالي الشجرية، ج١، ص ٥١، والأخفش، ج١، ص ١٦١ -١٧٠ .

(٦) المائدة، ٣ .

(٧) النساء، ٢٣. ينظر الزركشي، ج٣، ص١٤٩ ، والمغني، ص٨١١ .

(٨) التوبة، ١٠٨. ينظر العكبري، ج٢، ص ٦٦٠.

(٩) القيامة، ١٤. ينظر المصدر نفسه، ج٢، ص ١٢٥٤.

(١٠) البقرة، ٩٣، ينظر النحاس، ج١، ص ١٩٩ . والعكبري، ج١، ص ٩٣ .

(١١) البقرة، ١٩٤، ينظر الزجاج، ج١، ص ٤٩ .

(١٢) طه، ٩٦، ينظر المغني، ص ٨١٤ ، والإتقان، ج٣، ص١٩٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾(١). أي: فكان مقدار مسافة قربه قاب ..

﴿تدور أعينُهم كالذي يُغشى عليه من الموت﴾(٢). أي: دوراناً كدوران عين الذي.

حـذف المبـدل منه

أفرد له ابن هشام حديثاً موجزاً، ومثّل له بقوله تعالى :

﴿ولا تقولوا لما تصفُ ألسنتكم الكذبَ﴾(٣). فالكذب بـدل من مفعول "تصف" المحذوف، والتقدير : لما تصفه ألسنتكم.

حـذف الموصـول

خصّـه كل من ابن هشام والزركشي بحديث. ومن أمثلته:

﴿آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم﴾(٤). أي: والذي أنزل إليكم. وعلل له الزركشي بأن ما أنزل قبل الواو مختلف عمّا أُنزل بعدها، فوجب إعادة الاسم الموصول "الذي".

واستدل بقوله تعالى:

﴿قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلـى إبراهيم﴾(٥). إذ أعيدت مـا. ومـن أمثلتـه أيضا: ﴿وما منّا إلا له مقام معلوم﴾(٦). أي: وما منا إلامن له مقام معلوم.

حـذف المعطـوف

ورد في القرآن الكريم، وقد مثّل له النحاة، وشملت أمثلتهم حذف الاسم والفعل والجملـة. ولعلّ من المفيد هنا إيراد نماذج منها دون اللجوء إلى تفريقها وفق أنواعها في مواضـع حـذف الاسم والفعل والجملة. ومما أوردوا يتبيّن ما يلي:

- يحذف بعد (بين). مثل:

﴿لا نُفرّقُ بينَ أحدٍ من رسله﴾(٧). أي: بين أحد وأحد.

- يحذف المعطوف اكتفاءً، مثل:

---

(١) النجـم، ٩ ، ينظر المغني، ص ٨١٥ .

(٢) الأحزاب، ١٩. ينظر ابن الأنباري، ج٢، ص ٢٦٦ ، والمغني، ص ٨١٤، وتنظر أمثلة عن حـذف مضافين وثلاثة في الإتقان، ج٣، ص ١٩٠.

(٣) النحـل، ١١٦. ينظر العكبري، ج٢، ص ٨٠٩ . والزركشـي، ج٣، ص ١٥٨، والمغنـي، ص٨٢١، والإتقان، ج٣، ص ١٨٦ .

(٤) العنكبوت، ٤٦ . ينظر المغني، ص ٨١٥ . والزركشي، ج٣، ص ١٥٩ .

(٥) البقـرة، ١٣٦.

(٦) الصافات، ١٦٤ ينظر ابن الأنباري، ج٢، ص٣١٠، والزركشي، ج٣، ص١٥٩.

(٧) البقرة ، ٢٨٥ . وينظر النساء، ١٥٢ في المغني، ص ٨١٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

﴿سرابيلَ تقيكُمُ الحرَّ﴾(١). أي: والبـرد .

- يحذف المعطوف المقابل في الاستواء بين شيئين:

﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبلِ الفتحِ وقاتلَ﴾(٢). أي: ومن أنفق من بعد ذلك ...

- يستدعي المعنى تقدير معطوف ليستقيم الظاهر، ويلبي متطلّب الحكم الشرعي. مثل :

﴿فإن أُحصرتم فما استيسر من الهدي﴾(٣). أي: فإن حصرتم فحللتم .

﴿فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففديةٌ﴾(٤). أي: فحلَق ففديـة.

حـذف الصفـة

- سبقت الإشارة إلى حديث ابن جني المعجب عنها(٥). وقد حذفت والمعنى يطلبها، مثل :

﴿يأخذ كلَّ سفينةٍ غصباً﴾(٦). أي: صالحة. بدليل أنـه قرئ كذلك، وأن إعابتهـا فـي قولـه (فأردت أن أعيبها) لا تخرجها عن كونها سفينة.

﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾(٧). أي: الواضح، وإلا كان مفهومه كفراً كما قال ابن هشام.

- تحذف الصفة للتفخيم والتعظيم، مثل:

﴿الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾(٨). أي: من جوع شديد وخوف عظيم.

- وتحذف اكتفاء بإحدى الصفتين عن الأخرى، مثل:

﴿يدعون فيها بفاكهة كثيرةٍ وشراب﴾(٩). أي: كثيـر .

---

(١) النحـل، ٨١ ، وتنظر الأنعام، ١٣ في المغني ، ص٨٢٠، وينظر الفراء، أبو زكريا يحيى بن زيد، معاني القرآن، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجـار، ط٢، عـالم الكتـب، بـيروت، ١٩٨٠، ج٢، ص١١٢.

(٢) الحديد، ١٠ ، وينظر آل عمران، آية ١١٣ في: المغني، ص٨١٩، وينظر العكبري، ج٢، ص ١٢٠٧.

(٣) البقـرة، ١٩٦ .

(٤) البقـرة، ١٩٦ أيضاً ، ينظر المغني ، ص ٨٢٠ .

(٥) ينظر هذا البحث ص ٣٤، ورلجع الخصائص، ج٢، ص ٣٧٠،٣٧١.

(٦) الكهـف، ٧٩، ينظر المغني، ص ٨١٨ ، والزركشي، ج٣، ص ١٥٦ ، والإتقان، ج٣، ص ١٨٥ .

(٧) البقـرة، ٧١ ، ينظر المكان نفسه.

(٨) قريش، ٤، ينظر الزركشي، ج٣، ص ١٥٥ .

(٩) ص، ٥١، نفسه، ص ١٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حـذف الموصـوف

جعل ابن جني أكثره واقعاً في الشعر دون النثر، وتحفظ عل حذفه كما مرّ(١)، وقد اشترط الزركشي لحذف الموصوف أن يكون الاعتماد في السياق على مجرد الصفة دون موصوفها، مثل: ﴿والله عليم بالمتقين﴾(٢). أي: بالناس المتقين. أو نحوه .

﴿وعندهم قاصراتُ الطرف﴾(٣). أي: حور قاصرات الطرف .

﴿وألنّا له الحديدَ أنْ اعملْ سابغاتٍ﴾(٤). أي: اعمل دروعاً سابغات .

﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾(٥) أي: وبالدار الآخرة، وكثيراً ما يحذف الموصوف معها.

- يحذف موصوف "قليلاً" في مواضع كثيرة يكون فيها مصدراً أو زماناً أو مكاناً، مثل:

﴿بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون﴾(٦). أي: إيماناً قليلاً، أو زماناً قليلاً في أحد الأوجه.

- يحذف الموصوف بكاف التشبيه، مثل:

﴿ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض﴾(٧). أي: جهراً كجهر .

- يحذف في باب المفعول المطلق، مثل:

﴿كُلا منهما رَغَداً﴾(٨). أي: كلا منها أكلا رغداً.

- وقد تفرض تقديره الصنعة النحويّة ، مثل :

﴿إن رحمةَ الله قريبٌ من المحسنين﴾(٩). وهذا الشاهد تلقفه النحاة، ودار في كتبهم كثيراً، واستهموا الحديث عنه، وشغلهم، وأجهدهم، وقد عقد له السيوطي حديثا طويلاً أجمل فيه الآراء، وبسط الخلاف، فيما يقرب من عشرين صفحة، وكان من الأوجه التي ذكرها أن "قريب" صفة لموصوف محذوف بمعنى شيء.

---

(١) ينظر هذا البحث، ص٥٩، وينظر الخصائص ج٢، ص ٣٦٦ .

(٢) آل عمران، ١١٥، وينظر البقرة ، ٢، ٩٥، والنور، ٣١.

(٣) الصافات، ٤٨. ينظر المفصل، ص ١١٨، والزركشي، ج٣، ص ١٥٥، والمغني، ص ٨١٦.

(٤) سبأ، ١٠،١١ ، ينظر المغني، والزركشي في المكان نفسه ، وينظر ابن الأنباري في الإنصاف، ج١، ص ١١٣، وأسرار العربية، ص ١٠٠.

(٥) البقرة، ٤، ينظر العكبري، ج١، ص ١٩، وينظر أمثلة في الأخفش، معاني القرآن، ج٢، ص ٤٩٣.

(٦) البقرة، ٨٨، ينظر العكبري، ج١، ص ٩٠، والمغني، ص ٤١٧ . وينظر النمل، ٦٢، والمزمل، ١١.

(٧) الحجرات، ٢، ينظر ابن الأنباري، ج٢، ص ٣٨٢ .

(٨) البقرة، ٣٥، ينظر النحاس، ج١، ص ١٦٣ ، ومشكل القيسي ج١ ص ٨٧ والعكبري ، ج١ ص ٥٢.

(٩) الأعراف ، ٥٦، ينظر النحاس، ج١، ص ٦١٧-٦٢٠ ، والأشباه والنظائر، ج٣، ص ١٣٦ وما بعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حـذف الفعل والجملة

أوضح النحاة أن الفعل يحذف كثيرا في القرآن الكريم، وأنه قد يحذف وحده دون فاعله أو مفعوله، أو معهما كليهما فيدخل في باب حذف الجملة. ومن مواضع حذفه(١):

- يحذف إذا كان مفسّراً. وذلك مطرد عند ابن هشام(٢)، ومن الأمثلة:

﴿وإن امرأةٌ خافت من بَعلها نشوزاً﴾(٣).

﴿وإن امرؤٌ هلك﴾(٤).

﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا﴾(٥).

﴿إذا السمـاءُ انشقـت﴾(٦).

﴿وإذا الشمسُ كُوّرت﴾(٧).

﴿أبشراً منا واحداً نتبعه﴾(٨).

في كلّ هذه الأمثلة يقدّر النحاة فعلاً محذوفاً بعد الأداة يفسره الفعل المذكور، أي:

إن خافت امرأة خافت.

إذا انشقت السماء انشقت.... إلخ.

لأن هذه الأدوات كما يقولون لا تدخل إلا على جملة فعلية .

ومثلها (لو): ﴿قل لو أنتم تملكون﴾(٩). أصلها كما يقولون : لو تملكون تملكون، فلما حذف الفعل انفصل الضمير، قاله الزمخشري، والعكبري، وقال غيرهما: هو على حذف (كان)

---

(١) ينظر بشكل عام ، ابن جني، الخصائص، ج٢، ص ٣٧٩، والزركشي، ج٣، ص ١٩٨، والمغني، ص٨٢٧.

(٢) المغني ، ص ٨٢٧ .

(٣) النساء، ١٢٨، ينظر القيسي، ج١، ص ٢٠٩ .

(٤) النسـاء، ١٧٦ ، ينظر الأخفش، معاني القرآن، ج٢، ص ٢٤٦، ٣٢٧ .

(٥) الحجرات، ٩، ينظر الأخفش، ج٢، ص ٣٢٧، وابن الأنباري، ج٢، ص ٢٨٣، والعكبري، ج٢، ص ١١٧١.

(٦) الانشقاق، ١، ينظر شرح المفصل، ج١، ص ٩٤ ، وشرح شذور الذهب، ص ١٦٥ .

(٧) التكوير، ١، ينظر العكبري، ج٢، ص ١٢٧٣ .

(٨) القمر، ٢٤ ، ينظر الأخفش، معاني القرآن، ج٢، ص ٤٨٨، والأمالي الشجرية، ج١، ص ٣٣٠ ، وابن الأنباري، ج٢، ص ٤٠٦، والعكبري، ج٢، ص ١١٩٤.

(٩) الإسـراء، ١٠٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أي: لو كنتم تملكون . وفي كلا الوجهين ثمة فعل محذوف(١).

- وفي باب الاشتغال ، يظهر أيضا أثر الصنعة النحوية في حذف الفعل ، مثل :

﴿والأرضَ مددناها﴾(٢). أي: مددنا الأرض مددناها.

﴿والجانَّ خلقناه﴾(٣). أي: وخلقنا الجانّ خلقناه. ويسوّغ ابن الأنباري مثل هذا التقدير بقوله:"فكان النصب ههنا على الرفع لأنه قد عطفه على جملة فعلية وهي قوله: ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾(٤). فقدر الفعل الناصب ليكون قد عطف جملة فعلية على جملة فعلية، لا جملة اسميّة على جملة فعلية"(٥).

وقالوا مثل ذلك في قوله تعالى :

﴿والقمرَ قدّرناه منازل﴾(٦).

﴿وكلَّ شيء أحصيناه﴾(٧).

- يحذف الفعل في باب المدح، والذم، والاختصاص، والتحذير، والإغراء، ومن أمثلة ذلك:

﴿والصابرين في البأساء والضراء﴾(٨). أي: أمدح الصابرين.

﴿وامرأتهُ حمالةَ الحطب﴾(٩). أي: أذم حمالة الحطب.

﴿يريد الله أن يُذهب عنكم الرجس أهلَ البيت﴾(١٠). أي: أعني أهل البيت.

---

(١) ينظر الخصائص ، ج٢، ص ٣٨٠، وابن الأنباري، ج٢، ص٩٧ ، والعكبري، ج١، ص ٨٣٣،٨٣٤، والمغني، ص ٨٢٧ .

(٢) الحجر، ١٩، ينظر العكبري، ج٢، ص ٧٧٩ .

(٣) الحجر، ٢٧، نفسه، ج٢، ص ٧٨٠.

(٤) الحجر، ٢٦ .

(٥) ابن الأنباري، ج٢، ص ٦٨ .

(٦) يس، ٣٩، ينظر ابن الأنباري، ج٢، ص ٢٩٥ ، والعكبري ج٢، ص ١٠٨٢ .

(٧) يس، ١٢، ينظر ابن الأنباري، ج٢، ص ٢٩١، والعكبري ج٢، ص ١٠٧٩ ، وينظر ص ٨١٥ . وينظر أيضا الرحمن، آية ٧ في ابن الأنباري، ج٢، ص ٤٠٨، والعكبري، ج٢، ص ١١٩٧، والزركشي، ج٣، ص١٩٩. والإنسان، آية ٣١، في ابن الأنباري، ج٢، ص ٤٨٥، والعكبري، ج٢، ص١٢٦١، والزركشي، ج٣، ص ١٩٩. وينظر أمثلة أخرى في الأمالي الشجرية، ج١، ص ٣٣٥ -، والأخفش، ج١، ص ٧٨ .

(٨) البقرة، ١٧٧، ينظر والأخفش، ج١، ص ١٥٦، والنحاس، ج١، ص٢٣١، والأمالي الشجرية، ج١، ص٣٤٤، والزركشي، ج٣، ص١٩٨ .

(٩) المسد، ٤، ينظر الأخفش، ج٢، ص٥٤٨ ، وابن الشجري، الأمالي الشجرية، ج١، ص٣٤٤، والعكبري ج٢، ص١٣٠٨ ، وشرح شذور الذهب، ص ٤٣٤ -، والمغني، ص ٨٢٨ .

(١٠) الأحزاب، ٣٣، ينظر ابن الأنباري، ج٢، ص٢٦٩ ، والعكبري، ج٢، ص١٠٥٧، والمغني، ص٧١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

﴿ناقةَ الله وسقياها﴾(١). على إضمار فعل للإغراء أو التحذير وجوباً.

- يحذف الفعل في جواب الاستفهام الواقع ، مثل :

﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولُنّ الله﴾(٢). أي: خلقهن الله.

وقد بيّن النحاة أن مثل هذا يجوز حمله على حذف الخبر أيضا ، فقد صرّحت الآيات بالفعل أحياناً، مثل:

﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾(٣).

وصرحت بالخبر أحياناً أخرى، مثل:

﴿قل من ينجيكم من ظلمات البرّ والبحر ... قل اللهُ ينجيكم﴾(٤).

لكن النحاة رجحوا فعليتها لأن التصريح بالفعل وقع أكثر(٥).

- ويحذف الفعل في جواب السؤال المقدّر، مثل:

﴿يسبِّح له فيها بالغدوّ والآصالِ رجالٌ﴾(٦). بقراءة يسبّح مبنية للمجهول، فكأن سؤالاً وقع نَصّه : من يسبّحه؟ فقيل: يسبحه رجال. ومثلها:

﴿زُيّن لكثير من المشركين قتلُ أولادِهم شركاؤهم﴾(٧). بالرفع أي: زينه شركاؤهم.

- يقدّر الفعل محذوفاً عندما لا يسمح المعنى بحمل الكلام على ظاهره، مثل :

﴿والذين تبوؤا الدارَ والإيمانَ من قبلهم﴾(٨). فلا يصح عطف الإيمان على الدار، فيقدر فعل مثل : واعتقدوا الإيمان ، أو نحوه.

---

(١) الشمس، ١٣، ينظر الفراء، معاني القرآن، ج٣، ص٢٦٨، ٢٦٩، والأمالي الشجرية، ج١، ص٣٤٢ ، والعكبري، ج٢، ص١٢٩٠.

(٢) لقمان، ٢٥، ينظر الزركشي، ج٣، ص٢٠٠، وينظر شبيه في المغني، ص ٨٢٧، وينظر العنكبوت، ٦١ ، ٦٣ ، ويونس، ٣١.

(٣) الزخرف، ٩.

(٤) الأنعام، ٦٣،٦٤.

(٥) المغني، ص ٨٠٧، ٨٠٨ .

(٦) النور، ٣٦، ٣٧ ، ينظر في هذه المسألة الفراء، ج٢، ص٢٥٣، والنحاس، ج١، ص٥٨٢ ، والمفصل، ص ٢١ ، وابن الأنباري، ج٢، ص١٩٦، والعكبري، ج٢، ص٩٧١،٥٤٠،٥٤١، والزركشي، ج٣، ص٢٠١، والمغني، ص ٥٠١، ٦٨٥، ٧٤٠ ، ٨٠٧ .

(٧) الأنعام، ١٣٧، ينظر الكتاب، ج١، ص٢٩٠، وابن الأنباري، الإنصاف، ج١، ص٤٣١، والزركشي ج٣، ص٢٠١ .

(٨) الحشر، ٩، ينظر ابن الأنباري، ج٢، ص٤٢٨ ، والمغني، ص ٨٢٨ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- يحذف الفعل عندما ينوب عنه مصدره، مثل:

﴿قالوا سلاماً﴾(١).

﴿فإما منّاً بعدُ وإما فداءً﴾(٢). وقد جمع منها الزجاج طائفة كبيرة(٣).

- يقدّر الفعل بعد "كيف" وقد كثر ذلك ، مثل:

﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾(٤). أي: كيف يصنعون؟

- يكثر حذف فعل القول:

تكررت إشارات النحاة إلى ذلك(٥)، حتى إن السيوطي قال: " العرب تحذف القول حذفاً مطرداً، شهرته تغني عن إيراد أمثلة منه"(٦). ومن أمثلته :

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيلُ ربّنا...﴾(٧). أي: يقولان. ويقدر كذلك فعل قبل (إذ) أي: انكر. "وجميع إذ في التنزيل أكثره على هذا"(٨). مثل:

﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة﴾(٩).

﴿وإذ قال ربُّك﴾(١٠).

- يحذف الفعل اختصاراً ويدل عليه العقل ، مثل :

﴿فقال لهم موتوا ثم أحياهم﴾(١١).

واضح أن قوله تعالى: (ثم أحياهم) معطوف على فعل محذوف، ويدل العقل عليه، وتقديره : فماتوا. ولا يصح عطفه على قوله: موتوا؛ لأنه أمر، وفعل الأمر لا يعطف على الماضي.

---

(١) هود، ٦٩، ينظر القيسي، ج١، ص٣٦٨ ، والعكبري، ج٢، ص٧٠٥ .

(٢) محمد، ٤، ينظر العكبري، ج٢، ص١١٦٠، والسيوطي، الهمع، ج٣، ص١٢٣.

(٣) ينظر إعراب القرآن، ص٧٦٧ وما بعدها، وينظر الزركشي، ج٣، ص٢٠٧ .

(٤) الأنعام، ٢٥، ينظر العكبري، ج١، ص٢٥٠، وينظر النساء، ٤١ ، ٦٢ .

(٥) ينظر الأخفش، ج١، ص١١ ، وابن الشجري، ج١، ص٥٦ ، وابن الأنباري، البيان في غريب إعراب القرآن، ج٢، ص٨٦، والإنصاف، ج١، ص١١٤، وأسرار العربية، ص١٠٠ .

(٦) الأشباه والنظائر، ج٤، ص٥ .

(٧) البقرة، ١٢٧ ، وقد مرّ في حذف الحال.

(٨) الزجاج، ج١، ص١٣ ، وينظر شبيه في الزركشي، ج٣، ص٢٠٦، والإتقان، ج٣، ص١٨٧.

(٩) البقرة، ٥١ ، ينظر النحاس، ج١، ص ١٧٤ .

(١٠) البقرة، ٣٠ ، وينظر شواهد في البقرة، ٦٣ ، ٩٣ ، والأعراف، ١٧١ ، وآل عمران، ١٩١، والرعد، ٢٣.

(١١) البقرة، ٢٤٣ ، ينظر العكبري، ج١، ص١٩٣، والزركشي، ج٣، ص٢٠٤ ، ٢٠٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حـذف جملة الشرط

- وقد جعله ابن هشام مطردا بعد الطلب، مثل :

﴿قل إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾(١). أي: فإن تتبعوني يحببكم الله .

﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة .... يغفرْ لكم﴾(٢) - أي: إن تفعلوا يغفر لكم .

- تحذف جملة الشرط في غير طلب، مثل :

﴿إنّ أرضي واسعةٌ فإيّاي فاعبدون﴾(٣).

حـذف جملة جواب الشرط

تحذف جملة الجواب كثيراً في القرآن الكريم، ويقع ذلك للتفخيم والتعظيم؛ فالقرآن رسالة تقوم على الثواب والعقاب، لذلك حذف الكثير من الأجوبة ليتضاعف شوق الطائع إلى جزاء ثوابه، ويتضاعف خوف العاصي من أهوال عقابه. ومن ذلك:

﴿حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها﴾(٤). حذف جواب إذا، وفي المسألة أنظار لطيفة(٥).

﴿حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾(٦). جوابها محذوف كذلك، وكلاهما حذف لتهويل الأمر وتعظيمه.

حـذف جواب لو، مثل:

﴿ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت﴾(٧). أي: لرأيت عجباً ، أو نحوه .

﴿ولو أن قرآنا سُيرت به الجبال ...﴾(٨) أي : لكان هذا القرآن ، أو نحوه .

---

(١) آل عمران، ٣١ ، ينظر المغني، ص ٨٤٧ .

(٢) الصف، ١٠،١٢، ينظر العكبري، ج٢، ص١٢٢١، وابن الأنباري، ج٢، ص٤٣٦، ومعاني الفراء، ج٣، ص١٥٤، وقد قدر فعل أمر للطلب.

(٣) العنكبوت، ٥٦ ، ينظر المغني، ص ٨٤٨، وينظر أمثلة أخرى كذلك في المكان نفسه ، وفي الإتقان ج٣، ص١٩١.

(٤) الزمر، ٧٣ .

(٥) ينظر الأخفش، ج٢، ص٤٥٧، وابن فارس، الصاحبي، ص٢٤٠ ، وابن الأنباري، ج٢، ص٣٢٧ ، وابن قيم الجوزية، بدائع الفوائد، ج١، ص٢٠٨، والزركشي، ج٣، ص١٨٩،١٩٠ .

(٦) التوبة، ١١٨، ينظر الزركشي، ج٣، ص ١٩٠ .

(٧) سبأ، ٥١، ينظر ابن الأنباري، ج٢، ص٢٨٣ .

(٨) الرعد، ٣١، ينظر ابن الأنباري، ج٢، ص٥٢، والعكبري، ج٢، ص٧٥٨، والزركشي، ج٣، ص١٨٣، وشرح المفصل، ج٩، ص٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهناك مواضع ورد فيها شرطان حذف أحدهما مثل: ﴿وأما إن كان من أصحاب اليمين﴾(١).
وقد اختار ابن مالك قول سيبويه أن الجواب لأمّا ، واستغني عن جواب "إنْ" لتقدّمه(٢).

حـذف جملة القسم

ذكر ابن هشام أنه كثير جداً ، وجعله لازماً مع غير الباء من حروف القسم. وفي نظره حيثما قيل : لأفعلن ، أو لقد فعل، ولئن فعل، ولم تظهر جملة القسم فهي حتماً مقدّرة(٣). مثل:

﴿لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه﴾(٤).

﴿ولقد صدقكم اللهُ وعدَه﴾(٥).

﴿لئن أُخرجوا لا يخرجون معكم﴾(٦).

حـذف جواب القسـم

وقد شاع لعلم السامع المراد منه(٧)، مثل:

﴿والنازعاتِ غرقاً..... يوم تَرجُف الراجفة﴾(٨). لم يَرِدْ جواب، والتقدير: لتبعثن أو نحوه.

﴿والسماء ذات البروج ... قُتل أصحابُ الأخدود﴾(٩). أيضا لم يرد جواب وهو مقدّر.

وقد يقع خلاف بين النحاة حول المواضع التي لا يصرّح فيها بجواب القسم، مثل:

﴿ص والقرآنِ ذي الذكر﴾(١٠). لم يرد جواب، فاختلفوا فيه :

قال الزجاج : الجواب قوله تعالى:﴿إنّ ذلك لحقٌ تخاصمُ أهلِ النارِ﴾(١١). وخالفه الكسائي والفراء لبعد ما بين القسم وجوابه، ولكثرة ما توالى بينهما من قصص وأحداث.

وقيل الجواب: ﴿كم أهلكنا﴾(١٢). بتقدير لام القسم محذوفة لطول الكلام.

---

(١) الواقعـة، ٩٠ .
(٢) ينظر الزركشي، ج٣، ص١٩١ .
(٣) ينظر المغني، ص٨٤٦ .
(٤) النمل، آية٢١.
(٥) آل عمـران، ١٥٢.
(٦) الحشـر، ١٢.
(٧) ينظر الزركشي، ج٣، ص١٩٢ .
(٨) النازعات، ١-٦، ينظر الأخفش، ج٢، ص٥٢٦ .
(٩) البروج، ١-٤، ينظر العكبري، ج٢، ص١٢٨٠.
(١٠) ص، ١، ٢ .
(١١) ص، ٦٤ .
(١٢) ص، ٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذهب الأخفش إلى أن الجواب: ﴿إن كلٌ إلا كذّب الرسل﴾(١).

وقال غيره: ﴿بل الذين كفروا في عزّة وشقاق﴾(٢). واستدلوا بقوله تعالى في سورة "ق": ﴿ق والقرآنِ المجيدِ بل عجبوا﴾(٣).

حذف كلام "أكثر من جملة"

تنبه النحاة إلى أسلوب القرآن، وأسرار إعجازه، وحلاوة الإيجاز فيه، وأكثر ما يكون ذلك في القصص القرآني، إذ يظهر في بعض الآيات فعل أمر، تليه نتائج تنفيذه، ويُطوى كلام طويل بينهما، ومن ذلك ماورد في أمر سيدنا سليمان وبلقيس: ﴿اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم﴾(٤). وتلا ذلك قوله تعالى: ﴿قالت يا أيها الملأُ إني أُلقي إليّ كتاب كريم﴾(٥).

الآيتان متعاقبتان، لكن يتضح أن بينهما محذوفات لا بدّ من وقوعها، ويمكن تقديرها : فأخذ الكتاب، فألقاه إليهم، فرأته بلقيس، وقرأته .... وقالت(٦).

ومثل هذا في سورة يوسف:

﴿أنا أُنَبِئُكُمْ بتأويله فأرسلون﴾(٧). ثم تلاها: ﴿يوسفُ أيها الصّدّيقُ أفتنا في سبع بقرات سِمان...﴾(٨). ولعلّ بينهما: ﴿فأرسلون إلى يوسف لأستعبره الرؤيا، ففعلوا، ولما أتاه قال يوسف...﴾(٩).

حذف الحروف "حروف المعاني"

تردد النحاة كثيراً – كما مرّ – في أمر حذف الحروف وتجاذب كلامهم النظري بمنع حذفه، وواقع الاستعمال اللغوي الذي يثبت وقوع الحذف، فدارت في مؤلفاتهم أمثلة كثيرة تثبت وقوع الحذف، ومنها:

---

(١) ص، ١٤ .

(٢) ص، ٢ .

(٣) ق، ١، ٢، ينظر ابن الشجري، ج١، ص٣٥٥، والعكبري، ج٢، ص١٠٩٦، والزركشي، ج٣، ص١٩٣، والمغني، ص٨٤٧.

(٤) النمل، ٢٨.

(٥) النمل، ٢٩.

(٦) ينظر الزركشي ، ج٣، ص١٩٥ .

(٧) يوسف، ٤٥.

(٨) يوسف، ٤٦.

(٩) ينظر الزركشي، ج٣، ص١٩٥ ، والمغني، ص٨٥٢ ، والإتقان، ج٣، ص١٩٢ .

وينظر شواهد في مريم، آية ١١ – ، وطه، آية ٩١ –، ويوسف، آية ٢٥ – ، والكهف، آية١٦– .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- أنْ:

يقول الخليل: "لا ينتصب فعل إلا بأن مظهرة أو مضمرة"(١).

وقال ابن هشام: "إن حذفها مطرد في مواضع معروفة"(٢). ولعلّه يقصد ما ذكره النحاة حول حذفها بعد حروف مثل:

لام التعليل: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبيّنَ للناس﴾(٣).

لام الجحود: ﴿ما كان الله ليضيعَ إيمانكم﴾(٤).

لام العاقبة : ﴿فالتقطه آل فرعون ليكونَ لهم عدوا وحَزَناً﴾(٥).

حتى : ﴿حتّى يرجعَ إلينا موسى﴾(٦).

الفاء : ﴿يا ليتني كنت معهم فأفوزَ﴾(٧).

أو : ﴿ لا جُناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسّوهن أو تفرضوا لهن فريضةً﴾(٨).

- وقد تحذف في غير هذه المواضع ، مثل :

﴿ومن آياته يُريكم البرقَ خوفاً وطمعاً﴾(٩). أي: أن يريكم .

- حذف حروف الجرّ

يطرد حذف الجار مع أنْ وأنّ . قاله ابن هشام(١٠)، والسيوطي(١١)، مثل:

﴿يَمُنّون عليك أن أسلموا﴾(١٢). أي: بأن. ﴿أيَعِدُكم أنّكم﴾(١٣). أي: بأنكم.

---

(١) النحاس، ج١، ص٤٢٦ .

(٢) المغني، ص ٨٣٩ .

(٣) النحل، ٢٤، وينظر غيرها في الزجاجي، اللامات، تحقيق مازن المبارك، ط٢، دار الفكر، دمشق،١٩٨٥، ص٦٦، ٦٧.

(٤) البقرة، ١٤٣، ينظر اللامات ٦٩، وينظر غيرها في المغني، ص٢٧٨ .

(٥) القصص، ٨، ينظر اللامات، ص ١١٩ ، والعكبري، ج٢، ص١٠١٦، والمغني، ص٢٨٢ .

(٦) طـه، ٩١، ينظر المغني، ص١٧٠ ، وينظر غيرها في اللامات، ص٦٩ .

(٧) النساء، ٧٣، ينظر مشكل القيسي، ج١، ص٢٠٢، وينظر غيرها في اللامات، ص٦٠ .

(٨) البقرة، آية ٢٣٦، ينظر المغني، ص٩٣، وينظر مواضع أخرى في جمل الزجاجي، ص١٨١، ١٨٤، ١٨٥، وابن الشجري، ج١، ص٣٧٤ وشرح المفصل، ج٧، ص١٨ - .

(٩) الروم، ٢٤، ينظر الفراء، ج٢، ص٣٢٣، وابن الأنباري، ج٢، ص٢٥٠، والعكبري، ج٢، ص١٠٣٩ والزركشي، ج٣، ص٢١٤ .

(١٠) المغني، ص ٨٣٨ .

(١١) الإتقان، ج٣، ص١٨٨ .

(١٢) الحجرات، ١٧، ينظر المكان السابق نفسه.

(١٣) المؤمنون، ٣٥، ينظر المكان نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- وقد ورد حذف الجرّ في غير ذلك مثل :

﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾(١). أي: (في أن) أو (عن أن) تنكحوهن .

﴿عبس وتولّى أن جاءه الأعمى﴾(٢). أي: لأن .

- وقد كثر في القرآن حذف الجارّ وإيصال الفعل إلى المجرور به ، مثل :

﴿واختار موسى قَومه سبعين رجلاً﴾(٣). أي: من قومه:

﴿لا تعزموا عقدة النكاح﴾(٤). أي: على عقده.

﴿إنما ذلكم الشيطانُ يُخوّفُ أولياءَه﴾(٥). أي بأوليائه.

- وقدّر حرف الجر محذوفاً بأثر الصنعة النحوية ، مثل :

﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحامِ﴾(٦). وهي موطن خلاف، وأحد أوجهها أن بعضهم قدّر حرف جرّ قبل الأرحام هو "الباء" لتجاوز الشرط الصناعي الذي يقضي بألا يعطف ظاهر على مضمر، وقد ورد في القرآن آيات أخرى ظهر فيها عطف ظاهر على مضمر، منها : ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يُتلى عليكم﴾(٧).

- **حروف العطف**

بيّن الزركشي أنها تحذف لقصد البلاغة، فحذفها يشعر بأن الكلّ كالواحد، مثل :

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خبالا﴾(٨). أي: ولا يألونكم.

وقد حذفت لغير ذلك مثل:

---

(١) النساء، ١٢٧، ينظر الزجاج، ج١، ص ١٢٥ .

(٢) عبس، ١-٢، ينظر الزجاج، ج١، ص ١٢١ .

(٣) الأعراف، ١٥٥، ينظر الزجاج، ج١، ص١١٤، والقيسي، ج١، ص٣٠٣، وابن الشجري، ج١، ص٢٩٧، ٣٦٤، والزركشي، ج٣، ص٣١٥، .

(٤) البقرة، ٢٣٥، ينظر القيسي، ج١، ص١٣٢، والعكبري، ج١، ص١٨٨ .

(٥) آل عمران، آية ١٧٥، ينظر الأخفش، ج١، ص ٢٢١ ، والزجاج، ج١، ص ١١٧، والعكبري، ج١، ص٣١١.

(٦) النساء، ١.

ينظر في الخلاف، الإنصاف، المسألة ٦٥، ص٤٦٣، وينظر الأخفش، ج١، ص٢٢٤، والنحاس، ج١، ص٣٨٩ ، ٦٤١ ، والقيسي، ج١، ص١٨٧، والخصائص، ج١، ص٢٨٥، والعكبري، ج١، ص٣٢٦، وشرح المفصل، ج٣، ص٢٧ ، ٧٨ .

(٧) النساء، ١٢٧، وينظر ١٦٢، والبقرة، ٢١٧.

(٨) آل عمران، ١١٨، ينظر الزركشي، ج٣، ص٢١٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

﴿وجوهٌ يومئذ ناعمةٌ﴾(١). أي: ووجوه، عطفاً على وجوه يومئذ خاشعة .

﴿صمٌّ بكمٌ عميٌ ...﴾(٢)، أي: صم وبكم وعمي.

- **حـــروف النفـي**

لا

تحذف في جواب القسم ، مثل :

﴿قالوا تالله تفتأ تذكرُ يوسفَ﴾(٣). أي: لا تفتأ.

- تقدّر محذوفة ليستقيم المعنى. مثل:

﴿وألقى في الأرض رواسيَ أن تميدَ بكم﴾(٤). أي: ألاّ تميد.

- **حـذف حـرف النـداء**

هو كثير كما قـال السيوطي(٥). وبيـن الزركشـي أن ذلـك كثير فـي نـداء الـرب سـبحانه تعظيماً وتنزيهاً؛ لأن الدعاء يتشرب معنى الأمر، والله أعظم وأجلّ(٦). ومن الأمثلة :

﴿ربِّ إني وهنَ العظمُ مني﴾(٧).

- وقد يحذف في غير نداء الربّ سبحانه وتعالى، وقد ورد حذفه من "أي"

﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾(٨).

ومن العَلَم، مثل:

﴿يوسفُ أعرضْ عن هذا﴾(٩).

ومن اسم الإشارة ، مثل :

﴿ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم﴾(١٠).

---

(١) الغاشية، ٨، ينظر الزركشي، ج٣، ص٢١٠، وينظر المغني، ص٨٣١ ، والإتقان، ج٣، ص١٨٩ .

(٢) البقرة، ١٨، ١٧١ . ينظر الزجاج، ج٢، ص٨٠٣، وقد أورد منها مواضع كثيرة.

(٣) يوسف، ٨٥ ، ينظر الفراء، ج٢، ص٥٤، وابن الشجري، ج١، ص٣٦٩ ، وأسـرار العربيـة، ص٢٧٨، والعكبري، ج٢، ص٧٤٣، والمغني، ص ٨٣٤، والزركشي، ج٣، ص٢١٥، والإتقان، ج٣، ص١٨٩.

(٤) النحل، ١٥، ينظر القيسي، ج١، ص٢١٦، والبرهان والإتقان، في المكان نفسه.

(٥) الإتقان، ج٣، ص١٨٩.

(٦) البرهان، ج٣، ص٢١٣، وكذلك السيوطي، الإتقان، في المكان نفسه .

(٧) مريم، ٤.

(٨) الرحمـن، ٣١.

(٩) يوسـف، ٢٩، ينظر المغني، ص٨٤٠ .

(١٠) البقـرة، ٨٥. ينظر العكبري، ج١، ص٨٦ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- **حـذف همزة الاستفهام**

تحذف عند أمن اللبس: (١) ومن مواضعها:

﴿وتلكَ نعمة تَمُنّها عليّ﴾(٢). أي: أوَ تلك نعمة؟

﴿فلما جنَّ عليه الليلُ رأى كوكباً قال هذا ربيّ﴾(٣). أي: أهذا ربّي؟

- **حـذف " قـد "**

يرى البصريون أن الماضي إذا وقع حالاً، فلا بدّ أن يقترن بـ(قد). فإن لم تكن ظاهرة فهم يقدرونها. والكوفيون معهم على خلاف:(٤). ومن الأمثلة:

﴿أو جاؤوكم حصرتْ صدورهم﴾(٥). أي: قد حصرت.

﴿أنؤمن لك واتبعكَ الأرذلون﴾(٦). أي: وقد اتبعك .

- **حـذف فـاء الجواب**

هو موضع ضرورة كما رآه ابن هشام(٧)، وقد قدرها الأخفش محذوفة في قوله تعالى :

﴿إن ترك خيراً الوصيةُ للوالدين﴾(٨). أي: فالوصية.

وقد تحذف مع الفعل في جواب أمّا، وذلك في القرآن كثير كما يقول الأخفش، مثل:

﴿فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم﴾(٨). أي: فيقال لهم.

---

(١) ينظر الزجاج، ج١، ص٣٥٢ ، والزركشي، ج٣، ص٢١٣، والمغني، ص١٩ – ، والإتقان، ج٣، ص١٨٨ .

(٢) الشعراء، ٢٢.

(٣) الأنعام، ٧٦ .

(٤) ينظر العكبري، التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين، تحقيق عبد الرحمن بن سلمان العثيمينيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦، ص ٣٨٦، وينظر الإنصاف، المسألة ٣٢، ص٢٥٢، والمغني، ص٨٣٣ .

(٥) النساء، ٩٠.

(٦) الشعراء، ١١١. ينظر النحاس ج١، ص٤٤٣، والقيسي، ج١، ص٢٠٥، والعكبري، ج١، ص٣٧٩، والمغني، ص٨٣٣، والإتقان، ج٣، ص١٨٩.

(٧) المغني، ص٨٣٢ .

(٨) البقرة، ١٨٠، ينظر النحاس، ج١، ص٢٣٣ ، والعكبري، ج١، ص١٤٦، والزركشي، ج٣، ص٢١٢ والسيوطي، ج٣، ص١٨٩ .

(٩) آل عمران، ١٠٦، ينظر الأخفش، ج١، ص٢١١، وابن الشجري، ج١، ص٣٥٦، والزجاج، ج١، ص٤٦٥، والعكبري ، ج١، ص٢٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- حـذف اللامـات

- اللام الموطئة للقسم، مثل: ﴿وإن لم ينتهوا عمّا يقولون ليمَسّنّ﴾...(١). أي: ولئن.

- لام الأمر (الطلب) ، مثل: ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاةَ﴾(٢). أي: ليقيموا.

﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسنُ﴾(٣). أي: ليقولوا.

ويذكر هنا أن المبرد منع حذفها حتى في الشعر، وأجازه الكسائي في النثر بشرط تقدم الفعل "قُلْ"(٤).

- لام الجواب: - جواب القسم: ﴿والشمسِ وضحاها﴾(٥) ..... ﴿قد أفلح من زكاها﴾(٦). أي: لقد.

- جواب لو : ﴿لو نشاء جعلناه أجاجاً﴾(٧). أي: لجعلناه .

- حـذف واو الحـال

قدّرت محذوفة على أحد الأوجه في بعض الآيات، منها:

﴿فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون﴾(٨). أي: أو وهم قائلون.

---

(١) المائدة، ٧٣، ينظر المغني، ص٨٣٨، والإتقان للسيوطي، ج٣، ص١٩٠، وينظر الأنعام، ١٢١، في المكان نفسه.

(٢) إبراهيم، ٣١، ينظر المغني، ص٨٤٠ ، والعكبري، ج٢، ص٧٧٠، والسيوطي، ج٣، ص١٩٠ .

(٣) الإسراء، ٥٣، ينظر الأماكن نفسها .

(٤) المغني ، ص ٢٩٧،٢٩٨ .

(٥) الشمس، ١.

(٦) الشمس، ٩، ينظر اللامات، ص٨٦، والسيوطي، ج٣، ص١٩٠، والمغني، ص٨٤٥ .

(٧) الواقعة، ٧٠، ينظر المغني، ص ٨٤٥ .

(٨) الأعراف، ٤، ينظر النحاس، ج١، ص٥٩٩، والرأي للفراء. والعكبري، ج١، ص٥٥٧، والهمع ج٤، ص٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

الحذف عند البلاغيين

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحذف عند البلاغيين

- تمهيـد
- الإيجاز في العربية أصل فيها وطبع في أهلها
- موقع الإيجاز في ائتلاف اللفظ والمعنى
- حـدّ الإيجاز وأنواعه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإيجاز في العربية أصل فيها وطبع في أهلها

دأب النقاد والبلاغيون الأوائل على محاولات تحديد البلاغة، ومعرفة سماتها. وقد بدا الأمر سهلاً إلى حدّ الاستغراب عندما جعلوا البيان متمثلاً في مجرّد الإفهام؛ لأن "مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأيّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع"(١).

وقريب من هذا قول العتّابي :"كلّ من أفهمك حاجته ..... فهو بليغ"(٢). إلا أنهم سرعان ما احترسوا مؤكدين أن الأمر أبعد من ذلك بكثير(٣). وما أوردوه من أدلة، وتعريفات، وأقوال يثبت أن البلاغة ليست في الإفهام كيفما كان، وأن هناك سماتٍ كثيرةً يجب توافرها حتى يكون الكلام بلاغة، والمتلكمُ بليغاً. "ومن قال إن البلاغة إنما هي إفهام المعنى فقط، فقد جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة سواء..."(٤). والعتابي -لا شك- يعني: أنّ البليغ من أفهمك حاجته "بالألفاظ الحسنة والعبارة النيّرة"(٥). أو من أفهمكها" على مجاري كلام العرب الفصحاء"(٦)؛ لأن حمل كلامه على ظاهره يلزم " أن يكون الألكن بليغاً؛ لأنه يفهمنا حاجته، بل يلزم أن يكون كلّ الناس بلغاء حتى الأطفال؛ لأن كل أحد لا يعدم أن يدل على غرضه بعجمته، أو لكنته، أو إشارته..."(٧).

ثم مضوا بعد ذلك يفصلون ويوضحون، ويضعون للبلاغة سمات يستقرونها من أقوال البلغاء، ويستنتجونها من أثر الكلام في النفوس استحساناً أو استهجاناً. ويلفت النظر بقوّة أن كثيراً من الأقوال التي جمعوا، والتعريفات التي وضعوا تجعل من الإيجاز شرطاً أساسياً لبلاغة الكلام.

فقد قيل: إنّه لم تفسّر البلاغة تفسيراً أفضل مما فعل ابن المقفع، إذ جعلها اسماً جامعاً

---

(١) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، ج١، ص٧٦.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١١٣، ١٦١، والعسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، الصناعتين، تحقيق محمد مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨١، ص٢٠ .

والبغدادي، أبو طاهر محمد بن حيدر، قانون البلاغة في نقد النثر والشعر، تحقيق محسن غياض عجيل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩، ص٦٦.

(٣) ينظر الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص١٦١- .

(٤) العسكري، الصناعتين، ص١٩ .

(٥) المصدر نفسه، ص٢٠ .

(٦) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص١٦٢.

(٧) العسكري، الصناعتين، ص٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة، وعدّد لها أبواباً، ثم قال: " فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها، والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة"(١).

وقال خلف الأحمر: البلاغة لمحة دالة(٢). وهي عند الخليل بن أحمد: كلمة تكشف عن البقيّة(٣). وعمرو بن العاص يقول عندما سأله معاوية عن أبلغ الناس:هو " من اقتصر على الإيجاز "(٤). وبعضهم يجعل البلاغة عشرة أقسام ويعدّ الإيجاز أولها(٥).

وكثير مما مضى يضعنا في حيرة من قبل أنه يُعد كلاماً عامّاً عن حدّ الإيجاز، ولعلّ هذا ما جعل بعضهم يحاول التحديد فيقول البلاغة:" إيجاز في صواب"(٦). والسائل نفسه يطلب هذا التحديد أحياناً، فقد سأل معاوية صُحار بن عياش العبدي: " ما تعدّون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز. قال له معاوية: وما الإيجاز؟. قال صحار: أن تجيب فلا تبطئ، وتقول فلا تخطئ"(٧). وعندما وجد معاوية في ردّ صحار فضول كلام سأله مستغرباً: "أو كذلك تقول يا صحار؟ قال صحار: أقلني يا أمير المؤمنين ألا تبطئ، ولا تخطئ"(٨). "فألقى اللفظتين لأنّ في الذي أبقى غنىً عنهما وعوضاً منهما "(٩) . وقيل لبعضهم: " ما البلاغة؟ فقال: الإيجاز، قيل: وما الإيجاز؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد"(١٠).

---

(١) ينظر الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص١١٦ والعسكري، الصناعتين، ص٢٣، وفيه: فالوحي فيها والإشارة إلى المعنى أبلغ.

وينظر أيضا: ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٤، دار الجيل، بيروت، ج١، ص٢٤٣.

(٢) الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق السيّد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ص٩٠، وابن رشيق، العمدة، ج١، ص٢٤٢، والبغدادي، قانون البلاغة، ص٢٤.

(٣) ابن رشيق، العمدة،ج١، ص٢٤٢.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٢٤٣.

(٥) الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى، النكت في إعجاز القرآن، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، ط٢، دار المعارف بمصر، ١٩٦٨ ص٧٦، والباقلاني، إعجاز القرآن، ص٢٦٢.

(٦) العسكري، الصناعتين، ص٥٨.

(٧) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٩٦. والعسكري، الصناعتين، ص٤٢، وابن رشيق، العمدة، ج١، ص٢٤٢.

(٨) ابن عبد ربّه، أبو عمر أحمد بن عبد ربّه، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين ورفيقيه، ط٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٢، ج٢، ص٢٦٠.

وانظر الأماكن نفسها في الحاشية السابقة.

(٩) العسكري، الصناعتين، ص٤٢ .

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٩٣، وابن عبد ربّه ، العقد الفريد، ج٢، ص٢٦٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتبادر الى الذهن سؤال: أرأيت إن كان الزائد من الكلام مفيداً، أيظلّ الإيجاز محموداً؟ فيأتينا الجواب فيما قيل لإياس :" ما فيك عيب إلا كثرة الكلام. قال: فتسمعون صواباً أم خطأ؟ قالوا: لا، بل صواباً، قال: فالزيادة من الخير خير"(١).

وقبل أن نستريح لجوابه، يطلّ علينا الجاحظ بلمحة نفسيّة لطيفة صائبة قائلاً:

"وليس كما قال؛ للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن قدر الاحتمال، ودعا إلى الاستثقال، فذلك الفاضل هو الهذر، وهو الخطل، وهو الإسهاب الذي سمعت الحكماء يعيبونه"(٢).

هذا الإسهاب الذي وصل بهم الحدّ في كراهته إلى الاستعاذة بالله منه، فقد قيل لعبد الله ابن عمر: لولا دعوت الله لنا بدعوات. فقال: اللهم ارحمنا، وعافنا، وارزقنا، فقال له رجل: لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن. فقال: نعوذ بالله من الإسهاب(٣). وقد استعاذ الجاحظ بالله من الهذر في فاتحة كتابه(٤).

وإذا كان الإيجاز بلاغة، فليس غريباً أن يكون الإكثار عيّاً، ولعلّ هذا يفسر لنا تملص إياس من تولي القضاء عندما أرادوه عليه، معتذراً بأنه عيي، وكأنّه يقصد آفة الإكثار؛ " فما نعلم أحداً رمى إياساً بالعيّ، وإنما عابوه بالإكثار"(٥).

والعيّ إكثار في إهذار(٦). والإهذار من أدواء الكلام التي بها يذم، ويوصم مقارفة بالبلادة، فـ " الإيجاز قصور البلاغة على الحقيقة، وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضل داخل في باب الهذر والخطل، وهما من أعظم أدواء الكلام، وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصناعة"(٧).

ولفتة الجاحظ إلى كراهة كثرة الكلام مراعاة لنفسيّة المستمع، يردفها عمرو بن عبيد بلفتة أخرى لا تقلّ عنها أهمية إذ يقول: " إذا طال الكلام عرضت للمتكلّم أسباب التكلّف، ولا خير في شيء يأتيك به التكلّف"(٨).

وقد يتبادر إلى الذهن أيضاً أن القوم توّاقون إلى تقليل اللفظ وحسب، وأنّ المعنى مغيَّب، ولكن تتوافد أقوال لهم كثيرة تحكم لهم بالتحوّط، فقلّة اللفظ لا يجوز أن تكون على حساب المعنى، بل المراد هو تقليل اللفظ، وتوضيح المعنى معاً، والقصد إليه، وإفهام السامع بأقصر

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص ٩٩ .

(٢) المكان نفسه، ووازن بالعسكري، الصناعتين، ص ١٩٤ .

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٩٧.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٣ .

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص٩٩ .

(٦) العسكري ، الصناعتين ، ص ٥٤ .

(٧) المصدر نفسه، ص ١٩٣ .

(٨) المصدر نفسه ، ص ١٩٣ . وانظر الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص١١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عبارة وأقلّ إشارة، وبذلك جُعل جعفر بن يحيى " أنطق الناس، قد جمع الهدوء والتمهّل ... وإفهاماً يغنيك عن الإعادة..."(١).

وكم عابوا العبارات الفُضلة التي يوردها المتكلم يستعين بها لوصل الكلام، والتقاط الأنفاس بحثاً عن شوارد الألفاظ والمعاني، فقد سئل العتابي: ما البلاغة؟ فقال: " كلّ من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ"(٢).

واستوضحوه الاستعانة فقال: "أما تراه إذا تحدّث قال عند مقاطع كلامه: يا هناه، ويا هذا ويا هيه، واسمع مني، واستمع إليّ وافهم عني، أو لست تفهم، أو لست تعقل؟ فهذا كلّه وما أشبهه عيّ وفساد"(٣).

فالعمدة على لفظ قليل هادف، يوضح المعنى دونما حاجة إلى استعادة أو تأويل، وقد أبان الأصمعي ذلك بإيجاز قائلاً:

" البليغ من طبق المَفْصل، وأغناك عن المُفَسِّر"(٤).

ويعززه قول ذلك الأعرابي الذي وصف أعرابياً بالإيجاز والإصابة فقال :

" كان والله يضع الهِناء مواضع النُّقب"(٥).

ومثل ذلك قولهم عمّن يصيب عين المعنى بموجز الكلام: " فلان يفل المَحَز، ويصيب المفصل"(٦). والمبرد يحرص على إحاطة القول بالمعنى مع حذف الفضول(٧).

وقد وردت لهم إشارات واضحة ترى البلاغة في قلّة اللفظ وخطورة المعنى، ومن ذلك:

" البلاغة قول يسير يشتمل على معنى خطير"(٨).

" البلاغة حكمة تحت قول وجيز"(٦).

" البلاغة علم كثير في قول يسير"(٨).

---

(١) البيان والتبيين، ج١ ص١٠٥ ، ١٠٦ .

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١١٣ .

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص١١٣

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص١٠٦، وينظر "الصناعتين"، ص٥٣ ، والعمدة، ج١، ص٢٤٩، وقانون البلاغة، ص٦٦.

(٥) البيان والتبيين، ج١، ص١٠٧ ، والعقد الفريد، ج٢، ص٢٦١ .

(٦) المكان نفسه .

(٧) المبرد، البلاغة، تحقيق رمضان عبد التواب، ط٢، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٥، ص٩٢ .

(٨) العسكري، الصناعتين، ص٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويقولون:

"البلاغة إجاعة اللفظ وإشباع المعنى"(١).

"البلاغة معان كثيرة في ألفاظ قليلة"(٢).

"البلاغة إصابة المعنى وحسن الإيجاز"(١).

ويقولون :" خير الكلام ما قلّ وجلّ، ودلّ ولم يُمَلّ"(٢).

ويضعنا ابن الأثير على محجة إذ يقول:

" والنظر فيه (الإيجاز) إنما هو إلى المعاني لا إلى الألفاظ .... فربّ لفظ قليل يدل على معنى كثير، وربّ لفظ كثير يدل على معنى قليل ... "(٣).

والإيجاز فضيلة عندما يحث عليه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم، وكبار الصحابة، والأمثلة على ذلك كثيرة:

فقد افتخر عليه الصلاة والسلام قائلاً: أوتيت جوامع الكلم. "والغرض مما قاله هو أنه عليه الصلاة السلام مكّن من الألفاظ المختصرة التي تدلّ على المعاني الغزيرة"(٤).

وقد سمع عليه السلام رجلاً يقول لآخر: كفاك الله ما أهمّك. فقال: هذه البلاغة. وسمع آخر يقول: عصمك الله من المكاره فقال: هذه البلاغة"(٥).

وتكلّم بين يديه عليه السلام رجل، ويبدو أنه أطال، فقال صلى الله عليه وسلّم:

" كم دون لسانك من حجاب؟ فقال: شفتاي وأسناني. فقال له: إنّ اللّه يكره الانبعاق في الكلام، فنضّر الله وجه رجل أوجز في كلامه، واقتصر في حاجته"(٦).

وقال سيدنا علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه: " ما رأيت بليغاً قط إلا وله في القول إيجاز وفي المعاني إطالة"(٧).

---

(١) ابن رشيق، العمدة، ج١، ص٢٤٢ .

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٢٤٦ ، والصناعتين، ص ٨٣ .

(٣) ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله محمد، المثل السائر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت، ١٩٩٠، ج٢، ص٦٨ .

(٤) العلوي : يحيى بن حمزة، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مطبعة المقتطف بمصر، ١٩١٤، ج٢، ص٨٨ .

(٥) العسكري، الصناعتين، ص١٩٣، وانظر مماثلاً في المثل السائر، ج٢، ص١١٦ .

(٦) ابن رشيق، العمدة، ج١، ص ٢٤١.

(٧) العسكري، الصناعتين ، ص ١٩٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى ذلك مضى خطباؤهم والشعراء يؤمنون بأهمية الإيجاز، ويرونه وسم البلاغة، ويتخذونه لهم شرعة ومنهاجاً، فقد قيل لأحد الشعراء:" لم لا تطيل الشعر؟ فقال: حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق"(١).

وكان الفرزدق أوضح منه تعليلاً عندما سُئل عن سبب ما صيّره إلى القصائد القصار دون الطوال فقال:" لأني رأيتها في الصدور أوقع، وفي المحافل أجول"(٢).

وفي النثر كذلك، تناصحوا بالإيجاز، ومجافاة الإطالة والهذر، فقد سمع جعفر بن يحيى يقول لكتابه: " إن استطعتم أن يكون كلامكم كلّه مثل التوقيع فافعلوا"(٣) .

استناداً إلى ما مضى من أمثلة، وهي -على الرغم من كثرتها - غيض من فيض ما ورد في كتبهم، يتبين لنا أنهم أدركوا جيداً أنّ اللغة العربية لغة الإيجاز، وهو فيها علامة البلاغة، وأن رسولنا الكريم وصحابته العظام وأبناء العرب حثوا عليه، ورغبوا فيه، وأن خطباءهم وشعراءهم قصدوه وأقبلوا عليه.

بيد أن سؤالاً -لاشك في وجاهته- يمكن إثارته، وهذا وقته:

أصحيح أن الإيجاز محمود في كلّ المواقف ولكلّ المتكلمين والمستمعين؟

وهنا نجد الجواب في ركن أساسي هام من أركان البلاغة وهو قولهم الذي صانوه وتوارثوه: "لكلّ مقام مقال"(٤). فلا يصحّ أن يجري الكلام على سنن واحد مع اختلاف طبقات المتكلمين والمستمعين، وتنوّع مقامات الكلام وظروفه ومناسباته وملابساته.

وقد تفهموا أن الإيجاز يقدّم على الإطناب، وأنّ الإطناب يقدّم على الإيجاز وفق ما تمليه الحاجات والدوافع وظروف الكلام.

"قال الخليل: يختصر الكتاب ليحفظ، ويبسط ليفهم. وقيل لأبي عمرو بن العلاء: هل كانت العرب تطيل؟ قال: نعم. كانت تطيل ليسمع منها، وتوجز ليحفظ عنها"(٥).

واختلاف المناسبة قد يفرض إيجازاً تارةً، وإطالة تارة أخرى،(٦) ولا بدّ من مراعاة الطبقات والمناسبات عند المكاتبات." ولا شك في أن الكتب الصادرة عن السلاطين في الأمور

---

(١) الصناعتين، ص١٩٣.

(٢) المكان نفسه ، وانظر أيضاً كلاماً مشابهاً للحطيئة وغيره في المكان نفسه، وما بعده.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص١١٥ ، ويُنظر العقد الفريد، ج٢، ص٢٧٢، وقانون البلاغة، ٤٦.

(٤) من صحيفة بشر بن المعتمر في البيان والتبيين، ج١، ص١٣٦ .

(٥) العسكري، الصناعتين، ص ٢١١.

(٦) ينظر المصدر نفسه ص ١٧٢ وما بعدها حيث وردت أمثلة عديدة، وينظر كذلك: ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، أدب الكاتب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٤، مطبعة السعادة بمصر، ١٩٦٣، ص١٥،١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجسيمة والفتوح الجليلة والترغيب في الطاعة، والنهي عن المعصية سبيلها أن تكون مشبعة مستقصاة تملأ الصدور، وتأخذ بمجامع القلوب،"(١) في الوقت الذي يمكن أن يتحول الكلام في مناسبات أخرى إلى إلماعات وومضات(٢). وفي كلتا الحالتين ثمة ضوابط، فلا يسمح بالإملال عند الإطالة، أو الإخلال عند الإقلال(٣). ومصداق هذا قولهم عن البلاغة:" الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل"(٤). ومع كلّ ذلك، وعلى الرغم من إدراكهم أثر المناسبة في تحديد طبيعة الكلام إيجازاً أو إطناباً، إلا أنّهم كانوا إلى الإيجاز أميل، وكم رددوا أقوالاً في هذا الأمر، مثل:

" البلاغة بالإيجاز أبلغ من البيان بالإطناب"(٥).

" البلاغة بالإيجاز أنجع من البيان بالإطناب"(٦).

وربطوا الإيجاز برفعة الشأن إذ قالوا:" الإيجاز للخواصّ، والإطناب مشترك بين الخاصة والعامّة"(٧). بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فرأوا أن الأمر يدخل في طبيعة العرب، فهم " إلى الإيجاز أميل، وعن الإكثار أبعد"(٨). ويرون أن القرآن الكريم أقرّ ذلك، فميّز خطاب العرب عن غيرهم، إذ ساوق فطنتهم وقدرتهم الفائقة على لمح المراد من إشاراته، فكان إذا خاطبهم "أخرج الكلام مخرج الوحي والإشارة وإذا خاطب بني اسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطاً... وقلّما تجد قصّة لبني اسرائيل في القرآن إلا مطولة مشروحة ومكررة في مواضع معادة لبعد فهمهم... وتأخر معرفتهم"(٩).

---

(١) العسكري، الصناعتين، ص ٢١٠ .

(٢) تنظر أمثلة في المصدر نفسه، ص١٩٣، ١٩٨، ٢١٠ وغيرها.

(٣) ينظر الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص١١٦، والصناعتين، ص٢١٢، والمثل السائر، ج٢، ص٧٠، والعلوي ج٢، ص٢٣٢، وكلّهم يوضح مراعاة ما يقتضيه الموقف، واعطاءه حقّه وعدم الالتفات إلى تذمُّر السامع إن جهل حقّ الموقف الكلامي.

(٤) ينظر البيان والتبيين، ج١، ص٩٧، والعقد الفريد، ج٢، ص٢٦٢، والصناعيتين، ص ٢٠٩، والعمدة، ج١، ص ٢٤٢، وقانون البلاغة، ص٢٥.

(٥) الصناعتين، ص ١٨٧ .

(٦) نفسه، ص١٩٤، وانظر تعليلاً نفسياً صائباً في: الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، ط٣، منشورات محمد الداية، بيروت، ١٩٦٩، ج٦، ص٨.

(٧) نفسه، ص ٢٠٩، وانظر توضيحاً وتفصيلاً ص ٢١٢ أيضاً.

(٨) ابن جني، الخصائص، ج١، ص٣٠، ٨٣، ٨٦، ولا يستغرب وروده هنا فله إشارات بلاغية ذكية.

(٩) الصناعتين، ص٢١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويسهل توجيه الطعن إلى هذا الرأي الأخير، فالقرآن الكريم يحكي قصّة بني اسرائيل، ولا يوجه الكلام إليهم بخاصة، إضافة إلى أن هنالك أموراً قد تتدخل لترجيح الإطناب في مثل هذا، ولعلّ الأسلوب القصصي، والحرص على الاعتبار والاتعاظ، وإسعاف الرسول الكريم بالتسلي والعزاء عما يصيبه من جفاء قومه ... لعلّ مثل هذا وغيره، جعل الكلام يرد مطوّلاً، وليس مردّ ذلك إلى ميز العرب بإيجاز الخطاب، والتوجه إلى غيرهم بإطناب.

وعلى الرغم من ذلك فهذا الرأي الذي ردّده البلاغيون يدلل على موقفهم الذي تكررت الإشارة إليه وهو أن الإيجاز " مذهب العرب وعادتهم في العبارة"(١).

وقد تلقف المحدثون هذا الرأي، وحاولوا تفهم الأسباب التي جعلت العربية أميل إلى الإيجاز، فتنوعت تعليلاتهم(٢):

بعضهم يرى السبب في البيئة الصحراوية وشحّ الماء فيها، واعتياد القوم القصد إليه بأقصر الطرق، فانعكس ذلك على لغتهم إذ عمدت إلى طرق الأهداف دون التفاف.

وبعضهم يرى السبب في تفشي الأمية، واعتماد القوم على الذاكرة.

وبعضهم يرى السبب في طبيعة الشعوب السامية ولغاتها.

وبعضهم يرى الإيجاز سمة للعربية نفسها ومن صميم طبيعتها ومن صلب ذاتياتها.

ومهما اختلفت اجتهاداتهم فهم متفقون على أن الإيجاز قيمة عربية ذوقية وجمالية، وأنّ العرب فضلوه، واصطنعوه مذهباً لكلامهم.

---

(١) البغدادي ، قانون البلاغة، ص٢٤.

(٢) ينظر، فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني)، دار الفرقان، ١٩٨٥، ص٣٤٩. ودرويش الجندي، علم المعاني، ط٢، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ١٩٦٢، ص١٦٥، وعبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢، ص ١٨٨، وأحمد الزيات، دفاع عن البلاغة، مطبعة الرسالة، ١٩٤٥، ص ٨٩، ومصطفى الجوبني ، المعاني: علم الأسلوب، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣ ص ١٢٧، وإبراهيم السامرائي ومحمد بركات أبو علي، مقدمة نهاية الإيجاز ودراية الإعجاز للرازي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ص٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

موقع الإيجاز في ائتلاف اللفظ والمعنى

لعلّ من المفيد اتخاذ الرماني منطلقاً للحديث عن حدود الإيجاز والإطناب وما يفصل بينهما، ذلك أنّ ما ورد من إشارات عنها في كتب النحاة، وكتب البلاغة قبل ذلك يعدّ إشارات موجزة، أو غير مقعّدة قياساً إلى ما أورده الرماني. وما ورد من حديث عنها بعده كان كثير منه اعتماداً عليه، أو نقلاً عنه.

عرّف الرماني الإيجاز بأنّه " تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى"(١) ، ثم قرّب الصورة أكثر فقال:" إذا كان المعنى يمكن أن يعبّر عنه بألفاظ كثيرة، ويمكن أن يعبّر عنه بألفاظ قليلة، فالألفاظ القليلة إيجاز"(١).

ثم سار على نهج سابقيه حين رأى الموقف الكلامي يتطلب إطناباً أحياناً، فأقرّه في "تفصيل المعنى وما يتعلق به في المواضع التي يحسن فيها ذكر التفصيل"(٢).

وكرر ما قالوه عن مواضع الإيجاز والإطناب، فقال:" إنّ لكلّ واحدٍ من الإيجاز والإطناب موضعاً يكون به أولى من الآخر لأن الحاجة إليه أشدّ والاهتمام به أعظم"(٣).

ثم قادته حدّة ذهنه إلى ملاحظة الفارق الخفي بين ما يحمد وما يذمّ في حدّي الإيجاز والإطناب، فالإيجاز "لا إخلال فيه بالمعنى المدلول عليه، وليس كذلك التقصير لأنه لا بدّ فيه من الإخلال"(٤).

وإذا كان الإطناب للتفصيل، كما مرّ، فإن التطويل " تُكلّف فيه الكثير فيما يكفي منه القليل"(٣). ويجعل الصورة حسّية ترسيخاً للفهم، فيشبه المطيل بمن يسلك" طريقاً بعيداً جهلاً منه بالطريق القريب"(٣). بينما المطنب يسلكه " لما فيه من النزهة الكثيرة والفوائد العظيمة"(٣). وعلى ذلك تتفاوت الأقدار، فـ "الإيجاز بلاغة، والتقصير عيّ، كما أن الإطناب بلاغة والتطويل عيّ"(٤).

وعلى الرغم مما يبدو من وضوح الجادة التي رسمها الرماني إلا أن توالي النظر، واختلاف وجهات نظر أصحابه، وتجليات التطبيق أدت إلى ظهور خلافات يسيرة أحياناً، وكبيرة أحياناً أخرى.

والمتتبع لخلافات البلاغيين في شأن الإطناب يراها تأخذ منحيين:

---

(١) الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص ٧٦ .

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٨، ٧٩.

(٣) نفسه، ص ٧٩.

(٤) نفسه، ص ٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأول : خلط الإطناب بغيره كالتطويل كما مرّ، مع أن الرماني كان قد أوضح الفرق بينهما، وقفّى أثره ابن الأثير فأوضح وأحسن التمثيل(١).

وأما الثاني من مصادر الخلاف في الإطناب فهو موضع بحثه، وبحث متعلقاته، فقد جعله بعضهم في باب واحد مع الإيجاز والمساواة، لكنّ بعضهم بحثه ومتعلقاته مثل الإيغال، والتوشيح والتذييل، والتتميم، والتكميل .. في أبواب البديع(٢).

وبعضهم بحثه منفصلاً كالباقلاني(٣) وحتى ابن الأثير فإنه تحدث عن التكرير في باب الإطناب، إلا أنه عاد فأفرد له حديثاً خاصاً(٤).

ويبدو أن القزويني قد استجمع خلافات سابقيه ووعاها، واستفاد منها، واحتواها لينحو بالموضوع وجهة مرضيّة، إذ جمع شتاته، لا سيما الإطناب، وبحثه في موطن واحد، فأحسن عملاً، ومنع هذه الفنون من الاضطراب(٥) .

وهذا يدفع الباحث إلى اعتماد القزويني أساساً لوضع الحديث عن هذا الموضوع في صورته النهائية وتخليصه من أوشابه، والخروج به مجموعاً مُجلّى، ويزيد وجاهة هذا المعتمد أن القزويني قد ردّ على السكاكي، وبذلك يجتمع لنا رأيان معاً: رأي السكاكي، وشارح كتابه: القزويني.

إن كُنّا فيما سبق نعاني من تعريف الإيجاز والإطناب والمساواة بإشارات غير كافية عند كثير من البلاغيين، أو نعاني خلطاً في تعريفاتها وحدودها، فنحن هنا مُقبلون على مرحلة تجلّت فيها التعريفات الجامعة المانعة، وطغت عليها التحديدات والتقسيمات، وبدت الألفاظ مثقلة بما تحمله من أفكار مقيّدة محدّدة، ويتضح كثير من هذا في تعريف السكاكي إذ أطّر تعريفه بسياج من التحوّط بالنسبيّة والعرفية وترك التحقيق، فقال:

" أما الإيجاز والإطناب فلكونهما نسبيين لا يتيسر الكلام فيهما إلا بترك التحقيق والبناء على شيء عرفيّ، مثل جعل كلام الأوساط على مجرى تعارفهم في التأدية للمعاني فيما بينهم،

---

(١) المثل السائر، ج٢، ص١٢٠ - .

(٢) ينظر مثلاً، العسكري، الصناعتين، ص٤١٣ ، ٤٢٢، ٤٢٥، ٤٣٤، وابن مالك، المصباح، ص٩٨ - . وابن الزملكاني، كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، تحقيق خديجة الحديثي، وأحمد مطلوب، مطبعة العاني ببغداد، ١٩٧٤، ص١٨٧، وابن أبي الإصبع المصري، عبد العظيم ابن عبد الواحد، بديع القرآن، تحقيق حفني محمد شرف، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ١٩٥٧، ص ٩٠ - .

(٣) إعجاز القرآن، ص٩٢- .

(٤) المثل السائر، ج٢، ص١٤٦.

(٥) ينظر أحمد مطلوب، القزويني وشروح التلخيص، منشورات مكتبة النهضة ببغداد، ١٩٦٧، ص٣١٦- .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا بدّ من الاعتراف بذلك مقيساً عليه، ولنسمّه متعارف الأوساط، وأنه في البلاغة لا يحمد ولا يذمّ"(١).

واضح من كلامه أنه يرى صعوبة تحديد الإيجاز والإطناب، لأن كلاً منهما لا يوصف بذلك إلا عند قياسه بغيره، وهذا لا يجعل التعريف الواضح الثابت لهما متيسراً لأننا ملزمون بالبناء على شيء متعارف عليه، وهو غير محدّد على وجه الضبط والدقة، ذلك هو متعارف الأوساط المتمثل في الفئة الوسطى التي تعرف أحكام صحة اللغة، لكنها تتقاصر عن مرتبة الفصاحة والبلاغة.

ثم اتخذ من هذا المتعارف قاعدة قاس عليها، فقال :

" فالإيجاز هو أداء المقصود من الكلام بأقلّ من عبارات متعارف الأوساط، والإطناب هو أداؤه بأكثر من عباراته"(٢).

فها نحن أمام تعريف لا يختلف عن مضمون الأقوال السابقة إلا من حيث دقة ألفاظه والمبالغة في تحوّطه، هذه المبالغة التي أثارت حفيظة القزويني فرأى في أحد جانبي تحديد السكاكي مبالغة في التضييق، وفي الجانب الآخر مبالغة في التسيّب، فقال:

" وفيه نظر:

١- لأن كون الشيء نسبيّاً لا يقتضي ألا يتيسر الكلام فيه إلا بترك التحقيق والبناء على شيء عرفي.

٢- ثم إنّ البناء على متعارف الأوساط ... ردّ إلى جهالة فكيف يصلح للتعريف؟"(٣)

ثم انبرى يضع تعريفاً يخلصه مما انتقده في تعريف السكاكي فقال :

" المقبول من طرق التعبير عن المعنى هو تأدية أصل المراد بلفظ مساوٍ له أو ناقص عنه، وافٍ، أو زائد عليه لفائدة. والمراد بالمساواة أن يكون اللفظ بمقدار أصل المراد لا ناقصاً عند بحذف أو غيره .. ولا زائداً بنحو تكرير أو تتميم"(٤).

---

(١) السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣، ص ٢٧٦.

(٢) السكاكي، مفتاح العلوم، ص٢٧٧ .

(٣) القزويني، جمال الدين محمد بن عبد الرحمن، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة، ج٣، ص١٧٢ .

(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أردف كلّ ذلك بأمثلة توضح المقصود(١)، ثم مرّ بالمساواة سريعاً ومثل لها،(٢) وتوقف عند الإطناب، وبسط فيه القول، وجمع أنواعه، وأكثر لها التمثيل(٣).

ومع كل هذا الحرص على الدقة، إلا أن القزويني لم يكن في هذا الأمر فصلاً، فهذه الحدود تقريبيّة، وهناك عوامل كثيرة تتداخل وتتدخل لتخلق صعوبة في ميز الكلام، وهذا اللبس عَنّى أكابر العلماء، إذ كلما تعمقوا في النظر انتهوا إلى ما بدأوا به، يقول الرماني: " والإيجاز والإكثار، إنما هما في المعنى واحد... وقد يطول الكلام في البيان عن المعاني المختلفة وهو مع ذلك في نهاية الإيجاز وإذا كان الإطناب لا منزلة إلا ويحسن أكثر منها فالإطناب حينئذ إيجاز كصفة ما يستحقه الله تعالى من الشكر على نعمه، فإطناب فيه إيجاز"(٤).

وأما المساواة فإن بعض العلماء يرى جلّ القرآن بل كله قائماً عليها(٥) ، وبعضهم كاد ينكرها وهو يشدّد النكير على القائل بوجودها في القرآن الكريم(٦). وأمثلة القزويني يلاحقها لاحقوه نقداً ونقضاً ويحوّلون الشيء إلى نقيضه(٧). لكننا مع كل ذلك، لا نملك إلا الإقرار بأن ما أوردوه وارتضوه من تعريفات، وما رسموه من حدود، وما ضربوه من أمثلة، يجعل رسم الحدود بين الإيجاز والإطناب والمساواة أمراً ليس عسيراً، وكثرة المشتبهات فيه لا تعدم الرؤية.

ويترك الحديث عن الإيجاز هنا لإفراده بذلك لاحقاً ويكتفى بالإلماع إلى أنّ البلاغيين رأوا الإيجاز يحتل مكاناً في الطرف الآخر قبالة الإطناب، وتتوسطهما المساواة.

أما المساواة فإن الرمّاني لم يذكر عنها شيئاً، ولم يبيّن لها حدّاً، مع أنّ قدامة بن جعفر كان قد أشار إليهاضمن حديثه عن ائتلاف اللفظ والمعنى، ورسم لها حدّاً، اعتمده معظم من جاء بعده وهو قوله:" المساواة أن يكون اللفظ مساوياً للمعنى حتى لا يزيد عليه ولا ينقص عنه، وهذه

---

(١) القزويني، الإيضاح، ج٣، ص ١٧٤ وما بعدها .

(٢) نفسه، ج٣، ص ١٨٠.

(٣) نفسه، ج٣، ص ١٩٩ ، وليس من صالح البحث إيراد تفصيل كل ذلك، ولعلّ في الاحالة إليه بعض فائدة.

(٤) الرماني ، النكت ، ص ٨٠.

(٥) ابن قيم الجوزية، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، تصحيح محمد بدر الدين النعساني، مطبعة السعادة بمصر، ١٣٢٧هـ ، ص ١٧٨ .

(٦) السيوطي، الإتقان، ج٣، ص١٦٢ .

والطيبي، شرف الدين الحسن بن محمد بن عبد الله، التبيان في البيان ، تحقيق توفيق الفيل وعبد اللطيف لطف الله، ذات السلاسل، ١٩٨٦، ص ١١٤ .

(٧) ينظر شروح التلخيص، ج٣، ص١٦٦ وما بعدها في مواضع متفرقة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هي البلاغة التي وصف بها بعض الكتاب رجلاً فقال: كانت ألفاظه قوالب لمعانيه، أي هي مساوية لها لا يفضل أحدهما على الآخر"(١).

بل إن الجاحظ كان له من قبلُ إرهاص بهذا المفهوم للمساواة إذ قال:

" وإنما الألفاظ على أقدار المعاني، فكثيرها لكثيرها، وقليلها لقليلها"(٢).

ولعلّ ما دفع الرماني إلى تجاهل المساواة هو أنها تأتي وسطاً في مراتب الكلام لا تحمد ولا تذمّ، وإن كانت كذلك، فلا مكان لها في الإيجاز وهو أحد عشرة أقسام محمودة يقوم عليها البناء البلاغي عند الرماني.

أما البلاغيون بعد الرماني، فلم يغفلوا المساواة، فالعسكري مثلاً قد أحسن في ذكرها، ووفّق في حدّها، ومع أنّه بحثها في باب الإيجاز، وذلك يوجب أنّه عدّها منه، إلا أنّ ما أوضحه بعد ذلك يدلل على فهمه الجليّ لتوسطها بين الإيجاز والإطناب، وقد قال:

" ومما يدخل في هذا الباب (يقصد باب الإيجاز) المساواة، وهو أن تكون المعاني بقدر الألفاظ، والألفاظ بقدر المعاني لا يزيد بعضها على بعض، وهو المذهب المتوسط بين الإيجاز والإطناب، وإليه أشار القائل بقوله: كانت ألفاظه قوالب لمعانيه، أي لا يزيد بعضها على بعض"(٣).

وقد ظهر خلاف حول هذا الأمر مع ما يبدو من استوائه وجلائه، فابن الأثير مثلاً عدّ المساواة من الإيجاز، فقد جعل الإيجاز (دون حذف) ضربين، وحدّ أحدهما بأنه " ما ساوى لفظه معناه، ويسمّى التقدير"(٤). وما هذا إلا المساواة.

وأما ابن مالك في المصباح فقد زاد في التوضيح بما يخلط بين المساواة والإيجاز إذ جعلها نوعين: مساواة مع الاختصار، وأخرى دونه(٥).

والباقلاني يعود إلى ما ذكره قدامة قديماً فيجعل المساواة في باب البديع(٦).

---

(١) قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١٥٣.

(٢) الجاحظ ، الحيوان ، ج٦، ص٨ .

(٣) الصناعتين، ص١٩٩، وانظر البغدادي، قانون البلاغة، ص٩٤ في رأي مماثل، وكذلك، ابن سنان الخفاجي، أبو محمد عبد الله بن محمد، سرّ الفصاحة، شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة ١٩٦٩، ص١٩٩، ٢٠٩ .

(٤) المثل السائر، ج٢، ص٧٤.

(٥) ابن مالك، بدر الدين أبو عبد الله محمد، المصباح في علم المعاني والبيان والبديع، المطبعة الخيرية، ١٣٤١هـ، ص٣٦.

(٦) الباقلاني، إعجاز القرآن، ص٨٩ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأغرب من ذلك أن ابن الزملكاني المتأخر زمنياً عدّها كذلك أيضا(١).

وأما الإطناب، فالخلاف حوله أكبر لتداخل أنواعه التي لا يفصل بينها أكثر من خطوط واهية، وهذا ما جعل ابن الأثير صريع الحيرة فقال:" هذا النوع من الكلام أنعمت نظري فيه، وفي التكرير والتطويل، فملكتني حيرة الشبه بينها طويلاً"(٢).

ثم لاحق بعض العلماء الذين أوقعتهم الحيرة في الخطأ فخلطوا بين التطويل والإطناب وسمّى منهم العسكري(٣). ولعلّه يقصد ما كان يبدو من كلام العسكري من مراوحة في استخدام المصطلحين بما يوحي بأنهما مترادفان(٣).

وإن كان هذا قصده فيما ذهب إليه، فإنّ غير العسكري قد قارب حمى الخلط، فالجرجاني يرادف المصطلحين(٤). وابن قيّم الجوزية أيضاً رغم عنايته بالتقسيم والتحديد إلا أن نظامه أمام الإطالة والإطناب بدا فيه الخلل والاضطراب، فهو يقول فيهما :

" قال المحققون إنهما متغايران ... وقال أبو هلال العسكري: الإطالة والإطناب سواء، وهما عنده ضدّ الإيجاز، ووافقه جمهور الأئمة"(٥).

وهو لم يُبدِ اعتراضاً على قول العسكري، ولم يذكر بعض الأئمة الذين وافقوه الرأي، لكنه عاد فاستعاد ما قاله سابقوه في تفضيل الإطناب على التطويل فقال:

" واعلم أن الإطناب بلاغة والتطويل عيّ."(٦) ثم تردد فجعل الإطالة نوعين حسنة وقبيحة، وخلص متحصناً بقوله:" الإطناب على سائر أحواله بلاغة، والتطويل بعضه عيّ وركاكة"(٧).

ولعلّ ابن الأثير قد قسا في حكمه على العسكري، فالأخير، على الرغم ممّا بدا من مرادفته الإطناب والتطويل إلا أنه فرّق نصّاً صريحاً فقال:

---

(١) ابن الزملكاني، التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٤، ص١٨٠.

(٢) المثل السائر، ج٢، ص١١٩، وينظر له كلام مشابه في الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق مصطفى جواد، وجميل سعد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٦، ص١٤٦ – ، وانظر مزيداً من التوضيح في المثل السائر، ج٢، ص١٤٥.

(٣) ينظر العسكري، الصناعتين ، ص٢١٢.

(٤) الرسالة الشافية (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، ص ١١٨.

(٥) بدائع الفوائد، ص١٠٧.

(٦) المصدر نفسه، ص١٠٨.

(٧) نفسه، ص١١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" الإطناب بلاغة ... والتطويل عيّ، لأن التطويل بمنزلة سلوك ما يبعد جهلاً بما يقرّب، والإطناب بمنزلة سلوك طريق بعيد نزه يحتوي على زيادة فائدة"(١). وهذا استرجاع لرأي الرماني، يظهر وهم من ذهب إلى أن العسكري أوّل من فرق بين الإطناب والتطويل(٢)، لكنه يظهر أيضاً تسرُّعاً في حكم ابن الأثير.

ويبدو أن هذه الخيوط الدقيقة التي تفصل بين مراتب الكلام: إطناباً محموداً، وتطويلاً مذموماً، هي التي اختلطت حتى على كبار البلاغيين فاختلفت أحكامهم وتباينت تبايناً كبيراً في المثال الواحد أحياناً، فأبيات كثير الشهيرة:" ولما قضينا من منى كلّ حاجة ....." صنّفها ابن قتيبة في مذموم الشعر، وعدّها الجرجاني في عيونه، وأوجز القزويني الخلاف قائلاً:" واعلم أنه قد تشتبه الحال على الناظر لعدم تحصيل معنى الكلام وحقيقته، فيعدّ من الزائد على أصل المراد ما ليس منه"(٣). ثم تمثل بالأبيات المشار إليها.

الإيجاز : حدّه وأنواعه

تكررت الإشارات إلى هذا الأمر -فيما سبق - لكنها لم تكن مقصودة، فقد كان الاهتمام موجهاً نحو تحديد موقع الإيجاز قياساً إلى الإطناب والمساواة.

وينبغي هنا توجيه العناية إلى الإيجاز، اسمه، وحدّه، وأنواعه، لإجلاء أمره قبل الخوض في الحديث بشأنه.

ويلاحظ بداية أن المتتبع لا يكاد يرى خلافاً يذكر حول فضيلة الإيجاز، وتعظيمه، وقد مرّت إشارات إلى ذلك أيضاً مدخل هذا الفصل، لكنّ الخلاف يبدو هنا في تسميته أحياناً، وفي أنواعه أحياناً أخرى.

---

(١) الصناعتين، ص٢١٠، ٢١١.

(٢) بدوي طبانة، العسكري ومقاييسه البلاغية، القاهرة، ١٩٥٢، ص٢٠٦.

(٣) القزويني، الإيضاح، ج٣، ص١٧٨. وانظر الأبيات والخلاف حولها في: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق محمد مفيد قميحة، ونعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ١٩٨٥، ص٢٢، ونقد الشعر ص٧٧ ، والصناعتين ص ٧٣، والجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، دلائل الإعجاز ، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٨، ص٥٩،٦٠ ، والمصدر نفسه، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ص٧٤ .

وينظر للجرجاني أيضاً: أسرار البلاغة، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٨ ص١٥،١٦، والمصدر نفسه تحقيق هـ. ريتر، مطبعة وزارة المعارف، استانبول، ١٩٥٤، ص٢١،٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما في التسمية فمعظم البلاغيين سمّاه الإيجاز، ولكن بعضهم سمّاه الإشارة، ولعلّ البذرة الأولى لهذه التسمية كمنت في تعريف ابن المقفع البلاغة(١). وجاء الجاحظ ليعززها بقوله: " ومما مدحوا به الإيجاز والكلام الذي هو الوحي والإشارة"(٢).

واستند قدامة بن جعفر إلى ما قاله الجاحظ، فجعل الإشارة نوعاً من أنواع ائتلاف اللفظ والمعنى، وذلك " أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على معان كثيرة بإيماء إليها أو لمحة تدل عليها"(٣). وتكلم ابن وهب عن الوحي(٤) ، فبدا أن كلاً منهما قد اختطف إحدى كلمتي الجاحظ (الوحي والإشارة).

وإنْ بدا أن لقدامة وابن وهب شيئاً من عذر في هذه التسمية لأنهما متقدمان زمنياً على الرماني الذي أوضح حدّ الإيجاز ونوعيه، إلا أن الباقلاني وهو متأخر زمنياً عن الرماني، يعرف الإشارة أيضاً بأنها " اشتمال اللفظ القليل على المعاني الكثيرة"(٥). وكذلك فعل البغدادي(٦). ويزيدنا العسكري حيرة إذ تحدّث عن الإيجاز وأنواعه، وذكر المساواة ومثل لها، وأشار إلى الإطناب وأشكاله،(٧) ولكنه عاد فذكر الإشارة في باب البديع وعرّفها قائلاً:

" أن يكون اللفظ القليل مشاراً به إلى معان كثيرة"(٨). وكذلك فعل ابن رشيق(٩). ولعلّ هذا التناوب في الاستعمال بين إيجاز وإشارة قد تمثله العلوي بقوله: " الإيجاز ويقال له الإشارة أيضاً"(١٠). ويستشف أن هذا أيضاً مذهب ابن سنان الخفاجي(١١)، والبغدادي كذلك(١٢).

وعلى أيّة حال، فإنّ هذا الترجح ليس مستهجناً لأن هذه المصطلحات لم تكن قد استقرت، واتضحت مفاهيمها وحدودها.

---

(١) ينظر هذا البحث ، ص ٩٩.

(٢) البيان والتبيين، ج١، ص١٥٥.

(٣) نقد الشعر، ص١٥٤، ١٥٥.

(٤) ابن وهب الكاتب، أبو الحسن إسحق بن إبراهيم، البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، ١٩٦٧، ص ١٥٠.

(٥) إعجاز القرآن ، ص ٩٠.

(٦) قانون البلاغة، ص ٩٥.

(٧) الصناعتين، ص١٩٣ – .

(٨) المصدر نفسه، ص ٣٨٣.

(٩) العمدة، ج١، ص٢٥٠ – ٢٥٤ ، ٣٠٢ – .

(١٠) الطراز، ج٢، ص٨٨.

(١١) ابن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، ص١٩٩.

(١٢) قانون البلاغة، ص٤٤، ٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما يجدر ذكره هنا أن الرمّاني هو أوّل من أثبت للإيجاز مصطلحين لنوعيه وهما: إيجاز القصر، وإيجاز الحذف، وقابلهما معاً، يقول:

"الإيجاز على وجهين: حذف وقصر. فالحذف: إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام. والقصر: بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف"(١).

ثم ساق أمثلة لإيجاز الحذف، وتوقف عند إيجاز القصر مردداً فيه النظر، مبيناً أنه أغمض من الحذف وإن كان الحذف غامضاً، ورأى أنه يقع كثيراً في القرآن(٢)، وضرب له أمثلة أهمها قوله تعالى:" ولكم في القصاص حياة"(٣).

وعقد موازنة بين هذه الآية الكريمة وقول العرب المشهور: القتل أنفى للقتل، فرأى أن الآية تفوق قولهم بلاغة وإيجازاً لأنها " أكثر فائدة، وأوجز عبارة وأبعد عن الكلفة بتكرير الجملة، وأحسن تأليفاً بالحروف المتلائمة"(٤).

وظاهر كلام الرماني يوحي بأن الأمر واضح، والتفريق بين إيجاز الحذف والقصر سهل، لكن ما ندّ عنه من إحساس بصعوبة ذلك لغموضهما جعله يرد الموضوع ثانية ليبيّن: أن الإيجاز على وجهين، يذكرهما، ثم تستبهم عباراته ولا تكاد تبين شيئاً إذ يقول: " وأما الوجه الآخر فمستأنف لم يقرر له حالة خاصّة يكون جاراً لها من حيث تعلّق بها من فهم كيف وجه التعلّق فيهما"(٥).

ولم يضرب مثلاً واحداً يجعلنا نتلمس مقاصده من خلاله، وأكثر غرابة من ذلك أنه في المكان نفسه يستتبع قائلاً:

" والإيجاز على ثلاثة أوجه: الإيجاز بسلوك الطريق الأقرب دون الأبعد، وإيجاز باعتماد الغرض دون تشعب، وإيجاز بإظهار الفائدة بما يستحسن دون ما يستقبح "(٥). وتشحّ أمثلته هنا أيضاً، ولا تسعفنا في فهم قصده: لم جعل الإيجاز وجهين، ثم جعله ثلاثة، وما الفرق في كلتا الحالتين؟

---

(١) النكت في إعجاز القرآن، ص٧٦، ولا ينكر أن كثيراً من سابقيه أرهص بهذا، لكن يذكر له وضوح القصد والتحديد والتفريق.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٧.

(٣) البقرة، ١٧٩، وكان الجاحظ قد أشار إلى مثل هذا في البيان والتبيين، ج٢، ص٣١٦، ولعلّ الرماني استهدى به.

(٤) النكت ، ص ٧٧.

(٥) المصدر نفسه ، ص ٧٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتماس عذر له في ذلك ليس عسيراً، فيكفي أنه يشقّ طريقاً، ويضع مصطلحاً جديداً، ويصعب أن يصادف ذلك توفيقاً كاملاً منذ البداية.

والغموض الذي بدا في كلام الرماني امتدت خيوطه إلى كثير من البلاغيين من بعده، لا سيما في إيجاز القصر فهو كما قالوا:" باب متسع جداً، ولكلّ نوع منه تسمية سمّاها أهل هذه الصناعة"(١). وقد مرّ أنّ ابن الأثير جعل الإيجاز (دون حذف) نوعين، عدّ المساواة أحدهما، وسمّاها إيجاز التقدير(٢). وأما الثاني فقد سماه صراحة إيجاز القصر، وجعله أيضاً نوعين(٣). وابن مالك، كذلك، جعل الإيجاز ثلاثة أنواع، عرضها، ومثّل لها(٤). والطيبي أيضاً سلك الإيجاز (دون حذف) في ثلاثة أشكال، ومثّل لكلّ منها(٥). وكل ذلك تأكيد لما تكررت الإشارة إليه بأن الميز حقاً لا يخلو من صعوبة، فليس ثمّة خطوط واضحة تفصل بين هذه الأنواع، وهذا الخلاف انعكاس فعلي لما أحسّه البلاغيون من صعوبة لا سيما في إيجاز القصر، " فإن التنبه له عسر؛ لأنه يحتاج إلى فضل تأمل وطول فكرة لخفاء ما يستدل عليه، ولا يستنبط ذلك إلا من رست قدمه في ممارسة علم البيان وصار له خلقةً وملكة"(٦).

ولعلّ هذا الغموض الذي أحس به عظماء علماء البلاغة، وشكوا منه هو الذي نوّع اجتهاداتهم، وأدّى إلى اختلاف أنظارهم.

لكن إن فرّقتنا اجتهاداتهم في الأفرع، فإنها تجمعنا على النوعين الرئيسين اللذين أشار إليهما الرماني، وسار عليهما موكب البلاغة وجمهور البلاغيين(٧) وهما: إيجاز القصر، وإيجاز الحذف.

وثانيهما هو محط الاهتمام في الحديث التالي:

---

(١) ابن رشيق القيرواني، العمدة ج١، ص٢٥٠، ويذكر هنا أنه لم يحسن النقل عن الرماني، وخلط في نوعي الإيجاز خلطاً عظيماً، ينظر المكان نفسه ، وما بعده.

(٢) المثل السائر، ج٢، ص٧٤.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٧ وما بعدها.

(٤) المصباح، ص٣٦، ٣٧.

(٥) التبيان في البيان، ص١٢١،١٢٢.

(٦) المثل السائر، ج٢، ص ٧٤.

(٧) ومنهم العسكري في الصناعتين، ص ١٩٠، وابن رشيق القيرواني في العمدة، ج١، ص٢٥٠، والقزويني في الإيضاح، ج٣، ص١٨١..... .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحذف عند البلاغيين

توضيح

حتى يتم تصوّر قريب من الشمول لظاهرة الحذف عند البلاغيين، قد يكون من المفيد تجزئة الحديث عنها إلى خمسة عناصر هي:-

- الحذف عند دارسيه قبل عبد القاهر الجرجاني.
- الحذف عند عبد القاهر الجرجاني.
- الحذف عند المدرسة البلاغية الأدبيّة.
- الحذف عند المدرسة البلاغية الكلامية.
- الحذف عند الزمخشري.

إنّ خلط الحديث عن هذه العناصر الخمسة مجتمعة لا يسعف في تجلية الظاهرة لتغاير طرق دراستها، وتفاوت أزمانها، واختلاف آراء أصحابها ... إلخ، ولعلّ في تناول كلّ عنصر على حدة ما يساعد في تتبع دراسة ظاهرة الحذف، وما طرأ عليها مع تقدّم الزمن، واختلاف الدارسين، وتنوّع مناهجهم ومواقفهم.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحذف قبل عبد القاهر الجرجاني

تعود الخيوط الأولى في دراسة الظاهرة إلى بدايات التأليف اللغوي، وقد لقيت رعاية من النحاة المتقدّمين، وليس ذلك عجباً، فما كان علما النحو والبلاغة منفصلين، ولعلّ الفصل لم يكن ممكناً، فالقرآن الكريم كان محور الدراسات اللغويّة، وخدمته كانت شرفاً يتسابق إليه جميعهم فتتآخى تآليفهم نحواً وصرفاً وبلاغة وتفسيراً ... وحول القرآن، وللدفاع عنه، ولكثرة تدبر آياته، والتفكر في إعجازه، وتفهم أحكامه، دارت تلك الحركة الفكرية الموّارة التي عزّ نظيرها، وتناثرت آثارها علوماً رائدة، وفرقاً عظيمة، ومؤلفات خالدة.

ولذلك فإن أوائل النحاة ساهموا بفاعلية في تأطير ظاهرة الحذف، فأشاروا إليها، واستحضروا أمثلتها، وعاشت أمثلة سيبويه قروناً طوالاً في كتب البلاغة وما زالت، وكانت ملاحظاته البكر بذوراً لاقت عند البلاغيين بعده بيئة خصبة فأينعت، وأثمرت، وتشققت، وتفرّعت. وهذا الفضل في الريادة لسيبويه وصحبه الأوائل يعززه فضل آخر لتلاميذه الذين توالوا مع الأجيال، فأدرك بعضهم أن النحو لا يقف عند معرفة الحركات والتعليل لها، فغاصوا إلى المعاني، وكانت لهم لفتات بلاغية فيها الفطنة وبعد التصوّر(١).

بيد أنه ينبغي التحرز هنا بتذكّر أن هذه الملاحظات البلاغية عند النحاة من السابقين واللاحقين لم تكن هي المقصود الأساس لديهم، بل هم في كثير من الحالات يصطدمون بها وهم منهمكون في صناعتهم، فيجدون عاملاً دون معمول، أو معمولاً دون عامل، فيشيرون إلى الحذف، ويردّون المحذوف، ويلقون ملاحظاتهم، ويمضون.

لكنّ هناك فئة من النقاد والبلاغيين توجهت قصداً إلى هذه الظاهرة، ودرستها في إطار هو أقرب إلى روح البلاغة، ومن أقطابها:

الجاحظ

عندما نصل إلى الجاحظ، نشعر أننا أمام حديث هو أقرب إلى التخصص في البلاغة، مما دعا بعض الباحثين إلى القول:" إنّ الجاحظ يُعدّ – غير منازع – مؤسس البلاغة العربية"(٢). ذلك أن حديثه وبخاصّة في البيان والتبيين جاء كما يدل عليه العنوان في البلاغة وآلاتها، وإن كان يفتقر إلى تنظيم العلم وتبويبه. ويهمّ الباحث هنا أن الجاحظ وقف طويلاً عند الإيجاز(٣)، وصوره منهجاً جرى عليه اللسان العربي، وعرض كثيراً من الأمثلة التي تمجده، وتحث عليه،

---

(١) سيكون للبحث وقفة مطوّلة خاصة بهذا الأمر توضحه وتدلل عليه، انظر هذا البحث، ص ٢٢٣- .

(٢) شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥، ص٥٧،٥٨.

(٣) ينظر البيان والتبيين، ج١، ص٨٨ وما بعدها في مواضع كثيرة متفرّقة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتتصح بالتزامه. ورسم الخطوط الأولى في الحديث عنه موازناً بالإكثار، والتطويل، والإسهاب، والهذر، والخطل(١).

وفي نهاية الجزء الثاني من كتابه كانت له وقفة أطول في باب "من الكلام المحذوف"(٢)، إذ خصّص عشرات الصفحات حشد فيها أمثلة للإيجاز اشتملت على القصر والحذف، وقد تنوّعت أمثلته شعراً، ونثراً، ورسائل، وخطباً .... واستعرض أقوالاً للرسول عليه الصلاة والسلام، والخلفاء الراشدين، وكبار الصحابة، والخلفاء، والولاة، وزعماء الخوارج، والخطباء، والفصحاء، والحكماء ....(٣).

وقد كان واضحاً أنه لا يتحدث عن موضوع قاصداً أن يرسم له حدوداً، إذ اختلط في أمثلته إيجاز الحذف، بالإيجاز دون حذف، ولم يسمّ النوعين، أو يفرّق بينهما على الأقل(٤).

وكلّ ما فعله أنه حشد هذه الأمثلة – وهي كثيرة غنية دالة – ولم يتناولها بالتعريف، أو التحليل، أو التعليل. وإن كان له العذر في هذا لأنه عرض هذه الأمثلة ضمن خطة عامة يرسمها لنهج البيان والبلاغة تمثيلاً لا دراسة، إلا أنّ أمراً فعله يثير التساؤل، ويعزّ له فيه العذر، وهو أنه لم يكثر من الاستشهاد بالقرآن الكريم، فقد عرض آيات مثّل بها لوضوح الدلالة(٥)، وآيات أخرى للدلالة على المعنى بالإشارة(٦)، وأورد آية واحدة فقط لإيجاز القصر(٧) هي قوله تعالى:﴿**ولكم في القصاص حياة**﴾(٨).

ولكنّ ما أورده الجاحظ كان لآلئ منثورة، انفرط عقدها فانتظرت من يعيد نظمها ليجمع أشكالها، ويوفق أشباهها والنظائر، وذلك ما انبرى له لاحقوه.

---

(١) ينظر ، مثلا ، البيان والتبيين، ج١، ص٩٩.

(٢) المصدر نفسه ، ج٢، ص٢٧٨.

(٣) نفسه ، ج٢، ص٢٧٨ وما بعدها.

(٤) يشير ظاهر كلام أحمد مطلوب إلى أن الجاحظ فرّق بين إيجاز القصر وإيجاز الحذف، ينظر كتابه، البلاغة عند الجاحظ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٣، ص٧٩ ، ولم أجد ما يثبت ذلك.

(٥) البيان والتبيين، ج١، ص٢٨٨.

(٦) نفسه، ج٢، ص٢٩٩.

(٧) نفسه، ج٢، ص٣١٦.

(٨) البقرة، ١٧٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابـن قتيبـة

ليس غريباً أن يدرج اسمه في قائمة البلاغيين، فالبلاغة أول أمرها لم يتعاطها متخصصون، وما عرضه ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن من مسائل بلاغية مرتبة مبوبة لا يجعله غريباً في وادي البلاغة، بل يقدّمه صدراً لها، وأحد روّادها.

عقد في كتابه "تأويل مشكل القرآن " باباً عنوانه " الحذف والاختصار"(١). والمتمعن فيما ذكره تحت هذا العنوان تروعه إحاطته المبكرة، وجمعه كثيراً من أنواع المحذوفات، ويدهشه نفاذه إلى ما خفي منها، ويدرك أنّ ما نثره من أمثلة قد فتح مغاليق هذه المسألة، وقد عرض الأمر مبوباً في أمثلة شملت:

- حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه(٢)، مثل:﴿واسأل القرية﴾(٣).
- ايقاع الفعل على شيئين هو لأحدهما(٤)، مثل:﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم﴾(٥).
- حذف الأجوبة كحذف جواب لو(٦)، مثل: ﴿ولو أن قرآناً سُيرّت به الجبال..﴾(٧).

وكذلك حذف جواب لولا(٨)، وجواب القسم(٩).

- حذف المساوي مثل: ﴿ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمةٌ قائمة...﴾(١٠) ولم يذكر الأمّة الأخرى.
- حذف الفعل(١١)، مثل: ﴿فأما الذين اسودت وجوهُهم أكفرتم﴾(١٢).
- حذف المفعول به(١٣)، مثل: ﴿لينذر بأساً شديداً من لدنه﴾(١٤). أي: لينذركم.

---

(١) تأويل شكل القرآن، ص ١٦٢.
(٢) تأويل مشكل القرآن، ص١٦٢.
(٣) يوسف، ٨٢.
(٤) تأويل مشكل القرآن، ص١٦٤.
(٥) يونس، ٧١.
(٦) تأويل مشكل القرآن، ص١٦٥.
(٧) الرعد، ٣١.
(٨) تأويل مشكل القرآن، ص١٦٦.
(٩) نفسه، ص١٧٣.
(١٠) آل عمران، ١١٣.
(١١) تأويل مشكل القرآن، ص١٦٧.
(١٢) آل عمران، ١٠٦.
(١٣) تأويل مشكل القرآن، ص١٧٢.
(١٤) الكهف، ٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- حذف المنادى، مثل:﴿ألا يا اسجدوا﴾(١). أي: ألا يا هؤلاء.

- حذف الحروف وسمّاها (الصفات)، مثل:"واختار موسى قومَه سبعين رجلاً". أي: من قومه.

وتنبه لمواضع يشكل فيها الكلام ويغمض بالإضمار والاختصار، مثل:

﴿أفمن زُيّن له سوءُ عمله فرآه حسناً، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهبْ نفسُك عليهم حسرات﴾(٢). وقدّر المعنى: أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ذهبت نفسك حسرة عليه(٣).

ويحسن تسجيل الملحوظات التالية ائتناساً بحديث ابن قتيبة عن ظاهرة الحذف:

لو وازنا بين جهد ابن قتيبة وجهد الجاحظ في ظاهرة الحذف سنرى أن ابن قتيبة قد تقدم خطوات عظيمة على أستاذه رغم أن ما يفصله عنه لا يزيد عن عشرين عاماً، فالجاحظ عقد باباً للحذف حشد فيه أمثلة كثيرة اختلط فيها إيجاز القصر بالحذف دون أن يميز بينهما، ولم يذكر نوع المحذوفات أو يقدرها، وقد غابت، أو كادت تغيب الآيات القرآنية، أما هنا، فالأمثلة كثيرة وهي بالعشرات، ومعظمها من القرآن الكريم، فقد مثّل لحذف المضاف مثلاً بتسع آيات كريمات. وكان في كل نوع من أنواع الحذف يقدّم الآيات ثم يعززها بالشعر، فللقرآن عنده الصدارة دوماً، ويأتي الشعر على أثره.

وما عرضه ابن قتيبة من أمثلة يقع في باب الحذف، ولم يمثل لإيجاز القصر، ولم يشر إليه، وليس صحيحاً أنه عقد باباً للإيجاز بنوعيه القصر والحذف كما قال أحد الباحثين(٤)، لكنه حرص على بيان نوع المحذوف، ثم يقدره ويردّه ليوضح غرضه.

ومما يذكر لابن قتيبة في هذا الباب إشاراته المتكررة إلى ضرورة وجود دليل على المحذوف يجعله معلوماً عند المخاطب(٥).

ويستشف أنه يقصد الدليل اللفظي، ففي قوله تعالى: ﴿كرماد اشتدّ به الريحُ في يوم عاصف﴾(٦) قال:" أراد: في يوم عاصف الريح، فحذف؛ لأن ذكر الريح قد تقدّم، فكان فيه دليل."(٧) ومثل لحذف الثاني بذكر الأول، ولحذف الأول اكتفاء بذكر الثاني(٨).

---

(١) الأعراف، ١٥٥.

(٢) فاطر، ٨.

(٣) تأويل مشكل القرآن، ص١٦٩.

(٤) بدوي طبانه، البيان العربي، ط٤، المكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨، ص٤٥.

(٥) ينظر تأويل مشكل القرآن، ص١٦٥، ١٦٦، ١٦٨، ١٦٩.

(٦) إبراهيم، ١٨.

(٧) المصدر السابق، ص١٦٨.

(٨) نفسه، ص١٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومثّل للاستدلال على المحذوف بآية أخرى.

وقد ينصّ على ضرورة وجود الدليل صراحة، ويجعل انعدامه سبباً في منع الحذف، فقد ناقش الفراء في آية كان قدّر لها محذوفاً، فردّه قائلاً:" وهو يبعد لأن العرب إنما تحذف من الكلام ما يدلّ عليه ما يظهر، وليس في ظاهر هذا الكلام على هذا التأويل دليل على باطنه"(١).

وهو بكلامه هذا يضع – مبكراً – عوائق أمام من يوغل في تقدير المحذوفات. ويبتعد في مجاهل التأويل دون سند أو دليل(٢).

وبوجه عام، فإن ما عرضه ابن قتيبة بشأن الحذف يجعله رائداً يوثق به ويعتمد عليه، ولو كان في عرضه قدر أكبر من تنظيم المسائل وتبويبها، والتعليل لمواضع الحذف وتحليلها لوضعنا أمام مرحلة ناضجة تطاول بجدارة الجهود التي أعقبتها بقرون طويلة، ولكنها بدايات الأشياء التي تستعصي على الكمال.

ابن فارس

ليس مستغرباً أيضاً أن يرد اسمه بين روّاد البلاغة، فقد ظهر من يعدّه من مؤسسي علم البلاغة، وأصلاً من أصولها(٣).

والواقع أن ابن فارس قد وضع لبنات صالحات للبلاغة عموماً، ولعلم المعاني بشكل خاصّ خلال حديثه عن معاني الكلام: الخبر والاستخبار، والأمر، والنهي... والتقديم والتأخير، والحذف والاختصار، الحذف الذي جعله من سنن العرب في كلامها، ومثل له نثراً وشعراً، ويحمد له أنه اعتمد في أمثلته أحياناً على القرآن الكريم، وكان يعيّن المحذوف ويرده. ومن أمثلته:

﴿أن اضربْ بعصاك البحرَ فانفلق﴾(٤). أي: فضرب، فانفلق.

﴿إني آمنتُ بربكم فاسمعون قيل ادخل الجنة﴾(٥). أي: فلما قتل.

---

(١) تأويل مشكل القرآن، ص١٦٩، ١٧٠.

(٢) للمزيد من التأكيد انظر المصدر نفسه، ص ١٧٠، ١٧١.

(٣) ينظر أحمد مطلوب، مناهج بلاغية، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٥، ص٩٤، وبدوي طبانة، البيان العربي، ص١٦٨– .

(٤) الشعراء، ٦٣.

(٥) يس، ٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن اللافت للنظر أن ابن فارس بعد أن عقد باباً للحذف والاختصار عاد فعقد ثلاثة أبواب أخرى لإضمار الأسماء والحروف والأفعال على التوالي، مثل لكلّ منها، قرآناً وشعراً ونثراً(١).

والناظر في جهد ابن فارس يرى أنه لم يُعنَ بالتعريف أو التعليل أو التحليل، واكتفى بالتمثيل.

الرمانـــي

نطوي قريباً من قرن من الزمان بين ابن فارس والرماني، على الرغم مما ظهر فيه من مؤلفات عظيمة أعلنت ميلاد علم النقد، وعلم البلاغة، وأعلت بناءهما، وميزتهما عن غيرهما، ومن هذه المؤلفات:

البديع لابن المعتز، عيار الشعر لابن طباطبا، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر، ونقد النثر لابن وهب الكاتب، والموازنة للآمدي، والوساطة للجرجاني، يتجاوزها البحث لأنها على الرغم من أهميتها ليس لظاهرة الحذف فيها مكان بارز، وذلك عائد إلى طبيعة موضوع كلّ منها، فالأول مخصص للبديع، والبقية أدخل في الدراسات النقديّة، ونقف قليلاً عند كتاب نقد النثر، ففيه إشارات بلاغية يهمنا ما يتعلق منها بالحذف، فقد تحدث عنه ابن وهب باقتضاب، ورأى أن العرب تستعمله " للإيجاز والاختصار والاكتفاء بيسير القول إن كان المخاطب عالماً بمرادها فيه"(٢). وقد تمثل لذلك بآيات فيها حذف الجواب، ثم استشهد شعراً وعقّب:" وهذا كثير في كلام العرب"(٣).

ويبدو أن الظاهرة كانت تنتظر من يضع لها المخطط الصحيح لبنائها، فكان الرماني الذي عرض نظرة شمولية للبلاغة فرآها عشرة أقسام أولها الإيجاز، ثم نظر في ملاحظات المتقدمين، ووعى أمثلتهم، وتفكر فيها، واستنطقها، فأحسن التفريق بين إيجازي القصر والحذف وقد كانت أمثلتهما مختلطة، ولم يصرّح السابقون بالفرق بينهما رغم ما عرضوه من أمثلة لهما.

أما الرماني فقد فعل. ووضع تعريفاً للحذف فقال إنّه:

---

(١) ينظر الصاحبي في فقه اللغة، ص٢٣١ وما بعدها.

(٢) ابن وهب الكاتب، البرهان في وجوه البيان، ص ١٥٠.

(٣) المصدر نفسه ، ص١٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" إسقاط كلمة للاجتزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام"(١)، وها نحن أمام تعريف مختصر، يوضح الحذف، ويشير إلى أدلته الحالية واللفظية، وذلك ما لم يسبق الرماني أحد إلى فضله.

ثم مضى يعرض أمثلة كلها من القرآن الكريم، مما عرض له سابقوه مثل سيبويه وابن فارس وابن قتيبة، ويقدر المحذوفات، ويردها إلى أصل الكلام.

ولاحت عنده بوادر التقسيم، إذ عرض أولاً أمثلة لحذف المفرد كحذف المضاف، والمبتدأ والخبر، وكان يكتفي بذكر المثال ولا يذكر نوع المحذوف.

ثم توقف عند حذف الأجوبة، ورأى أن ذلك يقع كثيراً في القرآن الكريم ومن أمثلته:

﴿**حتى إذا جاؤوها وفُتحت أبوابها**﴾(٢). كأنه قيل: حصلوا على النعيم المقيم الذي لا يشوبه التنغيص والتكدير"(٣). وامتاز الرماني بأنه بدأ النظر في أسرار الحذف، ومزاياه، وبدأ تقييمه والتعليل له، والالتفات إلى آثاره النفسية فقال عن حذف الأجوبة مثلاً:" وهو أبلغ من الذكر "ثم علل ذلك قائلاً:

" وإنما صار الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب، ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذي تضمنه البيان، فحذف الجواب في قولك: لو رأيت عليّاً بين الصفين أبلغ من الذكر لما بيناه"(٤).

واضح أن الرمّاني يضعنا في مرحلة نتجاوز فيها ظاهر اللفظ إلى أسراره وخفاياه، ولا نكتفي بجهد باهت يتمثل في عرض المثال للحذف، بل نذهب بعيداً إلى أغواره، وعلله وألطافه. فليس غريباً أن يتخذ اللاحقون كلمات الرماني نجوماً بها يتضوؤون ويستهدون(٥).

العسكري

ويقتفي العسكري آثار الرمّاني، فيعقد للإيجاز(٦) باباً ويراه نوعين:

---

(١) النكت، ص٧٦، وقد مرّ ذكره ، انظر هذا البحث ص١١٥.

(٢) الزمر، ٧٣.

(٣) المصدر السابق، ص٧٦.

(٤) نفسه، ص ٧٦، ٧٧ .

(٥) منهم الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، ط٢، دار المعارف بمصر، ١٩٦٨، ص٥١-
والباقلاني، إعجاز القرآن، ص٢٦٢،٢٦٣ .

(٦) الصناعتين، ص١٩٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"قصر وحذف"(١) ويقف مطولاً عند الحذف(٢) ، وكان شديد التأثر بابن قتيبة أيضاً، فردد الأنواع التي ذكرها، واستشهد بأمثلته، بل نقل عنه، وسار على خطاه،(٣) فذكر حذف المضاف، وإيقاع الفعل على شيئين هو لأحدهما، وحذف الجواب، وحذف المساوي. وقد اهتم بأمثلة دقّ فيها المحذوف، وعظمت أسراره(٤). وحاول التفريق بين الحذف والإضمار، ومثّل للثاني بقوله تعالى: ﴿حتى توارت بالحجاب﴾(٥). أي: الشمس(٦).

ومع الإقرار بأن جهده لم يبتعد كثيراً عن النقل، إلا أن ذلك لا يجرده من فضيلة حسن الجمع بين جهود السابقين كابن قتيبة والرماني، فقد أخذ عن الثاني منهما النظرة الشمولية للإيجاز والتفريق بين نوعيه القصر والحذف، وتعريفهما، وتحديدهما، وميزات كل منهما، وأخذ عن الأول أمثلة الحذف، وترتيبها، فجمع بين القاعدة والمثال، ومضى بهما معاً ليدفعهما خطوة واسعة نحو النضج والتمام.

ويحمد له كذلك إشارته إلى الحذف الرديء كما أسماه، ومثّل له بقول الحارث بن حلزة:

والعيشُ خيرٌ في ظلا ل النّوك ممّن عاش كَدّا.

وإنما أراد العيش الناعم في ظلال النوك، ولكنه مبهم.(٧) وذكر أمثلة لهذا الحذف أخرى عاشت فرددها البلاغيون من بعده قروناً(٨).

ابـن رشيق القيروانـي

على الرغم من أن ابن رشيق جاء وقد غدت مسالك الحذف ذللا، إلا أنه نقل عن الرماني نوعي الحذف، ولم يكن دقيقاً في مانقل(٩).

---

(١) الصناعتين، ص١٩٥.

(٢) نفسه، ص٢٠٠ وما بعدها

(٣) ينظر المصدر نفسه، ٢٠٠ وما بعدها، ويوازن بابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص١٦٢ وما بعدها، وبما ورد في هذا البحث ص١٢٠.

(٤) الصناعتين، ص٢٠٥.

(٥) ص، ٣٢.

(٦) المصدر السابق ، ص ٢٠٤.

(٧) نفسه، ٢٠٦ ، ٢٠٧.

(٨) منهم القزويني، الإيضاح، ج٣، ص١٧٤ – .

(٩) العمدة، ج١، ص٢٥٠، ووازن بالرماني، ص ٧٦ ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك. انظر هذا البحث ص١١٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وردّد أمثلة العسكري للحذف الرديء الذي يقع فيه الإخلال، وتضطرب المعاني، ويستبهم المقصود(١). إلا أنه حاول التفرد فوضع تعريفاً للإيجاز المحمود، وعرَّض بتعريف الرماني قائلاً: "هو إيضاح المعنى بأقلّ ما يمكن من اللفظ، وهذا الحدّ أصحّ من حدّ أبي الحسن الرماني بأنه العبارة عن المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ. وإنما كان حدّنا أولى لأنا قد احترزنا بقولنا -إيضاح- من أن تكون العبارة عن المعنى وإن كانت موجزة غير موضحة له"(٢). وهو محقّ في هذا، بل يحمد له هذا القصد إلى التحديد، والتحوّط في التعريف، فالإيجاز وحده لا يكون بلاغة حتى تدل الألفاظ على المعاني دلالة واضحة.

وهكذا يتراءى لنا أن دارسي الحذف قبل عبد القاهر الجرجاني، قد استهدى لواحقهم بجهود سابقيهم، وحرص متأخرهم على تمثّل جهد المتقدم، وتصفيته قدر جهده ليلقيه لمن يأتي بعده. ولعلّهم كانوا جميعاً ينتظرون إماماً يعي هذا الجهد المدخر، ويحسن توظيفه ليجلي هذه الظاهرة بأنظار خالدة، فكان عبد القاهر الجرجاني.

---

(١) سر الفصاحة، ص٢٠٧.

(٢) نفسه، ص ٢٠٢، ٢٠٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحذف عند عبد القاهر الجرجاني

الذي يطوف فيما كتب عن الحذف قبل عبد القاهر، يعود ونفسه ظمأى، فهي في الغالب نتف يسيرة، أو مكرورة، وإن كثرت الأمثلة عند بعضهم، فقد عزّ التحليل، وتواردت الشواهد منقولة مع شرح ضئيل، وتعليل عليل.

حتى إذا أقبل على ما كتبه عبد القاهر كان كمن غادر أوشالاً ووحولا، وتقتم نحو معين ثرّ، ونبع سلسبيل.

منذ البداية يشعر القارئ أنّ عبد القاهر مفتون بالحذف، مدرك أنه عالم اللطائف والأسرار، بل هو شبيه بالسحر، إذ الصمت فيه أبين من الذكر، يقول:

" هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتمّ ما تكون بياناً إذا لم تُبن ...."(١).

وإن كنا نعاني عند بعض سابقيه من الفوضى، وسوء النظام والترتيب، فها هو الجرجاني يتخذ لنفسه نهجاً يعلنه، ويلتزمه. وهذا النهج يقوم على عرض الأمثلة أولاً، ثم ينبه القارئ على صحة ما ذكره عن الحذف معززاً ذلك بالحجة:

" وأنا اكتب لك بديئاً أمثلة مما عرض فيه الحذف، ثم أنبهك على صحة ما أشرت إليه، وأقيم الحجة من ذلك عليه..."(١).

ويبدأ الحديث عن حذف المبتدأ، مستشهداً بأبيات عرضها سيبويه، موضحاً أن المتبدأ يحذف اطراداً في حالات مثل:

- ذكر الديار والمنازل، وهي طريقة، كما قال، مستمرة لهم، ومثل لذلك بقول الشاعر:

اعتاد قلبكَ من ليلى عوائـــدُه وهاج أهواءَكَ المكنونةَ الطللُ

ربعٌ قواءٌ أذاعَ المعصراتُ بـــه وكلُّ حيرانَ سارٍ ماؤُه خَضِلُ أي: هو ربع.

- القطع والاستئناف، وذلك عندهم أنهم يبدؤون بذكر الرجل، ويقدّمون بعض أمره، ثم يدعون هذا مستئنفين كلاماً آخر، وغالباً ما يأتون بخبر دون المبتدأ، ومثل له:

وعلمت أني يوم ذا كَ منازل كعباً ونهداً

قوم إذا لبسوا الحد يدَ تَمرُّوا حلقاً وقدا أي: هم قوم(٢).

---

(١) دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد رضا، ص ١١٢، و محمود شاكر، ص ١٤٦.

(٢) المصدر نفسه ، تحقيق محمد رشيد رضا، ص ١١٣ ، ومحمود شاكر، ص ١٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويمضي على ذلك مستحضراً أبياتاً عديدة حذف فيها المتبدأ لهذا الغرض. ثم التقط أنفاسه لينفذ ما وعد به، فقد عرض الأمثلة، وعليه الآن أن ينبهنا على صحة ما ادّعى وها هو يفعل.

ومنذ بداية تعليله يجعلنا ندرك أن الحذف أمر في مكامن النفس، وأن فهمه -دون ريب- لا يتأتى إلا بعرضه عليها، واستنباه أعماقها، يقول:

" فتأمل الآن هذه الأبيات كلّها، واستقرها واحداً واحداً، وانظر إلى موقعها من نفسك وإلى ما تجده من اللطف والظرف إذا أنت مررت بموضع الحذف منها ثم قلبت النفس عمّا تجد وألطفت النظر فيما تحسّ به"(١).

ثم يعزّز ذلك بالحجة، فبعد أن يشير علينا أن نحيل المحذوف إلى النفس، ونستنهض إحساسها أن تحكم فيه الذوق تقليباً وتلطّف نظر، يعرض طريقة عملية لإرساء النفس على حكم تصير إليه، وترتضي به، فكما أنّ الضدّ يظهر حسنه الضدّ، سيظهر - لا محالة - حسن الحذف هنا إذا استحضرنا الذكر، وأيقظنا الحواس للموازنة، حتى وإن آلمنا ذلك بتكلف استعادة المحذوف بعد أن تمتعنا باستلطاف حذفه :

" ثم تكلف أن تردّ ما حذف الشاعر، وأن تخرجه إلى لفظك، وتوقعه في سمعك، فإنك تعلم أن الذي قلت كما قلت، وأن رُبّ حذف هو قلادة الجيد، وقاعدة التجويد"(١).

وقبل أن يقرّ في الذهن أن الرجل قد أنهى حديثه، واطمأن إلى نجاح مسعاه في جعلنا نؤمن بما قال، نراه قد انتفض ثانية قائلاً:" وإن أردت ما هو أصدق في ذلك شهادة، وأدل دلالة .... " ويعرض مثالاً.. وآخر حذف فيهما المبتدأ كذلك، ثم يخاطب القارئ:" ثم إنك ترى نصبة الكلام وهيئته تروم منك أن تنسى هذا المبتدأ، أو تباعده عن وهمك، وتجتهد ألا يدور في خلدك، ولا يعرض لخاطرك، وتراك تتوقاه توقي الشيء يكره مكانه، والثقيل يخشى هجومه."(٢)

ولا يكتفي بهذا، بل يعرض مثالاً آخر، ثم آخر(٣) ... ثم يهدأ وينفذ من الأمثلة الجزئية إلى قاعدة كلية متحوّطة قائلاً:

" فما من اسم، أو فعل تجده قد حذف ثم أصيب به موضعه وحذف في الحال (التي) ينبغي أن يحذف فيها إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره، وترى إضماره في النفس أولى وآنس من النطق به"(٣).

---

(١) دلائل الإعجاز ، تحقيق محمد رشيد رضا، ص ١١٦، ومحمود شاكر، ص١٥١.

(٢) المصدر نفسه، تحقيق محمد رشيد رضا، ص ١١٦،١١٧، ومحمود شاكر، ص١٥١.

(٣) نفسه، تحقيق محمد رشيد رضا، ص١١٧، ومحمود شاكر، ص ١٥٢ - .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبقى في دائرة حذف الاسم، فينتقل إلى الحديث عن حذف المفعول به، ويبيّن بداية أنه أهم من حذف المبتدأ لكثرة ألطافه، وتنوّع بدائعه:" فإن الحاجة إليه أمَسّ، وهو بما نحن بصدده أخصّ، واللطائف كأنها فيه أكثر، وما يظهر بسببه من الحسن والرونق أعجب وأظهر"(١).

ثم قاد الحديث، ومضى به مرتباً مبوباً، فالأصل أن يتبع الذكر الغرض، وذلك يفرض نوع الإسناد، فإن قلت: ضَرَب زيد. كان غرضك إثبات الضرب لزيد، لا أن تفيد مجرد وقوع ضرب. وإن عدّيت الفعل فقلت: ضرب زيد عمراً. فقصدك إثبات وقوع الضرب من الأوّل على الثاني.

أما إذا أردت الإخبار بوقوع الضرب مجرداً فأنت تقول: كان ضرب.

وقد يتفق أن الفعل يكون متعدياً فيحذف ما تعدّى إليه. وهنا يعيدنا الجرجاني إلى أغراض الناس المتكلمين التي تختلف في ذكر الأفعال المتعدية وحذف مفاعيلها ويجمل تلك الأغراض كما يلي:

- إثبات معاني الأفعال المتعدية للفاعلين والإعراض عن ذكر المفعولين(٢)، وافترع منها :

أ- ألا يكون للفعل مفعول يمكن النصّ عليه :(٣)

وهنا يكون المتعدي كاللازم لا مفعول له لفظاً ولا تقديراً، ويمثل له بقول الناس:

فلان يحلّ ويعقد، ويأمر وينهى، ويضرّ وينفع .

ثم يستشهد بقوله تعالى: ﴿قل هو يستوي الذي يعلمون والذين لا يعملون﴾(٤). وقوله تعالى ﴿وأنه هو أضحك وأبكى، وأنه أمات وأحيا﴾(٥) وقوله تعالى: ﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾(٦). في كل ذلك، الهدف هو إثبات الفعل للفاعل، أما المفعول به فلا يخطر بالبال وليس هو المقصود. ويخلص هنا أيضاً إلى التعميم بقوله:

" وهكذا كلّ موضع كان القصد فيه أن يثبت المعنى في نفسه للشيء، وأن يخبر بأن من شأنه أن يكون منه أو لا يكون إلا منه أو لا يكون منه، فإن الفعل لا يعدى هناك لأن تعديته تنقض الغرض، وتغير المعنى"(٢).

---

(١) دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد، ص ١١٨، ومحمود شاكر، ص ١٥٣ - .

(٢) دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد، ص ١١٨، ومحمود شاكر ص ١٥٣،١٥٤.

(٣) المصدر نفسه، تحقيق محمد رشيد، ص١١٩، ومحمود شاكر، ص١٥٤.

(٤) الزمر، ٩.

(٥) النجم، ٤٤.

(٦) النجم، ٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب- أن يكون للفعل مفعول مقصود قصده معلوم، إلا أنّه يحذف لدلالة لفظية أو حالية وهو أيضاً قسمان(١):

١- قسم جليّ لا صنعة فيه مثل: أصغيت إليه. أي: أذني، وأغضيت عليه.

أي: جفني.

٢- قسم خفيّ تدخله الصنعة، وهو أنواع :

" فنوع منه أن تذكر الفعل وفي نفسك له مفعول مخصوص قد علم مكانه .... إلا أنك تنسيه نفسك، وتخفيه، وتوهم أنك لم تذكر ذلك الفعل إلا لأن تثبت (نفس معناه)! من غير أن تعديه إلى شيء أو تعرض فيه لمفعول(٦)".

ثم يعرض أمثلة شعرية عديدة لذلك، ويتسلل إلى أدقّ الخفايا في تحليلها فيأتي بالعجاب حتى يفيض ألم القارئ، وتذهب نفسه حسرات: لم لا يوجّه هذا القلم السيّال إلى شواهد من القرآن الكريم؟ فيردّ شيئاً من لهف النفس، ويشفي قليلاً من الغليل بالوقوف على مثال واحد من الذكر جاء به ليزيد قارئه تبيُّنا في وجوب إسقاط المفعول لتتوفر العناية على إثبات الفعل للفاعل دون شوب، فيعرض قوله تعالى: ﴿**ولما ورد ماءَ مدينَ وجد عليه أُمّةً من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين(٢) تذودان، قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يُصدرَ الرّعاءُ وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظلّ**﴾(٣).

ثم بيّن أن في الآيات الكريمات أربعة أفعال متعدية حذفت مفاعيلها وهي: يسقون، تذودان، نسقي، فسقى، وقد سها رحمه الله عن فعل خامس هو:"يصدر". والغريب أن كل من نقلوا عنه مثاله -وهم كثر- من السابقين والمحدثين ردّدوا ما قاله، وجعلوها أربعة أفعال حذفت مفاعيلها، مع أن بعضهم ضبط الفعل بما لا يترك مجالاً لحمله على أنه إحدى القراءات، وأنه مضارع صدر اللازم(٤).

وقد انطلق بعد ذلك يوضح سرّ حذف المفعول به فقال:" ثمّ إنه لا يخفى على ذي بصر أنه ليس في ذلك إلا أن يُترك ذكره (أي المفعول به) ويؤتى بالفعل مطلقاً، وما ذاك إلا أن

---

(١) دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد، ص١٢٠، ومحمود شاكر، ص ١٥٥ .

(٢) سها المصحح، فوردت مرفوعة بالألف: دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد، ص ١٢٤.

(٣) القصص، آية ٢٣،٢٤.

(٤) ينظر مثلاً: المثل السائر، ج٢، ص٩١، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق السامرائي "وأبو علي" ص١٧١، وبديع القرآن، ص ١٧١، والحلبي، شهاب الدين محمود، حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تحقيق أكرم عثمان، ص١٦٦، وبدوي طبانة، البيان العربي، ص ٢٤٤، ومجيد عبد الحميد ناجي، الأسس النفسية لأساليب البلاغية العربية، المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٤، ص ١٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الغرض في أن يعلم أنه كان من موسى عليه السلام من بعد ذلك سقي، فأما ما كان المسقيّ غنماً أم إبلاً أم غير ذلك فخارج عن الغرض وموهم خلافه"(١).

ويمضي صعداً في إعلاء صرح حجته بمزيد من التوضيح حتى لا يدع في النفس مكانا لوهم، أو مصدراً لشك، فيتشوّف إلى تخيل القارئ قد وجد الروعة، واهتدى إلى الحسن، فيخاطبه:

" فاعرفه تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول في هذا النحوّ من الروعة والحسن ما وجدت إلا لأن في حذفه وترك ذكره فائدة جليلة، وأن الغرض لا يصحّ إلا على تركه"(٢).

ويعود به دافع جارف إلى المزيد من الإيضاح، فيعرض مثالاً شعريّاً، ثم يصدّ نفسه عن عرض المزيد قائلاً:" وليس لنتائج هذا الحذف أعني حذف المفعول نهاية، فإنه طريق إلى ضروب من الصنعة وإلى لطائف لا تحصى"(٣).

ويلتفت إلى نوع آخر هو:

- الإضمار على شريطة التفسير:

ويبدأ توضيحه بمثال منتزع من باب التنازع، وهو قولهم: أكرمني وأكرمت عبد الله، أي أكرمني عبد اللّه وأكرمت عبد اللّه، فترك ذكره أولاً استغناء بذكره ثانياً.

وينعى على الناس قصور أنظارهم، وضيق آفاقهم حين يرون في مثل هذا طريقاً معروفاً ومذهباً ظاهراً إذ يظنونه مبتذلاً ومطلوباً مذلولاً، " وفيه - إذا طلبت الشيء من معدنه - من دقيق الصنعة، ومن جليل الفائدة ما لا تجده إلا في كلام الفحول(٣)· ويمثل له بقول البحتري :

لو شئت لم تُفسِدْ سماحةَ حاتم كرماً ولم تهدمْ مآثر خالد(٤)·

ومعناه لو شئت ألا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها، فحذف من الأوّل ما دلّ عليه الثاني، ويقود الجرجاني قارئه لتذوق حلاوة هذا الحذف، فيخاطب ذوقه: "ثم هو على ما تراه، وتعلمه من الحسن والغرابة وهو على ما ذكرت لك من أن الواجب في حكم البلاغة ألا ينطق بالمحذوف، ولا يظهر إلى اللفظ"(٤). ثم يخاطب عقله لإقناعه بذلك فيقول:

" فليس يخفى أنك لو رجعت فيه إلى ما هو أصله فقلت: لو شئت ألا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها، صرت إلى كلام غثّ وإلى شيء يمجّه السامع، وتعافه النفس"(٤).

---

(١) دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد، ص ١٢٤، ومحمود شاكر، ص ١٦١.

(٢) نفسه، تحقيق محمد رشيد، ص١٢٥، ومحمود شاكر، ص ١٦٣.

(٣) دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد، ص ١٢٥ ، ومحمود شاكر، ص ١٦٣.

(٤) نفسه، تحقيق محمد رشيد، ص ١٢٦ ، ومحمود شاكر، ص ١٦٣ أيضاً.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا بدّ هنا من التعليل بالحجة والدليل فيقول:

" وذلك أن في البيان إذا ورد بعد الإبهام، وبعد التحريك له أبداً لطفاً ونبلاً لا يكون إذا لم يتقدّم ما يحرّك. وأنت إذا قلت: لو شئت، علم السامع أنك قد علّقت هذه المشيئة في المعنى بشيء، فهو يضع في نفسه أنّ ههنا شيئاً تقتضي مشيئته أن يكون أو لا يكون، فإذا قلت لم تفسد سماحة حاتم عرف ذلك الشيء"(١).

وقبل أن يسأل القارئ أين روعة القرآن في مثل هذا الحذف، يأتيه جواب الجرجاني، لكنه مقيّد بالاقتضاب، وقد غابت عنه لمحات الجرجاني الفنية التي جادت بها قريحته للشعر، فصال هناك قلمه وجال، ومضى هنا سريعاً مكتفياً بعرض المثال، فقال: " ومجيء المشيئة بعد لو، وبعد حروف الجزاء هكذا موقوفة غير معداة إلى شيء، كثير شائع كقوله تعالى: ﴿**ولو شاء الله لجمعهم على الهدى**﴾(٣). ﴿**ولو شاء لهداكم أجمعين**﴾(٤). والتقدير في ذلك كله على ما ذكرت (أي فيما سبق) فالأصل: لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم، ولو شاء أن يهديكم أجمعين لهداكم، إلا أن البلاغة في أن يجاء بذلك محذوفاً"(١).

ولكنه يحترس فيقول إن ذلك لا يحذف في كل حال، بل " متى كان مفعول المشيئة أمراً عظيماً أو بديعاً غريباً كان الأحسن أن يذكر ولا يضمر."(٥)

والواقع أنّ ما ذكره عن مفعول المشيئة لا يشبه صراحة المثال الذي صدّر به حديثه عن الإضمار على شريطة التفسير، ففطن هو نفسه إلى ذلك أخيراً فقال:

" واعلم أنّ هذا الذي ذكرنا ليس بصريح: (أكرمت وأكرمني عبد الله)، ولكنه شبيه به في أنه إنما حذف الذي حذف من مفعول المشيئة والإرادة لأن الذي يأتي في جواب لو وأخواتها يدل عليه"(٦).

ثم يعرض مثالين يرى أن شبههما صريح، وأنهما يقعان في الندرة واللطافة، ويطويان المعنى الدقيق، والفائدة الجليلة، والأول منهما قول البحتري:

قد طلبنا فلم نجدْ لك في السؤ ... دد والمجدِ والمكارمِ مثــلا

---

(١) دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد، ص١٢٦، ومحمود شاكر، ص١٦٣ أيضاً.

(٣) الأنعام ، ٣٥.

(٤) النحل ، ٩.

(٥) دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد، ص١٢٧، ومحمود شاكر، ص ١٦٥.

(٦) المصدر نفسه ، تحقيق محمد رشيد، ص ١٢٩ ومحمود شاكر، ص ١٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وثانيهما قول ذي الرمّة :

ولم أمدح لأرضيه بشعـــري لئيماً أن يكونَ أصاب مالا(١)

فقد حذف المفعول الأوّل من البيت الأوّل لدلالة الثاني عليه، ووقع العكس في البيت الثاني، وما ذلك إلا لاختلاف الغرضين.

وقد أطال الجرجاني الحديث في هذين البيتين، وطوى طوع قلمه معانيهما، فحلّق في آفاقهما باقتدار عجيب(٢).

ثم يوهم القارئ أنه هدأ واستكان، فيخاطب الصفوة ممن يأمل منهم القدرة على فهم ما شقي في توضيحه فيقول:

" قد بان الآن واتضح لمن نظر نظرة المتثبت الحصيف في اقتداح زناد العقل، والازدياد من الفضل، ومن شأنه التوق إلى أن يعرف الأشياء على حقائقها، ويتغلغل إلى دقائقها، ويربأ بنفسه عن مرتبه المقلّد الذي يجري مع الظاهر، ولا يعدو الذي يقع في أول الخاطر، أن الذي قلت في شأن الحذف، وفي تفخيم أمره، والتنويه بذكره، وأن مأخذه مأخذ يشبه السحر، ويبهر الفكر، كالذي قلت"(٣).

لكنه سرعان ما ينتفض من جديد، كمن تذكر شيئاً كان ينبغي أن يقوله قبل حين، فيردّ نفسه ثانية لترد الأمر ذاته، كأنه لا يطيق له فراقاً، ويحرص على ألا يودع مقامه قبل أن يضع بذرة تخلد أثره، فيضيف نوعاً جديداً بمثال شعري لحذف المفعول به اقتات عليه اللاحقون قروناً، وهو:

- الحذف لدفع التوهم :

وآية ذلك أنّ الشاعر الحاذق " يوقع المعنى في نفس السامع إيقاعاً يمنعه به من أن يتوهم في بدء الأمر غير المراد، ثم ينصرف إلى المراد"(٤). ويمثل له بقول البحتري:

وكم ندت عني من تحامُلِ حادث وسَوْرة أيّام حززن إلى العظم

ويوضح أن الشاعر تجافى عن ذكر اللحم حتى لا يظن السامع أن الحزّ كان في بعض اللحم دون كلّه، " فأسقطه من اللفظ ليبرئ السامع من هذا ويجعله بحيث يقع المعنى منه في أنف الفهم"(٤).

---

(١) دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد، ص١٣٠، ومحمود شاكر، ص ١٧٠.

(٢) نفسه، تحقيق محمد رشيد، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ومحمود شاكر، ص١٦٨، ١٦٩، ١٧٠.

(٣) نفسه، تحقيق محمد رشيد، ص ١٣١، ومحمود شاكر، ص ١٧١.

(٤) نفسه، تحقيق محمد رشيد، ص١٣٢، ومحمود شاكر، ص ١٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهنا فقط ... تطلّ على القارئ كلمات الجرجاني فزعة قد أنضاها الترحال، وأضناها التسآل فتخاطبه رغبة ورهبة ألا يردها إلى الغربة، فتقول :

" أفيكون دليل أوضح من هذا وأبين، وأجلى في صحة ما ذكرت لك من أنك قد ترى ترك الذكر أفصح من الذكر، والامتناع من أن يبرز اللفظ من الضمير أحسن للتقدير(١) .

وهكذا يحسّ من يقرأ الجرجاني أنّ الرجل صاحب قضيه كبرى، آمن بها، وتقاطرت بين سطوره أمنيات صادقة أن يؤمن بها كل الناس، ولكنه لم يكتفِ بالأمنيات العاجزة، بل عقد عزماً، وسلّ قلماً، فسال ترويجاً لها، ودفاعاً عنها، وسخى بعصارة فكره لتزيينها، وكشف أستارها، ففتّق لها أكمامها، وجلّى ما دقّ من خفاياها، وما زال حولها يطوف، ويبدي ويعيد إلى أن ظنّ أنه تحقق له ما أراده وسعى إليه، فهدأت نفسه، ولم تكد.

وقد اتخذ لذلك سبيلاً واضحة، فهو يعرض المثال ويحسن تحليله، ويعلل لجمال الحذف فيه، ثم يخلص إلى رجاء يقطر صدقاً أن نثق بما يقول، ويستنهض الهمم لنبحث كما بحث، وأن نحسن التفكر، والتدبر كما فعل، علّها تصل إلى بعض الذي إليه وصل، فندرك ما أدركه، ونتذوق ما تذوقه، ونؤمن بما آمن به.

وتحسّ أنه قلق غير مطمئن إلى أنه استطاع أن يوصل قارئه إلى مرحلة اليقين، فبعد أن كان يوحي كلامه أنه ارتاح وحقق المراد، يحول الشك دون ذلك، فيحوك في صدره من جديد، يقوده إلى المزيد من الأمثلة التي تسعف في خلق المزيد من الإيضاح والتثبت.

وإذا أخذنا دراسته لهذه الظاهرة مثالاً لكتابيه: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، فإنا نجد شيئاً من عذر لمن غلبهم حماسهم له فعدوه مؤسس علم البلاغة(٢).

وتجدر الإشارة إلى أنّ الجرجاني أدرك جيداً ارتباط الحذف بعوامل نفسية، وتردد صدى ذلك في كلامه، فلا تكاد تجد تعليلاً مما تمّ إيراده له إلا متضمناً لمسات دقيقة، ولمحات لطيفة لنفسية المتكلم الذي حذف، ونفسية السامع التي يحسن أن تشف لتكشف المحذوف، وتستكنه أسراره.

---

(١) دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد، ص١٣٢، ومحمود شاكر، ص ١٧٢.

(٢) ومنهم العلوي، الطراز، ج١، ص٤، والحلبي، حسن التوسّل، ص١٦٦ ، وأحمد مصطفى المراغي، تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، شركة البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٩٥٠، ص ١٠٠ ، وعلوم البلاغة، البيان والمعاني والبديع، ط٤، المكتبة المحمودية التجارية، القاهرة، ١٩٧٩، ص ٤٩،
وأحمد مطلوب، البلاغة عند السكاكي، مكتبة النهضة ببغداد ، ١٩٦٤، ص ٩٨،
وأحمد بدوي ، عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة، مكتبة مصر بالقاهرة ، ص ٣٩٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو في تعليله ذاك يؤمن بالذوق، وقدرة النفس على تحسس الجمال، وذلك ليس محض وهم أو خيال، بل له قواعده التي إن جرى عليها الكلام، فوقع الحذف، كان له في النفس وقعاً حسناً، وإن خالفها نفرت منه وأنفته.

ملحوظات على دراسة الجرجاني لظاهرة الحذف

هناك ملحوظات أخرى لا بدّ من الإشارة إليها هنا؛ لأنها تمسّ جهد الجرجاني، خاصّة ويحسن الإلماع إليها قبل مغادرته على أن تكون لها وقفة أخرى عند تقييم جهد البلاغيين عامّة في الفصل الأخير:

إنّ المتمعن في حديث الجرجاني عن هذه الظاهرة.-ظاهرة الحذف- تستوقفه أمور أهمها:

- أنه هجم عليها تقريظاً وتمثيلاً، وكأن فائض حماسه لم يمهله أن يقدم لها بالحديث عن الإيجاز؛ فلم يتطرق إلى أهميته، أو تفضيله، ولم يذكر نوعيه، ولم يعرفهما، ولم يبيّن مرتبتهما في باب مقابلة الألفاظ والمعاني .. وكل هذا لم يغفل عنه سابقوه.

- بل هناك تعمّد واضح ألا يشير إلى جهود سابقيه ممّن درسوا الحذف، ووقفوا في بيان أنواعه، وأحسنوا التمثيل له والتعليل.

ويراود القارئ إحساس الجرجاني برغبة عارمة في التفرد، والبعد عن تقيّل غيره من العلماء، وجنوح إلى طموح جموح في الامتياز، وقطف فضيلة الابتدار والابتكار، فيلاحظ إصراره على الاستكثار من التحليل، والافتتان بإظهار ضرورب الاقتدار على التعليل، والتمثيل بما لم يسبقه إليه غيره.

- ذكر الجرجاني أنواع المحذوفات التي تكلّم عنها، إلا أنه لم يكثر منها، فتكاد أمثلته تكون مقصورة على حذف المبتدأ، والمفعول به، مع أن سابقيه مثّلوا لكثير من الأنواع شملت المفردات والجمل.

- يلاحظ أن أمثلة الجرجاني خلت من شواهد نثرية شهيرة كالأحاديث النبوية الشريفة، والشائع الفصيح من كلام الخلفاء الراشدين، وأبيناء العرب، وكان إذا احتاج مثالاً نثرياً عمد إلى جملة من عنده تصح مثالاً لقاعدته.

والأهم من ذلك أن شواهده لا سيما في حذف المبتدأ خلت من الآيات القرآنية، فقد عرض خمسة عشر شاهداً كلها شعر، وليس بينها آية قرآنية واحدة.

أما في حذف المفعول به، فمع وجود بعض الآيات إلا أنها قليلة، وكان يأتي بها بعد أن يصدّر حديثه بالشعر، وينهك نفسه وكلماته في الانتصار له، ثم يأتي بالآيات، وكأنها ليس لها

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فضيلة إلا مساوقتها الشعر، ومضيها على سننه، وقلما وجد لديه مدخراً من جهد لبيان جمال الحذف في الآيات، ولا غرو، فقد استنفذ ذلك، وطار به الشعر المُبَدِّى، فيأتي حديثه عنها مكدوداً باهتاً أين منه النصاعة والبراعة في حديثه البكر عن الشعر!

وتحليلاته البديعة لظاهرة الحذف تستجلب الأماني عليه أن يكون قد أجرى موازنة بين روائع الحذف في القرآن، وتلك التي في الشعر، ليظهر بلاغة القرآن، وتفوقه على الشعر، وأنه على الرغم من نزوله على سنن العرب، وبلسانهم، إلا أنه شآهم وبَذَّهم، فيؤكد بذلك إحدى نواحي إعجازه، أو ليس كتابه في دلائل الإعجاز؟

ولكنه لم يفعل، مع أن سابقيه فعلوا.(١) ومنع عنا بذلك -دون شك- جهداً مفيداً. بل يبدو أنه لم يكن غافلاً عن هذه الموازنة، لكنه لم يكن راضياً عنها، فهو يعلّق على ما جرى عليه الناس من مقاربة قوله تعالى:﴿القصاص حياة﴾(٢) بقول العرب:" قتل البعض إحياء للجميع"، فيقول: "فإنه وإن كان قد جرت عادة الناس بأن يقولوا في مثل هذا إنهما عبارتان مُعَبَّرهما واحد، فليس هذا القول قولاً يمكن الأخذ بظاهره، أو يقع لعاقل شك أن ليس المفهوم من أحد الكلامين المفهوم من الآخر"(٣).

وعلى أيّة حال، فإن الجرجاني بجهده الفذ في دراسة ظاهرة الحذف، قد دفعها إلى مكان عليّ، فإلى أين مضى بها لاحقوه؟ هذا ما ستحاول الصفحات التالية الإجابة عنه.

---

(١) منهم، الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص ٧٨،
والباقلاني، إعجاز القرآن ، ص ٢٤٣.

(٢) البقرة، ١٧٩.

(٣) دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد، ص٢٠٢، ومحمود شاكر، ص ٢٦١.
وثمة توضيح ورفض صريح في المصدر نفسه، تحقيق محمد رشيد، ص٢٩٨، ومحمود شاكر، ص٣٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البلاغة تتخذ مسارين

إنّ المتتبع لمؤلفات البلاغيين المحدثين عن البلاغة العربية: تاريخها، ورجالها، ومؤلفاتها تطالعه كثيراً دعوى مفادها أنه كان هناك مدرستان بلاغيتان:

إحداهما : المدرسة الأدبية،

والثانية : المدرسة الكلاميّة.

فإذا أراد الباحث أن يدفع هذا الرأي، ويحمله على أنه نوع من التوسع؛ إذ وجدوا مدارس للنحو، فأرادوا ألا يحرموا البلاغة من ذلك، إذا أراد دفع ذلك استوقفته أمور تلزمه بالتفكر وإعادة النظر، ومنها :

- أقوال القدماء أنفسهم :

وصلتنا أقوال صريحة لعلماء مشاهير في البلاغة العربية تشير إلى وجود مثل هذا التقسيم، وهذا الاختلاف في النظر؛

فالعسكري في القرن الرابع الهجري يضع فصلاً عن البلاغة والفصاحة في اللغة، ويختمه موضحاً منهجه الذي ارتضاه لكتابه فقال:

" وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين، وإنما قصدت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب، فلهذا لم أطل الكلام في هذا الفصل"(١).

وقبل أن يأخذنا الظنّ بأنّ كلام العسكري زفرة تنمّر بأثر كثرة الفرق الكلامية، واصطراعها، وأن نفثته هذه صيحة مكتومة ليس لها صدى، يطالعنا ابن الأثير بعد ثلاثة قرون بمقالة في الصناعة المعنوية، تمور فيها الصراعات بين تيار فطري أدبي ينتصر له ابن الأثير، وتيار يراه فضولاً من أهل المنطق والفلسفة، وتطفلاً على رياض الأدب(٢).

ثم يطل علينا السيوطي بعد ثلاثة قرون أخرى بكلام أكثر وضوحاً إذ يقول مترجماً لنفسه:" ورزقت التبحر في سبعة علوم: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء ليس على طريقة العجم وأهل الفلسفة "(٣).

- وإذا ترك الباحث مثل هذه الأقوال النظرية، وراح يبحث في المؤلفات البلاغية، سيرى عياناً أن هناك تمايزاً في طريقة التأليف، تجعل لكنّ مدرسة من المدرستين خطاً مغايراً لخط رسيلتها مما يجعل إلحاق المؤلف البلاغي بإحدى المدرستين أمراً ليس عسيراً؛

---

(١) الصناعتين، ص ١٨.

(٢) المثل السائر، ج١، ص ٣٠١.

(٣) السيوطي، حسن المحاضرة، مطبعة الموسوعات، بمصر، ١٣٢١هـ، ج١، ص ١٥٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالمدرسة الكلامية تهتم كثيراً بالتعريفات العقلية المتحوّطة، وما يتبعها من تحديدات دقيقة وتقسيمات وتفريعات، ويشيع فيها أثر الفلسفة والمنطق باستخدام أسلوبهما العقلي ومصطلحاتهما التي تضفي على التأليف تعقيداً أضنى أصحاب هذه المدرسة، واستهلك جهودهم في التلخيص والإيضاح والشروح والحواشي. والشواهد الأدبية في هذه المدرسة قليلة.

أما المدرسة الأدبية، فلغتها مفهومة سهلة، وأمثلتها الأدبية وفيرة، للذوق في اختيارها وتحليلها نصيب عظيم. وقد أوضح أحد الباحثين الفرق بين منهجي المدرستين فقال :

" إن الطريقة الأولى – وهي طريقة العجم على حدّ قولهم – كانت تفهم البلاغة فهماً أدنى إلى العلم، وكانت تعنى بالمصطلحات البلاغية، وتشرح الغرض منها، وتفلسف هذا الشرح.

وأما الطريقة الثانية، وهي طريقة العرب، فكانت تفهم البلاغة فهماً أدنى إلى الأدب المحض وكانت تعنى بالشواهد والنماذج بقصد تربية الذوق، ومن ثمّ كانت تجنح هذه الطريقة إلى الإقلال من الأصول، ومن القواعد، ومن ذكر المصطلحات البلاغية بدلاً من ذكر الشواهد والأمثلة"(١).

والذي يبحث عن مسوغات وجود مدرستين بلاغيتين تصادفه أسباب كثيرة مقنعة(٢):

– شهد العالم الإسلامي منذ القرن الهجري الأول صراعات دمويّة، وقوميّة وحضاريّة، ودينيّة، تفاقمت مع مرور الزمن، وغذتها الثقافات الأجنبية، فأدى ذلك إلى نشوء الفرق الكلاميّة التي طال صراعها فيما بينها من ناحية ومع غير المسلمين من ناحية أخرى، واختلفت جراء ذلك وجهات النظر، ووسائل الثقافة، ليس في البلاغة فحسب، بل في كثير من العلوم الأخرى، فتفرق الناس طرائق قددا.

---

(١) عبد الواحد حسن الشيخ، دراسات في البلاغة عند ضياء الدين بن الأثير، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٦، ص ١٧، ١٨، والرأي لغيره.

(٢) ينظر في هذا مثلاً: أمين الخولي، فن القول، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧، ص ٦٦ – وأحمد مطلوب، القزويني وشروح التلخيص، ص ٣١.

وممن أشار إلى وجود مدرستين:

أمين الخولي، فن القول، ص ٧٩ ، ومناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، دار المعرفة، ١٩٦١، ص ١٢٥، ١٥٩، ٢٣٠، وأحمد مطلوب، البلاغة عند السكاكي، ص ١٠١ ، والبلاغة والتطبيق، ص ٣٠، والقزويني و شروح التلخيص ، ص ٣٥، والبحث البلاغي عند العرب، دار الجاحظ، بغداد، ١٩٨٢، ص٥٥، ومقدمة نهاية الإيجاز للرازي، تحقيق بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، ١٩٨٥، ص٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإن مؤلفات مثل:

المثل السائر، والجامع الكبير لابن الأثير، والطراز للعلوي، والتبيان للطيبي، وحسن التوسل للحلبي، مضت على نهج المدرسة الأدبية.

وقد تقدم الحديث عن الكتب التي سبقت عهد عبد القاهر الجرجاني، وتلك مرحلة آثر الباحث ألا يفرّق مؤلفاتها وفق المنهجين: الأدبي والبلاغي؛ لأن الفرق بين المنهجين لم يكن قد اتضح كثيراً، ولأن إشارات رواد المدرسة الأدبية للحذف كانت قليلة بدائية، وإشارات روّاد المدرسة الكلامية أقلّ كثيراً وأوجز.

أما الجرجاني فقد خصّه البحث بالحديث السابق لأنه إمام المدرستين معاً(١)، وشيخ البلاغة العربية في النهجين، وقد اتضح من خلال عرض منهجه في دراسته ظاهرة الحذف كيف جمع الرجل بين المدرستين، فخاطب العقول والأذواق وإن كان إلى الثانية أميل.

ونبدأ بالمدرسة الأدبية، وخير من يمثلها في مرحلة ما بعد عبد القاهر:

ابن الأثير في المثل السائر والجامع الكبير، والعلوي في الطراز.

أما ابن الأثير " فهو من أعظم رجال البلاغة في هذه الفترة ... ناقد كبير وبلاغي مجدد"(٢) ولعلّ كتابه المثل السائر " أهم ما ألفه واقترن باسمه"(٣).

" وهو كتاب قيّم مملوء بالالتفاتات الأدبية الرائعة التي تدلّ على ذوق بارع"(٤).

وكان لهذا الكتاب في البلاغة أثر عظيم، فقد ظلّ يسير في الأجيال، ويسافر في الأمصار يُقرأ ويدرّس، وينقل عنه، ويستشهد به، ويقتبس منه، ولم يعدم من يثور عليه أو ينصر الثائر عليه"(٥).

أما كتابه الآخر، فهو أقل منه أهمية، بل يبدو كأنه تجربة أولى له(٦).

وأما الطراز للعلوي، فهو " من خيرة كتب البلاغة في القرن الثامن، وأمتعها"(٧)، "وقد تميز عن غيره من كتب البلاغة المتأخرة؛ لأنه مزج بين العلم والأدب، ولذلك كان من أحسن

---

(١) هكذا قال عنه أحمد مطلوب في البلاغة عند السكاكي، ص ١١٢.

(٢) أحمد مطلوب، القزويني وشروح التلخيص، ص ٦٧،٦٨، وفي ص ٧٠ كلام مشابه أيضاً.

(٣) علي جواد الطاهر، منهج البحث في المثل السائر، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٨٢، ص١٣.

(٤) أحمد مطلوب ، القزويني وشروح التخليص، ص ٧٤، والرأي لغيره.

(٥) ينظر علي جواد الطاهر، منهج البحث في المثل السائر ، ص ١٥.

(٦) المرجع نفسه ، ص ١٤.

(٧) أحمد مطلوب، البلاغة عند السكاكي، ص ١١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كتب البلاغة في القرن الثامن الهجري لما فيه من ضبط لقواعدها، وأمثلة رائعة مختارة وتحليل يدل على فهم أساليب العرب"(١).

" وهو في القسم الأول من الكتاب يسير على منهج أدبي واضح، فيه التحليل، وفيه الإكثار من الأمثلة"(٢).

وفي الكتاب غزارة مادة، وبحث مستفيض، ودراسة خصبة، جعلت بدوي طبانة يشكك في أن مصادره – كما ذكر في مقدمه كتابه – مقصورة على المثل السائر، والتبيان في البيان، ونهاية الإيجاز، والمصباح(٣).

وقد وفق أحمد مطلوب في ردّ هذا الشك إذ أعاد إلى الأذهان أن العلوي ناقل عن ابن الأثير. وكتابه المثل السائر كما يرى:"صفوة البلاغة، وزبدتها، جمع فيه مؤلفه كثيراً من الآراء، ونقل عن الغانمي وقدامة والعسكري وبذلك أغنى هذا الكتابُ العلوي وأمدّه بعلم غزير"(٤).

ولهذا ، سيعتمد البحث جهد ابن الأثير والعلوي ممثلين رئيسيّين للمدرسة الأدبية، وهو اختيار أقرب إلى الاضطرار، لأن من يعدون في سلك المدرسة الأدبية من المتأخرين قليلون: منهم شهاب الدين الحلبي الذي كان قريباً إلى منهج ابن الأثير القائم على تربية الملكة الأدبية وصقل الذوق بحفظ النصوص البديعة(٥)، وابن أبي الإصبع الذي أتب البلاغة باعتماده على العاطفة والذوق(٦) ويعدّ بحق ممثلاً صادقاً للمدرسة الأدبية في القرن السابع الهجري،(٧) والطيبي الذي يعدّ عمله في التبيان " محاولة لإرجاع البلاغة عن المنهج العلمي السكاكي الصارم إلى حيز الأدب، والاهتمام بالشواهد"(٨).

لكنّ من سوء الحظ أن الحذف لم يحظ في كتاباتهم بكثير اهتمام، ولم أجد غنىً فيما كتبوا يجعل في الاعتماد عليهم غناءً، ومع ذلك، فسوف تتم الإشارة إلى المهم من آرائهم والجيد من أمثلتهم.

---

(١) أحمد مطلوب، مناهج بلاغية ، ص ٢٧٣.

(٢) البلاغة عند السكاكي، ص ١١٢.

(٣) البيان العربي، ص ٢٦٨.

(٤) مناهج بلاغية، ص ٢٧١.

(٥) المرجع نفسه ، ص ٢٠٠.

(٦) البيان العربي ، ص ٣١٦.

(٧) البلاغة عند السكاكي ، ص ٣١٥.

(٨) الطيبي، التبيان في علوم البيان، مقدمة المحققَين، ص ١١ ، ١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحذف عند المدرسة الأدبية

نستحضر صنيع عبد القاهر الجرجاني عندما هجم على الحذف تقريظاً، وطفق يعرض أمثلته ويحللها دون أن يعرّف أو يحدّد أو يبين موقع الحذف من إطار الإيجاز بخاصّة، وإطار مقابلة اللفظ والمعنى بعامة، نستحضر ذلك، لنستوثق أننا أمام جهد جديد له طابع آخر، جهد يعتمد على إلماعات عبد القاهر وسابقيه لا ليكتفي بترديدها بل ليوظفها ويضيف إليها، ويلتقطها ليحلق بها، لا ليحلق حولها؛

فالحذف هنا يدرس ضمن إطار شمولي يتمثل في حدود ائتلاف اللفظ والمعنى إيجازاً أو إطناباً ولكلّ منهما تفريعاته، وتعريفاته؛ فالإيجاز محدّد معرف " يقال: أوجز في كلامه إذا قصره، وكلام وجيز أي قصير، ومعناه في اصطلاح علماء البيان هو اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل"(١). أو "دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه"(٢). أو " دلالة اللفظ على المعنى من أقرب طرقه"(٣). واضح أن الفكرة واحدة على تغيّر الألفاظ في التعريفات السابقة.

وترى لديهم دقة وتحوّطاً؛ فالنظر إلى الإيجاز " إنما هو إلى المعاني لا إلى الألفاظ، ... أعني أن النظر في هذا النوع إنما يختص بالمعاني، فربّ لفظ قليل يدل على معنى كثير، وربّ معنى كثير يدل على لفظ قليل"(٤).

والحذف لبّ الإيجاز " لأن موضوعه على الاختصار، وذلك إنما يكون بحذف ما لا يخلّ بالمعنى، ولا ينقص من البلاغة"(٥).

وإذا كان المعنى هو مدار النظر كما مرّ، فإن الحذف لا يكون إلا " فيما زاد معناه على لفظه"(٦)، فالحذف هنا يدرس ضمن النظرة العامة لائتلاف الكلام لفظاً ومعنى، إذ يحدّد موقعه من الإيجاز أولاً، ثم موقع الإيجاز عموماً من الإطناب والتطويل، ويُبيّن المحمود من ذلك والمذموم، ويرسم لكلّ حدّه، ويوضع له تعريفه.

---

(١) العلوي ، الطراز، ج٢، ص٨٨.

(٢) ابن الأثير، المثل السائر، ج٢، ص ٧٠.

(٣) ابن الأثير، الجامع الكبير، ص ١٢٤.

(٤) المثل السائر، ج٢، ص ٦٨.

(٥) الطراز ، ص ٢ ، ٩٢.

(٦) المثل السائر، ج٢، ص ٧٤. ، والجامع الكبير، ص ١٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يتقدّم ذلك أو يتخلله تقريظ؛ فالإيجاز بعامّة " نوع من الكلام شريف لا يتعلق به إلا فرسان البلاغة، من سبق إلى غايتها وما صلى، وضرب في أعلى درجاتها بالقِدح المعلى، " وذلك لعلوّ مكانه، وتعذّر إمكانه"(١).

والحذف بخاصّة " عجيب الأمر، شبيه بالسحر، وذاك أنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتمّ ما تكون بيانا إذا لم تُبن"(٢).

والحذف ليس ترفاً لغويّاً بل ضرورة تفرضها علاقة اللفظ والمعنى ودلائل الحال، فلو "ظهر المحذوف لنزل قدر الكلام عن علو بلاغته، ولصار إلى شيء مستترك مسترذل، ولكان مبطلاً لما يظهر على الكلام من الطلاوة والحسن والرقة"(٣).

بل إنّ هذا يعدّ معيارا دقيقاً لقياس وجاهة الحذف، فمن " شرط المحذوف في حكم البلاغة، أنه متى ما أظهر صار الكلام إلى شيء غث لا يناسب ما كان عليه أولاً من الطلاوة والحسن"(٤).

والحذف حتى يصل هذه المرتبة السنية، فيكون أفصح من الذكر، ويحافظ على طلاوة الكلام وحسنه ورقته، لا يقع جزافاً ويأتي اعتباطاً، بل له أصوله وأهم ذاك وجود دليل على المحذوف، ولأهمية الدليل فقد عدوه من الأصول ونصّوا عليه في الحدود فقالوا:

" الإيجاز بالحذف وهو ما يحذف منه المفرد والجملة لدلالة فحوى الكلام على المحذوف"(٥).

وكانوا أكثر من هذا صرامة إذ قالوا صراحة :

" الأصل في المحذوفات جميعها على اختلاف ضروبها أن يكون في الكلام ما يدلّ على المحذووف، فإن لم يكن دليل على المحذوف فإنه لغو من الحديث لا يجوز بوجه ولا سبب"(٥).

وإذا وقع الحذف دون دليل " فلا يجوز الاعتماد عليه، ولا يحكم عليه بكونه محذوفاً بحال"(٥).

ولم يكتف أصحاب المدرسة باشتراط الدليل على المحذوف، بل راحوا يستقرون أنواع الدلائل فوجدوا خطين عامين ينتظمانها هما : دليل إعراب، ودليل معنى؛

---

(١) المثل السائر، ج٢، ص ٦٨ ، وهناك كلام مشابه في الجامع، ص ١٢٢.

(٢) المثل السائر، ج٢، ص ٧٦ ، ٧٧ ، والجامع الكبير ، ص ١٢٤، ويحسن الموازنة بدلائل الإعجاز ، تحقيق محمد رشيد، ص ١١٢ ، ومحمود شاكر، ص ١٤٦ .

(٣) العلوي، الطراز، ج٢، ص ٩٢.

(٤) ابن الأثير ، المثل السائر، ج٢، ص ٧٧.

(٥) المصدر نفسه ، ج٢، ص ٧٤ ، والجامع الكبير ، ص ١٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد " يظهر المحذوف بالإعراب كقولنا: وسهلاً(١)، فإن نصب الأهل والسهل يدل على ناصب محذوف"(٢). ومحذوف آخر يظهر " بالنظر إلى تمام المعنى كقولنا: فلان يحلّ ويعقد؛ فإن ذلك لا يظهر المحذوف فيه بالإعراب، وإنما بالنظر الى تمام المعنى: أي إنه يحلّ الأمور ويعقدها"(٣).

ونظروا في هذين النوعين، وكانت لهم نظرات نافذة ناقدة في تقييمهما إذ رأوا الدليل الإعرابي أقلّ شأناً من دليل المعنى، وما ذلك إلا لأنه مكشوف مبتذل، فالمعمول المنصوب يستلزم العامل، والاهتداء إليه ليس بعيد المتناول، أما دليل المعنى فيقدح فكراً، ويستنهض فطنة لسبر غوره، ومعرفة أمره، ولعلّ بعض هذا كان مقصودهم عندما قالوا عن الدليل الإعرابي": وليس لهذا من الحسن ما للذي لا يظهر بالإعراب، وانما يظهر بدلالة المعنى"(٢).

بل إن نظراتهم الشمولية قادتهم إلى ملاحظة المواضع التي يشيع فيها الاعتماد على كلّ من الدليلين فقالوا :" والذي يظهر بالإعراب يقع في المفردات من المحذوفات كثيراً، والذي لا يظهر بالإعراب يقع في الجمل من المحذوفات كثيراً"(٢). وما ذاك إلا لأن الميدان الأساسي للإعراب هو المفردات لا الجمل.

وقد طاب لهم بعد هذا القصدُ إلى تحديد أنواع المحذوفات، والتمثيل لها، لكنهم ما فعلوا إلا بعد أن أوضحوا تصورهم الشمولي لهذه الأنواع، ليخوضوا لجتها بجلاء وطول باع واطلاع، فقالوا :" هذا القسم (إيجاز الحذف) يشتمل على أربعة عشر باباً"(٣).

وقالوا:" الإيجاز تارة يكون بحذف الجمل، ومرّة يكون بحذف المفردات، وأخرى من غير حذف، فهذه ثلاثة أقسام يندرج تحتها جميع ما نريده من أسرار الإيجاز"(٤). لكن أحسن قولهم -في هذا- ما قاله ابن الأثير إذ بدت دقة العالم في قوله:

" وسأذكر في كتابي هذا ما وصل إليّ علمه، وهو ينقسم إلى قسمين : أحدهما حذف الجمل، والآخر حذف المفردات(٣)".

ثم ظهر الاحتراس والتحوط لديه عندما تابع كلامه قائلاً:

" وقد يرد كلام في بعض المواضع، ويكون مشتملاً على القسمين معاً"(٣).

---

(١) لعلّ الأصل "أهلاً وسهلاً " فبه يستقيم مع الكلام اللاحق.

(٢) المثل السائر، ج٢، ص ٧٧.

(٣) الجامع الكبير، ص١٢٤.

(٤) العلوي، الطراز، ج٢، ص ٩٣، وانظر مشابهاً في الطيبي، التبيان في البيان، ص ١١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حذف الجمل

يمضي ابن الأثير مقسّماً مشققا معلقاً فيقول:" فأما القسم الأول، وهو الذي تحذف منه الجمل، فإنه ينقسم إلى قسمين أيضاً: أحدهما: حذف الجمل المفيدة التي تستقل بنفسها كلاماً وهذا أحسن المحذوفات جميعها، وأدلّها على الاختصار، ولا تكاد تجده إلا في كتاب الله تعالى. والقسم الآخر: حذف الجمل غير المفيدة، وقد وردا ههنا مختلطين وجملتهما أربعة أضرب":

الضرب الأول : حذف السؤال المقدر، ويسمى الاستئناف وهو على وجهين(١):

– الاستئناف بإعادة اسم من تقدّم أو إعادة صفته(٢).

والاستئناف بإعادة الصفة – كما قالوا – أحسن من الاستئناف بإعادة الاسم وأبلغ.

ومن أمثلته قوله تعالى: **﴿ألم ذلك الكتاب لا ريبَ فيه هدى للمتقين الذي يؤمنون بالغيب .....أولئك على هدى من ربّهم وأولئك هم المفلحون﴾**(٣).

وموضوع الاستئناف هنا قوله تعالى: (أولئك) " لأنه لما عدّد صفات المتقين بالإيمان والغيب، وبإقامة الصلاة وبالإنفاق إلى آخر ما قرره من صفاتهم الحسنة، اتجه لسائل أن يسأل بأن هؤلاء قد اختصوا بهذه الصفات فهل يختصون بغيرها؟ فأجيب بأن المؤمنين بما تقدّم من الصفات هم المستحقون للفوز بالهداية عاجلاً، وللفلاح آجلاً"(٤).

– الاستئناف دون إعادة الأسماء والصفات، ومنه قوله.تعالى:

﴿ومالي لا أعبدُ الذي فطرني وإليه تُرجعون ..... قيل ادخل الجنة﴾(٥).

فلا بدّ من سؤال قبل قوله تعالى: (قيل ادخل الجنة)، وقد يكون تقديره:" كيف حال هذا الرجل عند لقاء ربّه بعد ذلك التصلّب في دينه والتسخّي لوجهه بروحه؟ فقيل: (قيل ادخل الجنة)"(٦) وقد تنبه ابن الأثير إلى حذف ثان في الموضع نفسه هو أكثر دقة فقال:

"ولم يقل: قيل له، لانصباب الغرض إلى المقول لا إلى المقول له مع كونه معلوماً"(٧).

ونفذ أيضاً إلى تقدير محذوف ثالث فقال:" وكذلك قوله تعالى: **﴿يا ليت قومي يعلمون﴾**(٨). مرتّب على تقدير سؤال سائل عمّا وجد"(٨).

---

(١) المثل السائر، ج٢، ص٧٧ ، والعلوي، الطراز، ج٢، ص٩٣.

(٢) المثل السائر، ج٢، ص٧٨ ، والطراز، ج٢، ص ٩٣ ، ٩٤.

(٣) البقرة، ١–٥.

(٤) الطراز، ج٢، ص ٩٤ ، ويحسن الموازنة بالمثل السائر ج٢، ص ٧٨.

(٥) يس، ٢٦ – .

(٦) ابن الأثير، المثل السائر، ج٢، ص ٧٨، وازن بالطراز، ج٢، ص٩٤.

(٧) المثل السائر، ج٢، ص ٧٨.

(٨) يس، ٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الضرب الثاني: الحذف من جهة السبب أو المسبّب فهما متلازمان، ولذلك جاز حذف أحدهما بدلالة الآخر(١)".

وهو ضرب من الكلام تتكاثر محاسنه وتتزايد لطائفه"(٢).

ومثال الأول (من جهة السبب) قوله تعالى:

﴿وما كنتَ بجانب الغربيّ إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ولكنا أنشأنا قروناً فتطاولَ عليهم العمر﴾(٣). الكلام موجه إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ويبيّن أن طول الفترة هو سبب الوحي إليه، فذكر المسبّب وحذف السبب وتقدير الكلام:

"ولكنا أنشأنا بعد عهد الوحي إلى موسى إلى عهدك قروناً كثيرة، فتطاول على آخرهم – وهو القرن الذي أنت فيهم – العمر: أي أمد انقطاع الوحي، فاندرست العلوم، فوجب إرسالك إليهم، وعرفناك العلم بقصص الأنبياء"(٤).

وقد يحذف من هذا الضرب جملة غير مفيدة مثل قوله تعالى:

﴿قال كذلك قال ربّكِ هو عليّ هيّن ولنجعله آيةً للناس ورحمةً منا وكان أمراً مقضيّاً﴾(٥). فقوله تعالى: (ولنجعله آية للناس) مسبّب حذف سببه، " أي: وإنما فعلنا ذلك لنجعله آية للناس، فذكر السبب الذي صدر الفعل من أجله .... ودل به على المسبب الذي هو الفعل"(٦).

– وقد يحذف السّبب ويبقى المسبّب دليلاً عليه(٧) كقوله تعالى: ﴿فإذا قرأتَ القرآنَ فاستعذْ بالله من الشيطان الرجيم﴾(٨). "تأويله .. والله أعلم –إذا أردت قراءة القرآن. فاكتفي(٩) بالمسبّب الذي هو القراءة عن السبب الذي هو الإرادة "(١٠).

الضرب الثالث : الإضمار على شريطة التفسير(١١):

وأصل هذا أن يحذف في أوّل الكلام، ثم يؤتى في آخره بمتعلق به دال عليه، وهو على أوجه:

---

(١) المثل السائر، ج٢، ص٧٩، والطراز، ج٢، ص٩٥.

(٢) الجامع الكبير، ص١٢٤.

(٣) القصص، ٤٤.

(٤) المثل السائر، ج٢، ص ٧٩، وازن بالجامع الكبير، ص١٢٤،١٢٥، والطراز، ج٢، ص ٩٥.

(٥) مريم، ٢١.

(٦) المثل السائر، ج٢، ص٨٠ .

(٧) المكان نفسه، والجامع، ص ١٢٥، والطراز، ج٢، ص٩٦

(٨) النحل، ٩٨.

(٩) تدخل المحققان، فغلّطا الناسخ إذ كتب "اكتفي" واستبدلا بها "اكتفِ" وهماً منهما أنها جواب إذا .

(١٠) الجامع، ص ٢٥، ويوازن بالمثل السائر، ج٢، ص٨٠.

(١١) ينظر المثل السائر، ج٢، ص٨١ ، والجامع، ص ١٢٦، والطراز، ج٢، ص ٩٦ وما بعدها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الاستفهام، ومنه قوله تعالى:

﴿أفمن شرح اللهُ صدره للإسلام فهو على نورٍ من ربّه فويلٌ للقاسية قلوبُهم من ذكر اللّه﴾(١).

التقدير : " أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن أقسى قلبه؟ ويدل على المحذوف قوله: فويل للقاسية قلوبهم "(٢).

في النفي والإثبات(٣)، كقوله تعالى: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبلِ الفتح وقاتلَ أولئك أعظمُ درجةً ممن أنفقوا من بعدُ وقاتلوا﴾(٤). التقدير وفق المعنى: لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن أنفق من بعده وقاتل بدليل آخر الآية.

في غير هذين الوجهين، كقوله تعالى: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وَجِلة﴾(٥). "فالمعنى في الآية : والذين يعطون ما أعطوا من الصدقات.... وقلوبهم وجلة أي: خائفة من أن ترتد عليهم صدقاتهم، فحذف قوله: ويخافون أن تُرد عليهم هذه النفقات ودلّ عليه بقوله: "وقلوبهم وجلة"(٦).

وبمثل هذا يفسّر قول أبي نواس:

سَنَّةُ العُشّاقِ واحدةٌ فإذا أحببت فاستكن(٧)

هذا، وقد تفرد ابن الأثير في الجامع بإضافة أمثلة لحذف مفعول المشيئة، وأمثلة لذكره عند استغرابه(٨).

الضرب الرابع :

ما يختلف عن الأضرب الثلاثة السابقة، ومنه قوله تعالى من سورة يوسف:

﴿قال تزرعون سبعَ سنين دأباً .... قال الملكُ ائتوني به﴾(٩).

وقد حذف كلام، لا بدّ من ردّه لينتظم السرد، ولعلّ تقديره " فرجع الرسول إليهم، فأخبرهم بمقالة يوسف .... وقال الملك ائتوني به"(١٠).

---

(١) الزمر، ٢٢.

(٢) الجامع، ص ١٢٦، والمثل السائر، ج٢، ص٨١ ، وازن بالطراز، ج٢، ص٩٧، والطيبي في مثال آخر، ص١١٨.

(٣) الجامع، ص١٢٦، والمثل السائر، ج٢، ص٨١، والطراز، ج٢، ص٩٧.

(٤) الحديد، ١٠.

(٥) المؤمنون، ٦٠.

(٦) الطراز، ج٢، ص٩٧،٩٨، وازن بالمثل، ج٢، ص٨٢.

(٧) المثل السائر، ج٢، ص٨١.

(٨) الجامع الكبير، ص١٢٦،١٢٧.

(٩) يوسف، ٤٧ – .

(١٠) المثل السائر، ج٢، ص٨٢، والطراز، ج٢، ص٩٩، والطيبي، ص١١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن هذا الضرب شيء يعسر الاهتداء إلى محذوفه وتقديره، ومنه قوله تعالى: ﴿وما ينظر هؤلاء إلا صيحةً واحدةً مالها من فواق، وقالوا ربنا عجّل لنا قِطّنا قبل يوم الحساب، اصبر على ما يقولون واذكر عبدَنا داودَ ذا الأيدِ إنه أوّاب﴾(١).

يتساءل المتأمل لم ذكر داود بعد قوله اصبر؟ وما الحذوف بينهما؟ يرى ابن الأثير أن التقدير لوصل المعنى في مثل هذا ليس يسيراً، ويحتمل عنده وجهين:

- أنه قال: (اصبر على ما يقولون) وخوّفهم أمر معصية الله وخوّفها في عيونهم بذكر قصّة زلّة داود.
- أنه قال: (اصبر على ما يقولون) واحفظ نفسك أن تزل في شيء مما كلفته ...

واذكر قصّة زلّة داود(٢).

---

(١) ص، ١٤- .

(٢) المثل السائر، ج٢، ص٨٤، بتصرف قليل .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حذف المفردات

جعلها ابن الأثير أربعة عشر ضرباً، وجمعها العلوي في سبعة؛(١) إذ كان يقرن الشيء وما يتعلق به ويجعلها معاً نوعاً واحداً؛ فابن الأثير مثلاً يتحدث عن الفعل والفاعل والمفعول به كلاً على حده، بينما هي عند العلوي نوع واحد. وابن الأثير يفرد لحذف كلّ من: لو، ولولا، ولما، وإذا، نوعاً خاصاً بينما يجمعها العلوي تحت عنوان حذف الأجوبة.

وإن كان ابن الأثير أكثر توفيقاً في إفراد الفعل والمفعول به لأن قضايا الحذف في كل نوع منها منفصلة عن النوعين الآخرين، فإن العلوي أكثر توفيقاً في جمع الأجوبة؛ فموضوعها متشابه إلى حدّ كبير. وعلى كل حال فإن الخلاف بينهما لا يتجاوز الظاهر.

وفيما يلي توضيح أنواع المحذوفات وأمثلتها :

حذف الفعل

جعله ابن الأثير نوعين رئيسيين:

- يحذف الفعل، ويظهر بدلالة المفعول به عليه(٢)، كقوله تعالى: ﴿ناقةَ الله وسقياها﴾(٣). واكتفى بهذا المثال من القرآن، وعرض أمثلة أخرى من الأخبار النبويّة، والشعر وكلام العرب(٤).

- يحذف، ويظهر بالنظر إلى ملاءمة الكلام:

وأكثر ما عرضه تمثيلاً له من باب حذف القول، كقوله تعالى: ﴿وعُرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرّة﴾(٥). فقوله (لقد جئتمونا) يحتاج إلى إضمار فعل، أي: قيل لهم لقد جئتمونا، أو فقلنا لهم"(٦).

ومنه إيقاع الفعل على شيئين هو لأحدهما كقوله تعالى: ﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم﴾(٧)، أي: وادعوا شركاءكم، ويدل على ذلك أيضاً إحدى القراءات، وإثباتها في مصحف ابن مسعود(٨).

---

(١) ينظر المثل السائر، ج٢، ص ٨٦ - ، والعلوي، ج٢، ص١٠٠ - .

(٢) ينظر المثل السائر، ج٢، ص٨٧.

(٣) الشمس، ١٣.

(٤) ينظر المثل السائر، ج٢، ص٨٧ - .

(٥) الكهف، ٤٨.

(٦) المثل السائر، ج٢، ص ٨٩.

(٧) يونس، ٧١.

(٨) ينظر المثل السائر، ج٢، ص٨٩، والجامع الكبير، ص١٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنه إقامـــة المصدر مقام الفعل كقوله تعالى: ﴿فإذا لقيتم الذين كفـروا فضرْبَ الرقـاب﴾(١)، أي: فاضربوا الرقاب ضرباً، وفي ذلك اختصار ومبالغة وتوكيد(٢).

وعرض ابن الأثير أمثلة تشتبه بحذف الجملة وسمّاها حذف جواب الأمر، ومن أمثلتها: ﴿ولقد آتينا موسى الكتابَ وجعلنا معه أخاه هـارونَ وزيـراً فقلنـا اذهبـا إلـى القـوم الذيـن كذبـوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا﴾(٣). يعلّق ابن الأثير قائلاً:

ألا ترى كيف حذف جواب الأمر في هذه الآية؟ فإن تقديره: فقلنا اذهبـا إلـى القـوم الذيـن كذبوا بآياتنا، فذهبا إليهم، فكذبوهما، فدمرناهم تدميراً. فذكر حاشيتي القصّة: أولها وآخرها لأنهمـا المقصود من القصّة بطولها، أعني: إلزام الحجة ببعثة الرسل، واستحقاق التدمير بتكذيبهم"(٤).

وعرض أمثلة أخرى تقوم على ظهور فعل أمر لا يأتي جوابـه، بل تظهـر نتيجـة تنفيذ الأمر، وقد اتصل الكلام والتأم مشيراً بلطف إلى ما حذف(٥).

ثم علّق موضحاً :

"فانظر أيّها المتأمل إلى هذه المحذوفات المذكورة ههنا التي كأنها لم تحذف من هذا الكلام لظهور معناها وبيانـه، ودلالـة الحـال عليـه، وعلـى نحـو مـن ذلـك ينبغـي أن تكـون محذوفـات الكلام"(٦).

وفي الوقت الذي كان فيه ابن الأثير يحلق هكذا كان العلوي يتقاصر عنه كثيراً فيخـوض في أوحال النحو، فيقدر أفعالاً تتطلبها عوامل، وتفرضها صناعة النحو، ولا يلتمس لهـا أيـة علّـة بلاغية(٧).

حذف الفاعل

الحديث هنا لا يخرج كثيراً عمّـا قالـه النحـاة، فـابن جنـي ينـص علـى عدم جـواز حـذف الفاعل، لكنّ ابن الأثير والعلوي يميلان إلى الـرأي المجـوّز للحـذف، ويشـترطان دلالـة مقاليـة أو حالية لذلك.

---

(١) محمد، ٤.

(٢) ينظر المثل السائر، ج٢، ص٨٩ ، ٩٠، والجامع الكبير، ص ١٢٨.

(٣) الفرقان، ٣٦.

(٤) ينظر المثل السائر، ج٢، ص٩٠.

(٥) المثل السائر، ج٢، ص٩٠ ، ٩١ ، وينظر الجامع الكبير، ص ١٢٩.

(٦) المثل السائر، ج٢، ص٩١، والجامع الكبير، ص١٣٠.

(٧) ينظر الطراز، ج٢، ص١٠٢ ، ١٠٣ –

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في قوله تعالى: ﴿كلاّ إذا بلغت التراقي﴾(١) يقول ابن الأثير:" ألا ترى أن التي تبلغ التراقي إنما هي النفس، وذلك عند الموت، فعلم حينئذ أن النفس هي المرادة وإن كان الكلام خالياً عن ذكرها ..."(٢).

ويجعل العلوي من هذا الباب قوله تعالى: ﴿لقد تَقَطَّعَ بينَكم﴾(٣) في قراءة النصب، أي: أمـــر. وكذلك قولـــه تعالى: ﴿ثم بدا لهـم من بعدما رأوا الآيات لَيَسْجُنُنَّه﴾(٤)، أي: بدا لهم أمر(٥).

حـذف المفعول به

وقد قرّظه ابن الأثير ناقلاً ما قاله الجرجاني فقال:

" وذلك مما نحن بصدده أخصّ، فإن اللطائف فيه أكثر وأعجب"(٦).

وقد ردد هو والعلوي ما ذكره الجرجاني من أنواع الحذف وعلله كإثبات المعنى المقصود للشيء على الإطلاق دون تحديده بمفعول معين. ومثّلا له بقوله تعالى: ﴿وأنه هو أضحك وأبكى﴾(٧).

وذكرا النوع الثاني الذي يكون للفعل فيه مفعول مخصوص فيحذف لفظاً ويراد معنى، ورددا مثاله أيضاً وهو قوله تعالى: ﴿ولما ورد ماء مدين...﴾(٨).

وقد مضيا أيضاً يعيدان ما قاله حول حذف مفعول المشيئة، وذكر المستغرب منه واستشهدا أيضاً بأمثلته، ولا يجد لهما الباحث في هذا الموضوع جديداً طريفاً يمكن أن يذكر في الأنواع، أو في التعليل، أو في التحليل، أو في الأمثلة. بل بدا ما ذكراه ظلالاً باهتة لإشراقات الجرجاني وإبداعاته(٩).

---

(١) القيامة، ٢٦.

(٢) المثل السائر، ج٢، ص٨٧.

(٣) الأنعام، ٩٤.

(٤) يوسف، آية ٣٥.

(٥) الطراز، ج٢، ص ١٠٣.

(٦) المثل السائر، ج٢، ص٩١.

(٧) النجم، ٤٣ ، ينظر المثل السائر، ج٢، ص٩١ ، والطراز، ج٢، ص١٠٤ ، والحلبي، حسن التوسل، ١٦٥.

(٨) القصص، آية ٢٣ - ، ينظر المثل السائر، ج٢، ص٩١، وابن أبي الإصبع، بديع القرآن ص ١٨٦، والحلبي، حسن التوسل، ص١٦٦.

(٩) ينظر المثل السائر، ج٢، ص٩١ - ، والجامع، ص١٢٩ - ، والطراز، ج٢، ص١٠٤ - ، ويوازن بدلائل الإعجاز، ص١١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحذف في الإضافة

قد يحذف المضاف أو المضاف إليه، ويقوم أحدهما مقام الآخر، وابن الأثير يرى هذا باباً عريضاً طويلاً شائعاً في كلام العرب مع علمه أن الأخفش لا يجيز القياس عليه(١). والعلوي كذلك، يراه " كثير الدور والجري في كلام الله تعالى، وكلام الفصحاء"(٢)، ويعرض لرأي الأخفش، ولا يعارضه، إذ أوضح أن الأخفش يقرّه حيث ورد ولا يقيس عليه، وعلّق على ذلك: "وما قاله الأخفش جيد لا غبار عليه"(٣).

وقد جعل العلوي حذف الإضافة ثلاثة أوجه: حذف المضاف، وحذف المضاف إليه، وحذفهما معاً(٤).

ومن أمثلة حذف المضاف قوله تعالى: ﴿حتى إذا فُتحت يأجوجُ ومأجوجُ﴾(٥). أي: سدهما.

ومن أمثلة حذف المضاف إليه قوله تعالى: ﴿لله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ﴾(٦). أي: من قبل الأشياء ومن بعدها(٧)، وتنبه العلوي إلى حذف المضاف إليه إن كان جملة أيضاً كقوله تعالى: ﴿يومئذ تُحدّثُ أخبارها﴾(٨) ورجح أن هذا من باب حذف المضاف إليه إذ حذفت الجملة المتقدمة التي أضيفت (إذ) إليها، ثم عوّض التنوين عنها، وتساءل:

" فما هذا حاله، هل يعدّ من الإيجاز أو لا؟ والأقرب عدّه من الإيجاز لأنه وإن كان قد عوض من الجمل المتقدمة التنوين لكنه يكون إيجازاً لا محالة؛ لأنه حذفت هذه الجمل الطويلة، وأقيم حرف واحد مقامها، وأي إيجاز أبلغ من هذا الإيجاز وأدخل منه في البلاغة؟"(٩).

وأما ابن الأثير، فلم يشر إلى هذا، بل بدا أكثر تحفظاً عندما اعترض على من يقدّر مضافاً إليه محذوفاً في قوله تعالى: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾(١٠). أي: على ظهر الأرض. فردّ ابن الأثير هذا التقدير قائلاً:" وليس كذلك، فإن الهاء

---

(١) المثل السائر، ج٢، ص٩٣، وقد تسرّع فعرض رأي الأخفش قبل أن يأتي على ذكر المقصود وهو حذف المضاف.

(٢) الطراز، ج٢، ص١٠٦.

(٣) المكان نفسه.

(٤) الطراز، ج٢، ص١٠٥ - .

(٥) الأنبياء، ٩٦.

(٦) الروم، ٤.

(٧) المثل السائر، ج٢، ص١٠٦، والطيبي، ص ١١٩.

(٨) الزلزلة، ٤.

(٩) الطراز، ج٢، ص١٠٦.

(١٠) فاطر، ٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والألف قائمة مقام الأرض"(١). والواقع أن هذا يثير الاستغراب فقد سبق له أن تمثل بمثل هذا لحذف الفاعل(٢)، فَلِمَ يحرّم هنا ما حلّل هناك؟

وأما الوجه الثالث فهو حذفهما معاً كما قال العلوي(٣)، أو حذف المضاف مكررا كما قال ابن الأثير(٤) ومنه قوله تعالى: ﴿فقبضتُ قبضةً من أثر الرسول﴾(٥). أي: من أثر حافر فرس الرسول. وعلق ابن الأثير على هذا بالقول:"وهذا الضرب أكثر اتساعا من غيره(٦)". وزاد العلوي -دون كبير فائدة- "ولا يكاد يوجد إلا حيث دلالة الكلام عليه(٧)".

حذف الموصوف والصفة:

يحذف الموصوف وتقوم مقامه الصفة حينا، وقد يقع العكس حينا آخر، وليس ذلك كما قال ابن الأثير مطردا، "وأكثره يجيء في الشعر، وإنما كانت كثرته في الشعر دون الكلام المنثور لامتناع القياس في اطراده(٨)".

وقد علق ابن الأثير بقوله السابق، وبدأ يعرض أمثلة دون أن يبيّن المقصود: هل يعني بذلك حذف الصفة أم الموصوف، أم هما معا؟ واضطرب كلامه؛ فهو يتحدث عن الموصوف، والصفة حديثا عاما كما مرّ سابقا، ثم يعرض مثالا لحذف الموصوف، يتبعه حديثا نحويّا صرفيا لابن جني عن الصفة وضعف حذفها، ويمثل على إثر هذا لحذف الموصوف، ثم يعطف على الصفة من جديد، فيردد ماقاله سيبويه، ويمثل لحذفها(٩).

وكان كلام العلوي أكثر منه انتظاما، وترتيبا، ودقة، إذ بدأ بحذف الموصوف، وإقامة الصفةمقامه فقال:"وهذا كثير الدور والجري في كتاب الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وعندهم قاصراتُ الطرفِ أترابٌ﴾(١٠). أي: حور قاصرات الطرف. وقوله تعالى:

---

(١) المثل السائر، ج٢، ص٩٤.

(٢) نفسه، ج٢، ص٨٦ .

(٣) الطراز، ج٢، ص١٠٧.

(٤) المثل السائر، ج٢، ص٩٣.

(٥) طه، ٩٦.

(٦) المثل السائر، ج٢، ص٩٣.

(٧) الطراز، ج٢، ص١٠٧.

(٨) المثل السائر، ج٢، ص٩٤. ويحسن تذكر رأي ابن جني.

(٩) المصدر نفسه، ص٩٤- .

(١٠) المصدر نفسه، ص ٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

﴿وآتينا ثمودَ الناقةَ مبصرةً﴾(١). أي: آية مبصرة، ولم يرد الناقة فإنها لامعنى لوصفها بالبصر، وإنما أراد: أنها معجزة واضحة"(٢).

وقد رأى كل من ابن الأثير والعلوي أن حذف الموصوف أكثر مايقع في النداء(٣). وزاد ابن الأثير على هذا فأورد أن حذف الموصوف يكثر في المصدر أيضا كقوله تعالى:

﴿ومن تاب وعمل صالحا﴾(٤). أي: ومن تاب وعمل عملا صالحا(٥).

وأما الصفة فقد رأى العلوي حذفها قليلا، ولم يمثل لها، بينما رأى ابن الأثير حذفها واقعا إن تقدمها أو تأخر عنها مايدل عليها، أو فهم ذلك من شيء خارج عنها، ومثل لها بقوله تعالى: ﴿وكان وراءهم ملكٌ يأخذ كلَّ سفينةٍ غصباً﴾(٦). أي: كل سفينة صالحة، يدل على ذلك "فأردت أن أعيبها" "فإن عيبه إياها لايخرجها عن كونها سفينة، وإنما المأخوذ هو الصحيح دون المعيب، فحذفت الصفة هنا لأنه تقدمها مايدل عليها(٧)". ومثل شعراً لحذف الصفة إن تأخر الدليل. ومثل لها بحديث نبوي إن حذفت وقام الدليل عليها خارج اللفظ(٨)".

حذف الشرط وجوابه

ومنه قوله تعالى: ﴿ياعبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعةٌ فإياي فاعبدون﴾(٩). فقوله تعالى "فاعبدون" جواب شرط محذوف. والتقدير: إن لم تخلصوا لي العبادة في هذه الأرض فأخلصوها لي في غيرها(١٠).

وقد جعل ابن الأثير من حذف الشرط قوله تعالى:

﴿فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففديةٌ﴾(١١). أي: فحلق، فعليه فدية. وقوله: ﴿فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر﴾(١٢). أي: فأفطر، فعدة من أيام آخر.

ولعل المحذوف في الآيتين هو المعطوف.

---

(١) الإسراء، ص٥٩.

(٢) الطراز، ج٢، ص١٠٧، وينظر الطيبي، ص١١٩.

(٣) المثل السائر، ج٢، ص٩٦، والطراز، ج٢، ص١٠٧،١٠٨.

(٤) الفرقان، ٧١.

(٥) المثل السائر، ج٢، ص٩٦.

(٦) الكهف، ٧٩.

(٧) المثل السائر، ج٢، ص٩٧، والطيبي، ص١١٩.

(٨) المثل السائر، ج٢، ص٩٧.

(٩) العنكبوت، ٥٦.

(١٠) المثل السائر، ج٢، ص٩٧، والطراز، ج٢، ص١١٦.

(١١) البقرة، ١٩٦.

(١٢) البقرة، ١٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أظهر ابن الأثير دقة وفطنة، وأحسن الاستهداء بالشعر إذ قدر شرطا محذوفا في قوله تعالى: ﴿**وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يومُ البعث ولكنكم كنتم لاتعلمون**﴾(١). وعلق بقوله: "اعلم أن هذه الفاء التي في قول الشاعر: (فقد جئنا خراسانا(٢)). وحقيقتها أنها في جواب شرط محذوف يدل عليه الكلام، كأنه قال: إن صح ماقلتم إن خراسان أقصى مايراد بنا، فقد جئنا خراسان، وآن لنا أن نخلص. وكذلك هذه الآية، يقول: إن كنتم منكرين للبعث، فهذا يوم البعث: أي قد تبين بطلان قولكم(٣)".

ومن حذف جواب الشرط قوله تعالى:

﴿**قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لايهدي القوم الظالمين**﴾(٤). حذف جواب الشرط. والتقدير:

" إن كان القرآنُ من عند الله وكفرتم به ألستم بظالمين(٥)".

حذف القسم وجوابه

وقد مثل العلوي لحذف القسم بقوله تعالى: ﴿**لئن أُخرجوا لايخرجون معهم، ولئن قوتلوا لاينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار**﴾(٦). في كل ذلك (قبل لئن): قسم محذوف(٧).

وأما ابن الأثير، فقد وجه همه لحذف الجواب فقال:" إن هذا الضرب ورد كثيرا في القرآن"(٨). ومثل له بقوله تعالى: ﴿**والفجر وليال عشر...**﴾(٩). وقال: "فجواب القسم ههنا محذوف وتقديره ليعذبن أو نحوه". وعرض أمثلة أخرى"(٩).

---

(١) الروم، ٥٦.

(٢) يشير إلى قول الشاعر:

قالوا خراسان أقصى مايراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا.

ينظر المثل السائر، ج٢، ص٩٨، حاشية محمد محيي الدين عبد الحميد، والجامع الكبير، ص١٣٣، حاشية رقم(٦).

(٣) المثل السائر، ج٢، ص٩٨، والجامع ص١٣٣،١٣٤.

(٤) الأحقاف، ١٠.

(٥) المثل السائر ، ج٢، ص٩٨،٩٩، والجامع الكبير، ص١٣٤.

(٦) الحشر، ١٢.

(٧) الطراز، ج٢، ص١١٦.

(٨) المثل السائر، ج٢، ص٩٩.

(٩) الفجر، ١ وما بعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حذف الأجوبة

- **جواب لو:**

قد تحذف لو وجوابها، وقد تبقى ويحذف الجواب، وذلك، كما قال ابن الأثير، من ألطف ضروب الإيجاز(١). وقد بين العلوي أنه يرد كثيرا، وجعله أيضا من محاسن الإيجاز ومواقعه البديعة(٢).

ومن أمثلة حذف لو وجوابها قوله تعالى:

﴿ما اتخذ اللهُ من ولد، وما كان معه من إله إذاً (٣) لذهب كلُّ إله بما خلق ولعلا بعضُهم على بعض﴾(٤). والتقدير: "لو كان معه آلهة لذهب كل إله بما خلق(٥)".

وحذف جواب لو كثير شائع في القرآن الكريم، وفي كلام العرب شعرا ونثرا(٦).

ومن أمثلته قوله تعالى:

﴿لو أن لي بكم قوةً أو آوي إلى ركن شديد﴾(٧). فقد حذف جواب لو، وتقديره: لدفعتكم.

ومنه قوله تعالى:

﴿ولو أن قرآناً سُيرت به الجبال﴾(٨) أي: لكان هذا القرآن(٩).

وعقب ابن الأثير على هذه الأمثلة وغيرها بقوله: "وهذا الضرب من المحذوفات أظهر الضروب المذكورة وأوضحها لعلم المخاطب به، لأن قوله تعالى حكاية عن لوط عليه السلام (لو أن لي بكم قوّة)... يتسارع الفهم فيه إلى أن الكلام يحتاج إلى جواب(١٠)".

ولم يسلم كل من ابن الأثير والعلوي تكرار اشتراط وجود الدليل وإلا بطل الحذف.

ويزيد ابن الأثير الأمر جلاء فيذكر أن حذف جواب (لو) لايسوغ دائما بل فيما قام عليه دليل، وبين أنه يرد غير محذوف كقوله تعالى:

---

(١) ينظر المثل السائر، ج٢، ص٩٩، والجامع ص ١٣٥.

(٢) ينظر الطراز، ج٢، ص١١٤.

(٣) أثبتت الآية في المثل السائر، ج٢، ص ٩٩، ١٠٠، وقد سقط منها كلمة (إذا)، ورسم الفعل (علا) بالألف المقصورة وفي ذلك إيذاء لا يبرأ من المحقق.

(٤) المؤمنون، ٩١.

(٥) المثل السائر، ج٢، ص١٠٠.

(٦) المكان نفسه، وينظر الطراز، ج٢، ص١١٤.

(٧) هود، ٨٠.

(٨) الرعد، ٣١.

(٩) ينظر المثل السائر، ج٢، ص١٠١، والطراز، ج٢، ص١١٥..

(١٠) ينظر المثل السائر، ج٢، ص١٠١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

﴿ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سُكرت أبصارُنا بل نحن قوم مسحورون﴾(١). وقال موضحا: "وهذا ليس كالذي تقدم من الآيات (الآيات التي حذف فيها جواب لو) لأن تلك علم مكان المحذوف منها، وهذه الآية لو حذف الجواب فيها لم يعلم مكانه لأنه يحتمل وجوها"(٢).

- جواب لولا:

ومنه قوله تعالى في آية اللعان:﴿ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته وأن الله توابٌ رحيم﴾(٣)، فجواب لولا هنا محذوف تقديره لما أنزل عليكم هذا النصّ بالاحتكام إلى التلاعن، وستر بذلك عليكم.

وشبيه بذلك لفظا ومعنى قوله تعالى آخر حديث الإفك: ﴿ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه﴾(٤). أي: لفعل بكم كذا وكذا"(٥).

- جواب لما:

ومنه في قصّة سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل عليهما السلام:

﴿فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيمُ قد صدّقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين﴾(٦).

فجواب لما محذوف، وتقديره: كان ماكان من اغتباطهما وشكرهما إذ دفع الله سبحانه البلاء وكشف الكربة(٧).

- جواب أما:

ومثاله قوله تعالى: ﴿فأما الذين اسودت وجوهُهم أكفرتم بعد إيمانكم﴾(٨).

والتقدير: "فيقال لهم... فحذف القول وأقام المقول مقامه"(٩).

---

(١) الحجر، ١٤،١٥.

(٢) النور، ١٠.

(٣) النساء، ٨٣.

(٤) ينظر المثل السائر، ج٢، ص١٠٢.

(٥) الصافات، ١٠٣،١٠٥.

(٦) ينظر المثل السائر، ج٢، ص١٠٢، والطراز، ج٢، ص١١٣،١١٤.

(٧) آل عمران، ١٠٦.

(٩) ينظر الطراز، ج٢، ص١١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- جواب إذا

ومنه قوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم اتقوا مابين أيديكم وماخلفكم لعلكم تُرحمون﴾(١).

والتقدير: وإذا قيل لهم.... ﴿أعرضوا وأصروا على تكذيبهم﴾(٢).

حذف المبتدأ والخبر

بيَّن ابن الأثير أن حذف المبتدأ لايكون إلا مفردا. وحذف الخبر عنده أحسن، لأنه قد يأتي جملة، وجعل منه قوله تعالى:

﴿واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتُهن ثلاثةُ أشهر واللائي لم يحضن..﴾(٣).

أي: ﴿واللائي لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر﴾(٤).

وذهب العلوي إلى أن حذف الخبر "أكثر من حذف المبتدأ ووجه ذلك أن المبتدأ طريق إلى معرفة الخبر، فإذا كان الخبر محذوفا ففي الكلام مايدل عليه وهو المبتدأ، وإذا حذف المبتدأ لم يكن في الكلام مايدل عليه لأن الخبر لايكون دليلا على المبتدأ(٥)".

ولم يمثل أي من الرجلين لحذف الخبر من القرآن الكريم، إلا أن العلوي مثل بقوله تعالى:

﴿فصبرٌ جميلٌ﴾(٦). على مايصح أن يكون فيه المحذوف مبتدأ أو خبراً. وقد وفق عندما أوضح أن حذف المبتدأ هنا أبلغ، وعلل ذلك بأن الآية وردت في شأن سيدنا يعقوب، والأفضل أن تختص به فيكون التقدير: أمري صبر جميل(٧).

---

(١) يس، ٤٥.

(٢) ينظر المثل السائر، ج٢، ص١٠٢، والطراز، ج٢، ص١١٤.

(٣) الطلاق، ٤.

(٤) ينظر المثل السائر، ج٢، ص١٠٣، والطراز، ج٢، ص١١٩، وقد اعترض الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد على تقدير جملة هنا فقال: إنه يجوز أن يكون التقدير: واللائي لم يحضن كذلك، أو مثلهن، ينظر المثل السائر، ج٢، ص١٠٣، الحاشية ١.

(٥) الطراز، ج٢، ص١١٨.

(٦) يوسف، ١٨.

(٧) ينظر الطراز، ج٢، ص١١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حذف الحروف

ومن ذلك حذف لا النافية، كقوله تعالى: ﴿تالله تفتأ تذكرُ يوسفَ﴾(١). أي: لاتفتأ، فحذفت وهي مرادة(٢).

ومنها الواو

ويبين ابن الأثير أن أحسن حذوفها في المعطوف والمعطوف عليه، فحذف حرف العطف عنده بلاغة وإيجاز، ومما مثل به لذلك قوله تعالى:

﴿ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانةً من دونكم لايألونكم خبالا ودّوا ماعنتّم قد بدت البغضاءُ من أفواههم﴾(٣).

أي: وقد بدت البغضاء، وعلق قائلا:

"فلما حذفت جاء الكلام أوجز، وأحسن طلاوة، وأبلغ تأليفاً ونظماً، وأمثاله في القرآن كثير(٤)".

وقد وفق العلوي في التعليل لحذف الواو في مثل هذه المواضع، فقال:

"وحذف الواو فيها دلالة على اتصال الجملة الثانية بالأولى، والتحامها معها، حتى إنها أحد متعلقاتها لأنها إذا كانت الواو محذوفة فيها كانت في موضع نصب على الحال، وكانت الجملتان كأنهما أفرغا في قالب واحد...، ومع هذا يكون الكلام أشد إيجازا وبلاغة(٥)".

ويزيد الأمر وضوحا في موضع آخر فيقول:

"الكلام مع حذفها أدخل في الإيجاز ، وأحسن في الاختصار... وأبلغ في تأليفه، وتنظيمه وأحلى في سياقه، وعذوبة طعمه"(٥).

---

(١) يوسف، ٨٥.

(٢) ينظر المثل السائر، ج٢، ص١٠٣، والطراز، ج٢، ص١٠٩.

(٣) آل عمران، ١١٨.

(٤) المثل السائر، ج٢، ص١٠٥.

(٥) الطراز، ج٢، ص١١١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملحوظات على دراسة المدرسة البلاغية الأدبية لظاهرة الحذف

قد يكون مفيدا في ختام هذا العرض الذي قدمه البحث مصورا منهج المدرسة الأدبية في دراسة الحذف، وعارضاً أمثلتها، قد يكون مفيدا الإلماح إلى بعض الملحوظات سواء أكانت ميزات تحسب لها، أم هنات تحسب عليها.

أما الميزات فهي كثيرة:

- أهمها هذا التصور الشمولي الذي عرضته المدرسة لظاهرة الحذف، فبعد أن كانت ملحوظات منثورة عند من درسها قبل عبد القاهر، أصبحت -كما مر- دراسة جادة رائدة عميقة عند عبد القاهر، لكنه قصر همه على دراسة حذف المبتدأ والمفعول به، وحصر أمثلته فيهما.

أما هنا... فنحن أمام دراسة شملت معظم العناصر التي يدور حذفها، وقد شملت الجمل، والجملة، والمفرد، واهتمت بالاسم والفعل والحرف، ورافق ذلك في أغلب الأحيان شرح واف وتمثيل كاف، مما يقرب الصورة إلى الأذهان، ويسعدها في تذوق الحذف وتفهمه.

- إن دراسة الحذف هنا غدت وفق خطة مرسومة مسبقا ومحكمة تقوم على حسن تنظيم وتسلسل وتقسيم... وقد مر أن ابن الأثير -مثلا- جعل الحذف أربعة عشر ضربا، وجعل لبعض هذه الأضرب أقساما، وفرع من بعض الأقسام فروعا.. و قد زاد حرصا على ذلك حتى قارب تخوم المذموم، فَظُنَ به استهواء التقسيم والتفريع دون مسيس حاجة(١).

بيد أننا عندما نتذكر النثار في كتب البلاغة الأولى نحَمد لابن الأثير حزمه في الضبط وإن غالى.

-إن هذه المدرسة اهتمت بالدليل على المحذوف اهتماما بالغا، فلم تزل تشير إليه، وتؤكده حرصا عليه، وقد جعلته أنواعا، ومثلت له، بل ذهبت إلى تقييم أنواعه، وتفضيل بعضها على بعضها الآخر، وأشارت إلى عدم جواز الحذف إن عز الدليل لأن ذلك يخلق تعمية ولبسا، ويعطي تقديرات كثيرة جوازا وقَبولا، وليس ذاك شأن الحذوفات البلاغية التي أشاروا إليها فجعلوها محذوفة "كأنها لم تحذف... لظهور معناها وبيانه ودلالة الحال عليه(٢)".

---

(١) يحسن تذكر تفريعه لحذف الأجوبة .

(٢) المثل السائر، ج٢، ص٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشواهد

وهذه فضيلة كبرى تتجلى لهذه المدرسة عندما يلتفت الباحث إلى المدرسة الكلامية فيرى السيادة للتعريفات والقواعد، فيروعه هنا هذا الفيض الغزير من الشواهد، فيتنقل بين آيات كريمة منتقاه بدقة وعناية، وأحاديث شريفة، أو أخبار من السيرة النبوية، أو أشعار رائقة كلها تمثل للمحذوف، فيحلل ويدرس في جو أدبي مشوق حي، لا في أمثلة مصنوعة مكرورة جافة.

والشواهد هنا –وهذا أفضل المحامد– من القرآن الكريم، وهي في معظم الأحوال مقدمة ليبنى عليها، ثم يتبعها الشعر أو النثر، ومعيار بلاغته متابعتها والسير على سننها.

وقد حرص ابن الأثير بخاصة على ألا يجتزئ بموضع الشاهد من الآية، بل هو يورده محاطا بما قبله، وبما بعده من الآيات، ليقدمه في وسطه الطبيعي الغني، فيكون فيه تمثيل أصدق، وتحليل أعمق(١)، ثم يتولاه شرحا وتعليلا، فيعين موضع الحذف، ويرد المحذوف، ويعلل لجمال الحذف، فيرى القارئ أدواح الأدب، ويتسم أنسام الذوق.

ونرى أصحاب هذه المدرسة يفزعون إلى الشعر تارة لفهم ألطاف الحذف، وخفاياه، في القرآن(٢)، وتارة تلجئهم كثرة التفكر والتدبر في أمر محذوفات الشعر إلى القرآن، فيجدون لما حير أفهامهم شكلا يستنيرون به، فيهديهم، ويشفي غليلهم(٣).

ويحس القارئ أنه بين يدي ناقد ذواقة يحسن الربط بين المعاني والصور، ويقلب النظر في أسرار الحذف في القرآن ولامع الشعر، ويقدر لمن ينهج نهج القرآن جَهده، ويعترف له بالفضل والسبق، ويسجل له تفوقه على نظرائه بما يصل إليه من بديع الأسرار ودقائق المعاني(٤).

كما يحس أنه في حضرة طلعة، قد حفظ القرآن الكريم لفظا، ونفذ إلى أغواره، وما خفي من معانيه، وألمّ بقراءاته، وتجاوز ذلك إلى السيرة النبوية، ورائق الأشعار، وأفنان النثر، جمع كل ذلك فأوعى، وطفق يستحضر، ويستنطق، ويتمثل، ويحدد ماكثر فيه الحذف، وما فيه قل، وما هان أمره فيه، وما فيه جل.

فيتردد قولهم مثلا:"وهذا في القرآن كثير الورود وخاصة في سورة يوسف فإنها مشتملة على الإيجاز البالغ بالحذف وغيره(٥)".

---

(١) ينظر مثلا، المثل السائر، ج٢، ص٧٨، ٨٢، ٨٤، ٩٠، وللشعر ينظر ج٢، ص٨٨.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص٩٨، والجامع الكبير، ص١٣٣.

(٣) ينظر الطراز، ج٢، ص٩٨–١٠٠.

(٤) فالعلوي مثلا يفضل لذلك السبب أبا تمام وابن هانئ والمتنبي على نظرائهم، ينظر الطراز، ج٢، ص٩٩.

(٥) الطراز، ج٢، ص٩٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقولهم: "الحذف بالمفردات أوسع مجالا من حذف الجمل"(١) . وقولهم: "وحذف المضاف كثير الدور والجري في كلام الله تعالى وكلام الفصحاء"(١). وقولهم: "حذف الموصوف أكثر دون صفته"(١)، وقولهم عن حذف الموصوف وأكثر وقوعه في النداء والمصدر(١). وقولهم عن الحروف:"توسعوا في الإيجاز بحذفها"(١).

وتراهم يتذوقون الحذف، فيحسون أنه على درجات متفاوتة من الجمال، فينقلون هذا الإحساس إلى القارئ، فيقولون:"فحذف لو وجوابها من ألطف ضروب الإيجاز(٢)". وعن محذوف ثانٍ يقولون: هو من أحسن المحذوفات(٣)، وعن ثالث: هو من أظهر الضروب وأوضحها(٤). وعن حذف الخبر: هو أحسن من حذف المبتدأ(٥).

واستخراج المحذوف أيضا درجات: "ومن حذف الجمل المفيدة مايعسر تقدير المحذوف فيه"(٦). وعن غيره يقولون: وهذا موضع يحتاج في استخراجه واستخراج أمثاله إلى فكرة وتدقيق نظر(٧). وهكذا، نرى إحاطتهم، وتحوطهم، في كثير مما يقولون، ويتمثلون، ويحللون، ويعللون.

وعلى كل حال، فإن الانتصار لمنهجهم لايجيز التجاوز عن بعض مابدا لديهم من هنات، أو وقعوا فيه من ثغرات.

- أول مايسجل عليهم كثرة النقل، بل طغيانه؛ فابن الأثير مثلا ينقل ما أورده في كتابه: (الجامع الكبير) إلى (المثل السائر)، والذي يطالع الكتابين يراهما -دون ريب- كتابا واحدا، على الأقل فيما نحن بصدده وهو ظاهرة الحذف.

ويبدو أن ابن الأثير قد وضع الجامع أولا، فلم يرض عنه كثيرا، وبدا له تجويده وإغناؤه وتنظيمه، فوضع المثل السائر...

ولكن اعتماد ابن الأثير على أحد كتبه إلى درجة النقل، يظل أخف ثقلا من أن ينقل عن غيره، وقد كان.

فهو يصرح بأنه لم ينتفع إلا بكتابي الموازنة للآمدي، وسر الفصاحة للخفاجي(٨)، وينكر غير ذلك. وإصراره هذا يحاصره بالتهمة، فهو ينقل حرفيا مابدأ به الجرجاني حديثه عن الحذف

---

(١) الطراز، ج٢، ص٩٩.

(٢) المثل السائر، ج٢، ص٩٩.

(٣) نفسه، ج٢، ص١٠٠.

(٤) نفسه، ج٢، ص١٠١.

(٥) نفسه، ج٢، ص١٠٣.

(٦) نفسه، ج٢، ص٨٣.

(٧) نفسه، ج٢، ص٨٥.

(٨) ينظر مقدمة المثل السائر، ج١، ص٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو قوله "إنه عجيب الأمر، شبيه بالسحر، وذلك أنك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر..."(١).

وينقل ماقاله الجرجاني عن حذف مفعول المشيئة، وذكره، ينقله بأمثلته وتعليله(٢). وينقل كذلك عنه مقدمته في الحديث عن حذف المفعول به، وأمثلته، وتحليله.

أما العلوي، فقد نقل ما أورده ابن الأثير عن الحذف، ولا يكاد يختلف عنه إلا في تجميع أقسام فرقها ابن الأثير، أو في أمثلة محدودة تفرد بذكرها، أو بعض كلمات، أو تغيير في بعض العبارات، وهذا النقل يحد الفكرة، ويقتل الإبداع، ويحرمنا من غياث الفوائد التي تنجم عن شحذ الذهن، وتقليب النظر، وكثرة التبصر.

-ومما يسجل عليهم أيضا، جنوحهم أحيانا عن الذوق الأدبي، والحس البلاغي، والتفاتهم بدلاً من ذلك إلى مسائل النحو، والانسياب في مزالقها بعيدا عن تلمس مواطن الجمال، وأسرار الحذف، ومنابع الذوق وهي مهمة البلاغي الأولى.

وقع في شراك ذلك العلوي مرارا، فأول مثال عرضه لحذف المفردات كان ماقاله النحويون عن حذف الفعل في قوله تعالى: ﴿ولو أنهم صبروا﴾(٣).

والثاني هو قوله تعالى: ﴿وإن أحد من المشركين استجارك﴾(٤).

وإن كان النحوي قد قدر فعلا محذوفا لتصح صناعته في مثل هاتين الآيتين، فما عذر البلاغي؟ وأين تعليله لهذا الحذف (المزعوم)، وما فائدته البلاغية؟(٥).

وقد خاض العلوي غمار الجدل في حذف الفاعل: جوازه، وعدم جوازه، وحذفه وإضماره، ولم يكلف نفسه مرة واحدة عناء التعليل لهذا الحذف، وتحسس مواطن الجمال فيه.

وتطالع الباحث أفكار النحاة بل أقوالهم كما هي في كثير من المواضع(٦).

وما وقع فيه العلوي لم يكن ابن الأثير عنه بنجوة، فقارئ كتابه يكاد ينسى في بعض المواضع أنه كتاب بلاغة، ويظنه كتابا في النحو(٧).

ولنتأمل مثالا واحدا فقط:

---

(١) ينظر ابن الأثير، المثل السائر، ج٢، ص ٧٦،٧٧، وازن بدلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد، ص١١٢، ومحمود شاكر، ص ١٤٦.

(٢) نفسه، ج٢، ص٩٢،٩٣. وازن بدلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد، ص١٢٥، ومحمود شاكر، ص١٦٣-.

(٣) الحجرات، ٥.

(٤) النساء، ١٢٨.

(٥) ينظر الطراز، ج٢، ص١٠١- .

(٦) ينظر المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٣- .

(٧) ينظر المثل السائر، ج٢، ص٨٦، ٩٣، ٩٥، ٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول عن حذف الصفة: "فمن ذلك ماحكاه سيبويه رحمه الله من قولهم: سير عليه ليل، وهم يريدون ليل طويل، وإنما حذفت الصفة في هذا الموضع لما دل من الحال عليه، وذلك أنه يحس في كلام القائل لذلك من التطريح، والتطويح، والتفخيم، والتعظيم، مايقوم مقام قوله طويل..."(١).

ويستمر في هذا يسترجع آراء سيبويه وابن جني وغيرهما، ويستعيد أقوالهم النحوية.

وإن كان في مثل هذا يحمد للنحاة التحرر من أسر حركات الأواخر، والحرص على الجري بعيدا نحو المعاني وقرائن الأحوال، أفيكون ذلك سببا لتثاقل البلاغيين وتقيلهم آراء النحويين وعدم النهوض لمجاراتهم والتحليق في أجوائهم؟

- ويلاحظ أن عروضهم في دراسة هذه الظاهرة على الرغم من فوائدها الجلية لا تخلو من سهوات؛ فقد يضعون مثالا في قسم، ويضعون شبيهه في قسم ثان، وهذا مثال لسهو وقع فيه ابن الأثير:

في قوله تعالى: ﴿اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم، ثم تولَّ عنهم فانظر ماذا يرجعون، قالت ياأيها الملأُ إني أُلقِيَ إلي كتاب كريم﴾(٢). ثمة محذوف، لعل تقديره:

فأخذ الكتاب وذهب به، فما ألقاه إلى المرأة وقرأته قالت:....

هذه الآية جعلها ابن الأثير في القسم الأول من الضرب الرابع وهو حذف الجمل المفيدة، وهي -لاريب- لا تختلف عما أورده من أمثلة في القسم الثاني من الضرب الثاني عن حذف الفعل وجوابه، إذ يرد فعل أمر، وتليه أحداث وقعت بعد تنفيذ الأمر المطلوب، مثل قوله تعالى:

﴿ائتوني به أستخلصه لنفسي، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾(٣). فقد نفذ الأمر (ائتوني)، والتقدير: فأتوه به، ولقيه، فلما كلمه....

ولا فرق بين هذه الآية وسابقتها في هذا الشأن(٤).

- وقد تشتبه عليهم المعاني، ويغور المقصود، فيقدرون محذوفا بعيدا، ويغيب عنهم القريب:

أورد العلوي بيت المتنبي:

لا أُبغض العيس لكني وقيتُ بها قلبي من الهم أو جسمي من السقم

ورأى أن في البيت محذوفا تقديره: "لا أبغض العيس لما يلحقني بسببها من ألم السفر ومشقته،

---

(١) ينظر ابن الأثير، المثل السائر، ج٢، ص٩٦، وينظر مشابه في الجامع الكبير، ص٣٢.

(٢) النمل، ٢٨.

(٣) يوسف، ٥٤.

(٤) لمزيد من التوضيح، ينظر المثل السائر، ج٢، ص٩٠،٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكني وقيت به كذا وكذا..."(١).

وما أظن أن هذا هو المقصود، والأقرب من هذا أن يكون التقدير:

لا أبغض العيس لإنضائي إياها بكثرة الأسفار...(٢)".

وعلى وجه إجمالي، ومع هذه الهنات الهينات التي لايكاد يخلو منها عمل إنساني، فإن المتمعن المنصف سيرى أن للمدرسة الأدبية فضلا عميما على دراسة هذه الظاهرة، إذ حافظت على ماء الذوق فيها، وفاضت عليها بالشواهد الغنية، فأبقتها وسط نصوصها الحية، وما فتئت ترعى الذوق الأدبي، وتقوي الإحساس بالجمال، وتقود إلى تبينه وتذوقه، ورعت البلاغة ثم ودعتها فأودعتها عند المدرسة الكلامية تنبض بالحياة، وتجري في عروقها الدماء، وتشع في جنباتها الحرارة، فهل حافظت المدرسة الكلامية على ذلك؟ هذا ماستحاول الكشف عنه الصفحات التالية.

---

(١) الطراز، ج٢، ص٩٩- .

(٢) ينظر المثل السائر، ج٢، ص٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحذف عند المدرسة الكلامية

عبرت البلاغة العربية برزخا بين عبد القاهر الجرجاني الذي مزج فيها العلم بالذوق، والمدرسة الكلامية التي جعلت منها علما يشيع فيه التعريف والتحديد والتقعيد، ولعل الرازي كان حلقة الوصل بين هاتين المرحلتين(١)، فهو يعتمد اعتمادا كبيرا على جهد الجرجاني لكنه يوجهه وجهة جديدة إذ يقول:"ولما وفقني (الله) إلى مطالعة هذين الكتابين (أي: دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة) التقطت منهما معاقد فوائدهما، ومقاصد فرائدهما، وراعيت الترتيب مع التهذيب، والتحرير مع التقدير، وضبطت أوابد الإجمالات في كل باب بالتقسيمات اليقينية، وجمعت متفرقات الكلم في الضوابط العقلية(٢).

وكلامه هذا دليل صادق على فعله، فقد بدأ محاولات نزع رداء الأدب والذوق عن البلاغة، وألبسها أثواب العلم بالضبط والتحديد والحصر المنطقي.

وتأصل هذا المنهج عند السكاكي في القسم الثالث من (المفتاح)، وما أحدثه من حركة تأليفية واسعة، بدأت بتلخيصه، ولعل أول من لخص المفتاح هو السكاكي نفسه في كتاب أسماه (التبيان)(٣)، ثم لخصه بدر الدين بن مالك في (المصباح). حتى إذا تناول القزويني هذا الأمر كان ذلك إيذانا بأن البلاغة قد وضعت الوضع الأخير، فقد لخص القزويني المفتاح أولا بكتاب أسماه (التلخيص)، وحول التلخيص والمفتاح دارت البلاغة العربية دوراتها المكرورة منذ القرن السابع الهجري إلى بدايات هذا القرن، إذ بدأ القزويني نفسه شرح تلخيصه بكتاب أسماه (الإيضاح)، ثم توالت الشروح، والحواشي على الشروح، والتقارير على الحواشي(٤). وأحدث ذلك كله صخباً كثير الإزعاج قليل الفائدة للبلاغة. ولعل ماجمعه فرج الله زكي في كتاب شروح التلخيص يمثل أفضلها إذ ضم مجموعه التلخيص، وثلاثة من شروحه، وإحدى الحواشي على أحد الشروح، وقد

---

(١) ينظر مقدمة بكري شيخ أمين لنهاية الإيجاز، ص٣٦، وشوقي ضيف، ص٢٧، وأحمد مطلوب، مناهج بلاغية ص٢٤٤، ومازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، دار الفكر، ص١١٠، ويحسن التثبت من هذا بالرجوع إلى الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق إبراهيم السامرائي ومحمد أبو علي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، وتحقيق بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، ١٩٨٥.

(٢) هذه الشروح، والحواشي، والتلخيصات والتقارير والمنظومات الشعرية كثيرة جدا، فهناك شروح للإيضاح، وحواش على مختصر السعد، وأخرى على مطوله، وهناك مختصرات للتلخيص، ومنظومات له، وشروح لأبياته...

(٣) ينظر ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة تاريخ ابن خلدون، ص٥٥٢، ومقدمة سهير القلماوي للبلاغة عند السكاكي لأحمد مطلوب، ص١٣.

(٤) ينظر في هذا: أحمد مطلوب القزويني، وشروح التلخيص، ص١٧٣- ، والبلاغة عند السكاكي، ص١٧-، ومقدمة محمد عبد المنعم الخفاجي للإيضاح، ص٧- .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بدأ في صلب الكتاب بشرح السعد التفتازاني (المختصر على التلخيص)، وتلاه ثانيا بكتاب مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي، وثلث بكتاب: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح للسبكي، وصدر الهامش بكتاب التلخيص، وتلته حاشية الدسوقي على شرح السعد.

والتشابه في هذه الكتب إلى حد التكرار ليس مستغربا، لأنها جميعا تدور في فلك واحد، وتشرح كتابا واحدا، وفي الوقوف على آراء بعضها غناء عن باقيها، ولذلك سيعتني البحث بعرض مجمل آراء السكاكي في المفتاح، والقزويني في تلخيصه والإيضاح، والسعد في المختصر، والسبكي في عروس الأفراح، وهذا لايمنع إيراد آراء غيرهم عند اللزوم إن تفردت بشيء لم يذكروه، أو امتازت بما يستحق عرضه أو التنويه به.

وقد اقتضى المنهج الذي سارت عليه المدرسة الكلامية لاسيما عند القزويني وشراح تلخيصه أن تدرس ظاهرة الحذف في أربعة مواضع، هي:

حذف المسند إليه: وحذف المسند، وحذف متعلقات الفعل، والإيجاز والإطناب والمساواة، ذلك أنهم جعلوا علم المعاني ثمانية أبواب هي(١):

أحوال الإسناد الخبري، وأحوال المسند إليه، وأحوال المسند، وأحوال متعلقات الفعل، والقصر، والإنشاء، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب والمساواة. ولهذا فقد عرضوا للحذف عندما تحدثوا عن المسند والمسند إليه، ومتعلقات الفعل، فالحذف من أحوالها جميعا، ثم عرضوا له في باب الإيجاز والإطناب والمساواة. والبحث هنا مضطر إلى المضي على هذا النهج حتى يعكس صورة جهدهم ومنهجهم.

حذف المسند إليه

يرى أصحاب هذه المدرسة أن المسند إليه يحذف للأسباب التالية:

- الاحتراز عن العبث الظاهر(٢):

---

(١) ينظر القزويني، الإيضاح، ج١، ص٥٥.

(٢) ينظر السكاكي، المفتاح، ص١٧٦، والقزويني، الإيضاح، ج٢، ص٤، والتلخيص في علوم البلاغة، تحقيق عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ص٥٣، وشروح التلخيص، جمع فرج الله زكي الكردي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، ١٩٣٧، شرح السعد، ج١، ص٢٧٤، وشرح السبكي، بهاء الدين أحمد بن علي، ج١، ص٢٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأوضح الشراح أن ذكره يعد عبثا لأن القرينة تدل عليه، وإن كان في الحقيقة غير عبث، ومثلوا له بقولهم عند استشراف الهلال: الهلال والله. أي: ذاك الهلال. والتصريح بذكر المبتدأ هنا هو العبث، لأن القرينة أغنت عن ذكره(١).

- تخييل العدول إلى أقوى الدليلين من العقل واللفظ(٢):

أي أن الذي يدل عليه المسند إليه إما دليل لفظي صريح، أو عقلي، فإن قلت: زيد قائم، دلت كلمة زيد على المسند إليه. وإن قلت: قائم. دل العقل على المسند إليه المحذوف. ودلالة العقل أقوى من دلالة اللفظ لأن الأولى قطعية، والأخرى ظنية(٣).

وقد مثل لذلك صاحب التلخيص بقول الشاعر:

(قال لي كيف أنت قلت عليل....) أي: أنا عليل، فلم يذكرها احترازا عن العبث، واعتمادا على أقوى الدليلين.

- إيهام صونه عن لسانك، أو عكس ذلك أي عدم ذكره تطهيرا للسانك عنه(٤).

- تأتّي الإنكار عند الحاجة:

قد تدعو الحاجة إلى التكلم بشيء ما بتحوط يمكن من الإنكار إن لاحت الأخطار، كأن يذكر (زيد)، فيقول أحدهم: فاجر فاسق، ولا يذكره بالاسم ليتمكن من ادعاء أنه يقصد غيره إن لزم الأمر(٥).

ويمضي القزويني في ذكر علل الحذف مثل تعيين المسند إليه، أو ادعاء تعيُّنه، أو نحو ذلك مما أوضحه الشرّاح مثل ضيق المقام عن إطالة الكلام بسبب حالة نفسية، أو خشية فوات فرصة، أو محافظة على وزن، أو سجع، أو قافية... وكل ذلك دون تمثيل، وإن فعلوا فهي جمل مصنوعة للقاعدة المعروضة(٦).

---

(١) تنظر شروح التلخيص، السعد، ج١، ص٢٧٤، والسبكي، ج١، ص٢٧٥.

(٢) ينظر القزويني، الإيضاح، ج٢، ص٥٢٤، والتلخيص، ص٥٣.

(٣) تنظر شروح التلخيص، السبكي، ج١، ص٢٧٦.

(٤) ينظر القزويني، الإيضاح، ج٢، ص٥، والتلخيص، ص٥٤، وللتوضيح تنظر شروح التلخيص، السعد والسبكي والمغربي، ج١، ص٢٧٨.

(٥) تنظر شروح التلخيص، السعد، ج١، ص٢٧٩، والسبكي كذلك.

(٦) المصدر نفسه، السعد، ج١، ص٢٨٠، والسبكي كذلك.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حذف المسند

وعبر عنه السكاكي بالترك(١)، وكذلك فعل القزويني(٢)، والشرّاح من بعد(٣).

ورأوا أن ذلك يقع لما مر من الأسباب التي ذكرت لحذف المسند إليه. ومن أمثلة حذف المسند عندهم:

فمن يكُ أمس في المدينة رحلُه فإني وقيارٌ بها لغريب.

وقول الآخر:

نحن بما عندنا وأنتَ بما عندكَ راض والرأيُ مختلف(٤).

وأدارت الشروح حول هذا الحذف نقاشات نحوية وصرفية مطوّلة. ومن أمثلتهم أيضا قوله تعالى: **﴿سورة أنزلناها﴾(٥)**. وقوله تعالى: **﴿قل لاتقسموا طاعة معروفة﴾(٦)**.

أي: هذه سورة، أو فيما أوحينا إليك. وفي الآية الثانية يقدرون: أمركم طاعة معروفة أو ماشابه(٧). وقد تنبه القزويني إلى أن قوله تعالى: **﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾(٨)**. يقع في هذا الباب أيضا(٩). وعرض له المغربي كذلك(١٠)، ونفذ إلى الفرق في المعنى إن قدر المسند محذوفا أو المسند إليه، وعرض لاختلاف الأقوال في ذلك.

وقد تنبه القزويني أيضا إلى أن حذف المسند لابد له من قرينة، واهتدى إلى أن هذه القرينة قد تكون وقوع الكلام جوابا لسؤال محقق كقوله تعالى: **﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾(١١)**. أو جوابا لسؤال مقدّر كقول الشاعر:

"ليبك يزيد ضارع لخصومة....."(١٢).

---

(١) ينظر المفتاح، ص٨٩.

(٢) ينظر التلخيص، ص١٠١، والإيضاح، ج٢، ص١٠٣، وقد تحدث عن حذف المسند هنا بشكل أكثر تفصيلا، ومثل له بآيات قرآنية كريمة.

(٣) تنظر شروح التلخيص، ج٢، ص٢.

(٤) ينظر التلخيص، ص١٠١- ، والإيضاح، ج٢، ص١٠٣- ، وشروح التلخيص، السعد، ج٢، ص٢، والسبكي، ج٢، ص٣. وقد مر ذكر هذين البيتين في هذا البحث.

(٥) النور، ١.

(٦) النور، ٥٣.

(٧) ينظر الإيضاح، ج٢، ص١٠٦.

(٨) النساء، ١٧١.

(٩) ينظر الإيضاح، ج٢، ص١٠٧.

(١٠) شروح التلخيص، المغربي، ج٢، ص١٢.

(١١) الزمر، ٣٨، ولقمان، ٢٥.

(١٢) ينظر التلخيص، ص١٠٤، وينظر في القرائن شروح التلخيص، السعد والسبكي، ج٢، ص١٣ ومابعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأفاض الشراح هنا أيضا في أحاديث النحو، وتأسوا بصنيع النحويين في اللجوء عند تقدير المحذوف إلى الاستهداء بالمواضع التي ذكر فيها(١).

وقد مثلوا للسؤال المقدر أيضا بقوله تعالى: ﴿يسبِّح له فيها بالغدوّ والآصالِ رجالٌ...﴾(٢) على قراءة يسبِّح بفتح الباء وبناء الفعل للمجهول كأن سائلا سأل: من يسبح له، فأتى الجواب: رجال. أي يسبِّح رجال. ومثله قوله تعالى: ﴿كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك اللهُ العزيزُ الحكيم﴾(٣). وحالها كسابقتها وقد فضلوا الآيات على البيت الشعري بهذا الصدد، وعدوها أمثلة أوفق، وأكثر وضوحا لأمور ذكروها(٤).

حذف متعلقات الفعل

وقد تحدث السكاكي عن حذف الفعل هنا(٥). وبين أنه يحذف إن كان مفسرا بعد أدوات لايليها إلا الفعل أو عند الشروع بالفعل مثل: "بسم الله"، أو إن كان جواباً لسؤال كما مر.

واعتنى الشراح هنا بالحديث عن حذف المفعول به، وقدموا له بما كان الجرجاني قد قدّم به الحديث عنه، فإسناد الفعل إلى الفاعل يهدف إلى بيان وقوعه منه لا مجرد وجود هذا الفعل في نفسه فقط، وإذا عُدّي إلى المفعول كان الغرض إفادة وقوع الفعل عليه، أما إذا أريد الإخبار عن وقوع الفعل في نفسه دون ملابسة فاعل أو مفعول فالعبارة عنه أن يقال: كان ضرب، أو وقع كذا، أو وجد كذا(٦).

ثم يدخلون إلى حديث واسع يعتمدون فيه أقوال الجرجاني، ويحاولون افتراع أضرب، ويفرقون بين مواقف خطابية واستدلالية، ويغمض كثيرا ماكان الجرجاني قد عرضه في عبارات واضحة ومعان ظاهرة، وملخص الأمر لايخرج عن إثبات الفعل في نفسه للفاعل على الإطلاق، أي: دون اعتبار لما وقع عليه، فيكون المتعدي كاللازم لايذكر له مفعول ولا يقدر.

---

(١) ينظر شروح التلخيص، السعد والسبكي، ج٢، ص١٣- .

(٢) النور، ٣٦.

(٣) الشورى، ٣.

(٤) الإيضاح، ج٢، ص١٠٨- ، والشروح، السعد والسبكي والمغربي، ج٢، ص١٦- .

(٥) ينظر المفتاح، ص ٢٢٤.

(٦) ينظر القزويني، التلخيص، ص ١٢٦، والإيضاح، ج٢، ص١٣٨،١٣٩. وازن بالجرجاني دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد، ص١١٨، ومحمود شاكر، ص١٥٣،١٥٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومثله قوله تعالى: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون﴾(١).أي من يحدث له معنى العلم ومن لايحدث(٢).

وقد ردّدوا أمثلة الجرجاني ومنها قول البحتري:

شجوٌ حساده وغيظُ عداه أن يرى مُبصرٌ ويسمع واع(٣)

واتكأوا على تعليلاته فاتخذوا من ومضاتها إضاءات ليزيدوا عليها ويتعمقوا فيها؛ فقد أطالوا الحديث في هذا البيت(٤). وكانت لهم نقاشات عقلية في الغالب كقولهم: "فالحاصل أنه نزل يرى ويسمع منزلة اللازم أي من يصدر عنه السماع والرؤية من غير تعلق بمفعول مخصوص هو محاسنه وأخباره بادعاء الملازمة بين مطلق الرؤية ورؤية آثاره ومحاسنه...."(٥).

- الحذف للبيان بعد الإبهام(٦):

وكرروا أيضا ما قاله الجرجاني عن هذا الحذف، وتعلق المشيئة بالمشاء، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾(٧). أي: لو شاء هدايتكم.

وما غفلوا عن استحضار ما أورده الجرجاني حول ترجيح ذكر مفعول المشيئة إن كان مستغربا.

- الحذف لدفع توهم غير المراد(٨)، ومثاله:

كم ذدت عني من تحامل حادث وسَوْرة أيام حززن إلى العظم

وهذا قول الجرجاني، ومثاله، وقد عللوا أيضا بتعليله(٩).

---

(١) الزمر، ٩.

(٢) ينظر التلخيص، ص١٢٦، والإيضاح، ج٢، ص١٤٧، وشروح التلخيص، المغربي والسعد، ج٢، ص١٢٣.

(٣) ينظر التلخيص، ص١٢٨. وازن بدلائل الإعجاز تحقيق محمد رشيد، ص١٢٠، ومحمود شاكر ص١٥٦.

(٤) ينظر شروح التلخيص، السعد والسبكي، ج٢، ص١٢٨.

(٥) ينظر المصدر نفسه، السعد، ج٢، ص١٢٩.

(٦) ينظر التلخيص، ص١٢٨، ١٢٩، وشروح التلخيص، السعد والسبكي، ج١، ص١٣١. وازن بدلائل الإعجاز تحقيق محمد رشيد، ص١٢٥، وتحقيق محمود شاكر، ص١٦٣.

(٧) النحل، ٩. وينظر للتوضيح التلخيص ص١٢٩، والإيضاح، ج٢، ص١٥٤، وشروح التلخيص، السعد والسبكي، ج١، ص١٣٢.

(٨) ينظر التلخيص، ص١٣٠، والإيضاح، ج٢، ص١٥٦، وشروح التلخيص، السعد والمغربي، ج١، ص١٣٦، والسبكي، ج١، ص١٣٧.

(٩) يوازن بدلائل الإعجاز، ص١٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الحذف لإيقاع الفعل على المفعول الصريح لا الضمير الذي يعود إليه، وهنا أيضا نواجه ماسبق أن قاله الجرجاني(١).

- الحذف للتعميم والاختصار: مثل ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾(٢). أي: كل أحد(٣).

وقد يكون الحذف لمجرد الاختصار، مثل: أصغيت إليه. أي: أذني. ومنه قوله تعالى: ﴿أرني أنظر إليك﴾(٤). أي: ذاتك(٥).

- الحذف لرعاية الفاصلة، مثل: ﴿والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى﴾(٦).

- الحذف لاستهجان ذكره، كقول عائشة رضي الله عنها عن الرسول صلى الله عليه وسلم: مارأيت منه ولا رأى مني. أي: العورة(٧).

ويشير القزويني إلى آيات فيها إشكالات، ومنها قوله تعالى:

﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ماتدعوا فله الأسماءُ الحسنى﴾(٨). فالدعاء قد يكون بمعنى النداء، وهنا لاحذف. وقد يكون بمعنى التسمية التي يتعدى فعلها إلى مفعولين، وهذا مارجحه القزويني، وعلى ذلك ففي الآية حذف أحد المفعولين(٩).

الحذف في باب الإيجاز والإطناب والمساواة

وقف البلاغيون طويلا بهذا الباب، وخاضوا فيه كثيرا، واستقر الأمر على أن الكلام وفق ما يقتضيه المقام قد يكون متساويا فيه لفظه ومعناه، وقد يكون بإيجاز أو بإطناب، وقد مر ذكر ذلك في مداخل هذا الفصل.

---

(١) ينظر التلخيص، ص١٣١، والإيضاح، ج٢، ص١٥٧، وشروح التلخيص، السعد والسبكي، ج١، ص١٣٩ ويوازن بدلائل الاعجاز، تحقيق محمد رشيد، ص١٢٩، ومحمود شاكر ص١٦٨.

(٢) يونس، ٢٥.

(٣) ينظر السكاكي، المفتاح، ص٢٢٨، والقزويني، التلخيص، ص١٣١، والإيضاح، ج٢، ص١٥٨، وشروح التلخيص، السعد والسبكي، ج١، ص١٤٠.

(٤) الأعراف، ١٤٣.

(٥) ينظر المفتاح، ص٩٩، والتلخيص، ص١٣١،١٣٢، والإيضاح، ص ١٥٨،١٥٩، وشروح التلخيص، السعد والمغربي، ج١، ص١٤١، والسبكي ج١، ص١٤٣.

(٦) الضحى، ١،٢، ينظر في ذلك المفتاح، ص١٠٠، والتلخيص، ١٣٢، والإيضاح، ج٢، ص١٥٨، والسعد، ج١، ص١٤٣، والسبكي، ج١، ص١٤٤.

(٧) ينظر التلخيص والإيضاح والسبكي في الأماكن نفسها.

(٨) الإسراء، ١١٠.

(٩) ينظر الإيضاح، ج٢، ص١٦٠،١٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا غرابة أن يرد الحديث عن الحذف في هذا الباب؛ فالحذف من الإيجاز، وله الصدارة في هذا الموضع.

وقد جرى القوم هنا على نهج الرماني في جعل الإيجاز نوعين: قصراً وحذفاً(١).

وقد وجدوا أن الحذف يقع في جزء الجملة، وفي جملة كاملة، وفي أكثر من جملة(٢).

الحذف في جزء الجملة

- **المضاف:** ومثاله قوله تعالى: ﴿واسأل القرية﴾(٣)، أي:أهلها. وقوله تعالى ﴿حُرِّمت عليكم الميتة﴾(٤)، أي: تناولها.

- **الموصوف:** ومثلوا له بقول الشاعر:

أنا ابنُ جلا وطلاعُ والثنايا متى أضعِ العمامةَ تعرفوني.

أي: أنا ابن رجل جلا(٥).

- **الصفة:** ومثالها قوله تعالى: ﴿وكان وراءهم ملكٌ يأخذُ كل سفينة غصبا﴾(٦). أي:سفينة صالحة(٧).

- **حذف المضاف إليه:** كقوله تعالى: ﴿كلٌ في فلكٍ يسبحون﴾(٨).

- وقد يحذف المضاف والمضاف إليه معا كقوله تعالى: ﴿من أثر الرسول﴾(٩). أي: من أثر حافر فرس الرسول(١٠).

- **حذف الجار والمجرور:** مثل قوله تعالى:

﴿خلطوا عملا صالحا﴾(١١). أي: بسيء "وآخر سيئا". أي: بصالح. ويكثر حذف الجار والمجرور بعد اسم التفضيل(١٢).

---

(١) ينظر التلخيص، ص٢١٤، والإيضاح، ج٣، ص١٨١- ، والسعد والسبكي والمغربي، ج٣، ص١٨٣.

(٢) ينظر التلخيص، ص ٢١٦، والإيضاح، ج٣، ص١٨٤.

(٣) يوسف، ٨٢.

(٤) المائدة، ٣، ينظر في الآيتين، التلخيص، ص ٢١٦، والإيضاح، ج٣، ص١٨٦، والسعد والسبكي، ج٣، ص١٩٠.

(٥) ينظر التلخيص والإيضاح في المكان نفسه، والسعد والسبكي والمغربي، ج٣، ص١٩١.

(٦) الكهف، ٧٩.

(٧) ينظر التلخيص، ص٢١٦،٢١٧، والإيضاح، ج٣، ص١٨٧، والسعد السبكي والمغربي، ج٣، ص١٩٢.

(٨) الأنبياء، ٣٣.

(٩) طه، ٩٦.

(١٠) ينظر في الآيتين شروح التلخيص، السعد والسبكي والمغربي، ج١، ص١٩٥.

(١١) التوبة، ١٠٢.

(١٢) ينظر للتوضيح الأماكن السابقة نفسها، والسكاكي، المفتاح، ص١٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعدوا من حذف جزء الجملة أشياء غير ماذكر مثل:

- حذف المعطوف:

﴿لايستوي منكم من أنفق من قبلِ الفتحِ وقاتَل﴾(١). أي: ومن أنفق بعده، بدليل مـابعده وهو قولـه تعالى:

﴿أولئك أعظمُ درجةً من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلوا﴾.

- وقريب من هذا حذف المعادل في السؤال كقوله تعالى:

﴿أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسنا﴾(٢). أي: كمن هداه الله، فحذف بدلالة: **﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾**(٢).

ويجوز تقدير جواب آخر للآية المذكورة كما قال السكاكي(٣). مثل: ذهبت نفسك عليهم حسـرات، بدليل قوله تعالى: **﴿فلا تذهبْ نفسُك عليهم حسراتٍ﴾**(٣).

- الشرط: وقد عدوه من حذف جزء الجملة،

وتنبه السكاكي إلى مواطن دقيقة لحذف الشرط بدلالة الفاء كقوله تعالى: **﴿فلم تقتلوهم ولكـن اللـه قتلهم﴾**(٤). أي: إن افتخرتم بقتلهم فلم تقتلوهم أنتم، فعدوا عن الافتخار... وكذلك قوله تعالى: **﴿ياعبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾**(٥). أي: إن لم يتأت لكم أن تخلصوا لي العبادة في أرض فأخلصوها لي في غيرها(٦).

وقد عرض القزويني لحذف الشرط في باب الإنشاء، ومن أمثلته عنده قوله تعالى:

﴿أم اتخذوا من دونه أولياءَ فاللهُ هو الولي﴾(٧). أي: إن إرادوا أولياء بحق فالله هو الولي(٨).

جواب الشرط:

قد يحذف لمجرد الاختصار كقولـه تعـالى: **﴿وإذا قيـل لهـم اتقـوا مـابين أيديكـم ومـاخلفكم لعلكـم ترحمون﴾**(٩).

---

(١) الحديد، ١٠.

(٢) فاطر، ٨.

(٣) ينظر المفتاح، ص١٢١.

(٤) الأنفال، ١٧.

(٥) العنكبوت، ٥٦.

(٦) ينظر في الآيتين ، المفتاح، ص٢٧٩.

(٧) الشورى، ٩.

(٨) ينظر التلخيص، ص١٧٢، والإيضاح، ج٣، ص٩٠.

(٩) يس، ٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تقدير الجواب: أعرضوا، بدليل مابعده، وهو قوله تعالى: ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾(١).

وقد يحذف "للدلالة على أنه شيء لا يحيط به الوصف، أو لتذهب نفس السامع كل مذهب ممكن"(٢) ومثلوا له بقوله تعالى: ﴿حتى إذا جاؤوها وفُتحتْ أبوابها﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ وُقفوا على النار﴾(٤).

حذف الجملة

- ومن ذلك كما قالوا ذكر السبب وحذف المسبَّب، كقوله تعالى:

﴿ليحقَّ الحقَّ ويبطلَ الباطلَ﴾(٥). أي: فعل مافعل(٦).

ومثلها قوله تعالى: ﴿وما كنت بجانب الطور إذ ناديْنا ولكن رحمة من ربك﴾(٧). أي: اخترناك.

وقوله تعالى: ﴿ليدخل الله في رحمته من يشاء﴾(٨). أي: كان الكفّ، ومنع التعذيب(٩).

- وقد يقع العكس، فيذكر المسبَّب، ويحذف السبب، كقوله تعالى:

﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت﴾(١٠). فذكر الانفجار وهو المسبَّب، وحذف السبب وهو الضرب، أي فضرب فانفجرت(١١). ويجوز في مثل هذه الآية تقدير شرط محذوف، أي: فإن ضربت بها فقد انفجرت(١٢). وقد تحفظ السبكي على مثل هذا التقدير لأن الماضي لايستعمل في الإنشاء(١٣).

- وقد يقع الحذف في (أكثر) من جملة، كقوله تعالى:

﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى﴾(١٤). أي فضربوه فحيي.

---

(١) يس، ٤٦، ينظر في ذلك الإيضاح، ج٣، ص١٨٧، وشروح التلخيص، السعد والسبكي والمغربي، ج٣، ص١٩٣.

(٢) ينظر التلخيص، ص٢١٨، والإيضاح، ج٣، ص١٨٨، والسعد والسبكي والمغربي، ج٣، ص١٩٤.

(٣) الزمر، ٧٣.

(٤) الأنعام، ٢٧. وينظر الأماكن السابقة نفسها.

(٥) الأنفال، ٨.

(٦) ينظر المفتاح، ص٢٧٩، والتلخيص، ص ٢١٨،٢١٩، والسعد والسبكي، ج٣، ص١٩٧.

(٧) القصص، ٤٦.

(٨) الفتح، ٢٥.

(٩) ينظر الإيضاح، ج٣، ص١٩١، والمفتاح، ص٢٧٩.

(١٠) البقرة، ٦٠.

(١١) ينظر المفتاح، ص ٢٧٨، والتلخيص، ص٢١٩، والسعد والسبكي، ص١٩٧،١٩٨.

(١٢) ينظر التلخيص، ص ٢١٩،٢٢٠، والإيضاح، ج٣، ص١٩٢.

(١٣) ينظر شروح التلخيص، السبكي، ج٣، ص١٩٨.

(١٤) البقرة، ٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقوله تعالى: ﴿أنا أنبّئكم بتأويله فأرسلون﴾(١). وقوله بعدها: ﴿يوسُف أيها الصدّيق﴾(٢).

ولعل التقدير: فأرسلون إلى يوسف لأستعبره الرؤيا، فأتاه فقال له: يايوسف(٣).

وقد تنبهوا إلى أنّ الحذف قد يقع ولا يقام شيء مقامه كما مر، وقد يقام مقامه مايدل عليه كقوله تعالى:﴿وإن يكذبوك فقد كُذبت رسلٌ من قبلك﴾(٤). فقوله تعالى:(فقد كذبت) لايصح جواباً للشرط في قوله: (إن يكذبوك)؛ لأن تكذيب الرسل واقع قبل تكذيب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهو المخاطب، ولذلك لابد من تقدير جواب محذوف مثل: فلا تحزن. أي: إن يكذبوك يامحمد فلا تحزن، واصبر على ذلك، فقد كذبت رسل من قبلك(٥).

وقد تنبهوا أيضا إلى ضرورة وجود دليل على المحذوف، اهتم بذلك القزويني، والأدلة كما قال كثيرة، ووافق شراح تلخيصه مع اعتراضهم على مدلولات بعض عباراته(٦).

وفيما يلي مجمل للأدلة التي عرضوها:

- أن يدل العقل على الحذف، والمقصود الأظهر على تعيين المحذوف كقوله تعالى: ﴿حُرمت عليكم الميتة﴾(٧). وقوله تعالى: ﴿حُرمت عليكم أمهاتكم﴾(٨).

فالعقل في مثل هاتين الآيتين يدل على أن هناك محذوفا، والمقصود الأظهر يرشد إلى أن التقدير حرم عليكم تناول الميتة، وحرم عليكم نكاح أمهاتكم؛ لأن الغرض من هذه الميتة تناولها، ومن النساء نكاحهن(٩).

- أن يدل العقل على الحذف والتعيين معا، ومثاله قوله تعالى: ﴿وجاء ربك﴾(١٠).

فالعقل يدل على وجود حذف إذ يمتنع مجيء الربّ. ثم يعيّنه، والتقدير: وجاء أمر ربك(١١).

---

(١) يوسف، ٤٥.

(٢) يوسف، ٤٦.

(٣) ينظر الإيضاح، ج٣، ص١٩٢، ومابعدها.

(٤) فاطر، ٤.

(٥) ينظر في ذلك التلخيص، ص٢٢٠، والإيضاح، ج٣، ص١٩٣، والسبكي، ج٣، ص٢٠٢.

(٦) ينظر التلخيص، ص ٢٢٠، وينظر بعض الاعتراضات في شروح التلخيص، السعد، ج٣، ص٢٠٣.

(٧) المائدة، ٣.

(٨) النساء، ٢٣.

(٩) ينظر التلخيص، ص٢٢٠، والإيضاح، ج٣، ص١٩٤، والسعد والسبكي، ج٣، ص٢٠٣- .

(١٠) الفجر، ٢٢.

(١١) ينظر التلخيص والإيضاح في المكان نفسه، والسعد السبكي، ج٣، ص٢٠٥- .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

– أن يدل العقل على الحذف، وتدل العادة على التعيين. والمثال العلم في هذا قوله تعالى حكاية عن امرأة العزيز: ﴿فذلكن الذي لُمتنني فيه﴾(١). فقد دل العقل على الحذف، لأن الإنسان إنما يلام على كسبه، فالتقدير يحتمل أن يكون (في حبه) بدليل قوله تعالى: ﴿قد شغفها حباً﴾(٢). ويحتمل أن يكون: (في مراودته) بدليل قوله تعالى: ﴿تراود فتاها عن نفسه﴾(٣). وقد يشملهما معا. والعادة تدل على أن التقدير الأوسط هو الأولى؛ لأن الحبّ المفرط لايلام عليه الإنسان عادة لقهره صاحبه، وإنما يكون الملام في المراودة الواقعة تحت السيطرة والقدرة على دفاعها.

وقد شدد السبكي النكير على القزويني في هذا الرأي لأنه جعل العقل يدل على التعيين، ثم وضع احتمالات ثلاثة، وماذلك سبيل العقل، فوصم كلامه بالتهافت(٤).

– أن تدل العادة على الحذف والتعيين معا، كقوله تعالى في شأن المنافقين في غزوة أحد: ﴿لو نعلم قتالا لاتبعناكم﴾(٥). فالعادة الجارية عليهم تدل على أنهم أكثر الناس علما بالقتال، فكيف يسوغ زعمهم عدم علمه هنا؟ فلا بد من حذف، ولعلّ المحذوف: (مكان قتال). يؤيد ذلك أنهم أشاروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يخرج من المدينة، فالحزم كما قالوا هو البقاء فيها.

وقد اعترض السعد هنا أيضا، فرأى أن المحذوف هنا تعينه القرينة وسياق الحال، لا العادة. وقدر أن يكون قصدهم: لو نعلم أن ما أنتم متوجهون إليه قتال، لكنه ليس بقتال، بل هو إلقاء النفس إلى التهلكة(٦).

– الشروع في الفعل:

وفي الشروع دليل حالي على المحذوف، كقول المؤمن: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ عند القراءة، فذلك يفيد أن المراد، باسم الله أقرأ. وكذا الحال عند الشروع في قيام، أو قعود، أو تناول طعام، أو أي فعل كان، فإن المحذوف يقدر ماجعلت التسمية مبدأ له(٧).

– اقتران الكلام بالفعل كقولهم للمعرس: بالرفاء والبنين. أي أعرست بالرفاء والبنين(٨).

---

(١) يوسف، ٣٢.

(٢) يوسف، ٣٠.

(٣) ينظر التلخيص، ٢٢١، والإيضاح، ج٣، ص١٩٥، والسعد والسبكي والمغربي، ج٣، ص٢٠٧.

(٤) ينظر شروح التلخيص، السبكي، ج٣، ص٢٠٧.

(٥) آل عمران، ١٦٧.

(٦) ينظر شروح التلخيص، السبكي، ج٣، ص٢٠٨، وللتوضيح ينظر الإيضاح، ج٣، ص١٩٥.

(٧) ينظر التلخيص، ص٢٢١، والإيضاح، ج٣، ص١٩٦، والسعد والسبكي، ج٣، ص٢٠٨.

(٨) ينظر التلخيص والإيضاح في المكان نفسه، والسعد والسبكي، ج٣، ص٢٠٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ذهب السبكي إلى أن هذا الدليل داخل في الدليل السابق(١). ولعل ما قاله عين الصواب إذ اقترن الكلام في كلتا الحالتين بالفعل، فكان الحال فيهما دليلا على المحذوف.

– أن يدل عرف اللغة على الحذف، والقرينة الحالية على المحذوف.

ذكر هذا السبكي نقلا عن غيره، ومثاله: إلا حظية فلا ألية. أي إن لم يكن لك حظية، فلا أنا ألية، ويجوز نصبها. وقد رأى أن اطراد الحذف ليس دليلا، فلا بد من قرينة، وختم كلامه بالإشارة إلى القرينة اللفظية والحالية، وأقرّ أن أعظم أدلة الحذف هي اللغة.

– وقد بدا عند بعضهم، كالسكاكي، اعتماد قوي على الصنعة النحوية للاستدلال على المحذوف، ففي قوله تعالى:

﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾(٢). يقدر السكاكي محذوفا هو: أبحت لكم الغنائم لدلالة فاء التسبب في (فكلوا). وقد حشد أمثلة كثيرة قدر فيها محذوفات استنادا إلى متطلبات صناعة النحو(٣).

ملحوظات على جهد المدرسة الكلامية في دراسة ظاهرة الحذف

هنا، لعل من المفيد المضي على ماجرى عليه البحث من رصد بعض الملاحظات عقيب الحديث عن دراسة الحذف عند كل مرحلة أو مدرسة، لإلقاء الضوء على الأمور الأكثر خصوصية التي امتازت بها الدراسة في ذلك الوضع، ولتشكل هذه الملاحظات الهيكل العام للتقييم الكلي في الفصل الثالث من هذا البحث.

– سينكر لهذه المدرسة أن رجالها عُنوا بل عَنّوا أنفسهم في توخي الدقة عند التحديد والتعريف ومدلولات المفردات، وصحة الشواهد على القواعد. وقد تطرق البحث مثلا إلى تعريف السكاكي للإيجاز، وموقعه مقابل المساواة والإطناب، ومع المستوى العالي الذي ظهر فيه تعريفه وتحديده قياسا إلى تعريفات سابقيه، إلا أن القزويني لم يقنعه ماقاله السكاكي، ووجد فيه خللا سارع إلى تصويبه بتعريف آخر أكثر دقة وانضباطا(٤) .. ومع ذلك لم يسلم القزويني نفسه من شارح يتعقبه، ويرى في تعريفه ثغرة تخل به؛ فعل ذلك السبكي عندما اعترض على تعريف المساواة، وحدّها، فهو لم يوافق على ماقاله السكاكي، وأقره القزويني من أن المساواة تمثل مرحلة وسطى لاتحمد، ولا تذم فقال:

---

(١) ينظر شروح التلخيص، السعد، ج٣، ص٢٠٩.

(٢) الأنفال، ٦٩.

(٣) ينظر المفتاح، ص٢٧٨،٢٧٩.

(٤) ينظر هذا البحث، ص ١٠٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"بقي على السكاكي والمصنف اعتراض، وهو أن كلام أهل العرف إن كان مرتبة وسطى بين الإيجاز والإطناب، فإما أن يكون هو المساواة أو لا. فإن كان هو المساواة فهي محمودة إذا طابقت مقتضى الحال، ومذمومة إذا لم تطابقه..."(١).

وهم يتحسسون كذلك مواطن اللبس في المصطلحات، ويستقرئون مايجول في ذهن القارئ، فيسارعون إلى تبديد الشكوك، وتجلية المسائل؛ يفترض السبكي مثلا متسائلا يقول: إذا كان إيجاز الحذف هو مايكون بحذف شيء من أصل الكلام، ألا يدخل في مثل هذا التعريف إيجاز القصر؟ ففيه أيضا إيجاز بحذف شيء من أصل الكلام.

ويردّ على هذا التساؤل الافتراضي قائلا:

"لا يقال إيجاز القصر فيه أيضا حذف لكلام كثير. لأن إيجاز القصر يؤتى فيه بلفظ قليل يؤدي معنى لفظ كثير غيره، وإيجاز الحذف يترك فيه شيء من ألفاظ التركيب الواحد مع إبقاء غيره بحاله(٢)".

وعندما رأوا الحذف يقع في جزء الجملة، عدوا من ذلك الشرط والجزاء، وهذا لاشك يبعث على الاستغراب، إذ كيف تنضوي جملة الشرط، وجملة الجزاء تحت باب جزء الجملة؟

عرض السبكي السؤال، ووضع له الجواب قائلا: "فإن قلت: ماذا أراد بالجملة ههنا حيث لم يعدّ الشرط والجزاء جملة؟ قلت: أراد الكلام المستقل الذي لايكون جزءا من كلام آخر(٣)".

وهكذا تتراكم جهودهم في الموضع الواحد، كل منهم يحاول أن يدفع جهد سابقه خطوة أخرى نحو مزيد من الدقة والضبط.

- التعليل:

التعليل للحذف، وبيان جماله عند أصحاب هذه المدرسة قليل. وهذا يعد فيهم من جوانب القصور، وستتم الإشارة إليه، والتدليل عليه، لكن بعضهم ندت عنه تعليلات من الطراز الرفيع، وهي تدل على أنهم تفهموا، بعمق، مزايا الحذف، وتفلتوا يتحسسون أعماق النص، وبذوره الأولى. أو يحلقون لينظروا إليه نظرات كلية شاملة.

ومن ذلك ماجادت به قريحة السكاكي من نقدات صائبه، وتحليلات دقيقة، وتعليلات عميقة، في وقفته المطولة مع قوله تعالى: ﴿ربّ إني وهن العظمُ مني واشتعل الرأسُ شيبا﴾(٤).

---

(١) شروح التلخيص، السبكي، ج٣، ص١٦٨، وينظر ص١٧٠ ايضا.

(٢) المصدر نفسه، ج٣، ص١٩٠.

(٣) شروح التلخيص، السعد، ج٣، ص١٩٦.

(٤) مريم ، ٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد غار إلى أعماق هذه الآية، وغاص إلى أسرارها وألطافها، وعاد إلى أصولها يتابع جذورها الأولى، وواكب تطورها إلى أن خرجت بهذا الشكل البديع، ثم علل قائلا: "واعلم أن الذي فتق أكمام هذه الجهات عن أزاهير القبول في القلوب، هو أن مقدمة هاتين الجملتين وهي (ربّ) اختصرت ذلك الاختصار بأن حذفت كلمة النداء وهي (يا)، وحذفت كلمة المضاف إليه وهي (ياء المتكلم). والمقدّمة للكلام كما لايخفى على من له قدم صدق في نهج البلاغة نازلة منزلة الأساس للبناء، فكما أنّ البناء الحاذق لا يرمي الأساس إلا بقدر مايقدر من البناء عليه، كذلك البليغ يصنع بمبدأ كلامه، فمتى رأيته اختصر المبدأ، فقد آذنك باختصار مايورد"(١).

لاريب في أن هذا الكلام يعود بقارئه إلى نظرات الجرجاني، ويصل مابين الإمامين بخيوط الإبداع والنبوغ.

بل إن في كلام السكاكي هذا مايشي بأنه يتسامى عن النظرات البلاغية الجزئية المحصورة في الجملة وأجزائها، ويحلق بعيدا إلى البناء الكلي للنص. ولعل في هذا بعض رد على من يجهرون بأن الجهد البلاغي العربي قائم على التجزئة، وأنه أبعد ما يكون عن النظرة الشمولية التي تتجاوز حدود الجملة لتمضي نحو الفقرة، والنصّ، والعمل الأدبي، فهاهو السكاكي يرى أن على الأديب الحاذق أن يستشرف عمله، ويرمي نظراته عميقة نحو أهدافه وبنائه، يستهدي بها، فيضع الأساس المناسب لبنائه المنشود(٢).

وقد وردت لهم تعليلات أخرى فيها لمحات نفسية لطيفة، أو اهتمام بالمعنى أو رشاقة التركيب، وكانت أنظارهم في ذلك حليفة التوفيق(٣).

أما مايؤخذ على هذه المدرسة في دراستها للحذف فهو كثير، ومنه:

- الشواهد:

لاينكر أنّ رجال هذه المدرسة قد اهتموا بالشاهد القرآني في بعض المواضع. قد تجلى ذلك فيما نثره السكاكي في باب الإيجاز والإطناب والمساواة(٤). وفيما عرض له القزويني على النهج نفسه في التلخيص(٥)، وقد أولاه في الإيضاح اهتماما أكبر، فاستحضر أمثلة قرآنية أكثر(٦).

---

(١) المفتاح، ص ٢٨٧.

(٢) ستكون لهذا الأمر وقفة أخرى مطولة، انظر هذا البحث، ص٢٠٧.

(٣) ينظر مثلا تعليل السكاكي لحذف صدر صلة الموصول في المفتاح، ص٢٨٠، وتعليل السبكي للحذف في قوله تعالى: "فصبر جميل" في شروح التلخيص، السبكي، ج٢، ص١٢.

(٤) المفتاح، ص٢٧٧-.

(٥) التلخيص، ص٢٠٩-.

(٦) الإيضاح، ج٣، ص١٨٤-.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكذلك فعل الشرّاح من بعد(١).

لكن مافعله السكاكي، والقزويني، وشراح تلخيصه في هذا الموضع كان ينقصه تقليب النظر في الشاهد القرآني، وتحليله، وإظهار مواطن الجمال في الحذف فيه. لقد كانوا يحصرون جهودهم في عرض الآية، وبيان موضع الحذف، وتقدير المحذوف.

وعلى كل حال، فإن صنيعهم هذا -على مافيه من قصور- يظل محمودا إذ ما قورب بما فعلوه في مواضع الحذف الأخرى: حذف المسند إليه، وحذف المسند، وحذف متعلقات الفعل؛ فالشواهد هنا -إجمالاً- قليلة، وشواهد القرآن الكريم نادرة.

إن القزويني -مثلا- يتحدث عن حذف المسند إليه في التلخيص، فيذكر لحذفه أكثر من عشرة أغراض، يوردها جافة ليس فيها إلا شاهد شعري واحد لأحد الأغراض(٢).

وفي الإيضاح سار على النهج ذاته، وبعد أن عدد أغراض الحذف، أورد بعض الأمثلة منقولة عن الجرجاني(٣).

وشارحو كتابه ساروا على منواله دون أن يحيدوا عن نهجه(٤). ويقال مثل هذا دون تحرج عن حذف المسند(٥). وينطبق الكلام إلى حد بعيد على حذف متعلقات الفعل أيضا(٦). فالأمثلة بشكل عام قليلة، والشاهد القرآني بينها غريب أو منقول أو مكرور(٧)، وقد يقدّم عليه الشعر(٨)، أو جملة مصنوعة(٩).

- النقل:

تتجلى هذه الآفة هنا أيضاً، وهي تشكل أحد الأصول لمنهج هذه المدرسة القائم على التلخيص والشرح، لكن الأمر يزداد سوءا عندما ينحصر جهد هذه المدرسة عامة فيما قاله السابقون. وتكفي موازنة سريعة بين مارددده أصحاب هذه المدرسة في حذف متعلقات الفعل، وماسبق أن

---

(١) شروح التلخيص، ج٣، ص١٩٠-.

(٢) ينظر التلخيص، ص٥٣،٥٤.

(٣) ينظر الإيضاح، ج٢، ص٤ ومابعدها.

(٤) شروح التلخيص، ج١، ص٢٧٢.

(٥) ينظر التلخيص، ص١٠١، والإيضاح، ج٢، ص١٠٣، وشروح التلخيص، ج٢، ص٢.

(٦) ينظر التلخيص، ص١٢٨، والإيضاح، ج٢، ص١٥٤، وشروح التلخيص، ج٢، ص١١٩.

(٧) ينظر الإيضاح، ج٢، ص١٥٤ مثلا.

(٨) ينظر المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٨.

(٩) ينظر المصدر نفسه، ج٢، ص١٥٨، والتلخيص، ص١٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ردده الجرجاني، يكفي ذلك للتدليل على أن هذه المدرسة كانت تلجأ إلى النقل المباشر؛ فالمقدمة التي ابتدؤوا بها الحديث عن حذف المفعول به، منقولة عن الجرجاني، وكذلك أمثلته القرآنية، والشعرية، وتقسيماته وأنواع المحذوفات، وأحوال مفاعيل المشيئة: ما يحبَّذ حذفه، ومايستحسن ذكره لاستغرابه...

وكل ذلك يبعث الأسى، إذ كيف كلّت أذهان أصحاب هذه المدرسة، وتقاصرت هممهم، فقصروا جهودهم على ترديد ماقاله الجرجاني قبل قرون، دون أن يتوافروا هم على إضافة شيء ذي بال، يميزهم، ويذكر لهم.

وتزداد المشكلة حدّة عندما نتذكر أن معظم البلاغيين الذين جاءوا بعد القزويني قد انكفأوا على تلخيصه، وجعلوا همهم محصورا في شرحه، أو كتابة الحواشي على شروحه، وأضرَّ بهم هذا المنهج كثيرا، بل أضر بالبلاغة العربية فجمدها قرونا، فهم مقيّدون بخطة الكتاب الذي يشرحون، يقتفون أثره، ولا يحيدون عنه، وإن حاولوا التفلت جاءت محاولاتهم مأسورة مقهورة، يتناكفون في مسائل أقرب إلى القشور منها إلى جوهر البلاغة، بله جواهرها. وتتبعثر جهودهم فيما لاطائل تحته للبلاغة؛ كأن يتباحثوا في أمر تقديم هذا أو تأخير ذاك، ولم استخدم هذا المصطلح ولم يستخدم ذاك.

وانحصارهم في قالب الكتاب المشروح يجعلهم دائبي النظر وتقليب الفكر في أقواله دون غيرها، قد هجروا فضاءً رحباً، وأمداءً فسيحةً، وحشروا أنفسهم في قمقم، وراحوا يتلفتون حولهم بانكسار في مدى ضيق خانق، ينقرون عن جديد في بال، فلا يجدون إلا الإبحار بكلمات المصنف الأولى إلى شواطئ بعيدة، غير مفيدة، ويفترضون الوهم يسكن عباراته، فيستهلكون قواهم في نقدها حينا، ونقضها أحايين، ثم يحرقون مابقي لديهم من جهد مدّخر في تصيّد مسائل نحوية أو فقهية أو كلامية، ويجرون مناقشات عقلية صارمة ما كان أغنى البلاغة عنها لو أنهم تناولوها بالرفق، وحكموا فيها واحتكموا إلى الذوق، فقلبوا النظر في القرآن الكريم، ونقبوا في مناجم العربية عن درر الأمثال والشواهد، يشيعون بها الحياة في أطواء كتبهم التي ضجت بالجمود وضجرت من التكرار.

وقبل أن تترسخ القناعة بأن مايقال هنا زعم باطل ودعوى دون بينة، يسوق البحث شيئاً مما يثبت موضوعية الأقوال السابقة وتجردها من طغيان الانفعال.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يهتم شارحو التلخيص بتبرير تقديم الحديث عن المسند إليه على الحديث عن المسند، فيقول أحدهم: وإنما قدّمه على المسند لأن المسند إليه كالموصوف، والمسند كالصفة، والموصوف أجدر بالتقديم لأنه الموضوع، والصفة هي المحمول(١).

ويروق أحدهم هذا النهج المنطقي فيتصيد أمرا آخر يتفرد به ليبرر تقديمه، فيقع على تقديم الحديث عن الحذف دون غيره من أحوال المسند إليه، فيبين أنه قدمه بالحديث "لأنه عبارة عن عدم الإتيان به، وعدم الحادث سابق على وجوده"(٢).

ثم يستوقفهم أن القزويني عندما تحدث عن عدم ذكر المسند إليه سماه: (الحذف) بينما سمى ذلك في المسند (التَّرك). فأغاروا على الأمر يحاولون له تسويغاً، فالسعد يقول في باب حذف المسند إليه هو الركن الأعظم الشديد الحاجة إليه حتى إذا لم يذكر، فكأنه أتى به ثم حذف، بخلاف المسند؛ فإنه ليس بهذه المثابة فكأنه ترك من أصله(٣)".

والسبكي يبدو متروياً إذ يقول في الأمر نفسه:

"ولا يظهر معنى لاختصاص كلٍّ بلفظ"(٣). لكنه يأبى إلا أن يتلمس تسويغاً فيتابع قائلا:

" إلا أن يقال: الحذف ترك الشيء ملتفتا إليه، والترك المطلق ليس بهذا القيد".

واضح أنهم يبذلون جهدهم في أمر غيره أولى به؛ فقد لايخرج الأمر عن ترادف، كما فعل النحاة إذ قالوا حذفا مرة، وإضماراً مرّة أخرى. وقد يجمعوهما معا في جملة واحدة تحكي فكرة واحدة. والبلاغيون يقولون: الحذف والترك -كما مرّ-، وبعضهم يقول: طيّ الذكر(٥). ولو كانت حكمة خفية دعت السكاكي إلى خص كل من المسند إليه والمسند بلفظة فلِمَ لمْ يذكرها وها قد أضناهم في البحث عنها؟

إنها صبغة عقلية، كانت محمودة لو روعي مقدارها المناسب، لكنها زادت عن حدّها فاستهلكت جهودهم في بحوث لا تخدم الأدب أو الذوق كثيرا.

ويصبح الأمر منفراً أكثر، عندما تتسيد هذه المناقشات العقلية ميدان البلاغة، ولا يُعتنى بالشاهد، ولا يُراعى الذوق، ولايُكشف عن مواطن الجمال ومناقبه، بل يتقاطر الكلام أحكاما جافة خاوية؛ فهم -مثلا- يسردون دواعي حذف المسند إليه سرداً جامداً دون مثال ينصرها أو يُقرّب صورتها من الفهم والإحساس بالبلاغة، فهي عندهم:

---

(١) ينظر شروح التلخيص، السبكي، ج١، ص٢٧٤.

(٢) نفسه، السعد، ج١، ص٢٧٣.

(٣) شروح التلخيص، السعد، ج١، ص٢٧٤.

(٤) المصدر نفسه، السبكي، ج٢، ص٣.

(٥) ينظر المفتاح، ص١٧٦.

فاسد، وتأويله إما بأن يؤول الأدلة على الدلالات وهو الأولى، أو يؤول (أن يدل) بالدلالة التي بمعنى الفاعل....."(٣).

لاشك في أن من يقرأ هذه المتابعات يشعر بالضجر ويأسى على البلاغة أن تذوي زهراتها تحت قوالب نقاش علمي صارم.

---

(١) أمين الخولي، فن القول، ص٢٧.

(٢) ينظر الإيضاح، ج٣، ص١٩٤.

(٣) شروح التلخيص، ج٣، ص٢٠٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهم إذا فرغوا من مثل هذا غاصوا في مسائل النحو والصرف، يعرضون آراء النحاة وخلافاتهم، بل تطالعنا أمثلة زيد وعمرو، وكأننا نقرأ إحدى حواشي النحو(١). وقد يتحدثون عن الفقه، أو الاعتزال حديثا متأنيا مستفيضا(٢)، حتى إذا ما ألموا بالمثال الأدبي، مروا كراما وكأنه لايعنيهم، لاينكر أن القارئ يصادف أحياناً آيات قرآنية كريمة منثورة، لكن من النادر أن يجد لها تعليلا حسنا.

وفي كثير من المواضع يكاد ينعدم المثال الناطق، أو الشاهد الحيّ، فإن جاء، فهو مثال مكرور قد بلي لقدمه، وتمزّق أشلاءً، وغار ماؤه، وبهت بهاؤه لكثرة دورانه. وفي كثير من الأحيان يأتي على شكل جملة مصنوعة متجردة من رداء الأدب وزهاء البلاغة. فهم يشيرون مثلا إلى أن الحذف يقع أحيانا لضيق المقام، وهذا باب واسع، ومع ذلك فقد مروا به مرور السهم، إذ جعلوه من دواعي الحذف، وعندما مثلوا له لم يجدوا إلا قول أحدهم للصياد: (غزال). خوف فوات الفرصة. وعلى الرغم من الحشف فقد ساء الكيل باختلافهم حوله، فالحذف وقع خوف فوات الفرصة كما يرى السعد(٣). بينما يرى السبكي أن الحذف وقع بسبب شدة السرور(٤). لاجرم أن البلاغة كما تعرضها هذه الكتب تعاني أزمة، وقد تطوع أحد رجالها فصور لنا محنتها، وهو السبكي إذ قال(٥):

"ولقد وصل إلينا من تلك البلاد على التلخيص شروح رحم الله مصنفيها.... لاتنشرح لبعضها الصدور الضيقة، ولا تنفتح عندها مغلقة، ولا ينقدح فيها زناد الفكر عن مسألة محققة، يتناولون المعنى الواحد بالطرق المختلفة، ويتناوبون المشكل والواضح على أسلوب واحد كلهم قد ألفه، لايخالف المتأخر منهم المتقدم إلا بتغيير العبارة، ولا يجد له على حلّ ما أشكل على غيره أو استشكال ما اتضح جسارة، ولا يطمع أن يذوق مافي الاستدراك من اللذة، ولا تطمح نفسه لأن يقال برز على من سبقه وبَذّه....."(٦).

---

(١) ينظر مثلا شروح التلخيص، السبكي، ج٢، ص٣ - ، ١٤- ، والسعد كذلك. وينظر الحديث عن حذف الفاعل في الشروح، ج١، ص٢٨١.

(٢) تنظر أقوال فقهية للسبكي في الشروح، ج١، ص٢٧٩، ج٣، ص٢٠٧.

(٣) ينظر شروح التلخيص، السعد، ج١، ص٢٨٠.

(٤) ينظر المصدر نفسه، السبكي، ج١، ص٢٨١.

(٥) نفسه، ج١، ص٦.

(٦) شروح التلخيص، السبكي، ج١، ص٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحذف عند الزمخشري

خصصت هذه الوقفة للزمخشري لأن له جهدا مميزاً في ميدان البلاغة وإن لم يؤلف فيها. صحيح أنه ليس للزمخشري مؤلف بلاغي يجعله ينسلك صريحا في قائمة البلاغيين، ولكنّ ملاحظاته التي نثرها في مؤلفه العظيم (الكشاف) تجعله يطاول أعظم علماء البلاغة؛ فقد استفاد كثيرا من جهد الجرجاني، وطبق أفكاره، ومضى بها إلى غايات بعيدة. فكان "أبرز من عرض للناحية البيانية في القرآن الكريم من المعتزلة"(١). بل أصبحت ملاحظاته قواعد يرجع إليها، ويعتمد عليها، فله "آراء بلاغية ذات قيمة كبيرة أخذها عنه السكاكي، والقزويني، وأصحاب الشروح والتلخيصات(٢).

وقد كان همه الأعظم في كتابه المذكور، نصرة مذهبه الاعتزالي، وكفح الأفكار المناقضة له، ولذلك، فقد مضى بحزم يتابع الآيات التي يتنافى ظاهرها مع أفكاره الاعتزالية يسد فيها الثغرات التي تعارضه، ويستنبت فيها مايحاجج به، وينافح خصومه، ويجعل ماقاله عن الإنجيل أحد العلماء التابعين للكنيسة الحديثة رجع صدى لهذا الجهد، فهذا الرجل يقول: "كل امرئ يطلب عقائده في هذا الكتاب المقدس، وكل امرئ يجد فيه على وجه الخصوص مايطلبه"(٣).

وهكذا كان القرآن الكريم، في آيه يقلب المتخاصمون الأنظار، فيستنصرون بما وافقهم، ويتأولون لما خالفهم، ويخرج كل فريق مزهواً معتداً بأنه على محجة.

والمعتزلة من أصدق الشواهد على هذا، فهي إحدى الفرق الإسلامية التي ظهرت للدفاع عن القرآن أمام الديانات الأخرى والملاحدة. وكان هدفهم كما يزعمون أن يبعدوا "كلّ الأساطير الخرافية عن محيط الحقائق الدينية، وليربطوا بين القرآن وبين عقيدتهم التي قامت على التوحيد الخالص من كل شائبة"(٤).

وأفكار هذه الفئة تحتل مكاناً بارزاً في التراث العربي الإسلامي، وحولهم قامت حركة تأليفيّة تنصرها أو تعارضها، فمدرسة المعتزلة بحق "تمثل في الفكر الإسلامي الطبقة المثقفة الواعية

---

(١) محمد بركات أبو علي، الصورة البلاغية عند السبكي، ص٩١.

(٢) أحمد مطلوب، مناهج بلاغية، ص٦٠، ٦١. وينظر له أيضا شروح التلخيص، ص٢١٩، والبلاغة عند السكاكي، ص٢٣٤.

(٣) جولد تسهير، مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبد الحليم النجار، ط٢، دار اقرأ، بيروت، ١٩٨٣، ص٣.

(٤) محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ج١، ص٣٨٤، وينظر للتوضيح مصطفى الصاوي الجويني، منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، دار المعارف بمصر، ص٦٣. وأحمد أمين، فجر الإسلام، ط١٠، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٩، ص٢٨٣- .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المدافعة عن الإسلام، فقد كان منها علماء الكلام المتحررون وأدباء أبيناء، وأئمة في النحو، وأعلام في التفسير(١).

وهذه المدرسة تعتمد على أصول خمسة في العقيدة، هي(٢):

التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وليس من شأن البحث الخوض في شرح هذه الأصول، إنما سيرد توضيح بعضها عند ورود الأمثلة ومناقشتها.

غير أنه يجدر التوضيح هنا أن أصحاب هذه المدرسة أغرقوا كثيراً في تنزيه الذات الإلهية، ونفي الشبهات عنها، وأبحروا في التحوّط، وأعياهم الوصول إلى قرار، واصطدموا بالكثير الكثير من الآيات القرآنية التي تخالف مذهبهم، فتصدوا لها، واحتالوا لتأويلها بشتى الوسائل لتخدم أهدافهم، أو لا تعارضها على الأقل، فجعلوا الآيات التي تؤيد مذهبهم من المحكمات(٣)، فتقبلوها وفق ظواهرها. وادعوا أن الآيات التي تخالفهم من المتشابهات فحملوها على المحكمات بعد أن تأولوا لها.

وقد ضاعت معظم تفاسيرهم فلم يصل منها إلا القليل، ومن هذا القليل كشاف الزمخشري، فالزمخشري "أهم من عرفنا من مفسري المعتزلة"(٤)، وكتابه الكشاف "أشمل ماوصل إلينا من تفاسير المعتزلة"(٥)، وهو يمثل أفكار هذه الفرقة خير تمثيل.

وليس القصد في هذا المقام متابعة كل ماقاله الزمخشري في كشافه، وجمع كل الأمثلة التي اعتمدها لنصرة مذهبه، بل يجتزئ البحث بالتمثيل.

---

(١) مصطفى الجويني، منهج الزمخشري، ص٧١،٧٢. وينظر عن نشأة المعتزلة وأفكارها:
الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد الكيلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠، ج١، ص٤٣، ومحمد الذهبي، التفسير والمفسرون، ص٣٦٨، ومصطفى الجويني، منهج الزمخشري، ص٦٧، وعادل العوا، المعتزلة والفكر الحر، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٨٧، ص٤٥.

(٢) ينظر في ذلك مثلا:
عبد الجبار الهمذاني، عماد الدين أبو الحسن شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٦٦، ص١١. وينظر في هذه الأصول وكيف أيدها الزمخشري، أحمد محمد الحوفي، الزمخشري، دارالفكر العربي، ١٩٦٦، ص١١٩،١٦٦.

(٣) ينظر في المحكم والمتشابه في القرآن الكريم، الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج٢، ص٦٨. وينظر ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص٦٢ ومابعدها.

(٤) محمد الذهبي، التفسير والمفسرون، ج١، ص٣٧٤.

(٥) نفسه، ج١، ص٣٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

طفق الزمخشري في تفسيره يحلل آيات القرآن الكريم ويتغلغل فيها ليدعم مبادئ المعتزلة، ويرد عنها الطعن. وكان يعتمد في ذلك كثيرا على توظيف المجاز، وهو يستحق منا وقفة قصيرة لأن له علاقة كبرى بقضية الحذف، وتقدير المحذوفات، وكان مفزعاً للمتخاصمين ومنفذا لمضائقهم.

المجاز: من جاز يجوز إذا استن ماضيا(١). وهو في الاصطلاح: استعمال الكلمة في غير ماهي موضوعة له(٢). وهو في التراث العربي الإسلامي قضية خلافيّة كبرى انقسم الناس حولها فئات: فئة تؤمن به بإطلاق، فترى المجاز أكثر من الحقيقة(٣).

وفئة تنكره بالكلية(٤). وفئة توسطت بين متطرفين(٥).

وقد رأى ابن تيمية أن المجاز مصطلح حادث بعد القرون الهجرية الثلاثة الأولى، وأن الغالب أنه كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين(٦).

ورد عليه بأن المجاز مصطلح معروف منذ عهد الجاحظ(٧). ومن أوائل الإشارات إليه كتاب مجاز القرآن لأبي عبيدة الذي اختلف حوله: هل عنى به المجاز المقابل للحقيقة؟ أم عنى المعبر إلى فهم المشكل من الآيات؟ وأكثرهم على الرأي الثاني(٨).

وقد عرض ابن قتيبة للمجاز، وخصّه بباب مستقل في تأويل مشكل القرآن(٩)، وأقر بوجوده ورد على من يدعى أنه كذب بأنه لو كان كذبا لكان أكثر كلامنا على ذلك لأناّ نقول: نبت البقل، وطالت الشجرة....(١٠).

---

(١) ينظر ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، ص١٩٧، والسيوطي، المزهر، ج١، ص٣٥٥.

(٢) السكاكي، المفتاح، ص٣٥٩.

(٣) ينظر مثلا، ابن فارس، الصاحبي، ص١٩٧، والسيوطي، المزهر، ج١، ص٣٥٧.

(٤) ينظر ابن تيمية، أحمد بن تيمية، الإيمان، المكتب الإسلامي، دمشق، ص٨١-، نقلا عن مهدي صالح السامرائي، المجاز في البلاغة العربية، دار الدعوة، حماة، ١٩٧٤، ص ١٥١-.

(٥) ينظر للتوضيح، العلوي، الطراز، ج١، ص٤٣. وينظر أمثلة توضيحية في أسرار البلاغة تحقيق ريتر، ص٣٦١ ومابعدها.

(٦) ابن تيمية، الإيمان، ص٧٢،٧٣، نقلا عن مهدي صالح، المجاز في البلاغة العربية، ص٣٣..

(٧) ينظر الشريف الرضي، محمد حسين بن موسى، تلخيص البيان في مجازات القرآن، تحقيق محمد عبد الغني حسن، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي وشركاه، القاهرة، ١٩٥٥، المقدمة، ص١٠،١١.

(٨) ينظر في هذا الأمر، نهاد الموسى، أبو عبيدة معمر بن المثنى، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ١٩٨٥، ص٢٦٧- ، وشوقي ضيف، البلاغة العربية، ص٥٦، وأمين الخولي، مناهج تجديد، ص١٠٨- ، وعبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، ص١٧٩.

(٩) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص٧٥.

(١٠) المصدر نفسه، ص٩٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبقي للمجاز مكان عليّ في كتب البلاغة، وكان الجرجاني من أشهر من تحدّث عنه وبين أنواعه؛ فقد جعله مجازاً عقليا أو حكمياً في الإسناد، ومجازاً لغوياً في المثبت(١).

وتلقف البلاغيون كلامه وتناقلوه بين مؤيد ومعارض، فيقول العلوي: "اعلم أن مانكرناه في المجاز الإسنادي العقلي هو ماقرره الشيخ النحرير عبد القاهر الجرجاني، واستخرجه بفكرته الصافية، وتابعه على ذلك الجهابذة من أهل الصناعة كالزمخشري، وابن الخطيب الرازي وغيرهما من النظار(٢)". وظهرت عوارض الخلاف حول مواقع حذف المجاز العقلي مثلا، فالسكاكي عرض المجاز العقلي في البيان وعده استعارة مكنية(٣)، بينما تحدث عنه القزويني في علم المعاني مستندا إلى أن المجاز وقع في الإسناد(٤). واستنكر السبكي مافعله القزويني فأرجع بحثه إلى البيان من جديد(٥).

واختلفوا حول الفاعل في المجاز العقلي؛ فالجرجاني يرى أن ذلك ليس واجبا؛ ففي قوله تعالى:

﴿ربحت تجارتهم﴾(٦). لاضرورة لتقدير فاعل حقيقي غير الظاهر(٧).

بينما أصر السكاكي على ضرورة وجود الفاعل، وأظهر التمحل؛ ففي مثل قولهم: سرتني رؤيتك. يقدر فاعلا حقيقياً محذوفاً، فالأصل: سرني الله برؤيتك(٨).

وأظهر بعضهم تشددا مزيدا إذ قالوا: "لاشيء من الأفعال فاعله واحد على الحقيقة إلا الله تعالى(٩)".

وقد اختلف في الحذف، هل هو مجاز؟

أما الجرجاني، فقد اعترض على سيبويه لأنه رأى الحذف مجازا، فردّ عليه بأن الكلمة لاتوصف بالمجاز إلا إذا نقلت عن معناها الأصلي إلى معنى جديد.

---

(١) ينظر أسرار البلاغة، تحقيق محمد رشيد ٣١٦ و هـ. ريتر، ص٣٦٥.

(٢) الطراز، ج٣، ص٢٥٧،٢٥٨، وينظر للتوضيح أيضا، شروح التلخيص، السعد، ج١، ص٢٣١.

(٣) ينظر القزويني، الإيضاح، ج١، ص٩٨.

(٤) ينظر القزويني، الإيضاح، ج١، ص٨٠، وقد ناقش السكاكي في المصدر نفسه ج١، ص١٠٢.

(٥) ينظر شروح التلخيص، ج١، ص٢٦٥.

(٦) البقرة، ١٦.

(٧) ينظر دلائل الاعجاز، ص٢٢٩- .

(٨) ينظر الرازي، نهاية الإيجاز، تحقيق بكري شيخ أمين، ص١٧٨، والمفتاح ص٣٩٧، والقزويني، الايضاح، ج١، ص٩٦ - ، وشروح التلخيص، السعد، ج١، ص٢٦٠ .

(٩) شروح التلخيص، السبكي، ج١، ص٢٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقولك: زيد منطلق وعمرو، فيه حذف الخبر، ومع ذلك فإن الجملة لاتوصف بأنها مجاز(١). ورأى بعضهم أن الحذف مجاز لأن الكلمة كما توصف بـه لنقلها عن معناها الأصلي توصف به لنقلها من إعرابها الأصلي إلى غيره كحذف لفظ، أو زيادة لفظ(٢)، كقوله تعالى: ﴿واسأل القرية﴾ (٣). لأن النصب في قرية تجوز فيه بنقله لغير محله فهي في محل جر.

والمتابع لما دار حول المجاز من خلافات، يجد بعض عذر لمن ضاق ذَرعا بهذا الموضوع ورآه فرعا لعلم الكلام(٤). كما أن كثرة الخلاف حول هذا الموضوع تسوّغ دعوة أحد الباحثين إلى ضرورة تخليص البلاغة من هذه النقاشات الكلامية(٥). ويجدر أن نحمّد لسيبويه وصحبه الأوائل بعدهم عن التعقيد إذ رأوا في المجاز نوعا من الاختصار والتوسع، ولم يزيدوا على ذلك(٦).

ويهمنا هنا القول إن المجاز تشكلت، بالنظر اليه، مدرستان:

"الأولى أهل السنة، والأخرى المعتزلة، وكان لهما أثرهما في توجيه حياة الأمة الإسلامية، واتسم منهج أهل السنة بالوقوف عند الظاهر... والأخرى ارتضت مبادئ لديها عرفت بالأصول الخمسة حملوا عليها كل نص، وفسروه وفقها تحقيقا لها، وانتقل ذلك من العقديات إلى اللغويات(٧)".

وقد كان المجاز، وبخاصة مجاز الحذف في باب الإضافة، كان معيناً للمعتزلة إذ لجأوا إليه كلما اعتاصوا في أمر يناقض مذهبهم، ويناصر مناوئيهم.

وفيما يلي أمثلة توضح كيف كان الزمخشري يقدر محذوفات تعيد نصبة الكلام بما يتفق ومبادئ المعتزلة، أو تحرفه ليرد كيد خصمه، أو ينقض غزله.

---

(١) ينظر أسرار البلاغة، تحقيق محمد رشيد، ص٣٦٢، و هـ. ريتر، ص٣٨٣، وينظر الرازي، نهاية الإيجاز، تحقيق بكري شيخ أمين، ص١٨٥- في كلام مشابه.

(٢) ينظر القزويني، التلخيص ص ٣٣٦، وابن أبي الأصبع، بديع القرآن، ص ١٠٨، والسيوطي، المزهر ج١، ص٣٥٧. وعده السكاكي مما يلحق بالمجاز المفتاح، ص٣٩٢.

(٣) يوسف، ٨٢.

(٤) ينظر بدوي طبانة، البيان العربي، ص٢٩٠.

(٥) ينظر أحمد مطلوب، القزويني وشروح التلخيص، ص٣٧١.

(٦) ينظر مثلا: سيبويه، الكتاب، باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى لا تساعهم في الكلام والإيجاز والاختصار، ج١، ص٢١١-٢١٦، والفراء، معاني القرآن، في قوله تعالى:"ربحت تجارتهم"، ج١، ص١٤، والسيوطي، الأشباه والنظائر، ج١، ص١٤- ، وللتوضيح ينظر ما قاله محمد خفاجي في ملحق بإيضاح القزويني، ج١، ص١٠٤.

(٧) محمد بدري عبد الجليل، المجاز وأثره في الدرس اللغوي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠، ص٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في كل آية يوحي ظاهرها بأن الله سبحانه وتعالى يوجه العبد نحو مايستكره، أو يتحكم في مصيره، فيحدّ من اختياره، يلجأ الزمخشري إلى تقدير محذوف.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿سأصرفُ عن آياتي الذين يتكبرون﴾(١).

يوحي ظاهر الآية أن الله حكم على هذه الفئة بأنه سيصرف آياته عنها، وذلك يناقض عدله، فلا بد من تقدير محذوف بل محذوفات حتى يستقيم معنى الآية في نظر المعتزلة، فكان للتخريج أوجه عدة منها:

سأصرف عن إبطال آياتي، أو الطعن فيها، أو الاستهانة بها(٢).

وفي كل ذلك، كان القصد إخراج ظاهر الآية عن أن يصرف الله سبحانه وتعالى فئة من عباده عن آياته بما يتنافى مع عدله، ونزاهته، سبحانه.

ويتدخل الزمخشري بالتقدير في كثير من آيات المشيئة التي تربط مصير العبد بإرادة الله، وتصوّره غير حر في اختيار أفعاله، وأنه مقدّر له السير إلى مآله الذي حدده ربّه، يقول سبحانه وتعالى:

﴿قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربّنا﴾(٣).

هل يشاء الله لعباده العودة إلى الملة الكافرة؟ هذا مالاتقبله المعتزلة، فيلجأون إلى التقدير إذ يجعلون في الآية مفعولا به محذوفا، أي: إلا أن يشاء الله خذلاننا(٤). ولا يعني هذا ظلمه لنا بل خذلاننا بمنع ألطافه عنا. ومع هذا الاحتراس، فإنهم يذهبون إلى أبعد من ذلك، فمنع الألطاف هذا له مايبرره، ذلك أن تتمة الآية تقول: "وسع ربنا كل شيء" فهو سبحانه وتعالى يعلم من يستحق هذه الألطاف فيهبها له، ومن لايستحقها فيحجبها عنه. وبهذا التقدير يعود للآية استواؤها مع معتقدات المعتزلة التي تنصّ على حرّية الإنسان واستقلال إرادته.

وفي قوله تعالى: ﴿ولا تقولَنّ لشيء إني فاعلٌ ذلك غداً إلا أن يشاءَ الله﴾(٥).

يحرص المعتزلة على تحرير إرادة الإنسان واختياره لأفعاله؛ فظاهر الآية يوحي بأن كل أفعال الإنسان مربوطة بمشيئته سبحانه، وهذا يناقض ماذهب إليه المعتزلة. وقد ذهبوا في التخريج

---

(١) الأعراف، ١٤٦.

(٢) الزمخشري، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٧، ج٢، ص١١٧.

(٣) الأعراف، ٨٩.

(٤) الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٩٦.

(٥) الكهف، ٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مذاهب شتى، وتفتقت أذهانهم عن حيل لطيفة؛ فبعضهم يكسر همزة (أن) في الآية فيجعلها أداة شرط، ولا يقدّر محذوفا، ويصبح ظاهر الآية قائما على أن الله يأمر عبده بألا يقول لشيء إني فاعل ذلك غدا ويربطه بمشيئة الله(١). أما الزمخشري فقد قدّر محذوفا، والنتيجة عنده: ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله أن تقوله(٢).

والمعتزلة تنزه الله سبحانه وتعالى عن خلق الشرور، وقد واجهوا كثيرا من الآيات التي يوحي ظاهرها بغير ذلك كقوله تعالى:

﴿قل أعوذ برب الفلق، من شر ماخلق﴾(٣).

وقوله تعالى:

﴿قال أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وما تعملون﴾(٤).

وقوله تعالى:

﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾(٥).

وداروا في كل ذلك دورات معجبات، ومضوا يسدّون الذرائع، فوقعوا في شباك ماكان لها آخر، وغرقوا في متاهات، لكنهم استمروا ذائدين عن مذاهبهم ببسالة وإصرار واتسعت حولهم الثغرات، وضاق عليهم الخناق، ومع ذلك مضى بهم عزمهم إلى النهاية.

ويكفي للتدليل على ذلك تذكر أن قوله تعالى:﴿إن الله على كل شيء قدير﴾(٦)، يتكرر كثيرا في القرآن الكريم، وقد فزع المعتزلة من ظاهر الآية الذي يوحي بأن الله يخلق الخير وغيره، وهم لايريدون هذا بإطلاق، فمضوا يخصصون قدرته بما يليق به سبحانه.

فالزمخشري يلجأ إلى تقدير صفة محذوفة لكلمة (شيء) كلما وردت، كأن يقدر: إن الله على كل شيء مستقيم قدير(٧). وبذلك ينسجم هذا التحديد مع رغبتهم في تخصيص خلق الله للخير دون الشر.

---

(١) ينظر المرتضى، علي بن الحسين الموسوي العلوي، أمالي المرتضى، غرر الفوائد ودرر القلائد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧، ج٢، ص١٢٠.

(٢) الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٤٧٩.

(٣) الفلق، ١،٢.

(٤) الصافات، ٩٥، ٩٦.

(٥) القمر، ٤٩.

(٦) البقرة، ٢٠،١٠٦، ١٤٨، ٢٥٩، ٢٨٤...

(٧) ينظر مثلا الكشاف، ج١، ص٢٢٢، ٢٢٣، ٣٠٣..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي ما يتعلق بتنزيه الله تعالى عن كل تجسيم، أو تشبيه، أو حلول مكان، أو مقاربة صفات خلقه، ذاد المعتزلة عن أفكارهم أيضا بعناد، وبادروا إلى رد كل مطعن، وكانوا أكثر مايلجأون أيضا إلى تقدير محذوفات تعيد للآية جلاءها وتزيل لبسها لتتقاد لمبادئهم.

ومما وقفوا عنده طويلا قوله تعالى:

﴿وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربّها ناظرة﴾(١).

كافح المعتزلة رأي أهل السنة الذين يذهبون إلى أن الله سبحانه وتعالى ينعم على عباده المتقين فيتجلى لهم يوم القيامة ينظرون إليه(٢). وهذا مالايقبله المعتزلة بحال(٣). ولذلك راحوا يخرجون، ويغربون في ذلك، ويتمسكون أحيانا بالواهي من التبريرات، فقد وصل الأمر ببعضهم إلى تخريج (إلى) في الآية الكريمة على أنها ليست حرف الجر المعروف، بل هي بمعنى النعم والحاصل: نعم ربها ناظرة(٤). وقدر بعضهم مضافاً محذوفا أي: إلى ثواب ربها ناظرة(٥). ووقف الزمخشري متهالكا قد أعيته صراحة الآية(٦)، فكان هدفا سهلا لسهام منتقديه، (فالإسكندري) يذكر أنّ الزمخشري أطال الدندنة في جحد الرؤية، حتى واجه هذه الآية ففغر فاه، وتعجب من ضعف موقفه قائلا:"ما أقصر لسانه عند هذه الآية"(٧)!.

ويحرص المعتزلة على إجلاء الغموض الذي يكتنف الآيات التي تتعلق بإنجاز وعد الله ووعيده، فالله وعد المتقين بحسن الثواب، وأوعد العصاة بشر العقاب، وهو منجز وعده ووعيده لامحالة. وإن أوحى ظاهر بعض الآيات بغير ذلك، فلا بد من التأويل:

يقول تعالى في شأن الكافرين: ﴿قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ماشاء الله﴾(٨).

---

(١) القيامة، ٢٢، ٢٣.

(٢) ينظر الخلاف في هذا في : "أبو الحسن الأشعري"، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٩، ج١، ص٢٨٧.

(٣) ينظر الشهرستاني، ج١، ص٤٥، وابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ط٢، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٥، ج٣، ص٢.

(٤) تنظر أمالي المرتضى، ج١، ص٣٧، وينظر للتوضيح ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، ج٣، ص٣.

(٥) القاضي عبد الجبار عماد الدين أبو الحسن، تنزيه القرآن عن المطاعن، دار النهضة الحديثة، بيروت، ص٤٤٢.

(٦) ينظر الكشاف، ج٤، ص١٩٢.

(٧) الإسكندري، "أحمد بن محمد"، الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، (حاشية على المصدر السابق)، في المكان نفسه.

(٨) الأنعام، ١٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن قوله تعالى (إلا ماشاء الله) يوحي بأن هذا الخلود فيه نظر، ومشيئته سبحانه قد تتدخل فيكون لها أمر، وهذا لايوافق آراء المعتزلة فمالوا إلى التقدير، ومما قاله الزمخشري يظهر اعتماده على تقدير مستثنى محذوف لايطلبه المعنى، ولاتستدعيه صناعة النحو، ولا وجه فيه للبلاغة، فهو يرى أن الكافرين "يخلدون في عذاب النار الأبد كله إلا ماشاء الله، إلا الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمهرير..."(١).

ويتضح موقفهم أكثر في موضع آخر، هو قوله تعالى:

﴿إن الله لايغفر أن يشرك به، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء﴾(٢).

فالزمخشري يتدخل هنا أيضا ليقدر محذوفات لاتخدم إلا فكرته، فهو يقول:

"الوجه أن يكون الفعل المنفي والمثبت جميعا موجهين إلى قوله تعالى -لمن يشاء- كأنه قيل: إن الله لايغفر لمن يشاء الشرك، ويغفر لمن يشاء مادون الشرك..."(٣).

والمزيد من عرض مثل هذه الأمثلة، لا يفيد أكثر من توكيد هذا الاتجاه القائم على توظيف ظاهرة الحذف في تقويم الآيات التي تستعصي ظواهرها على أفكار المعتزلة. وفي مثل هذا بذل الزمخشري جهده الأعظم، إذ كان همه الأكبر وقضيته الأولى أن يخلق الانسجام بين نص القرآن وفكرة الاعتزال.

وعندما كان يتحرر من نير الاعتزال، كان يمضي على سنن عبد القاهر الجرجاني أحيانا، بل يكاد ينقل مع أفكاره ألفاظه، من ذلك تعليقه على حذف المفعول به في قوله تعالى: ﴿.... وجد من دونهم امرأتين تذودان قال ماخطبكما قالتا لانسقي حتى يصدر الرّعاء...﴾(٤)، فهو يقول: ".... فإن قلت لم ترك المفعول غير مذكور في قوله يسقون، وتذودان، ولا نسقي؟ قلت: لأن الغرض هو الفعل لا المفعول، ألا ترى أنه إنما رحمهما لأنهما كانتا على الذياد، وهم على السقي، ولم يرحمهما لأن مذودهما غنم، ومسقيهم إبل مثلا...."(٥).

ويردد أحيانا أخرى ماقاله النحاة والبلاغيون قبله، فيقدر محذوفات يطلبها المعنى، أو تستدعيها صناعة النحو، ومما قدره محذوفا في سورة يوسف مثلا:

---

(١) الكشاف، ج٢، ص٥٠، وينظر كلام مشابه عن الآية ١٠٧، من سورة هود في الكشاف، ج٢، ص٢٩٤.

(٢) النساء، ٤٨.

(٣) الكشاف، ج١، ص٥٣٢.

(٤) القصص، ٢٣.

(٥) الكشاف، ج٣، ص١٧٠، ١٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

-حذف "أن" في قوله تعال: ﴿فيكيدوا لك كيدا﴾(١). وفي قوله: ﴿وتكونوا من بعده قوما صالحين﴾(٢).

- حذف حرف النداء في قوله تعالى: ﴿يوسُف أعرضْ عن هذا﴾(٣).

- حذف حرف الجر (من) في قوله تعالى: ﴿معاذ الله أن نأخذ﴾(٤).

-حذف حرف الجر (إلى) في قوله تعالى: ﴿واستبقا الباب﴾(٦).

- حذف حرف النفي (لا) في قوله تعالى: ﴿ تالله تفتأُ تذكرُ يوسفَ﴾(٥).

- حذف المبتدأ في قوله تعالى: ﴿وقالوا أضغاثُ أحلام﴾(٧).

- حذف المبتدأ أو الخبر في قوله تعالى: ﴿فصبرٌ جميلٌ﴾(٨).

- حذف الفاعل في قوله تعالى: ﴿ثم بدا لهم من بعد ماراوا الآيات ليسجُنُنَّه﴾(٩).

- حذف القسم في قوله تعالى: ﴿ قالوا لئن أكله الذئبُ....﴾(١٠).

- حذف جواب (لما) في قوله تعالى: ﴿فلما ذهبوا به وأجمعوا.....﴾(١١).

- حذف جواب (لولا) في قوله تعالى: ﴿لولا أن رأى برهانَ ربه﴾(١٢).

ومثل كذلك لحذف الجملة(١٣)، والإضمار على شريطة التفسير(١٤)، وتحدث عن الدلالة(١٥).

ويعلل للحذف أحيانا، فترى أفاويق البلاغة في تعليله، ومن ذلك تعليله لحذف الموصوف في قوله تعالى: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقومُ﴾(١٦).

---

(١) يوسف، ٥، ينظر الكشاف، ج٢، ص٣٠٣.

(٢) يوسف، ٩، ينظر الكشاف، ج٢، ص٣٠٥.

(٣) يوسف، ٢٩، ينظر الكشاف، ج٢، ص٣١٥.

(٤) يوسف، ٧٩، ينظر الكشاف، ج٢، ص٣٣٦.

(٥) يوسف، ٨٥، ينظر الكشاف، ج٢، ص٣٣٩.

(٦) يوسف، ٢٥، ينظر الكشاف، ج٢، ص٣١٢.

(٧) يوسف، ٤٤، ينظر الكشاف، ج٢، ص٣٢٤، وينظر الآية ٧٥ في ج٢، ص٣٣٤.

(٨) يوسف، ١٨، ينظر الكشاف، ج٢، ص٣٠٨.

(٩) يوسف، ٣٥، ينظر الكشاف، ج٢، ص٣١٩.

(١٠) يوسف، ١٤، ينظر الكشاف، ج٢، ص٣٠٦.

(١١) يوسف، ١٥، ينظر الكشاف، ج٢، ص٣٠٧.

(١٢) يوسف، ٢٤، ينظر الكشاف، ج٢، ص٣١١.

(١٣) يوسف، ١١٠، ينظر الكشاف، ج٢، ص٣٤٧.

(١٤) يوسف، ٧٧، ينظر الكشاف، ج٢، ص٣٣٦.

(١٥) يوسف، ٩٠، ينظر الكشاف، ج٢، ص٣٤١.

(١٦) الإسراء، ٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتقدير كما يرى : "للحالة التي هي أقوم الحالات، وأسدها، أو للملة أو للطريقة، وأينما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف لما في إبهام الموصوف بحذفه من فخامة تفقد مع إيضاحه(١)".

ويحلق في بعض المواضع، فترى له نظرات بعيدة، يغوص إلى أسرار عميقة، ويلتقط فرائد عظيمة، ومن ذلك تعليقة الفذ على قوله تعالى:

﴿ألم، ذلك الكتاب، لاريب فيه، هدى للمتقين﴾(٢).

فهو يستعرض -طويلا- الخلافات في شأن هذه الآيات، ثم يخلص قائلا: "والذي هو أرسخ عرقا في البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحا وأن يقال: إن قوله: (ألم) جملة برأسها.... و (ذلك الكتاب) جملة ثانية و (لاريب فيه) ثالثة و (هدى للمتقين) رابعة، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة، وموجب حسن النظم حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق..."(٣).

وبعد أن يطمئن إلى هذا الترتيب، ويعدد مزاياه، يوضح ألطافه البلاغية بقوله:

"ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتبت هذا الترتيب الأنيق، ونظمت هذا النظم السري من نكتة ذات جزالة، ففي الأولى: الحذف والرمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشقه، وفي الثانية ما في التعريف من الفخامة، وفي الثالثة: مافي تقديم الريب على الظرف، وفي الرابعة: الحذف ووضع المصدر الذي هو هدى موضع الوصف الذي هو هاد وإيراده منكرا، والإيجاز في ذكر المتقين..."(٤).

يبدو الزمخشري ممتلكا ناصية البلاغة في تعليقه الموجز، فقد وظف مزايا التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل، والذكر والحذف الذي هو محط العناية، وظف كل ذلك في بيان روعة النظم وبلاغته.

ومثل هذه التعليقات تثبت جليا أن الزمخشري قد حلق بأفكار الجرجاني، وتسامى بها، ونظر إلى النص نظرة شاملة، وعصر مباحث علم المعاني مجتمعة لبيان مزايا الكلام، وعناصر الجمال فيه، وكان يمكن أن يأتي بالعجاب في هذا الباب لولا انقياده لمبادئ الاعتزال وجعلها أكبر همه.

---

(١) الكشاف، ج٢، ص٤٣٩.

(٢) البقرة، ١،٢.

(٣) الكشاف، ج١، ص١٢١.

(٤) نفسه، ج١، ص١٢٢،١٢٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملحوظات على دراسة الحذف عند الزمخشري

استنادا إلى ما مضى يتبين لنا أن معظم جهد الزمخشري كان منصبا في خدمة أغراض المعتزلة، ولم يكن مقصوداً لذاته، أو سعيا نحو تلمس خفايا هذه الظاهرة ومزاياها اللغوية.

كان المبدأ أولا، ثم يأتي البحث عما يدعمه، ويعزز صحته، فتنقاد لذلك ظاهرة الحذف، وتتوالى أمثلتها، وتعين المحذوفات التي تسعف في استواء الآية مع المعتقدات.

وكثيرا ما بدا العسف والإسفاف في هذه التقديرات، مما يذكر أنها كانت وسيلة ولم تكن هدفا، وأن المقصود الأعظم هو الفكر الاعتزالي الذي تساق له هذه المحذوفات قسراً لتخدمه.

قد يكون في جهد الزمخشري هذا بعض الميزات، فهو يدعو صراحة إلى التحرر من القيود اللغوية، ويطلق العِنان للفكر بالتحليق، والتسلح بالدليل، والاحتكام إلى العقل، فجهده يمثل دعوة صريحة إلى تحكيم العقل، وتجاوز قيود النقل، طبقها جيدا، لكنه غالى كثيرا، وتجاوز حدود اللغة، وقدر محذوفات ليس لها سند مقنع، وطبق ذلك على كل موطن شبهة.

وعلى الرغم من وجاهة أهداف المعتزلة التي أعلنوها والمتمثلة في حفظ "كلام الله الذي يقدسونه من مطاعن المتشككين على وجه يطابق العقل(١)"، إلا أنهم غالوا في ذلك، "والحق أن خطأهم الأكبر إنما يكمن في اعتمادهم لمبادئهم الفكرية اعتمادا قاطعا باتا، حاولوا به أن يخضعوا الدين –وفيه من الغيبيات مافيه– لتلك المبادئ... ولئن كانت بدايتهم دفاعا عن الإسلام من طعنات أعدائه، فلقد كانت نهايتهم تعصبا مذهبيا لغاية التعصب، وردد صدى ذلك كله تأويلهم النص القرآني"(٢).

وهذه المغالاة استجرت عليهم عداءات، فكثر معارضوهم، ولاحقوهم، وشنّعوا عليهم، وأغلظوا لهم القول، وحذروا الناس منهم، وتناصحوا بمجافاة مؤلفاتهم إلا من أمن غوائلهم(٣).

يقول ابن قتيبة منتقداً منهج المعتزلة في التفسير:

"فسروا القرآن بأعجب تفسير، يريدون أن يردوه إلى مذهبهم، ويحملوا التأويل على نحلهم(٤)".

ويقول ابن خلدون:

---

(١) ينظر جولد تسهير، مذاهب التفسير الإسلامي، ص١٣٣.

(٢) مصطفى الجويني، مناهج التفسير، منشأة المعارف بالاسكندرية، ص١١٧.

(٣) ينظر في إجمال الهجوم عليهم:

ابن حزم، الفصل في الملل والنحل، ص١٩٢، وتابعه أبو حيان والرازي والإسكندري في تفاسيرهم. وينظر إبراهيم رفيدة، النحو وكتب التفسير، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٨٠، ص٧٧٠، ومرتضى آية الله، الزمخشري لغويا ومفسرا، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٧، ص٤٠١.

(٤) تأويل مختلف الحديث، تحقيق محمد زهري النجار، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣، ص٦٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعد كتاب الكشاف من أحسن ماشتمل عليه التفسير بالرأي، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة، فانحرف عنه أكثر المسلمين، وحذروا الجمهور من مكامنه، فإذا كان الناظر فيه واقفا مع ذلك على المذاهب السنية، محسناً الحجاج عنها، فلا جرم، أنه مأمون من غوائله(١)".

(١) مقدمة تاريخ ابن خلدون، ص٤٤٠. بتصرف قليل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

دراسة تقييمية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تقييم الجهد النحوي

- ظاهرة الحذف: أواقع لغوي هي، أم اختلاق نحوي؟
- النحاة بين المعنى والصنعة النحوية
- نظرة في تقييم المحدثين لدراسة ظاهرة الحذف عند النحويين

تقييم الجهد البلاغي

- الشواهد
- الذوق
- التعليل
- التقسيم والتنظيم
- نظرة في تقييم المحدثين لدراسة ظاهرة الحذف عند البلاغيين

الحذف بين النحو والبلاغة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تقييم الجهد النحوي

ظاهرة الحذف: أهي واقع لغوي أم اختلاق نحوي؟

هذه إلماعة هدفها تتبع منهج النحاة في معالجة ظاهرة الحذف، وهل كانت واقعاً لغوياً لم يستطيعوا تجاوزه، أم أثراً من آثار صناعتهم؟ وليس الهدف هنا تقيُّل الشك طويلاً ليطال تفصيلات الجهد النحوي بكل من فيه، ومافيه، بل هي إلمامة عامّة بالخط الرئيسيّ الذي سارت عليه ظاهرة الحذف منذ بدايات ملاحظتها حتى تقعيدها وتعاقبها في كتب النحو.

ولا أظنّ أننا نخطئ الهدف إذا اتخذنا كتاب سيبويه ميدانا أوليا لهذه الإلمامة؛ فهو أول من استقرى ظاهرة الحذف وقعد لها. ومادة الكتاب ترقى لتشكل أنموذجاً صالحاً للنظر فيه والقياس عليه. و "نحن لانقول شيئاً جديداً حين نقول: إن الكتاب يمثل تراثنا اللغوي خير تمثيل من حيث أنه يحتوي على مجمل مسائل اللغة، ويصفها، ويفسّرها"(١).

فما الذي فعله سيبويه؟

السماع(٢):

لايجد الباحث كبير عناء في ملاحظة الاهتمام الكبير عند سيبويه بالسماع؛ فذلك مبثوث في ثنايا الكتاب، ويطالعنا -دون أن نفجأ به- في كل باب، فهو ينقل عن أساتذته وسابقيه مثل: الخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب، وأبي عمرو بن العلاء، والأخفش... وغيرهم(٣)، ويعرض ذلك على كلام الأعراب، وشعرهم، وكذلك القرآن الكريم.

وخلال ذلك تراه لايكاد يغفل شيئا فهو- مثلا يهتم بـ(٤):

- اللهجات الرئيسية(٥).

- والقراءات القرآنية(٦).

- والروايات الشعرية المختلفة(٧)؛ ليحرص في ذلك كله على أن يوسع دائرة السماع ويقدم للقارئ صورة شاملة متكاملة يحل له عناصرها:

---

(١) ميشال زكريا، بحوث ألسنية عربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ١٩٩٢، ص١١.

(٢) يقصد به: ماثبت في كلام من يوثق بفصاحته، ويشمل القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وكلام العرب ضمن شروط الاحتجاج، ينظر السيوطي، الاقتراح، ص٣٦.

(٣) ينظر إحصائية لذلك في: علي النجدي ناصف، سيبويه إمام النحاة، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ص٩٨.

(٤) هذا التمثيل خاص بظاهرة الحذف فقط.

(٥) ينظر الكتاب، ج١، ص٧١،٧٢.

(٦) نفسه، ج١، ص٨١،٨٢، ١٤٣،١٤٤،١٤٨، ج٢، ص٧٠-.

(٧) نفسه، ج١، ص٧٠،٧١، ٨٥، ١٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيرجح وجها تارة[١] ، ولا يجوز وجها تارة أخرى[٢]، ويترك لعقل القارئ المجال رحبا في كثير من المواضع ليحاكم المسألة وفق السماع، ويختار الوجه الأصوب[٣].

وهو قد يطلق السماع أحياناً دون أن يحدّد كميته فيقول:

"هكذا سمع من العرب تنشده"[٤] . ويتحرى الدقة والتحديد في كثير من المواضع فتراه يقول:"وهذا الكلام كثير..... وهو أكثر من أن أحصيه"[٥] .ويقول: "فالنصب عربي كثير"[٦]. ويقول:"وهو عربي كثير"[٧]. ويثبته أحياناً رغم إشارته إلى قلته:"وذلك قليل لايكاد يعرف[٨]". ويقول أيضا:"وليست أستغفر الله ذنبا، وأمرتك الخير أكثر في كلامهم جميعا وإنما يتكلم بها بعضهم[٩]".

وتراه يؤكد الثقة فيما يسمع فيقول: "وسمعنا بعض العرب الموثوق به يقال له: كيف أصبحت؟ فيقول..."[١٠] ويقول:"وهذا مثل بيت سمعناه من بعض العرب الموثوق به..."[١١].

فها قد صح الأساس في منهجه، وهو الاعتماد على مايسمع[١٢]، فكيف كان يتعامل مع المسموع؟

لقد كان يحترم هذا المسموع، فيلتزم به، ولايجوز إطلاق القياس عليه، فيقول صريحا:"واعلم أنه ليس كل حرف يظهر بعده الفعل يحذف فيه الفعل، ولكنك تضمر بعدما أضمرت فيه العرب من الحروف والمواضع، وتظهر ماأظهروا، وتجري هذه الأشياء التي هي

---

(١) ينظر الكتاب، ج١، ص٨٢، ٨٤-٨٦.

(٢) نفسه، ج١، ص٧٠، ٨٠، ٨٥،٨٦.

(٣) نفسه، ج١، ص٨٠،٨٣.

(٤) الكتاب، ج١، ص١٣٩.

(٥) نفسه، ج١، ص٢١٤-٢١٥.

(٦) نفسه، ج١، ص٨٢.

(٧) نفسه، ج١، ص١٤٨.

(٨) نفسه، ج١، ص١٤٧.

(٩) نفسه، ج١، ص٣٨.

(١٠) نفسه، ج١، ص ٣١٩.

(١١) نفسه، ج١، ص٣٢٠. وانظر ج١، ص٧٠،٧١، ٢٥٦،٢٥٧.

(١٢) ينظر عن السماع عموما عند سيبويه: محمد عبد الخالق عضيمة، فهارس كتاب سيبويه ودراسة له، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٧٥، ص٣٥. وعن السماع عند أستاذه الخليل ينظر: جعفر عبابنة، مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي، دار الفكر للنشر والتوزيع، ١٩٨٤، ص٤٣- .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على مايستخفون بمنزلة مايحذفون من نفس الكلام، ومما هو فـي الكـلام علـى مـاأجروا.... فقف على هذه الأشياء حيث وقفوا ثم فسِّر(١).

في هذا النص، دليل قوي على أن سيبويه كان "يحتكم إلى اللغة لا إلـى القواعد النحويـة، وينفذ إلى طبيعتها وطبيعة أهلها(٢) " ؛ فهو ينطلق من اللغـة ليصـل إلـى القـاعدة، والأحكـام عنـده مستندة إلى الكلام، ومستقاة من المسموع المجموع الموثوق به، ومواطن الحذف فيه بينة لايمكن تجاهلها بالتغافل عنها، ولايجوز تجاوزها بإطلاق يد القياس، بل نقف على حدود ماقـال العـرب: نرد ما وردوا، ونَرُدُّ مارَدّوا....(٣).

ولنا هنا أن نتساءل:

- إلى أي مدى نثق في هذه المادة المجموعة ونعدها أساسا نرتضيه لإصدار الأحكام؟
- إلى أي مدى نثق في المسموع عنهم ونطمئن إلى صدق ماأخذ عنهم من كلام؟
- إلى أي مدى نثق بسيبويه ونرتضي أمانته على ماجمع، ونثق فيمن وثق هو فيهم؟

ويفيد التنكير هنا ثانية بأن هذا ليس إيغالا في الشك ليطال أسـاس النحـو العربـي، فهـدف البحث خارج عن هذا، وأدوات الباحث قاصرة عنه أيضا، إنما هي نظرة عامة في الطريق الـذي شقه سيبويه ورواد النحو، واندفعت وراءهم أفـواج النحـاة، لـنرى إلـى أيّ مـدى كـان هـو الأسلم والأوضح والأقرب إلى تحقيق القصد وهو استخراج قواعد اللغة من كلام أصحابها.

---

(١) الكتاب، ج١، ص٢٦٥، ٢٦٦، وينظر: كلام مشابه في ج١، ص٣١٨، ٣٩٢، وينظر ج٣، ص٥٧٢.

(٢) حسن عون، اللغة والنحو، دراسات تاريخية ومقارنة، مطبعة رويال بالاسكندرية، ١٩٥٢، ص٨٧.

(٣) فيما مضى بعض رد على من عمم فقال إن النحاة يجعلون القاعدة أصلا، والمسموع فرعا ومنهم: عباس حسن، اللغة والنحو بين القديم والحديث، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦، ص٩١،٩٢. ومهدي المخزومي، مدرسة الكوفة، ص٦٥، ٢٠١، ومحمد عيد، أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللغة الحديث، عالم الكتب، ١٩٧٨، ص١٨٥، ٢١٣، ولم يخل الأمـر من منصفين أقروا بالتزام النحاة السماع، لكن التأويل كان ضرورة، ومنهم: علي النجدي ناصف، من قضايا اللغة والنحو، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ص ٨٣ - ، والسيد أحمد عبد الغفار، ظاهرة التأويل وصلتها باللغة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندريـة، ص١٠٠- ، وداود عبده، أبحـاث في اللغـة العربية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٣، ص٢٦-.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المادة المجموعة:

ذكر البحث قبل هذا أن اتفاقا عرفيا قد ارتضاه النحاة وعلماء اللغة، ينص على تحديد مكان وزمان للاحتجاج اللغوي(١).

وقد يسهل توجيه سهام النقد إلى عملهم ذاك؛ فتقادم العهد الذي يتطاول ليمتد قرونا خمسة أو يزيد، يكفي لأن يطور بل يغير كثيرا في اللغة. والقواعد الواصفة للغة المسموعة عبر هذا الامتداد الزماني الواسع لايمكن أن تكون دقيقة كما لو كانت الفترة المحددة لاتزيد عن قرن واحد من الزمان مثلا.

وكذلك، فإن معيار العصر وحده، لايقوى لينهض حكما عدلا يميز اللغة الجديرة بالاحتجاج، ويمايز بين أهلها ويفاضل، فيرتضي هذا، ويرد ذاك. ولسوف نجد أن بعض من يحتج بهم أقل قدرا وأضعف شأنا من بعض من لم يحتج بهم. وما ميزة الأولين إلا أنهم قدر لهم العيش تحت مظلة الاحتجاج، وماجريرة الآخرين إلا أنهم حرموا من ذلك(٢).

وأما التحديد المكاني، فله ملابساته أيضا؛ إذ كيف نحرم كل القبائل التي سكنت تخوم الجزيرة العربية من فضل الاحتجاج بحجة مخالطتها غير العرب؟ وكيف تأكدنا أن تلك المخالطة آذت اللغة؟ وإذا آذتها فعلا فما درجة ذلك؟ وهل تحول درجة الإيذاء دون الاحتجاج بما لم يتأذ؟ ومن يضمن لنا أن تلك القبائل التي ارتضيت للاحتجاج لم تخالط غيرها في ظروف حياة غير مستقرة دائبة الرحيل: رعيا، وتجارة، وأسواقا، وحربا، وتكسبا؟ إنها ظروف أشبه ماتكون بحبات الرمال التي تميد من تحتها، وتتغير معالمها بين لحظة وأختها.

هذه بعض غمزات مما قيل ويقال، وغيرها كثير، لايملك الباحث إلا أن يعرضها للتسآل. ولكنّ إزاءها أسئلة أخرى مُشْرَعَة ومشروعة لاتقل أهمية عنها:

- ماذا كان بإمكان النحاة وأهل اللغة أن يفعلوا غير ما فعلوا؟

---

(١) ينظر هذا البحث، ص٢٦.

(٢) تروي كتب الأدب واللغة كثيرا من الحكايات تثبت أن الاحتكام كان إلى الأعصار لا فحولة الشعراء وجودة الأشعار. من ذلك أن إسحق الموصلي أنشد الأصمعي:

هل إلى نظرة منك سبيل فيروي الصدى ويشفي الغليل

إن ماقل منك كثير وكثير مما تحب قليل

فقال الأصمعي: لمن تنشدني؟ فقال: لبعض الأعراب. قال: والله هذا هو الديباج الخسرواني. قال: فإنهما للبلتهما. فقال: لاجرم والله إن أثر الصنعة باد عليهما" (الخفاجي، سر الفصاحة، ٢٧١) ومن ذلك:"كان أبو عمرو بن العلاء يقول: لقد أحسن هذا المولّد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته، يعني بذلك شعر جرير والفرزدق فجعله مولدا بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين" (ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج١، ص٩٠).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- هل يجعلون لكل حقبة زمنية نحوا؟.
- هل يقعدون لكل لهجة عربية قواعد؟(١).
- هل يخلطون الزمان والمكان: قديمهما والجديد، قريبهما والبعيد، ويحتجون بكل من يحويه ذلك وما يحويه: عربه وموالية، وحاضره وباديه، وشعره ونثره، وجده وهزله... فيولدون من ذلك، كل ذلك، قواعد صادقة صادمة صارمة تضبط الكلام و تقعّد له؟

نتجاوز هذا السؤال السخنوق، لننظر في المادة التي جمعها سيبويه مصدرا لاحتجاجه في كتابه، لنرى أنه، وإن احتج بالقرآن الكريم، إلا أنه لم يكن مصدر الاحتجاج الرئيسي لديه، إذ تقل الشواهد القرآنية عن نصف شواهد الشعر(٢)، وقد طغت الأقوال المجموعة عن الأعراب فشكلت مع الشعر صلب الكتاب، وغابت الأحاديث الشريفة إلا في مواضع قليلة.

وعلى هذا النهج من حيث الاعتماد الأكبر على الشاهد الشعري، والأقل على النص القرآني، وتغييب الاحتجاج بالحديث النبوي جرى معظم النحاة وأصبح عرفا مألوفا. أما عدم الاحتجاج بالحديث الشريف فبحجة أنه أجيز نقله بمعناه، وأن ألفاظه لا يطمأن إلى أنها نفس ألفاظ الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن الموالي اشتركوا في نقله واللحن فيهم فاش، وسلامة لفظهم مشكوك فيها. فعزف أئمة النحو المتقدمون بصريون وكوفيون عن الاحتجاج به، وبهم اقتدى

---

(١) من الطريف أن بعضهم دعا -فعلا- إلى ذلك. فقد دعا إليه بشكل صريح: عباس حسن، اللغة والنحو، ص١٠٦ وألمح إليه: محمد خير الحلواني، المفصل في تاريخ النحو العربي (ج١ قبل سيبويه)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٩، ص٤٢٣.

(٢) تردد أن الآيات المستشهد بها في الكتاب حوالي ثلاثمائة، قال ذلك:

محمد الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ط٢، ١٩٦٩، ص٧٠. ومحمد عيد، الاستشهاد والاحتجاج باللغة، رواية اللغة والاحتجاج بها في ضوء علم اللغة الحديث، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٨، ص١٠٣ .

ولعل مما روج لهذا الرأي قول المازني عندما قصده بعض أهل الذمة ليقرئهم الكتاب فرفض قائلا: "إن هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة آية وكذا آية من كتاب الله، ولست أرى أن أمكن منها ذميا غيرة على كتاب الله". (ابن الأنباري، نزهة الأدباء في طبقات الأدباء، تحقيق إبراهيم السامرائي، ط٢، مكتبة الأندلس، بغداد، ١٩٧٠، ص١٤١) وقد ذهب بعضهم إلى أن عدد الآيات في الكتاب (٣٧٣) آية (ينظر مقدمة محمد عبد الخالق عضيمة للمقتضب، ج١، ص٩٥).

وورد في إحصائية علي النجدي ناصف أن عددها (٤٢٥) آية. (ينظر: سيبويه إمام النحاة، ص٢٣٥) ولعل أصح الإحصائيات هي ماقام به ميشال زكريا (بحوث ألسنية، ص٣٦) إذ أثبت أن الآيات القرآنية في الكتاب عددها (٤٤٣) آية. أما الشعر فشاع أن عدد الأبيات في الكتاب (١٠٥٠) شاهدا شعريا، (ينظر مقدمة عبد السلام هارون للكتاب، ج١، ص٣٤،٣٥) وقد زين هذا قول للجرمي سيرد لاحقا. ولعل أصح إحصائيات الشعر ماقاله ميشال زكريا أيضا (بحوث ألسنية، ص ٣٦) فشواهد الشعر (٩٤٨) والرجز (٢٩٧).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اللاحقون. وأغفلت المسألة دون نقاش إلى أن جوزه ابن مالك، فانقسم النحاة بين مؤيد ومانع ومتحفظ(١).

ويصعب فهم موقف سيبويه الذي أورد مجموعة من الأحاديث النبوية، لم يسق أيا منها باعتباره حديثا، ولم ينسبه إلى الرسول الكريم بل وجه الاهتمام إلى النص فقط، وموضع الشاهد فيه(٢).

وأما احتجاج سيبويه بالقرآن فهو لايسمح لنا بالوصول إلى يقين تام يبين لنا موقفه من ذلك؛ فالنفس لاتميل كليا إلى ماأورده أحدهم مشيرا إلى أن الكتاب فيه "اعتماد كامل على الشعر العربي القديم في الاستقراء، وتقرير الأصول، وتغافل نسبي عن آيات القرآن، والشعر الإسلامي، ولقد أحصى مافيه من آيات القرآن فلم تزد على ثلاثمائة آية(٣) لم يتخذ معظمها مصدرا للدراسة بل إنّها اعتمدت على نصوص أخرى أهمها الشعر، ثم تساق الآيات بعد ذلك، فكأنما تساق بهدف التقرير، والتوكيد، والاستشهاد(٤)".

كما أن النفس لاتطمئن إلى رأي آخر مفاده أن سيبويه كان من "أكثر النحاة تمسكا بالشاهد القرآني، وأعظمهم إجلالا له، وكان يضعه في المرتبة الأولى(٥)" وأنه "يعتبر القرآن الأساس الأول في الاستشهاد، والغالب أنه يضع عنوان الباب الذي يتحدث عنه ويمثل له بأمثلة يقيسها على القرآن... ثم بما ورد عن العرب... ثم بالشواهد الشعرية(٦).

في كل من القولين بعض صواب، وفي التقاطه من كل منهما يمكن الوصول إلى رأي أقرب إلى الصدق:

---

(١) ينظر في هذه المسألة: السيوطي، الاقتراح، ص٤٠- ، والبغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق محمد عبد السلام هارون. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩، ج١، ص٩. وخديجة الحديثي، دراسات في كتاب سيبويه، وكالة المطبوعات، الكويت، ص٤٨- ، ومحمد عيد، الاستشهاد والاحتجاج باللغة، ص١٠٧-، ومحمود حسني، احتجاج النحويين بالحديث، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، عدد (٤،٣)، ١٩٧٩، ص٤٢-٦١.

(٢) ليس صحيحا أنه ورد في الكتاب حديث واحد، ينظر حسن عون اللغة والنحو، ص١٣٠، ومحمد عيد، الاستشهاد والاحتجاج باللغة، ص١٠٧ . أو أن فيه حديثين، ينظر عفيف دمشقية، المنطلقات التأسيسية والفنية إلى النحو العربي، معهد الإنماء الصناعي، ١٩٧٨، ص١١٠ . ولعل الصحيح أنها سبعة أحاديث كما ورد في فهرس عبد السلام هارون للكتاب، ج٥، ص٢٩.

(٣) سبقت الإشارة إلى أن العدد أكثر من هذا ، ينظر هذا البحث، ص٢٠٦.

(٤) محمد عيد، الاستشهاد، ص١٠٣.

(٥) خديجة الحديثي، دراسات في كتاب سيبويه، ص١١.

(٦) نفسه، ص١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لاندري إن كان سيبويه قد قصد مافعل أو لم يقصد، ولكن ماظهر يدل على أنه لم يغفل الاستشهاد بالقرآن الكريم، ولكنه لم يضعه في المرتبة الأولى كما هو متوقع. لماذا كان ذلك؟

- هل كان ذلك بسبب التحرز الديني؟ وإن كان هذا هو السبب فلماذا هجم كثير من المفسرين وأصحاب المذاهب على القرآن، وأوسعوه زيادة وحذفا وتأويلا وعسفا، ولم يتحرزوا كما فعل النحاة؟
- هل كا ن ذلك لأن معاني القرآن أوسع من ألفاظه، فألفاظه لم ترد فيها كل الأحكام النحوية، ولا تمثل كل اللغات؟
- هل كان ذلك لأن العربي مذ كان يستهويه الشعر، ويسهل عليه حفظه، وروايته، وأن الاهتمام بالشعر، وإن خفت مع بواكير الفتوح، إلا أنه عاد فطغى أيام التقعيد اللغوي، فعاد للشعر رونقه، والكتاب يمثل ذلك؟
- هل كان ذلك لأن الشعر مركب ضرورة، فتكثر فيه مخالفة القواعد، ويكثر الجدال حولها؟

كل ذلك بعضه ممكن، وهنا نحن أمام أمر واقع ملخصه أن كثيرا من أركان النحو قامت على الشواهد الشعرية، وأن كلمة شاهد عندما تلفظ يذهب الذهن سريعا إلى الشعر، وأن سيبويه – وإن لم يغفل الاستشهاد بالقرآن الكريم – إلا أنه لم يضعه في المقام الأعلى.

ومضى النحاة من بعده على نهجه، إلا أقلهم(١)، فالمتعارف عليه أنهم بقوا على عهدهم الأول بتقديم الشعر، وتعهده، ففاضت كتبهم بشواهده، بل ألفوا فيها كتبا خاصة. ولعل هذا ما أثار حفيظة ابن حزم اذ صرخ مستنكرا عمل النحاة الذين يوقرون قول الأعراب، ويحتجون به، ويقطعون على خصومهم، ويترددون في الاستشهاد بكلام الله ورسوله، وما في الضلال أبعد من هذا(٢).

لما مضى علاقة أساسية بما سيأتي، فهذه حقيقة علينا تقبلها وتفهمها، هي أن النحو اعتمد كثيرا في بنائه على الشعر دون النثر، وهو يمثل بذلك التيار العام، فالشعر في الغالب يقدم على النثر، لأن النثر لغة الناس كل الناس، والشعر لغة الخواص، وبعد كلام الله سبحانه وتعالى وحديث نبيه الكريم يكون الكلام على مرتبتين:

علياها النظم لما جمع من البلاغة والوزن والتقفية، وسفلاها النثر لتعرّيه من الوزن والتقفية.

وهنا نستحضر ماسبقت الإشارة إليه، ونستذكر أن الشعر له أسلوبه الخاص ولغته الخاصة، ونظامه الخاص، والقيود المفروضة عليه ترهق قائله، فتراه دائم التفلّت دائب البحث

---

(١) منهم ابن هشام في مغني اللبيب، وشرح شذور الذهب.

(٢) ينظر ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت ، ١٩٨٣، ج٤، ص٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن الوسائل التي تسعفه في الالتزام بأنظمة الشعر حتى وإن استدعى الأمر أن يخرج عن أنظمة اللغة والمتعارف عليه منها.

وقد قدر النحاة ذلك، فأقروا بوجود ضرورات شعرية، اختلفوا ظاهرا في مفهومها وحدودها، لكن اتفقوا جميعا على أنها واقعة لامحالة، وأن الشاعر يحتاج إلى من ينصره على قوانين اللغة للحفاظ على قوانين الشعر، فأعطاه النحاة رخصة بذلك(١). وقالوا هذا يجوز للشاعر دون الناثر، وسموا كتبهم بذلك(٢)، وعاشت عبارتهم ومازالت: يجوز للشاعر مالا يجوز لغيره.

كان يمكن أن يكون هذا مقبولا لو كان للشعر قواعد نحوية تتفق وقواعده الشعرية لكن القواعد -كما هو معروف- موحدة تجري على النثر والشعر معا. فكان هذا شرخا آخر في المادّة المجموعة للتقعيد.

صحيح أن ماجرى من الشعر على الضرورة قليل من كثير؛ إذ أكثر الشعر جرى على سنن العربية، فطابق القواعد النحوية، وطابقته، وقليله شذ عن ذلك، وحتى هذا الشاذ حَرصوا على الإشارة إلى أنه لايجعل أصلا يقاس عليه.

وقد سعى النحاة ورائدهم في حصار هذا الشاذ كما مر، فأطروا للضرورة وقننوها، أو حاولوا. وأحسوا بأثرها على قواعدهم، فأقنعوا أنفسهم بأن كل ضرورة ترتكز على وجه مسوّغ، كأن تحيي أصلا مهجورا، أو تقيس على وجه أضعف، أو تتشبه بحالة مماثلة.

يقول سيبويه مما يجوز في الشعر "حذف ما لا يحذف، يشبهونه بما قد حذف واستعمل محذوفا(٣)" . وعرض أمثلة على ذلك(٤). وختم حديثه بقوله:

"وليس شيء يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجها(٥)".

وبكلام سيبويه ثبتت الضرورة في أول كتاب نحوي، وأصبحت أمرا واقعا توارثه النحاة. واشتجر بينهم الخلاف بشأنه، فكانوا طرائق قددا. ويشار هنا إلى المنهجين الرئيسين البصري والكوفي، إذ اختلفت جهتا النظر فيهما حول الضرورة، لكن النتيجة في كل كانت غير مريحة لسلامة الأصل النحوي. ويهمنا هنا ما يتعلق بالحذف.

---

(١) ينظر ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، ج٢، ص٥٤٧.

(٢) مثل: الضرائر ومايسوغ للشاعر دون الناثر للألوسي.

(٣) الكتاب، ج١، ص٢٦.

(٤) نفسه، ج١، ص٢٦-٢٨.

(٥) نفسه، ج١، ص٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما نحاة الكوفة فقد تقبلوا الضرائر برحابة صدر، ولم يتحرجوا من ذلك لاتساعهم أصلا في الرواية(١).

وأما نحاة البصرة فقد أجازها بعضهم بتحفظ كما تقدم من قول سيبويه إذ تلمسوا للحذف تسويغا برده إلى أصل، أو تشبيهه بمحذوف مماثل.

وقد ظهر من نحاة البصرة من شق عصا الطاعة، وأعلن تبرمه ببعض المحذوفات أو تحفظه عليها، أو شروطه لإجازتها، ورفض بعضها مشككا في روايتها ونسبتها، ومن ذلك الشاهدان العلمان على حذف لام الأمر، لضرورة الشعر، وهما:

محمـــد تفدِ نفســـك كـــل نفس إذا ماخفـــت من شـــيء تبـــالا(٢)

على مثل أصحاب البعوضة فاخمشي لك الويل حرّ الوجه أو يبكِ من بكى(٣)

أجاز سيبويه تقدير لام الأمر محذوفة في (تفد) في البيت الأول، وفي (يبك) في الثاني، لكن من تبعه من النحاة لم يتقبل بعضهم هذا الحذف؛ فالشنتمري يقول عن البيت الأول إنه مرفوع حذفت لامه ضرورة، واكتفي بالكسرة منها(٤).

وأما المبرد فقد منع حذف اللام وإبقاء عملها في هذا الموضع للضرورة الشعرية إذ قال:

"لا أرى ذلك على ماقالوا (يعني تقدير الحذف)؛ لأن عوامل الأفعال لاتضمر، وأضعفها الجازمة؛ لأن الجزم في الأفعال نظير الخفض في الأسماء، ولكن بيت (متمم) حمل على المعنى؛ لأنه إذا قال: فاخمشي، فهو في موضع فلتخمشي، فعطف الثاني على المعنى، وأما هذا البيت الأخير، (الأول هنا) فليس بمعروف(٥)".

فاتنا خير الاعتماد على القرآن، فاعتمدنا على الشعر لرفعته وشرفه، لكن هذا أوقعنا في إشكالات الضرورات الشعرية؛ فمن توسع في الرواية اضطر إلى التوسع في القاعدة حتى سيبها، ومن ضيق أكثر التأويلات والتفريعات، وترتب على ذلك أن حمل النثر على الشعر، فاختلط الأمر، واختفت الجادة أحياناً، أو كادت، في زحام البنيات.

---

(١) ينظر ابن هشام، المغني، ص٢٩٨، والزجاجي ، اللامات، ٩٥، ٩٦.

(٢) ينظر سيبويه، الكتاب، ج٣، ص٨، وينظر الأمالي الشجرية، ج١، ص٣٧٥، وابن الأنباري، الإنصاف، ج٢، ص٥٣٠، والسيوطي، شواهد المغني، شاهد رقم ٣٥٩، ص٥٩٧، وخزانة الأدب، ج٩، ص١١، ومعجم شواهد العربية، ص٢٦٩.

(٣) ينظر الكتاب، ج٣، ص٩، والسيوطي شواهد المغني، شاهد رقم ٣٦١، ص٥٩٩، والبيت لمتمم بن نويرة يرثي أخاه. وتنظر خزانة الأدب، ج٩، ص١٢، ومعجم الشواهد الشعرية، ص٢٥٤.

(٤) ينظر الكتاب، ج٣، ص٨، الحاشية، ٥.

(٥) المبرد، المقتضب، ج٢، ص١٣٢،١٣٣، وينظر الأمالي الشجرية، ج١، ص٣٧٥، والإنصاف، ص٥٣٠، والمغني ص٢٩٧ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتقودنا كلمة المبرد الأخيرة إذ رفض قبول البيت الأول لأن قائله غير معروف، تقودنا إلى الحديث عن مشكلة أخرى تتعلق باعتماد الشعر مادة القواعد، وهي صحة نسبة الأبيات.

بيّن السيوطي أن النحاة ارتضوا عدم قبول الاحتجاج بكلام مجهول قائله شعرا كان أم نثرا، فقال: "لا يجوز الاحتجاج بشعر أو نثر لايعرف قائله، يصرح بذلك ابن الأنباري في الإنصاف، وكان علة ذلك خوف أن يكون لمولد، أو من لايوثق بفصاحته، ومن هذا يعلم أنه يُحتاج إلى معرفة أسماء شعراء العرب وطبقاتهم(١)".

فماذا فعل سيبويه؟

لقد اعتمد على الشعر، فأورد منه ألفا وخمسين بيتا في مواطن الاحتجاج، وبنى عليها الأحكام ، وما زالت هذه الأبيات تشكل مشكلة، أو بعضها على الأقل إلى يومنا هذا:

بدأ الأمر بقول الجرمي:"نظرت في كتاب سيبويه، فإذا فيه ألف وخمسون بيتا، فأما الألف، فقد عرفت أسماء قائليها، فأثبتُها، وأما الخمسون فلم أعرف أسماء قائليها(٢)".

ثم أكد النحاس ذلك إذ قال:

" جملة أبيات كتاب سيبويه... ألف وخمسون بيتا، منها خمسون غير معروفة"(٣) .

فما الذي جعل سيبويه يغفل نسبة هذه الأبيات إلى قائليها؟

أغلب الظن، أن ذلك يعود إلى أن الشواهد كانت معروفة بين علماء عصره، وأن اهتمامه الأكبر كان منصبا على النص نفسه، وعلى الحكم الذي تضمنه، فاستخرجه، وعلل له، وأغفل الإشارة إلى صاحبه يقينا منه بأنه معروف، وأنه ليس محل خلاف، إذ لو كان ذلك فما أقرب انتقاد سيبويه، والتشنيع عليه من أهل عصره، ومنافسيه(٤)!

---

(١) السيوطي، الاقتراح، ص٥٥، وينظر شبيه في المزهر، ج١، ص١٤١.

(٢) البغدادي، خزانة الأدب، ج١، ص٢٩.

(٣) النحاس، شرح أبيات سيبويه، ص٤١.

وقد بقي الشائع أن غير المنسوب من أبيات سيبويه خمسون بيتا إلى أن تحقق رمضان عبد التواب من المسألة فبين أن الأبيات غير المعروفة جاءت في ٣٤٢ موضعا، ينظر كتابه" (بحوث ومقالات في اللغة، ط٢، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٨٨، ص٨٩-).

(٤) لعل ماقاله البغدادي هو الذي دار في أذهان النحاة سابقا فهو يقول:

"ويفهم من هذا أن الشاهد المجهول قائله، ونتمته إن صدر من ثقة يعتمد عليه قبل، وإلا فلا، ولهذا كانت أبيات سيبويه أصح الشواهد، اعتمد عليها خلف بعد سلف مع أن فيها أبياتا عديدة جهل قائلوها، وماعيب ناقلوها، وقد خرج كتابه إلى الناس والعلماء كثير والعناية بالعلم وتهذيبه وكيدة، ونظر فيه وفتش فما طعن أحد من المتقدمين عليه" (الخزانة، ج١، ص٨). ومما يمكن أن يعلل به لعدم نسبة سيبويه بعض أبياته أن بعضهم كان لايسمي الحي؛ يروي السيوطي أن يونس كان يقول: حدثني الثقة من العرب، فقيل له: من الثقة؟ قال: أبو زيد. قيل له: فلم لا تسمّيه؟ قال: هو حي فأنا لا أسميه. (الاقتراح، ص٥٧).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد تتابع النظر في هذه الأبيات معروف القائل منها ومجهوله، وسارع إلى إعلان الظفر كل من اهتدى إلى نسبة بيت منها أو أبيات(١).

ومن علائق هذا الأمر أيضا أن الشاهد الشعري الواحد قد ينسب إلى شاعرين أو أكثر، ومع إدراك أن ذلك قد لايخرج الشاهد من إطار الاحتجاج المرتضى إلا أن توزع النسبة يغمز بسلامته، ويمس الثقة به. ومن أمثلة ذلك البيت الذي مر شاهدا لحذف لام الأمر للضرورة وهو:

محمد نفد نفسك كل نفس إذا ماخفت من شيء تبالا

فقد نسب هذا البيت إلى أبي طالب، وحسان بن ثابت، والأعشى(٢).

ومع كل ما مضى من قول في شأن جهل قائلي بعض الشواهد، أو تعدد نسبة بعضها الآخر، فإن ذلك يبقى أخف وطأة من الاستشهاد بالنثر، إذ من المحال متابعة كل مايحتج به، ورده إلى أهله. لكنا نستشعر الوهن في الأساس النحوي؛ إذ نأى سيبويه قليلا عن القرآن، وأقبل كثيرا على الشعر، وها نحن نواجه قضية جديدة:

الرواية الشعرية:

سبقت الإشارة إلى أن الرواية كانت أحد عوامل إغناء الحذف، وقد ساعدت على إفشاء التقدير، وتفريع المسائل، ذلك أن بعض الأبيات توارثه الناس منقولا بعدة روايات، بسبب تنوع إنشاد الشاعر من حين لآخر، أو تعدد اللهجات، يقول السيوطي: "كثيراً ماتروى الأبيات على أوجه مختلفة، وربما يكون الشاهد في بعض دون بعض، وقد سئلت عن ذلك قديما فأجبت باحتمال أن يكون الشاعر أنشد مرة هكذا، ومرة هكذا". ثم ينقل رأيا لابن هشام فحواه أن العرب

---

(١) ينظر: علي النجدي ناصف، سيبويه إمام النحاة، ص١٤٣- ، ومقدمة عبد السلام هارون للكتاب، ج١، ص٣٤ حاشية ٢، ومقدمة محمد علي سلطاني لشرح أبيات سيبويه للسيرافي، ص ٣٥، ومحمد الطنطاوي، نشأة النحو، ص٧٢- .

(٢) تنظر خزانة الأدب، ج٩، ص١١، وينظر ابن الأنباري، الإنصاف، ج٢، ص٥٣٠ حاشية الشارح، وسيبويه، الكتاب، ج٣، ص٨، حاشية رقم ٤. ومن أمثلة الاختلاف في نسبة الشاهد الشعري قول الشاعر:

الحافظو عورة العشيرة لا يأتيهم من ورائنا نطف

فقد نسب هذا البيت إلى رجل من الأنصار، وإلى عمرو بن امرئ القيس الخزرجي، وإلى شريح بن عمران من بني قريظة، وإلى مالك بن عجلان الخزرجي، وإلى قيس بن الخطيم.. ينظر في ذلك: سيبويه، الكتاب، ج١، ص١٨٥،١٨٦، والحاشية ٣ ص١٨٥، والشنتمري، النكت، ج١، ص٢٩٣، والحاشية رقم ٤٧ في المكان نفسه، والزجاجي، الجمل، ص٨٩، والحاشية رقم ٦ في المكان نفسه والنحاس، شرح أبيات سيبويه، ص ٩٣ -، والسيرافي ، شرح أبيات سيبويه ، ج١ ، ص ٢٠٥ - .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان ينشد بعضهم شعر بعض، وكل يتكلم على مقتضى سجيته التي فطر عليها، ومن هنا تكثر الروايات في بعض الأبيات(١).

وقد يكون الراوي أو الرواة سببا في تعدد الرواية، وقديما أحس الحطيئة بخطورة هذا الأمر، فقال: "ويل للشعر من الرواة السوء"(٢).

والشاهد في الأمر، أن إحدى روايات الشاهد الشعري تكون منسجمة مع نصوص القواعد النحوية، لكن غيرها قد ينافي هذه القواعد، ويجافيها، وهنا يقدم عليها النحاة تقديرا وتفريعا، وكل ذلك يشرخ سلامة المادة المجموعة، ويثلم استواء القاعدة بالتخريج والتمحل، وكما قيل:"إذا دخل الدليل الاحتمال، سقط به الاستدلال(٣)".

وتبدو خطورة الأمر عندما يتبادر إلى الذهن أن النحوي تحت ضغط الحرص على سلامة قواعده، قد يلجأ مضطرا إلى البحث عن شاهد يدعم قاعدته، أو يستقوي به في القطع على خصمه، فيقبل بلهفة على الرواية المحرفة التي تتماشى وهدفه.

وتزيد الخطورة عندما تطفو أقاويل تشير إلى أن النحاة قد يصنعون ذلك صناعة، فيتدخلون في الرواية يحرفونها ليس اضطرارا، بل هواية وتمحلا: أورد سيبويه قول جرير:

ألا أضحت حبالكم رماما وأضحت منك شاسعة أماما

واستدل به على جواز الترخيم في غير النداء، إذ رخم في البيت "أمامة". لكن البيت يروى على شكل غير هذا، إذ يقال: ولا عهد كعهدك ياأماما.

وهكذا يظهر العلم منادى، والترخيم فيه جائز، وينعدم موطن الشاهد، وتتخاذل القاعدة. والخطورة الكبرى تكمن فيما قاله أبو زيد الأنصاري معقبا:

"هذا شيء يصنعه النحويون ليعرفوك كيف مجراه متى وقع في شعر(٤)". وهذا مثال آخر:

استشهد سيبويه على جواز حذف الفاء لضرورة الشعر بقول عبد الرحمن بن حسان:

من يفعل الحسنات الله يشكرها والشر بالشر عند الله مثلان

أي (فالله يشكرها). لكن أبا زيد الأنصاري أيضا يقول:

---

(١) الاقتراح، ص ٥٩ ، وينظر المزهر ج١، ص٢٦١،٢٦٤، في كلام حول هذا.

(٢) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص١٩٩.

(٣) السيوطي، الاقتراح، ص٥٨.

(٤) أبو زيد الأنصاري، سعيد بن أوس، النوادر في اللغة، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، دار الشروق، بيروت، ١٩٨١، ص٢٠٧، وتنظر الأمالي الشجرية، ج١، ص١٢٧،١٢٨، ومعجم شواهد العربية، ص٣٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"أخبرنا أبو العباس عن المازني عن الأصمعي أنه أنشدهم: (من يفعل الخير فالرحمن يشكره) وبذلك انتفى موطن الشاهد، وسقطت القاعدة. لكن الأدهى والأمرّ أيضاً هو تعليقه على الأمر؛ قال: فسألته عن الرواية الأولى، فذكر أن النحويين صنعوها(١)".

ومن ذلك أيضاً ما استشهدوا به لتسكين المتحرك وهو قول امرئ القيس:

فاليوم أشربْ غير مستحقب إثما من الله ولا واغل

وابن قتيبة يقول:"ولولا أن النحويين يذكرون هذا البيت ويحتجون به في تسكين المتحرك لاجتماع الحركات... لظننته فاليوم أسقى...(٢)".

والبيت الذي أشغل النحاة وأرهقهم تأويلا، إذ جعلوه شاهدا لحذف كان، وهو:

أبا خراشة أما أنت ذا نفر فإن قومي لم تأكلهم الضبع(٣)

يروى على وجه آخر لاحذف فيه وهو: أبا خراشة إما كنت ذا نفر(٤).

ومع إدراك أن بعض الخلاف في الرواية يعود إلى ملاحقة النحاة بعضهم بعضا، فالمبرد -مثلا- تأصلت لديه رغبة في مناكفة سيبويه(٥)، فاستكثر من الاعتراض على روايات الأبيات مما أثار حفيظة بعض النحاة فقيل عنه:

"هذا رجل يجعل كلامه في النحو أصلاً، وكلام العرب فرعاً، فاستجاز أن يخطئها إذا تكلمت بفرع يخالف أصله"(٦) .وقد استطيبت المبالغة في إظهار ردود المبرد على سيبويه واعتراضاته على نسبة أبياته(٧).

ومع إدراك أن سيبويه كان محل ثقة جمهرة النحاة، وأن اعتراضات المبرد قد استنفرتهم فقال بعضهم عن تشكيك المبرد في رواية بيت امرئ القيس السابق:

"وأما اعتراض أبي العباس هنا على الكتاب، فإنما هو على العرب لا على صاحب الكتاب، لأنه حكاه كما سمع... وقول أبي العباس إنما الرواية: (فاليوم فاشرب)، فكأنه قال

---

(١) أبو زيد الأنصاري، النوادر، ص٢٠٨، وينظر البغدادي، خزانة الأدب، ج٩، ص٤٩.

(٢) الشعر والشعراء، ص ٤٤، وتنظر ص ٤٥ في أشياء مماثلة لهذا، وتنظر خزانة الأدب، ج٨، ص٣٥٠.

(٣) ينظر سيبويه، الكتاب، ج١، ص٢٩٣، والبيت للعباس بن مرداس، وتنظر خزانة الأدب، ج٤، ص١٣، ومعجم شواهد العربية، ص٢٢٥.

(٤) وردت هكذا في : ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي، الاشتقاق، تحقيق محمد عبد السلام هارون، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧٩، ص٣١٣، وينظر المزيد من المصادر والمراجع والتوضيح بشأن هذا البيت في رمضان عبد التواب، بحوث ومقالات في اللغة، ص١٥٦- .

(٥) تنظر مقدمة محمد عبد الخالق عضيمة للمقتضب، ج١، ص١١٧،١١٨.

(٦) ينظر المرجع نفسه، ج١،ص ١١٧.

(٧) نفسه، ج١، ص٨، ١٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لسيبويه: كذبت على العرب، ولم تسمع ماحكيته، وإذا بلغ الأمر هذا الحد من السرف، فقد سقطت كلفة القول معه(١)".

نقول، مع إدراك كل ذلك، إلا أننا نشعر أننا أمام مشكلة أم تتفرع عنها مشكلات صغار، ارتضى النحاة بالشعر حجة، وحكموه في النثر، فكثرت الضرورات، وفتت عضد بنيان القواعد اتساعا أو تأويلا. والشواهد الشعرية بعضها منسوب إلى قائليه، وبعضها غير منسوب، والروايات مختلفة، بعضها يوافق القاعدة، وبعضها لايوافقها، بعضها تغير باتساع الزمان أو المكان، وبعضها الآخر تغير قصدا.

هذا ينغص الصفو -لاشك-، ويلمز بسلامة الأصول، إلا أننا نحمل النفس على عدم الاستتامة إلى ضباب الشك طويلا، فهو يكاد يطال كل تراث إنساني، لكن الحقائق دوما سهام تنفذ إلى النور، وهذه روايات شاذة قليلة تواجه إجماعا جارفا عارماً؛ فهي أشبه بحصيات تقذف في بحر.

وقبل أن نغيّب الشك ونمضي، نجد أنفسنا محاصرين بتساؤلات جديدة أخرى، بعضها له علاقة ماسة بالرواية الشعرية:

إن الاعتماد على الشعر خلق معارك جانبية، ومماحكات خفية أو علنية بين النحاة والرواة، وبين الشعراء والنحاة:

بين النحاة والرواة:

النحاة بحاجة إلى الرواة، فعندهم مادة قواعدهم، والرواة يدركون تلك الحاجة، ويستدعونها فيميلون إلى تزيين بضاعتهم بكل غريب مشكل، وإن لم يبد فيه الإشكال، فهم يستحثون النحاة على البحث عنه، ويستفزونهم لتدبره، والتبصر فيما خفي منه. وكتب الأمالي والمجالس فيها كثير مما يثبت ذلك.

ومنه ذلك المجلس الشهير الذي جمع المبرد والرّياشي، فسأل ثانيهما الأول عن قول الشاعر:

ماتنقم الحرب العوان مني بازل عامين حديث سني

كيف تكون فيه رواية (بازل)؟

فاستشاط المبرد غضبا، واستنكر قائلا: تقول لي هذا في العربية؟ إنما أصير إليك لهذه

---

(١) مقدمة عبد الخالق عضيمة للمقتضب، ج١، ص ١١٧ ، والرأي لابن جني، وينظر له آراء مماثلة أخرى في الخصائص، ج١، ص٧٥، ج٢، ص٣٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقطعات والخرافات؟ ثم أجاز الرفع، والنصب، والجر في موضع السؤال(١).

فنحن إذن أمام امتحان راو لنحوي يستثيره، فيقود إلى امتهان النص الشعري، ينتهك حماه، ويتلاعب بحركاته على هواه، وهذا شرخ آخر، فَـ "نحن لانعلم شاعراً (يشعر) بلغته فيجري في نظمه في موضع واحد على نحويْن، ومستبعد تماما أن تكون هذه الحالة المزدوجة الحائرة هي حال البيت في صدوره الأول عن الشاعر، والوجه أن يكون الوجه واحدا في الموضع الواحد، عن الشاعر الواحد(٢)".

هكذا قيل عن موضع بحركتين، فكيف نقول عن هذا الموضع بهذه الحركات الثلاث؟ لاشك في أن هذا تجنّ ليس على القواعد النحوية التي تسيدّت، فسيّبت المعنى، وحسب، بل على أصل النص أيضاً، فإن "هذا التدخل في الرواية بتحكيم النحو، ووجوهه الممكنة يقيم جدارا تاريخيا بيننا وبين الصورة التاريخية الموحدة"(٢)، فهذا التعدد "وإن استقام مع الممكن نحويا، لا يستقيم مع الحقيقة التاريخية ونواميس الظاهرة اللغوية(٣)".

بين الشعراء والنحاة:

قبيلان كل منهما يحتاج الآخر؛ الشعراء يتمنون على النحاة الاحتجاج بشعرهم لإشهارهم وإعلاء شأنهم، والنحاة يحتاجون الشعراء فهم سند قواعدهم، ومصدر احتجاجهم.

ومع ذلك جرت بين الفريقين مماحكات خفيّة أو علنية أدّت إلى الإغراق في الإغراب شعراً، والإيغال في التأويل نحوا، فزادت الأمور تعقيدا، وأسهم كل ذلك في خضد شوكة القاعدة النحوية ومس سلامتها.

ومما يصلح مثالا لهذه المشاحنات بين الفريقين، تلك الملاحيات التي جرت بين الفرزدق وابن أبي اسحق الحضرمي، وهي ذائعة مشهورة(٤)، وقد أظهرت إصرار النحاة على استقامة قواعدهم رغم تهجم الشعراء عليهم، وتصميم الشعراء على كسر رتابة المألوف، والخروج عن

---

(١) الزجاجي، مجالس العلماء، ص٤٧، وقد ورد هذا في الأشباه والنظائر للسيوطي، ج٣، ص٢٣٩، وهناك موقف مشابه وقع بين الكسائي والأصمعي، ينظر في أمالي الزجاجي، ص ٥٠،٥١، وفي الأشباه والنظائر، ج٣، ص٢٤٤.

(٢) نهاد الموسى، نحو منهج في تحقيق قراءة الشعر، مجلة دراسات الأردنية، مجلد ٦، أيار، ١٩٧٩، ص١٢.

(٣) السابق، المكان نفسه.

(٤) ينظر، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص٣٦- ، والسيرافي، أبو سعيد الحسين بن عبد الله، أخبار النحويين البصريين، تحقيق فريتس كرنكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٣٦، ص٢٦- ، وابن الأنباري، نزهة الألباء، ص٢٧- ، والقفطي، جمال الدين أبو الحسن، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، ١٩٥٠، ج١، ص٢٣٥، والسيوطي، همع الهوامع، ج١، ص٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعروف. وقد يدفعهم إلى ذلك تلبية حاجات الوزن أو القافية، لكن من يدري؟ فقد تستهويهم مماحكات النحاة، واثقين من حاجتهم إلى شعرهم، فيقذفون أمامهم شباكا يضنيهم دفعها دفاعًا عن سلامة قواعدهم. ومن ذلك قول الفرزدق:

وعضّ زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتاً أو مجلّفُ.

فاعترض الحضرمي على رفع (مجلف)، وهي معطوفة على منصوب، فسأل الفرزدق علامَ رفعها؟ فأجاب: على ما يسوؤك وينوؤك(١). وفي رواية أخرى أضاف: علينا أن نقول، وعليكم أن تتأولوا(٢).

فهاهي المعاكسات بين النحاة والشعراء تنضم إلى ماسبقها لتضيف مثلبة أخرى للاعتماد الأكبر على الشعر مادّة للقواعد.

لكن ينبغي أن ينظر إلى كل ماسبق نظرة من لايهون، ولا يهول:

لايهوّن؛ لأن المنهج العلمي الصارم السليم يجب أن يتم فيه تجنب كل مايطعن في سلامة الأصول، لأن هذا يقود إلى العبث بكل مايبنى عليها، ويشكك فيه، وكم من حكم نحوي تربع قروناً في بطون الكتب النحوية كان سببه شاهدا شعريا فرضه. وحمل عليه غيره جوراً وعسفاً!

ولا يهوّل؛ لأن كل مامضى، وغيره مما لم يذكر أكثر، يبقى شذوذا أمام جمهرة الشواهد والمواد السليمة المرضية التي تساير القاعدة، وتدعمها، ولأن كل مايمكن أن يطال الشعر من النقد، يمكن بالمستوى نفسه، أو أكثر منه أن يطال الشواهد النثرية (ليس القرآن الكريم، والحديث الشريف)، من حيث النسبة، وتغير الرواية، وتدخلات الرواة والنحاة.

لكن يعيش معنا السؤال: لم لم يكن الاعتماد بشكل أكبر على القرآن؟

ثم نترك الشعر جانبا لنقف قليلا على بعض قضايا النثر، نتلمس مدى سلامة الجهد النحوي: هل كان النحاة يدركون مايفعلون؟ وما مدى قناعتهم بذلك؟ وإلى أي مدى يمكن أن نتقبل نحن تلك القناعات؟ وفيما يلي توضيح ذلك:

هذه الروايات عن الأعراب التي احتفى بها سيبويه، واحتفل بها من تلاه من النحاة:

إلى أي مدى أحس هؤلاء الأعراب باللغة فحذفوا وفي دواخلهم إحساس صادق بسلامة الحذف، وأنه مطلب تستدعيه طبيعة الموقف، وتسمح به التراكيب، وتستملحه سنن اللغة، فلا يهدّ أركانها، ولايشيع الفوضى في جنباتها؟

---

(١) ينظر ابن الأنباري، نزهة الألباء، ص٢٧،٢٨.

(٢) ينظر، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص٣٦،٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صحيح أنهم (أي : الأعراب) لم يدركوا مصطلحات النحاة، فهم يتكلمون على الفطرة، لا يوجههم عامل نحوي أو مصطلح، ومهما تدخلت فطنة النحاة، فإنها لم تكن قادرة على التأثير في فطرة الأعراب، وقد حفظت لنا الكتب كثيرا من نوادرهم المتمثلة في مساءلة يقدمها نحوي يبحث عن جواب لمسألة نحوية شائكة فيرد عليها الأعرابي بإجابة عفوية لا تمّت بصلة إلى الصنعة النحوية(١).

وقد ورد في الخصائص مواضع كثيرة، شعر فيها ابن جني، وأشعرنا أن هذا الأعرابي على جفائه، وغلظ طبعه، كان سامي الفطرة، بالغ الحكمة، يحس بقوة طبعه مكامن لغته، ويستهدي إلى تطويرها بصدق إحساسه، وإن كان يجهل أصول صناعتها، وحدود مصطلحاتها(٢).

ومن طريف ما رواه أن أعرابيا خاطر على أن يشرب علبة لبن ولا يتنحنح، وعلق قائلا: "وإنما مكنت القول في هذا الموضع ليقوى في نفسك قوة حس هؤلاء القوم، وأنهم قد يلاحظون بالمنة والطباع ما لا نلاحظ نحن على طول المباحثة والسماع، فتأمله فإن الحاجة إلى مثله ظاهرة"(٣) .

إذن، فإن لنا أن نطمئن إلى أن الأعراب التي تفيض بأقوالهم جنبات الكتاب، اذ اعتمدها سيبويه فجعلها صوى ومعالم هدى في كتابه، لكل من تبعه، نطمئن إلى أن هؤلاء كانوا يعون ما يقولون، وأن أقوالهم هي نتاج قرائح متوقدة، وطبائع سليمة، وفطر نقية، فهم جديرون بالاحتجاج

---

(١) من ذلك:

قيل لأعرابي: أتهمز إسرائيل؟ فقال: إني إذا لرجل سوء، وقيل لآخر: أتجر فلسطين؟ فقال: إني إذا لقوي.

وسمع ثالث ينشد: نحن بني علقمة الأخيارا، فسئل: لم نصبت بني؟ فاستغرب قائلا: مانصبته ذلك أن مصطلحات الهمز والجر والنصب ليست مما يفهمون.

(ينظر ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، ص ٣٥، وفيه أمثلة أخرى كذلك، وينظر السيوطي، المزهر، ج٢، ص٣٤٣،٣٤٤، ج٢، ص٢٧٧، وينظر العقد الفريد، ج٣، ص٤٧٥).

وهذه حكاية توضح الفرق بين نحو الإعراب (نحو الفطرة) ونحو النحاة (نحو الفطنة):

"وقف أعرابي على مجلس الأخفش، فسمع كلام أهله في النحو.... فحار وعجب، وأطرق ووسوس، فقال له الأخفش: ماتسمع يا لُخا العرب؟ فقال: أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا".

(أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت وصيدا، ج٢، ص١٣٩).

(٢) ينظر الخصائص، ج١، ص٥٨، ٧٢، ٢٣٧، ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٥٠، + ج٣، ص٢٧٥، وينظر السيوطي، المزهر، ج٢، ص٤٩٥، ٥٤٧.

(٣) الخصائص، ج٣، ص٢٧٥، ج٣، ص٢٧٥، ٢٧٦ , وينظر السيوطي، المزهر، ج٢، ص٤٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بهم، واستنباط القواعد من كلامهم، وما أتى سيبويه بدعا بتعويله عليهم، فقد سقط على الخبراء، وأهل الحكمة، فللعربية في صوغ أساليبها نظامها المفترض وللعرب في افتنان كلامهم سننهم وبدعهم، فهم يقدمون، ويؤخرون، ويذكرون، ويحذفون.

ويبدو أن ابن جني، وسيبويه، وغيرهما من النحاة في دراستهم لأحوال هذا اللسان كان كل منهم مدركا إدراكا لا يلتبس عليه أنه يبحث في السليقة اللغوية لهذه الأمة ..... ومنازعها في الإبانة، واستشفاف القواعد والقوانين التي انطوت عليها هذه السليقة(١)".

وابن جني تفهم جيدا جهد الرائد المعلم، ووظيفة النحوي المثلى التي تجري على سنن الكلام فقال:"ولما كان النحويون بالعرب لاحقين، وعلى سمتهم آخذين، وبألفاظهم متحلين، ولمعانيهم وقصودهم آمين، جاز لصاحب هذا العلم الذي جمع شعاعه، وشرع أوضاعه ..... أن يرى فيه نحوا مما رأوا، ويحذو على أمثلتهم التي حذوا....."(٢).

ويلح علينا الشك الى منتهى غاياته عندما يطل علينا السؤال التالي :

لقد حذف العرب وفق ما أملته عليهم سلامة طبيعتهم ، ونقاء فطرتهم ، فتلقينا عنهم كلاما محذوفا بعضه، وتتبع النحاة مواطن الحذف فيما استشهدوا فسدوا الثغر، وجبروا الكسر، وزعموا أنهم ردوا المحذوف الذي نواه الأعراب إلى أصله، وبناء على ذلك كانت الأحكام، وصيغت القواعد، التي عاشت، وسادت وما زالت ...

لكن، من يضمن لنا أن ما نقدره من محذوفات فيما سقط من كلامهم هو ذاته الذي أرادوا إسقاطه، وأننا لم نجنح بعيدا عما نووا ؟

يقودنا ابن جني إلى برد الطمأنينة فيقول :

" والذي يدل على أنهم قد أحسّوا ما أحسسنا، وأرادوا وقصدوا ما نسبنا إليهم إرادته وقصده شيئان:

أحدهما حاضر معنا، والآخر غائب عنا، إلا أنه مع أدنى تأمل في حكم الحاضر معنا؛

فالغائب ما كانت الجماعة من علمائنا تشهده من أحوال العرب ووجوهها، وتضطر إلى معرفته من أغراضها وقصودها من استخفافها شيئا، أو استثقاله، وتقبله أو إنكاره، والأنس به أو الاستيحاش منه، والرضا به، أو التعجب من قائله، وغير ذلك من الأحوال الشاهدة بالقصود، بل الحالفة على ما في النفوس"(٣).

---

(١) محمد أبو موسى ، دلالة التراكيب ، مكتبة وهبة، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٧ .

(٢) الخصائص ، ج١، ص٣٠٨ ، ٣٠٩ .

(٣) الخصائص ، ج١، ص ٢٤٥، وهو يورد أمثلة كثيرة توضح مراده .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهم، على هذا، دائمو النظر، والتبصر، والتفكر في أمر هؤلاء الأعراب، ونواياهم، ومقاصدهم، وأساليب كلامهم.

وأما الحاضر الذي أشار اليه ابن جني فنعود إلى سيبويه ليفصح عنه بقوله :

"وهذه حجج سمعت من العرب، وممن يوثق به، يزعم أنه سمعها من العرب، من ذلك قول العرب في مثل من أمثالهم: اللهم ضبعا وذئبا إذا كان يدعو بذلك على غنم رجل، وإذا سألتهم ما يعنون قالوا:

اللهم اجمع (أو اجعل) فيها ضبعاً وذئباً، وكلهم يفسِّر ما ينوي، وإنما سهل تفسيره عندهم لأن المضمر قد استعمل في هذا الموضع عندهم بإظهار(١).

يتضح مما سبق كم استعنى سيبويه والنحاة في سبيل النفاذ إلى ما يطمئنهم على سلامة أدلتهم، وصدق أحكامهم، وأنهم جدوا في استبطان نوايا الأعراب المحتج بهم لمعرفة مقاصدهم ونواياهم!

مدى الثقة بسيبويه

من النادر أن يرى المرء إجماعاً على تقدير عالم كما وقع لسيبويه، فمع المنافسات والمشاحنات، ومطامع الدنيا، وتغاير وجهات النظر، التي كانت كما يقال : تدفعهم الى تيجين بعضهم بعضاً، ولا يترك أحدهم لخصمه في ذلك سماءً ولا أرضاً(٢). مع كل ذلك لا تكاد تجد رأياً وجيهاً يمسّ سيبويه وينتقصه، بل تطالع الإشادة به وتبجيله من منافسيه قبل أنصاره ومحبيه، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تجمع في هذا الصعيد. وذلك يشمل شخصيته، وخلقه، وعلمه، وكتابه ...، وفيما يلي بعض أمثلة :

قالوا عنه: هو غاية الخلق(٣). وهو أعلم الناس بالنحو بعد الخليل(٤). وكتابه لم يسبقه الى مثله أحد قبله ولم يلحق به أحد بعده(٥) . وقد سمّوه قرآن النحو(٦) . وسمّوه البحر(٧) . ولشهرته

---

(١) الكتاب، ج١، ص٢٥٥، وقد أورد ابن جني أمثلة عديدة في الخصائص، ج١، ص٢٤٩ –.

(٢) ينظر ابن جني، الخصائص، ج٣، ص٣١٢.

(٣) ابن الأنباري، نزهة الألباء، ص ٥٥.

(٤) أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص ٦٥.

(٥) السيرافي، أخبار النحويين، ص ٤٨، وابن الأنباري، نزهة الألباء، ص ٥٥.

(٦) أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص ٦٥.

(٧) السيرافي، أخبار النحويين، ص٥٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صار اسمه (الكتاب) علماً معلوماً (١) . وتحرجوا أن يصنعوا كتاباً على شاكلته (٢) . ولم يجدوا أنفس منه هدية للحكام(٣) .

وقد ثوّر هذا الكتاب حوله نهضة نحوية وما زال، فأثره في النحو العربي شرقاً وغرباً لا يحتاج الى دليل. وفي الشروح عليه، وشروح مشكلاته، وشواهده، واختصاراته، والاعتراضات عليه، وردها، في ذلك كلّه مكتبة نحوية قديمة حديثة زاخرة، ما زلنا نعتاش عليها ونلجأ إليها ..

وقد شهد له بالفضل خصوم، فالفراء مات وتحت رأسه كتاب سيبويه(٤) ، والكسائي يشدّ الرحال الى البصرة فيقرؤه على الأخفش، وينقده خمسين ديناراً(٥). والمديح يشمل أستاذ سيبويه كذلك بما يضيق المجال عن ذكره هنا(٦).

وقد كثرت إشارتهم إلى إحاطة سيبويه، وجمعه، وتقصيه، وصبره على الاستقراء(٧).

وذلك يوصلنا إلى بعض الرضا بأنّا نقف على أرض صلبة، فظاهرة الحذف ظاهرة واقعية استقراها النحاة، وتتبعوها، ولم يفتعلوها، وكان لزاماً عليهم أن يدرسوها، ويقعدوا لها، وقد فعلوا ...

وهذا الإطراء العظيم على سيبويه : خلقه، وعلمه، واستقرائه، وكتابه، وأستاذه، يؤمّل منه أن يحاصر ما بدا من بعض شكوك في مادّة الكتاب، فالرجل أوثق من أن يتهم. وعلمه، وطول باعه، واستقراؤه تسمح بالثقة في اختياره. وما زخر به كتابه وطريقة معالجته له مستنفذاً كل جهد، سادّا كل منفذ، كلّ ذلك يجعل منه رائداً بحق، ولعله لم يكذب أهله.

---

(١) ينظر السيرافي، أخبار النحويين، ص٥٠، وابن الأنباري، نزهة الألباء، ص ٥٥.

(٢) ابن الأنباري، نزهة الألباء، ص ٥٦.

(٣) نفسه، ص ٥٥.

(٤) أبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص ٨٧.

(٥) السيرافي، أخبار النحويين، ص٥١.

(٦) ينظر مثلاً السيوطي، المزهر، ج١، ص٦٤ ، ٦٥، ٨٠، ٨١.

(٧) ينظر مثلاً ابن جني، الخصائص، ج٣، ص١٨٦ ، والأعلم الشنتمري، النكت، ج١، ص٩١.

وفي ثناء المحدثين على سيبويه وكتابه ينظر مثلاً:

- مقدمة عبد السلام هارون للكتاب، ج١، ص٢٠ - .
- مقدمة محمد علي سلطاني لكتاب السيرافي، شرح أبيات سيبويه، ص ٤ - .
- محمد عبدالخالق عضيمة، فهارس كتاب سيبويه، ص ٨ - .
- حسن عون، اللغة والنحو، ص ١٩٣-، وعلي النجدي، سيبويه إمام النحاة، ص ١٤٤ - .

ويحسن الرجوع إلى كوركيس عوّاد، سيبويه إمام النحاة في آثار الدارسين خلال اثني عشر قرناً، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٧٨، ص ٨ وما بعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأغلب الظن أنه صَحّ المنقول، وسلمت فطرة المنقول عنه، وصحّ طبعه، ودق إحساسه، وجدّ الناقل في أن يكون أميناً على ما نقل، وحرص جهده على أن تستقيم أداته، وتصدق أحكامه. فإلى أي مدى وفق في التعامل مع هذه المادّة المسموعة، وإلى أي مدى خدم هذا المنهج القرآن الكريم؟

سيحاول الجزء اللاحق من هذا البحث الكشف عن ذلك.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النحاة بين المعنى والصنعة النحوية

تمهيد

ثمّة مؤشران من خلال الاستهداء بهما يمكن أن يقيّم جهد النحاة في دراسة ظاهرة الحذف لا سيما في القرآن الكريم وهما :

مراعاة المعنى، والصنعة النحويّة.

فإن استطاع النحاة مراعاة الأمرين معاً، ولم يطغ اهتمامهم بأحدهما على الآخر، فذلك هو التوفيق... وإن لم يستطيعوا ذلك وقع الخلل والاضطراب. وكلما اتسعت الفجوة بين الأمرين زاد الفساد..

أكّد النحاة كثيراً أن الحذف خلاف الأصل، وأفاضوا في وضع قواعد تضبطه وتحدّ منه، وأبدوا ممانعتهم حذف بعض العناصر، وتحفظاتهم على حذف عناصر أخرى، وبدت لنا ظاهرة الحذف مقننة منضبطة.. فهل التزم النحاة بما تنادوا به ؟ وهل طبقوا ما آمنوا به نظرياً ؟ .....

يحاول الجزء التالي من هذا الحديث إلقاء الضوء -وفق الطاقة- على الجهد النحوي لتقييمه اعتماداً على ما ذكر، واستئناساً بهذه التساؤلات ..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النحاة والمعنى

يبدو أن ابن هشام قد تمثل جيداً جهد سابقيه من النحاة وصنيعهم، فاستحضر حيرتهم بين الالتفات إلى صناعتهم تارة، والاهتمام ما يتطلبه المعنى تارة أخرى، فوضع في المغني جهات عشراً(١) اعترض فيها على المعربين، جعل الأولى والثانية منها مخصصتين لعلاج هذه الحيرة. أما الأولى منهما فهي كما يقول: أن يراعي النحوي ما يقتضيه ظاهر الصناعة، ولا يراعي المعنى، وكثيراً ما تزل الأقدام بسبب ذلك.

وأورد مسائل كثيرة أوضح فيها أن المعرب يجب أن يتثبت فلا تقوده صناعته النحوية إلى الإسراع في البت في المسائل دون التروي لملاحظة المعنى ومراعاة متطلباته. وهذه إحدى المسائل التي أوردها:

يقول تعالى: ﴿أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾(٢). يتبادر إلى الذهن كما قال أن (أن نفعل) معطوفة على (أن نترك) أي: أن الصلاة تأمره أن يتركوا ما يعبد آباؤهم , وتأمره أيضاً أن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون، وهذا بيّن الفساد؛ فالصلاة تأمر بالأولى ولا يمكن أن تأمر بالثانية. فلا بدّ من وجود محذوف يعيد للمعنى استقامته. وبإعادة النظر يتبين أن (أن نفعل في أموالنا ما نشاء) معطوفة على معمول (أن نترك) وهو ما يعبد آباؤنا، فيكون المعنى:

أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا، أو أن نترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء. وبذلك تلتئم الصناعة النحوية والمعنى معاً لتقديم الفائدة(٣).

لا شك في أنّ النحاة في الكثير من مواطن الحذف، سعوا إلى هذا الالتئام، وجدّوا في نسج الصناعة والمعنى سدى ولحمة للكلام، وحرصوا على التراضي بينهما، فلبّوا ما تستلزمه صناعتهم، ولم يغفلوا المعنى.

واستذكروا أن نشأة النحو ما كانت إلا دفعاً للحن من ناحية، وتثبيتاً للمعنى الصحيح من ناحية أخرى؛ فالأعرابي الذي جاء يستوضح الإسلام ليدخل فيه، فسمع رجلا في المدينة يقرأ: ﴿إنّ الله بريء من المشركين ورسوله﴾(٤)، لم ينفره اللحن في الحركة وحسب، وإن كان ذلك

---

(١) تنظر في مغني اللبيب، ص ٦٨٤ وما بعدها، وينظر لها شبيه في الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج١، ص٣٠٤، والسيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج٢، ص٢٦٠.

(٢) هود، ٨٧.

(٣) ينظر مغني اللبيب، ص ٦٨٦.

(٤) التوبة، ٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مما يعاب به العربي ويسخط عليه بسببه، بل كان النفور مما استجره هذا اللحن من أثر في المعنى جعل الرسول الكريم مع المشركين في حكم واحد(١).

والأمثلة التي حفظتها كتب تاريخ النحو عن بدايات اللحن لا يخرج معظمها عن هذا: لحن في حركة يقلب المعنى، فيضيع المقصود، ويعز الفهم(٢).

فالأمر ليس لحنا في اللفظ يحارب، بل هو اهتمام بأثر ذلك في المعنى؛

" فلو كانت المشكلة لحناً فقط للقنوا الناس القراءة الصحيحة، لكن النحاة ومعظمهم قراء.... واجهوا أسئلة من طلابهم عند تعليل الظواهر"(٣).

ولذلك كانت غايات النحو منذ نشأته تسعى إلى تفسير حركات الإعراب بالنظر الى المعنى، و "البحث عن كل ما يفيد في استبطان النص، وفي معرفة ما يؤديه التركيب القرآني على وجه الخصوص باعتباره أعلى ما في العربية من بيان النحو العربي"(٤).

وفهم النحاة، كثير منهم، الإعراب على أنه صورة المعنى, وتكررت لهم أقوال كثيرة تصرح بهذا.. فهم يقولون: الإعراب هو " الإبانة عن المعاني بالألفاظ"(٥). ويقولون: "الإعراب هو الفارق بين المعاني"(٦). "ولولاه ماميز بين فاعل من مفعول..."(٧). ويقولون: "الإعراب عرض داخل في الكلام لمعنى يوجده ويدل عليه(٨)". و"الأسماء لما كانت تعتورها المعاني فتكون فاعلة ومفعولة ومضافة ومضافا إليها، ولم تكن في صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعاني... جعلت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعاني..."(٩). والإعراب "دخل ليفرق بين المعاني من الفاعلية والمفعولية(١٠)".

---

(١) ينظر في ذلك ابن جني، الخصائص، ج٢، ص٨، وابن الأنباري، نزهة الألباء، ج١٩، ص٢٠، والقفطي، إنباه الرواة، ج١، ص٥.

(٢) تنظر الأماكن السابقة ، وأبو الطيب اللغوي، مراتب النحويين، ص٢٣- ، والزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ص١٤- ، والسيرافي، أخبار النحويين ، ص ١٨ - .

(٣) عفيف دمشقية، تجديد النحو العربي، معهد الإنماء العربي، لبنان، ١٩٨١، ص٥٧.

(٤) عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، بحث في المنهج، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص١١.

(٥) ابن جني، الخصائص، ج١، ص٣٥.

(٦) ابن فارس، الصاحبي، ص٦٦، وينظر كلام له مشابه في ص١٩٠.

(٧) نفسه، ص٧٧ وينظر كلام مشابه في: السيوطي، المزهر، ج١، ص٣٢٧، ٣٢٨.

(٨) الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، مكتبة دار العروبة، القاهرة، ١٩٧٩، ص٦٧.

(٩) نفسه، ص٦٩.

(١٠) العكبري، التبيين عن مذاهب النحويين، ص١٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بل هم يشيرون بدقة إلى أن "الإعراب في الحقيقة معنى لا لفظ(١)".

هكذا فهموا الإعراب، ولعل هذه الأمثلة تثبت مغالاة النفر الذين ذهبوا إلى أن النحو العربي شكلي، لا يلتفت إلى المعاني(٢).

وتعازموا على الاهتمام بالمعنى، ونترك لابن جني أن يقول كلمة فصلا في هذا الأمر، فقد عقد بابا عنوانه:

"باب في تجاذب المعاني والإعراب"، ذكر فيه أن أستاذه كان يعتاده، ويلم كثيرا به "وذلك أنك تجد في كثير من المنثور والمنظوم الإعراب، والمعنى متجاذبين: هذا يدعوك إلى أمر، وهذا يمنعك منه، فمتى اعتورا كلاما ما أمسكت بعروة المعنى، وارتحت إلى تصحيح الإعراب"(٣).

ويقول في مكان آخر:

"فإن أمكنك أن يكون تقدير الإعراب على سمت تفسير المعنى، فهو ما لا غاية وراءه، وإن كان تقدير الإعراب مخالفا لتفسير المعنى تقبلت تفسير المعنى على ماهو عليه، وصححت طريق تقدير الإعراب حتى لا يشذ شيء منها عليك(٤)".

وكان المبرد قد أعلنها صريحة أنه يقف إلى جانب المعنى، فقال:

" كل ماصلح به المعنى فهو جيد، وكل ما فسد به المعنى فهو مردود(٥)".

وشبيه بذلك موقف ابن يعيش إذ نادى بإصلاح اللفظ لإصلاح المعنى(٦)".

وقد كان للنحاة فلتات معجبات، مسوا فيها بدقة ونباهة، وذكاء، تلك العلاقة بين ظاهر الأحكام النحوية، ومتطلبات المعنى الدلالي؛ فالفاعل في العربية ليس كل من كان فاعلاً في المعنى(٧). ففي قولهم: (مات زيد) لحظوا التناقض بين الحكم النحوي لكلمة (زيد) وبين المعنى الذي وقع عليه، إذ "سمي زيدٌ فاعلاً ولم يحدث بنفسه الموت، وهو مفعول في المعنى(٨)" . وتتكرر أقوال

---

(١) الجرجاني، المقتصد في شرح الإيضاح، تحقيق كاظم بحر المرجان، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٢، ج١، ص٩٨، وتنظر أقوال أخرى في ابن القيم، بدائع الفوائد، ج١، ص٣٤، والسهيلي أبو القاسم عبد الرحمن ابن عبد الله ، نتائج الفكر في النحو، تحقيق محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، ص٨٢، وابن يعيش ، شرح المفصل، ج١، ص٧١ – .

(٢) ممن قال ذلك تمام حسان، اللغة العربية، ص٢١٣.

(٣) الخصائص، ج٣، ص٢٥٥، وينظر شبيه في ج١، ص٢٧٩، ج٣، ص٢٦٠.

(٤) نفسه، ج١، ص٢٨٣،٢٨٤.

(٥) المقتضب، ج٤، ص٥٩٨، وينظر شبيه في المصدر نفسه، ج٤، ص٥٧٩، ٦٣١ + ج٢، ص٥٤٢.

(٦) ينظر شرح المفصل، ج١، ص٩٦.

(٧) ينظر ابن جني، الخصائص، ج١، ص١٨٥.

(٨) ابن الأنباري، أسرار العربية، ص٨٨، ٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لهم كثيرة تؤكد أن الفاعل ليس القصد فيه أن يكون مخترعاً للفعل على حقيقته، بل تلك تسمية النحو. وتُعرض جمل مثل:

مات زيدٌ وهو لم يفعل موتا، وكذلك طلعت الشمس، ونظف الثوب...(١)".

ويهمش النحويون أحيانا قواعد صناعتهم، ويسودون المعنى، وقد أوضح ذلك السيوطي فقال: "وصناعة النحو قد تكون فيها الألفاظ مطابقة للمعاني، وقد تكون مخالفة لها إذا فهم السامع المراد فيقع الإسناد في اللفظ إلى شيء وهو في المعنى مسند إلى شيء آخر.... فيجيز النحويون في صناعتهم أعطى درهم زيدا، ويرون أن فائدته كفائدة قولهم: أعطى زيد درهماً، فيسندون الإعطاء إلى الدرهم في اللفظ وهو مسند في المعنى إلى زيد(٢)".

ويقولون: خرق الثوب المسمار، وكسر الزجاج الحجر، مهملين الصناعة النحوية، معتمدين على المعنى الدلالي(٣). وفي مسائل الاشتغال والإغراء الشائكة تفلت بعضهم نحو المعنى والتفتوا إليه فقالوا: "اعلم أن المبتدأ إذا وقع الفعل على ضميره فنصبه جاز أن يسمى مفعولا على المعنى كقولك: زيدٌ ضربته. يجوز أن يقال: زيد مفعول(٤)".

إنَّ ما مضى من حديث يعد إطارا عاماً لاهتمام النحاة بالمعنى، فهل كان لذلك أثر في تقديرهم المحذوفات فالتفتوا إلى المعنى حين قدروا أو رفضوا التقدير، والتفتوا إليه حين عينوا نوع المقدر؟

نعم، إن ذلك بدا واضحا في كثير من المواضع التي أورد فيها سيبويه أمثلة للحذف وناقشها؛ فهو ميّال إلى تقدير المحذوفات حينما يستدعي المعنى ذلك، وإلى المعنى يحتكم كثيراً عند اشتباه الأمور، وعندما يطلب مايرجح تقديراً على تقدير. وقد وردت أمثلة على ذلك فيما سبق يمكن العودة إليها هناك(٥).

وعلى النهج ذاته مضى النحاة في كثير مما عرضوا ومثلوا، فثمة أمثلة كثيرة تلقيناها قدروا فيها محذوفات بدت فيها القاعدة منسجمة غاية الانسجام مع مايفرضه المعنى، وذلك هو النهج القويم: الالتفات إلى المعنى، مع عدم إغفال مايطلبه النحو، إذ "يعاب على الناشئ في

---

(١) ينظر الشنتمري، النكت، ج١، ص١٦٣.

(٢) الأشباه والنظائر، ج٣، ص١١٦.

(٣) ينظر نهاد الموسى، ظاهرة الإعراب في اللهجات العربية القديمة، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، ١٩٧٣، ص٧٢.

(٤) الأعلم الشنتمري، النكت، ج١، ص٣١١.

(٥) ينظر هذا البحث، ص٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

صناعة الإعراب أن يذكر فعلا، ولا يبحث عن فاعله، أو مبتدأ ولا يتفحص عن خبره، أو ظرفا أو مجروراً ولا ينتبه إلى متعلقه....(١)".

فهل يعترض على تقدير فعل أو خبر في قوله تعالى:

﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله﴾(٢).

وتقدير فعل في قوله تعالى: ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطيرُ الأولين﴾(٣).

وتقدير مبتدأ في قوله تعالى: ﴿وما أدراك ماهيه نارٌ حامية﴾(٤).

في مثل هذه المواضع، وغيرها كثير، ثمة حذف جاء توخياً للإيجاز، وهو فضيلة، وقام عليه دليل جليّ يوضحه ويرده، فأخذت القاعدة النحوية مستحقاتها، واستوفى المعنى مايطلبه، وصار الكلام وجيزاً رشيقا.

وهناك مواضع تجاوز فيها النحاة حدود صناعتهم النحوية، وحلّقوا بعيدا وراء المعنى، ومضوا يطالون حدود العلوم الأخرى كالبلاغة والتفسير، مدركين أن هذه الظواهر لا تتجلى حقائقها وأسرارها إلا بالنظر إليها نظرة شمولية متكاملة تكسر الحواجز الوهمية بين العلوم، وتجمعها معاً فريقاً واحداً لاستجلاء ماغمض، واستكشاف ما دقّ وخفي.

أما لفتاتهم البلاغية فسيكون لها وقفة أخرى لاحقة، وأما اهتمامهم بالتفسير، وهو جدير بالعناية لكشف نظرة النحاة إلى الحذف القرآني، فإنه وصل إلى الحدّ الذي اشتكى منه ابن هشام، وأوصى النحاة بتجنبه إذ قال:

"الحذف الذي يلزم النحوي النظر فيه هو ما اقتضته الصناعة، وذلك بأن يجد خبرا بدون! مبتدأ، أو بالعكس، أو شرطاً بدون جزاء، أو بالعكس، أو معطوفا بدون معطوف عليه، أو معمولا بدون عامل... وأما قولهم في نحو:

﴿سرابيل تقيكم الحر﴾(٥)، إن التقدير والبرد ... إنما ذلك للمفسر(٦)".

إن هذا الرأي يحمل قدراً كبيراً من الوجاهة، فهو دعوة إلى التخصص الذي غدا اليوم منهجاً في معظم الميادين والعلوم. لكن كثيراً من الظواهر اللغوية، لا يحسن فهمها، ولا يسهل إيضاحها إلا

---

(١) ابن هشام، الإعراب عن قواعد الإعراب، تحقيق رشيد عبد الرحمن العيدي، دار الفكر، ١٩٧٠، ص١٥٢، ١٥٣.

(٢) العنكبوت، ٦١.

(٣) النحل، ٢٤.

(٤) القارعة، ١٠، ١١.

(٥) النحل، ٨١.

(٦) مغني اللبيب، ص٨٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالنظر إليها من خلال جوانب متعددة تتلاقى فيها أنظار الصوت، والصرف، والنحو، والبلاغة، والتفسير، كلها ترعاها وتقدمها دافقة بالحيوية يكمل جانب منها النقص الذي قد يعتري جانبا آخر، ولعل ظاهرة الحذف خير مثال على ذلك:

وابن هشام نفسه، انساق إلى خارج ما تتطلبه صناعة النحو عند مناقشته هذ الظاهرة، فوفق في ذلك أيما توفيق، وأتى بالعجاب، ومازلنا نتكئ على ما قال ويفتح أمامنا آفاق الحديث، وقد اعتذر عن تجاوزه ذلك فقال:

"ولم أذكر بعض ذلك (يقصد التفسير والبيان) في كتابي جرياً على عادتهم .... بل لأني وضعت الكتاب لإفادة متعاطي التفسير والعربية جميعا"(١) .

ويحسن التعقيب على ذلك بأنه إن كان في تجاوز النحاة لصنعتهم النحوية وتمثلهم المعاني شر، فليتهم شغلوا بهذا الشر عن الشر الأكبر وهو نصرة القاعدة النحوية على المعنى ظلما.

على أية حال، أدرك النحاة أنهم يناقشون أمراً شائكاً، تمتد علائقه خارج ما تطلبه صنعتهم فتتبعوها، واستردوها منتصرين للمعنى، متجاوزين مستلزمات صنعتهم، ولعلهم أهل للحمد في كثير مما فعلوا.

فقد قدموا خدمات جلى لتفسير القرآن، وقدروا، ليس انصياعا لصناعتهم، بل تتبعا لدقائق المعاني، وأسرار القرآن، وتوضيحا لأحكامه، وتنزيها لله جل شأنه، مما يوصلنا إلى قناعة بقول أحد الباحثين:

"إن أي بحث يحاول تحديد الدلالة دون الاعتماد على النحو يعدّ عبثاً"(٢).

التفسير يتكئ على النحو –لاريب– لتفهم المعاني، وتبين المراد، لكن النحاة لم يكتفوا بتقديم هذه الخدمة الأولية من حيث توضيح الفاعلية والمفعولية، إلخ بل تعدوا ذلك لإظهار أثر الحذف في توجيه التفسير وتحديد مذاهبه:

في قوله تعالى : ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾(٣)،

أوجب النحاة النصب في (كل) رغم أنهم في مسائل مشابهة أجازوا الرفع على سعة الاختيار. وأوضحوا أن النصب هنا واجب؛ لأن فيه "دلالة لا توجد في الرفع، وذلك أنك إذا قلت: إنا كل شيء خلقناه بقدر، فتقديره: إنا خلقنا كل شيء خلقناه بقدر، فهو يوجب العموم؛ لأن قوله:إنا خلقنا كل شيء، لفظ عام فإذا قال: كل شيء خلقناه بقدر فليس فيه عموم؛ لأنه يجوز أن تجعل (خلقناه)

---

(١) المغني، ص٨٥٣.

(٢) نقلا عن محمود سليمان ياقوت، التراكيب غير الصحيحة، نحويا في الكتاب لسيبويه، دراسة لغوية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص٧٣.

(٣) القمر، ٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نعتا لشيء، وتكون (بقدر) خبرا لكل، ولا تكون فيه دلالة لفظية على خلق الأشياء كلها، بل تكون فيه دلالة على أنّ ما خلق الله منها خلقه بقدر(١).

وفي قوله تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾(٢)،

يستشعر ابن هشام خطورة أخذ الآية على ظاهرها، فذلك يدل على أن الله يعلم في هذا المكان أكثر من علمه في مكان آخر، وهذا يتنافى مع جلال صفاته عزّ شأنه، فيقول: " إن المتبادر أن حيث ظرف مكان لأنه المعروف في استعمالها ويرده أن المراد أنّه تعالى يعلم المكان المستحق للرسالة، لا أن علمه في المكان، فهو مفعول به، لامفعول فيه، وحينئذ لاينتصب بأعلم إلا على قول بعضهم بشرط تأويله بعالم، والصواب انتصابه بـ(يعلم) محذوف دل عليه أعلم(٣)".

وقد يرجحون الحذف لأن في عدم التقدير إخلالا بالمعنى، يقول تعالى: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة﴾(٤).

فيرى سيبويه أن (المقيمين) منصوبة على المدح، والكسائي يراها في محل خفض عطف على قوله تعالى (بما أنزل اليك). فيعلق القيسي:

"وهو بعيد لأنه يصير المعنى: يؤمنون بما أنزل إليك وبالمقيمين الصلاة"(٥).

ويقول تعالى:

﴿ففروا إلى الله﴾(٦)، فلا يدفعهم استيفاء نقص في قاعدتهم النحوية ليقدروا محذوفا، بل هو المعنى الذي جعلهم يقدرون: ففروا إلى الله بأعمالكم الصالحة(٧).

وفي قوله تعالى:

﴿إن مع العسر يسرا﴾(٨) ، لاتطلب القاعدة النحوية ما يكمل نقصا فيها، فهي تامة في ظاهرها، ولكنه المعنى الذي جعل النحوي يتفكر ليرى أن العسر واليسر ضدان، وأنهما لا يجتمعان، وأن

---

(١) الأعلم الشنتمري، النكت، ج١، ص٢٧١، وللتوضيح ينظر سيبويه، الكتاب، ج١، ص١٤٨، ومجالس الزجاجي، ص ١٣٤، ٢٢٤، والأمالي الشجرية، ج١، ص٣٣٨، والزجاج، إعراب القرآن، ج١، ص٣٨٢، وابن الأنباري، البيان في غريب إعراب القرآن، ج٢، ص٤٠٦.

(٢) الأنعام، ١٢٤.

(٣) المغني، ٦٨٩، وينظر القيسي مشكل إعراب القرآن، ج١، ص٢٦٦. ومثلها (إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله) الأنعام، ١١٧. ينظر معاني الأخفش، ج٢، ص٢٨٢.

(٤) النساء، ١٦٢.

(٥) القيسي، مشكل إعراب القرآن، ج١، ص٢١٣.

(٦) الذاريات، ٥٠.

(٧) ثعلب، مجالس ثعلب، ج١، ص١١٨.

(٨) الشرح، ٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعنى يفرض تقدير محذوف لايعارض القاعدة، ويسهم في إقامة المعنى، فقدر: إن مع انقضاء العسر يسرا(١). وعلى مثل هذا مضوا:

قد أدركوا أن استقامة المعنى تستلزم تقويم المبنى، واستحضروا لذلك ما يتطلبه المعنى عقيدة أو عقلا أو عرفا... وعللوا لتقدير المحذوف فأقنعوا:

يقول تعالى: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا﴾(٢).

قالوا:"أي تأويل الرؤيا، ولا بد من هذا الحذف؛ لأن الرؤيا مخايل ترى في النوم، فلا تحتمل صدقا ولا كذبا، وإنما يحتمل الصدق والكذب تأويلها.."(٣).

ويقول تعالى: ﴿تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت﴾(٤)، فقدروا : كدوران عين الذي "، وإنما أوجب هذا التقدير بهذه الحروف ليستقيم معنى الكلام؛ لأن تشبيه الدوران بالذي يغشى عليه من الموت لايستقيم، لأن الدوران عرض، والذي يغشى عليه من الموت جسم، والأعراض لا تشبه بالأجسام..."(٥) .

ولا تحتاج هذه التعليلات إلى كبير عناء لاستنتاج مدى دقة النحاة في تحكيم المعنى، وإدراكهم أن تقدير محذوف أحيانا هو الذي يحقق الفكرة، ويوضح المقصود. وقد دار علىبعض هذه المسائل السابقة نقاش مطول بين الفرق والمذاهب الإسلامية، وهاهم النحويون يستهمون معهم، ويؤكدون أنهم يجوبون آفاق التفسير، ويذللون شعابه.

فمن يلوم النحاة إن لجؤوا إلى مثل هذه التقديرات التي يطلبها المعنى حثيثا ويسابق إليها صناعتهم النحوية؟

أغلب الظن، ألا أحد عنده مسكة من نظر، أو رمق من فهم يخطئ النحاة في هذا؛ فقد حافظوا على سلامة قواعدهم النحوية، وردوا للكلام مايكمل به المعنى، فأصابوا حسنتين في آن.

وقد أدرك النحاة في كثير من الأحيان عظم مسؤوليتهم وهم يوظفون الإعراب مفاتيح لتفسير القرآن العظيم، ومراعاة أصول العقيدة فيه، واستخراج الأحكام الشرعية منه؛ فهناك حذف إن لم يتم تقديره ضاع الحكم الشرعي، فلا يمكن أخذ الكلام على ظاهره، ولا بد من تقدير محذوف يعيد له انسجامه، ويرد له المطوي من معناه.

ولنتأمل مثل هذه الآيات الكريمات:

---

(١) السيوطي، الأشباه والنظائر، ج٣، ص١٨٩.

(٢) الفتح، ٢٧.

(٣) ابن الأنباري، البيان في غريب إعراب القرآن، ج٢، ص٣٧٩.

(٤) الأحزاب، ١٩.

(٥) المصدر السابق، ج٢، ص٢٦٦، وينظر مواضع أخرى في المصدر نفسه، ج٢، ص٣٦٧، ٥٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدةٌ من أيام أخر﴾(١) .
- ﴿وعلى الذين يطيقونه فديةٌ﴾(٢) .
- ﴿فمن كان منكم مريضا أوبه أذى من رأسه ففديةٌ من صيام﴾(٣).
- ﴿فمن اضطُر غير باغ ولاعاد فلا إثمَ عليه﴾(٤).

كيف يجوز الاعتراض على تقدير محذوفات فيها؟ بل كيف يمكن استخلاص الأحكام الشرعية منها دون تقدير تلك المحذوفات:

- فهل كل من شهد الشهر مكلف بصيامه؟
- وما الذي فعله المريض حتى كلف بصيام عدة أيام أخر؟
- وهل تجب الفدية على من يطيقونه؟
- وهل تجب فدية الصيام على كل مريض أو كل من به أذى من رأسه؟
- وما الذي فعله المضطر حتى رفع الله سبحانه وتعالى الإثمَ عنه؟

كل هذا يجعل التقدير بالحذف ليس أمرا مستساغا فحسب، بل ضرورة واجبة. ويقاس على هذه الآيات الكثير من مشابهاتها التي يستعصي حملها على ظاهر ألفاظها؛ لأن في ذلك عطبا وخللا، وقد مر منها أمثلة عديدة في مواطن الحذف النحوي في القرآن الكريم(٥).

وفي استحضار ذلك، مايحقق القناعة بأن النحاة لم يغفلوا المعنى في كثير من المواضع، وأن كثيرا من المحذوفات التي قدروها لم تكن عبثا، بل هي مما تطلبته صناعتهم أحيانا وأيدها المعنى، ومما كانت صناعتهم عنه في غنى أحيانا أخرى، ولكن دفعهم إلى تقديرها المعنى.

فالمعنى له صدارة، وهو دليل على الحذف، يجوزه، ويهدي إليه، واهتمام النحويين به ثابت، تكاثرت الأدلة عليه.

ولعل الخطأ في تقدير المعنى هو الذي شحن رائد النحو (سيبويه) بهذه الدفقات العظيمة من العزيمة التي أثمرت هذا العلم الخطير(٦).

---

(١) البقرة، ١٨٥.

(٢) البقرة، ١٨٤.

(٣) البقرة، ١٩٦.

(٤) البقرة، ١٧٣.

(٥) ينظر هذا البحث، ص٦٦-.

(٦) ينظر ذلك في : الزجاجي، مجالس العلماء، ص١١٨، والسيرافي، أخبار النحويين، ص٤٣،٤٤، وابن الأنباري، نزهة الألباء، ص٥٤، وابن هشام، مغني اللبيب، ص٣٨٧. وتروي كتب التراجم قصصا مشابهة لحن فيها نحاة عندما أساؤوا تقدير المعنى، فألهب خطؤهم حماسهم لطلب النحو والتفوق فيه، ينظر مثلا خطأ للكسائي في نزهة الألباء ص٥٩، وفي السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، شركة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٤، ج٢، ص١٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النحاة والصنعة النحوية

وهذه هي الجهة الثانية مما اعترض به ابن هشام على المعرب، وقد تمت الإشارة إلى أختها مطلع هذا الفصل، ويوجزها ابن هشام قائلا:

"أن يراعي المعرب معنى صحيحا، ولاينظر في صحته في الصناعة"(١).

ويورد أمثلة منها قوله تعالى: ﴿وأنه أهلك عادا الأولى، وثمود فما أبقى﴾(٢).

وأشار إلى قول بعضهم إن (ثمود) مفعول به للفعل أبقى، فهذا مايدل عليه ظاهر المعنى، إلا أن هذا ممتنع في النحو؛ لأن ما النافية لها الصدر، فلا يعمل مابعدها فيما قبلها... هذا القيد الصناعي يضطر النحوي إلى البحث عن بديل، فإما أن يجعل ثمودا معطوفة على عاد، ويقدر للفعل أبقى فاعلا ومفعولا به، وإما أن يقدر فعلا وفاعلا كأن يقول: وأهلك ثمودا.

هذا المثال يلقي ضوءا على الصنعة النحوية ويفتح المجال للحديث عنها، ذلك أن النحاة بعد أن استقروا الكلام العربي الذي ارتضوه للاحتجاج، نظروا فيه ورصدوا حركاته، واندفعوا باحثين عن سبب هذه الحركات وعلتها، ومدى صحة القياس عليها.... وهكذا تواردت المسائل التي كونت بمجموعها قواعد الصناعة النحوية، واستمر النحاة لها رعاة، وعليها محافظين إلى أن نمت وتكاثرت، وغدت صنعة متشابكة الفروع متعقدة القضايا.

وكان (العامل) من أولى القضايا التي التفت إليها النحاة، فقد بحثوا عن سبب هذه الحركات التي تظهر على أواخر الكلمات، فاهتدوا إلى فكرة العامل، ووردت الكلمة بهذا اللفظ، حاملة هذا المعنى، منذ الصفحات الأولى في كتاب سيبويه، وذلك تحت الباب الذي خصصه لمجاري أواخر الكلم من العربية(٣).

وتلقفها النحاة من بعده، فما زالوا يطورون هذه الفكرة حتى غدت نظرية متكاملة ألفت فيها كتب خاصة، وفرعت الى عوامل لفظية، وأخرى معنوية(٤).

---

(١) المغني، ص٦٩٨ .

(٢) النجم، ٥٠، ٥١.

(٣) ينظر الكتاب، ج١، ص٣١.

(٤) من تلك الكتب: العوامل للفارسي، والعوامل المائة للجرجاني، وينظر السيوطي، الأشباه والنظائر، ج١، ص٢٣٥. ومن المحدثين: خليل عمايرة، العامل النحوي بين مؤيديه ومعارضيه، جامعة اليرموك.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أجمع النحاة على ضرورة وجود العامل مع اختلافهم في تحديده(١)، وأجمعوا على وجوده مع اختلاف نظرتهم إليه؛ أهو اللفظ نفسه كما يرى جمهورهم، أم هو المتكلم كما يرى ابن جني(٢)، أو هو المتكلم بإرادة الله كما يرى ابن مضاء القرطبي(٣)؟

ولم يجرؤ أحد على الدعوة إلى إلغاء العامل إلا ابن مضاء في القرن السادس الهجري(٤)، ثم كانت له أصداء في العصر الحديث، ذاعت، وخفتت، وذابت(٥).

وعلى الرغم من كثرة المتذمرين من العامل حديثا والداعين إلى تركه، إلا أن أحدا منهم لم ينجح في تقديم بديل مرض(٦).

ويحسن التنويه بأن النحاة أول أمرهم لم يجانبوا الحقيقة كثيرا حين عرضوا لفكرة العامل، وأشاروا إليها، وقعدوا لها، فهذه دروب بكر شقت بوادي هذا العلم، كانت تحتاج إلى علامات تهدي، وتعليلات تقنع، وسلك ناظم يضم المسائل المتشابهة. فتواردت الأفكار ولاسيما في بابي التنازع والاشتغال:

كل عامل لابد له من معمول، وكل معمول لابد له من عامل، ولا يلتقي عاملان على معمول، ولا معمولان على عامل، وهذه الحروف عوامل تختص بالدخول على الأسماء، وتلك الحروف عوامل تختص بالدخول على الأفعال.

ويحفظ لهم أول أمرهم توظيف العامل لخدمة المعنى، فأهم "العوامل في علامات الإعراب المختلفة إنما هو المعنى الذي يريد العربي أن يعبر عنه(٧)".

لكن الاهتمام بالعامل بدأ يطغى، وأصبح يقدر لتبرير الحركة دون التفات كبير إلى متطلبات المعنى(٨)؛ فبعد أن كان الإعراب علما للمعاني(٩)، أصبح أثرا للعامل. وترددت أقوالهم تثبت هذا، وتجعل الإعراب تلبية لدخول العوامل الظاهرة بل المقدرة أيضا. فهم يقولون: الإعراب

---

(١) البصريون والكوفيون، مثلا، لم يختلفوا في وجود العامل بل في تحديده.. ينظر، مثلا، ابن الأنباري، الإنصاف، المسائل: ٥،٦، ١٠-١٣.

(٢) ينظر الخصائص، ج١، ص١٠٩،١١٠.

(٣) ينظر الرد على النحاة، ص٧٧.

(٤) ينظر المصدر نفسه، ص٧٦.

(٥) ينظر هذا البحث، ص ٢٤٥.

(٦) ينظر منى إلياس، القياس في النحو، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥، ص٣٠.

(٧) حسن عون، اللغة والنحو، ص٨٩.

(٨) يحسن الرجوع إلى: داود عبده، التقدير وظاهر اللفظ، مجلة الفكر العربي، مجلد ١، عدد٨، ١٩٧٩، ص١٤.

(٩) ينظر هذا البحث، ص ٢١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هو "تغيير آخر الكلمة لعامل يدخل عليها في الكلام الذي بني فيه لفظا، أو تقديرا، عن الهيئة التي كان عليها قبل دخول العامل إلى هيئة أخرى(١)".

وكان طبيعيا ألا تستطيع القواعد الإحاطة بكل المسائل تضبطها وتحتويها، فالامتداد الزماني -كما سبقت الإشارة- واسع، والامتداد المكاني كذلك، واللهجات كثيرة، فكان لابد أن تكثر الشواذ، وينبري النحويون للدفاع عن القواعد، وكلما كثرت الشواذ ازداد النحاة إصراراً على سلامة القاعدة، وهنا دب الفساد، فكثر التأويل والتقدير بالحذف، وتحكمت الصنعة.

هذه الصنعة تبدو بواكيرها واضحة في الكتاب في مواضع كثيرة، منها قوله:

"وذلك أن من الحروف حروفا لا يذكر بعدها إلا الفعل، ولا يكون الذي يليها غيره مظهرا أو مضمرا(٢)" .

وقوله:

"و(لو) بمنزلة (إن) لايكون بعدها إلا الأفعال، فإن سقط بعدها اسم ففيه فعل مضمر في هذا الموضع تبنى عليه الأسماء"(٣).

وقوله:

"ولا يجوز أن تعطف على الكاف المجرورة الاسم لأنك لا تعطف المظهر على المضمر المجرور... لا يجوز أن تقول : هذا لك وأخيك(٤)".

ليس الهدف هنا استقصاء الأمثلة التي ظهرت فيها الصنعة النحوية، وتحكمها في الحكم على الكلام، فذلك منثور في الكتب النحوية لا تكاد تخلو منه مسألة.

المهمّ في الأمر، أن النحويين خلال بحثهم الدؤوب في سبيل الحفاظ على قواعدهم وجعلها مطردة، أرسوا قواعد كثيرة أملتها عليهم صنعتهم، وجعلوها معايير تضبط الكلام أحيانا، وتتحكم فيه أحايين.

وكان انتصارهم لهذه القواعد الصناعية يجعلهم يدوسون المعنى في كثير من المواضع، فبدت وعورة الطريق، وانكشفت عورة القاعدة، وظهر الانفصام واضحا بين مايتطلبه المعنى،

---

(١) ابن عصفور، المقرب، تحقيق أحمد عبد الستار الجواري وعبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧١، ج١، ص٤٧، وينظر شبيه في: ابن مالك، التسهيل، ص٧، والسيوطي، الأشباه والنظائر، ج١، ص٧٣،

(٢) الكتاب، ج١، ص٩٨، وينظر للتوضيح ابن الأنباري، البيان في غريب إعراب القرآن، ج٢، ص٢٨٣، ٩٧، وينظر هذا البحث، ص٢٩.

(٣) نفسه، ج١، ص٢٦٩، وينظر للتوضيح ابن الأنباري، الإنصاف، ص٦١٦.

(٤) نفسه، ج١، ص٢٤٨، وينظر الإنصاف ج٢، ص٤٦٣، والبيان في غريب إعراب القرآن، ج٢، ص٦٦، والسيوطي، الأشباه والنظائر، ج١، ص٢٣٩، ج٤، ص١٠٩، ١٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما تمليه الصنعة التي أصبحت سلطة قاهرة جائرة، وتوارى المعنى كسيفا مع أنه يفترض أن تكون له الصدارة والعناية.

وهذا مصداق قول الزركشي في إحدى المسائل" وإنما يقدر النحوي ليعطي القواعد حقها وإن كان المعنى مفهوما، وتقديرهم هنا أو غيره ليُرُوا صورة التركيب من حيث اللفظ مثالا، لا من حيث المعنى، ولهم تقديران: إعرابي وهو الذي خفي على المعترض، ومعنوي وهو الذي ألزمه وهو غير لازم"(١).

نعم، قهرتهم الصنعة النحوية، وشدتهم بعيدا عن المعنى، وكم تفيض كتب النحو بأمثلة صارخة لاسيما في مسائل الاشتغال، والتنازع، واختصاص الحروف والرتبة وغيرها ترى فيها ماصنع من أحكام النحو، يفرض سيطرته وسطوته على الكلام، ويوجهه غير وجهته. ولئن سألت النحاة أجابوا هم أنفسهم بما يدل على نصرتهم القاعدة النحوية مع قناعتهم بأن المعنى له نظر آخر:

"في مجالس العلماء، سأل مروان بن سعيد النحوي الأخفش: أزيداً ضربته أم عمراً؛ ألست إنما تختار في الاسم إذا كان المستفهم عنه الفعل؟ قال: بلى. قال: فأنت إذا قلت: (أزيد ضربته أم عمرو)، فالفعل قد استقر عندك أنه كان، وإنما تستفهم عن غيره عمن وقع به الضرب، فالاختيار الرفع. قال: والقياس عندي هو. قال أبو عثمان: وهو القياس عندي، ولكنّ النحويين اجتمعوا على نصب هذا لما كان معه الحرف الذي هو في الأصل بالفعل أولى..."(٢).

النص السابق يكشف، بعمق، حيرة النحاة بين أصول صناعتهم ومتطلب المعنى؛ فثمة نحويان يتحاوران فيقران أن المعنى يسوق الكلام على غير الجهة التي أجمع عليها النحاة، وقسروا الكلام قسرا عليها، واقتادوه غصبا إليها، لا لشيء سوى أنهم صنعوا حكما، بل صنما داروا حوله، ولم يستطيعوا الانفكاك من أسره.

كان المأمول أن تكون القاعدة النحوية في خدمة المعنى، وتبعا للمسموع الموثوق به من الكلام العربي، لكن النحاة بدأوا بالحرص على ضبط مسائل اللغة ونظمها في قواعد مطردة، وانتهوا إلى وضع قيود صارمة قست على اللغة وضيقت عليها الخناق، وأضرت بالمعنى، وعكرت صفوه.

يقول تعالى: ﴿إن امرؤٌ هلك﴾ ويقول ﴿إن امرأةٌ خافت...﴾ ويقول: ﴿ إن أحدٌ من المشركين﴾(٣).

---

(١) البرهان في علوم القرآن، ج٣، ص١١٥.

(٢) مجالس الزجاجي، ص٦١، وينظر ص٢٤٨، وينظر كذلك السيوطي، الأشباه والنظائر، ج٣، ص٨٥،٨٦.
وكان سيبويه قد شق الطريق في هذا، ينظر الكتاب، ج١، ص٢٦٩.

(٣) النساء، ١٧٦، النساء، ١٢٨، التوبة، ٦ على التوالي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيقول النحوي: العوامل في هذه المرفوعات: (امرؤ، وامرأة، وأحد)، أفعال مقدرة. وتتساءل لم لا يكون الاسم المرفوع بعد (إن) في الآيات المذكورة فاعلا للفعل الذي لحقه؟ فتنهال قوانين العامل وأحكام الصنعة النحوية تسد كل المنافذ:

فهذه أداة شرط تدخل على جملة فعلية، ولايجوز دخولها على جملة اسمية.

فإن أجبت: إن هذه جملة فعلية وأصل الكلام: إن هلك امرؤ... وقد تقدم الفاعل على فعله. قيل: هذا لايجوز، لأن الفاعل لا يتقدم على الفعل.

فتسأل: لم لايكون الاسم المرفوع مبتدأ؟

فيأتي الجواب: وهذا أيضا لايجوز لأن هذه الأداة مختصة بالدخول فقط على الجملة الفعلية.

فما الحل إذن؟

قيل: الحل بتقدير فعل محذوف وجوباً يفسره الفعل الظاهر في كل آية، يعني:

إن هلك امرؤ هلك.. إن خافت امرأة خافت...

ولا نملك إلا أن نسترجع حيرة طه حسين في أمثال هذا التقدير إذ قال:

'عندما تريد أن تفهم التلميذ قوله تعالى: ﴿وإن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله أو يبلغ مأمنه﴾. قلت: إنّ (أحد) فاعل لفعل محذوف تقديره: استجارك وإنّ تقدير الآية: إن استجارك أحد من المشركين استجارك ، فيسألك التلميذ وأين استجارك الأولى هذه ومن أين تأتي بها؟ ولم لاتكتفي بهذا الفعل الذي اكتفى به القرآن الكريم؟ كيف تجيبون؟"(١).

لعل الجواب هو أن مثل هذا التقدير يمثل انصياعا للصنعة النحوية، واستخذاء لأحكام العامل الجائرة، وإن الأمر لايخرج عن فعل وفاعل تم تقديم الثاني منهما لغرض معنوي، وتقدير المحذوف هنا إن هو إلا محض تحكم نحوي.

وتتوارد آيات بينات في الذكر الحكيم تدخل فيها إذا الشرطية على اسم مرفوع:

﴿إذا السماء انشقت﴾(٢). ﴿إذا السماء انفطرت﴾(٣). ﴿إذا الشمس كورت﴾(٤).

ومثل ذلك في القرآن كثير(٥).....

---

(١) محمود أحمد السيد، شؤون لغوية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٨٩، ص٦٦.

(٢) الانشقاق، ١.

(٣) الانفطار، ١.

(٤) التكوير، ١.

(٥) وردت أمثلة أخرى في الانشقاق، والانفطار، والتكوير، وتكفي الإشارة إلى أن في سورة التكوير وحدها اثنتي عشرة آية دخلت فيها (إذا) على اسم مرفوع.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والنحوي[١] يصر على أنّ (إذا) لاتدخل إلا على جملة فعلية، وأن الاسم المرفوع الظاهر ليس فاعلا أو نائب فاعل للفعل الذي يلحقه، كما أنه ليس مبتدأ، بل هو فاعل، أو نائب فاعل لفعل محذوف يفسره الفعل المذكور، فيكون هذا الاسم فاعلا لذلك المحذوف، ثم يليه الفعل المذكور ويقدر له فاعل آخر يعود على الاسم المذكور.

نشعر بالدوار ونحن نتابع هذا، فما الذي يدعو إلى تقدير هذه الأفعال، وخلق كل هذا الإشكال؟ وما الذي جناه المعنى من ذلك؟ وما الذي يخسره من عدم التقدير؟ ولم الإصرار على هذا التعسف؟

وليس بخاف ما يفيض به هذا الكلام من تمحل، وسوء تقدير؛ فالمعنى لايحتاج إليه، وظهوره يقود الكلام إلى ترهل وإسفاف.

وقد واجه الأخفش جمهور نحاة البصرة، فرفع هذا الاسم على الابتداء[٢]، ولكن رأيه ضاع وسط الزحام، وانزوى بعيدا شبه وحيد؛ فقد ضعف الزجاج قوله[٣]. وأما ابن الأنباري فلم ينصفه في إنصافه إذ حشد أدلة البصريين لرده فنسب إليه أنه يجوز رفع الاسم بعد (إن) على الابتداء، وقال: "وأما ما ذهب إليه أبو الحسن الأخفش من أنه (الاسم بعد إن) يرتفع بالابتداء ففاسد؛ وذلك لأن حرف الشرط يقتضي الفعل، ويختص به دون غيره، ولذلك كان عاملا فيه، وإذا كان مقتضيا للفعل ولا بدّ منه بطل تقدير الابتداء إنما يرتفع به الاسم في موضع لايجب فيه تقدير الفعل؛ لأن حقيقة الابتداء هو التعري من العوامل اللفظية المظهرة أو المقدرة، وإذا وجب تقدير الفعل استحال وجود الابتداء الذي يرفع الاسم، وبهذا يبطل قول من ذهب من الكوفيين وغيرهم إلى أن الاسم بعد (إذا) مرفوع لأنه مبتدأ..."[٤].

ويحسن التنويه هنا بأن ابن الأنباري يناقش رأي الأخفش في الاسم الواقع بعد (إن) وليس الاسم الواقع بعد (إذا)، وقد أوردناه هنا لأن الفكرة في الموضعين واحدة، وفي كلام ابن الأنباري نظر:

---

(١) ينظر هذا البحث، ص٨٤.

وينظر مثلا: القيسي، مشكل إعراب القرآن، ج٢، ص٤٤٦،

وابن يعيش، شرح المفصل، ج٤، ص٩٦،٩٧.

(٢) ينظر ابن جني، الخصائص، ج١، ص١٠٥، فقد نسب هذا الرأي للأخفش. لكن ما أورده الأخفش نفسه في معاني القرآن ، ج٢، ص٥٣٤ يدل على أنه حمل رفع الاسم بعد (إذا) على التقديم والتأخير.

(٣) ينظر إعراب القرآن، ج١، ص ٣٣٢.

(٤) الإنصاف في مسائل الخلاف، ج٢، ص٦٢٠، المسألة (٨٥).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فمن المستغرب أن ينسب هذا إلى الأخفش(١)، فهو في معاني القرآن لايبدي هذا الرأي، بل يقدر فعلا كسائر النحاة(٢).

ولعل الصحيح أنه لم يجز الابتداء صراحة إلا بعد إذا.

ثم إن هذا التعليل الذي أورده ابن الأنباري لرد تقدير الابتداء تعليل كليل؛ فلا أدري ما الذي أبطل رأي الأخفش والكوفيين؟ وهل ينهض هذا القيد الصناعي ليقوم دليلا مقنعا يجعلنا نقدره ونقدمه ونتبعه ونتخلى عن واقع الاستعمال اللغوي؟ فمن الذي صنع هذا القيد؟ ومن أعطاه السلطة لمغالبة اللغة؟

وفي إضمار (أن) الناصبة للفعل المضارع يواجه الباحث متاهة كبرى، وجفوة عظمى بين واقع اللغة وقواعد الصنعة.

فهناك حروف تدخل على الفعل المضارع مثل حتى(٣)، واللام(٤)، والفاء(٥) ... فيبدو منصوبا بعدها كقوله تعالى:

﴿فتربصوا حتى يأتيَ الله بأمره﴾(٦). وقوله: ﴿يريد الله ليبينَ لكم﴾(٧). وقوله ﴿وماكان الله ليعذبَهم﴾ (٨)..

صنع النحاة قيودا تمنع هذه الحروف من العمل مباشرة في نصب الفعل المضارع، من ذلك أن اللام وحتى -مثلا- حرفان يدخلان على الأسماء لا على الأفعال، وهذا جَهَدهم، فقدروا حرفا ناصبا محذوفا هو (أن)، ثم أولوا هذا الحرف والفعل الذي دخل عليه ونصبه بمصدر حتى يطابق ذلك ماصنعوه من قاعدة، وهذا قادهم إلى عنت، وبطش بالمعنى أحيانا.

---

(١) ممن نسبه إليه من المحدثين: طاهر حمودة، ظاهرة الحذف، ص٢٣٩، وشوقي ضيف، المدارس النحوية، ص٩٩.

(٢) هو لم يوضح مقصده في قوله تعالى: (إن امرأة خافت) ج١، ص٢٤٦. إلا أنه في قوله تعالى: (وإن أحد من المشركين استجارك) جعل تقدير فعل مضمر أقيس الوجهين، ج١، ص٣٢٧.

(٣) ينظر ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، المسألة ٨٣، ج٢، ص٥٩٧.

(٤) ينظر المصدر نفسه، المسألة ٧٩، ج٢، ص٥٧٥،

والمسألة ٨٢، ج٢، ص٥٩٣.

(٥) نفسه، المسألة ٧٦، ج٢، ص٥٥٧.

(٦) التوبة، ٢٤.

(٧) النساء، ٢٦.

(٨) الأنفال، ٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بل الأدهى والأمر أنهم عندما وجدوا فئة منهم تجيز دخول (حتى) على الأفعال كما دخلت على الأسماء، ولا تلجأ إلى التقدير، عندما وجدوا ذلك، راحو يستنون تشريعات غريبة تضعف ذلك، فخرجوا علينا بقولهم:

الإضمار أحسن من الاشتراك، ولذلك كان قول البصريين: إن النصب بعد حتى بأن مضمرة أرجح من قول الكوفيين إنه بحتى نفسها، وإنها حرف نصب مع الفعل وحرف جر مع الاسم"(١)!

وفي حرف الفاء بدا الأمر أكثر عسفاً عندما أصروا على أن تبقى حرف عطف، وأنها ليست مما ينصب الفعل المضارع، فجرهم هذا إلى تأويل مصدر قبلها، ومصدر بعدها ليعطفوا الثاني على الأول منهما، ويطيحوا بالمعاني لتتحول إلى غير ما أريد لها(٢).

وكان يمكن أن ينظر إلى الأمر نظرة وظيفية كما يرى عفيف دمشقية، كأن يقال: هذه الحروف إن دخلت على الفعل المضارع تنصبه للإبانة عن معان محددة كأن يكون الثاني نتيجة حتمية للأول، وهذا عنده كما هو عندنا "أفضل من الغوص في الفروض، والضرب في متاهات الغيبيات، الأمر الذي لايساعد قط. على تقويم الألسنة وضبط اللغة، وهما الهدف الأول والأخير للنحو"(٣) .

وفي مبحث النداء، نرى الصنعة النحوية تطغى على كل شيء فتفسد المعنى، وتخرج الكلام عن أصله الذي وضع له وترى النحاة في حيرة كبرى أحيانا، وفي إصرار على التمحل والدفاع عن صنعتهم بعناد واستكبار أحيانا أخرى، وبين هذه وتلك نرى صحوات لبعضهم، وصيحات تضيع.

لقد وجدوا أداة نداء محذوفة، فتقبلوا ذلك معللين بأنه إذا أمن اللبس وتوافرت قرائن دالة جاز حذف أداة النداء، وفي ذلك تقريب للمنادى من المتكلم وتلطيف لمحله عنده(٤)، وكثر حذف الأداة في مخاطبة الربّ في القرآن الكريم للتنزيه والتعظيم(٥). وموقفهم هذا مقبول، وتسويغهم حسن.

---

(١) ينظر السيوطي، الأشباه والنظائر، ج١، ص٧٢.

(٢) ينظر ابن مضاء القرطبي، الرد على النحاة، ص٨٠.

(٣) المنطلقات التأسيسية، ص١٨٠.

(٤) ينظر الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص٣١٥.

(٥) ينظر الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج٣، ص٢١٣. وقد ذكر أحمد بدوي أنه لم يجد الأداة مذكورة في نداء الرب إلا مرة واحدة في القرآن الكريم، (الزخرف، ٨٨)، ينظر كتابه: من بلاغة القرآن، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، وأقره على هذا عبد الفتاح لاشين، في كتابه المعاني في ضوء أساليب القرآن، ص١٩. والصحيح أنها ذكرت أيضا في الفرقان، ٣٠. وينظر محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص٢٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومع ذلك، فقد ظهرت فئة منهم تحفظت على حذف أداة النداء، وفئة ثانية منعته مع النكرة مقصودة أو غير مقصودة، وفئة ثالثة منعت حذف الأداة مع اسم الإشارة(١)".

وأما الاسم المنصوب بعد أداة النداء، فقد استدعتهم نظرية العامل تقدير عامل نصب في هذا الاسم فقالوا: إنه منصوب بفعل محذوف وجوبا(٢) تقديره أدعو، أو أنادي، ولا يخفى ما في هذا من نسف المراد من الكلام وتحويل وجهته من الإنشاء إلى الخبر.

ويوازن المرء بين ترددهم في تقدير أداة نداء محذوفة وهو تقدير مقبول، وتشددهم في تقدير فعل محذوف للمنادى وهو تقدير غير مطلوب، فيستغرب. ثم يزداد استغرابا وهو يتابع إيغالهم الأكبر في تقدير عوامل ومعمولات في مواضع أخرى هي أكثر ماتكون استغناء عن التقدير وأعظم نفورا منه كقوله تعالى:

﴿ألا يا اسجدوا﴾(٣). وقوله: ﴿ياليتني كنت معهم﴾(٤). وقوله: ﴿ياليتني مت قبل هذا﴾(٥).

في كل ذلك، تصر فئة من النحاة على أن العامل ومعموله قد حذفا معا.. ففعل النداء محذوف، والمنادى كذلك، ويجب ردهما جميعا(٦).

ولا مبالغة في القول، إن بعضنا يشعر بالغيظ وهو يرى الكسائي الذي عهدنا له مواقف كان فيها إلى جانب اللغة والمعنى، نراه يقدر منادى محذوفا في مثل قوله تعالى:

﴿قالوا سبحانك لاعلم لنا﴾(٧).

بل في مثل قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا﴾(٨).

وجاراه الزجاج في غلوائه، فقدر منادى محذوفا في مثل قوله تعالى:

---

(١) ينظر الزمخشري، المفصل، ٤٤ص، وابن يعيش، شرح المفصل، ج٢، ص١٦. وينظر المبرد، المقتضب، ج٤، ص٢٥٨، وابن الأنباري، أسرار العربية، ص٢٢٨ – .

(٢) تنظر مسألة العامل في المنادى: في العكبري، التبيين في مذاهب النحويين، ص٤٤٣. وينظر سيبويه، الكتاب، ج١، ص٢٩١، وابن جني، الخصائص، ج٢، ص٢٧٧، وابن يعيش، شرح المفصل، ج١، ص١٢٧، والسيوطي الأشباه والنظائر، ج١، ص٥٠، .

(٣) النمل، ٢٥.

(٤) النساء، ٧٣.

(٥) مريم، ٢٣.

(٦) ينظر: الفراء، معاني الفراء، ج٢، ص٢٩٠، والزجاج، إعراب القرآن، ج٢، ص٦٥٠، والزمخشري، المفصل، ص٤٨، وابن الأنباري، الإنصاف، ج١، ص٩٩.

(٧) البقرة، ٣٢، ينظر ابن الأنباري، البيان في غريب إعراب القرآن، ج١، ص٧٢، والقرطبي، الجامع، ج١، ص٢٨٧، والعكبري، التبيان، ج١، ص٤٩.

(٨) الإسراء، ١، ينظر القيسي، مشكل إعراب القرآن، ج٢، ص٢٤، والقرطبي، الجامع، ج١٠، ص٢٠٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

﴿قال لهم موسى ويلكم﴾(١).

لاجرم أن هذا عسف، وأيّ عسف! ففي مثل هذا تتسع الفجوة لتصبح واديا سحيقا بين مايقوله النحاة نظريا ومايطبقونه، وبين مايتطلبه المعنى، ومايقدرونه.

إنهم يتحفظون -نظريا- كثيرا على حذف أداة النداء ويرون حروف المعاني مما لايجوز حذفه، لأنها من المختصر، والمختصر لايختصر(٢) ويضعون قيودا لحذفها، وشروطا تحد من الاستكثار من ذلك... ومع ذلك يتجرؤون كثيرا فيقدرونها محذوفة هي والمنادى، ويختلقون للمنادى المحذوف عاملا ينصبه، ثم يحذفونه معه، ويلوون عنق الجملة بل يدقونه، فيغيرون وجهها ويتلاعبون بالمعنى، فيحولون المصدر النائب عن فعله في مثل قوله تعالى:(سبحانك...) إلى نداء، ثم يعيدون النداء بتقدير المحذوفات إلى خبر....! وهكذا يطوحون بالكلام ومعانيه كيفما يشاؤون.

ولا يردهم عن التقدير أن هناك أساليب في العربية لاتتضح فيها قضية الإسناد، وأن إخضاعها للعمل يقود إلى العنت. فهذا النداء أقرب إلى أسلوب انفعالي يأتي للتحسُّر: (ياحسرة)! وللاستعانة والندبة:(ياالله للمسلمين)! ويأتي دعاء: (يابؤسا لزيد)! وتوجعا: (يالهف نفسي)! وتعجبا: (ياحسنها)! وتمنيا! (ياليت)!(٣) أفي كل ذلك عامل محذوف يجب رده؟

إن صنيعهم ذاك، يذكرنا بإحدى وصايا ابن هشام، إذ حذر في الجهة الرابعة من اعتراضاته على المعربين، حذر المعرب من "أن يخرج إلى الأمور البعيدة، والأوجه الضعيفة، ويترك الوجه القريب والقوي، فإن كان لم يظهر له إلا ذاك، فله عذر، وإن ذكر الجميع قصد بيان المحتمل أو تدريب الطالب فحسن، إلا في ألفاظ التنزيل فلا يجوز أن يخرج إلا على مايغلب الظن إرادته(٤).

وقد ضاعت صيحات رشد لهم وسط هذا الصخب، فصاحب الكتاب، مثلا، نبه إلى أن أداة النداء قد تكون للتنبيه فحسب كما في قوله تعالى (ألا يا اسجدوا)، وتردد صدى صوته عند

---

(١) طه، ٦١، ينظر القرطبي، الجامع، ج١١، ص٢١٤.

(٢) ينظر ابن جني، الخصائص، ج٢، ص٢٧٣، وابن يعيش، شرح المفصل، ج٢، ص١٥، والسيوطي، الأشباه، والنظائر، ج١، ص٣٣-٣٥. وقد مر ذكر هذا في البحث، ص ٦٢.

(٣) تنظر الأمالي الشجرية، ج١، ص٢٧٥، وينظر ابن الأنباري، الإنصاف، ج١، ص٩٩،١١٨.

(٤) مغني اللبيب، ص٧١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن جني، وعند أستاذه من قبل الذي أصر على أن أداة النداء تكون للنداء، وتكون للتنبيه، وأنها في مثل هذه الآية قد خلصت للتنبيه(١).

وحاول بعض النحاة خلق المصالحة في بعض مواطن الإشكال، فاهتدى إلى أن أداة النداء إن وليها فعل أمر كما في الآية السابقة، فثمة منادى محذوف، وإن وليها تمن أو غيره، فهي للتنبيه(٢).

وابن مالك دار الرفض على لسانه إذ ضعف تقدير منادى محذوف في مثل: (ياليتني)، فبين أن ذلك ضعيف، لأن قائل ياليتني قد يكون وحده فلا يكون معه منادى.

ومع ضعف الاحتجاج بوحدة المنادي؛ إذ ليس كل منادى يكون موجودا عند من يناديه، مع ذلك فما قاله ابن مالك يمثل إحساسا بأن تقدير المنادى هنا ليس مما يصح، ولا يتطلبه المعنى. وليته قال: إن هذه صرخات انفعالية تقال في مواقف الفرح، أو الحزن، أو التوجع، أو الحسرة، ولا نداء حقيقيا فيها، ولاضرورة إلى خلق مسند ومسند إليه، فهذه الانفعالية "التي تسيطر أحيانا على مستخدم اللغة كاتبا، أو متكلما تجعله يكسر القاعدة النحوية بإيجاد علاقات أخرى بين الألفاظ، والأدوات المستعملة في التركيب، وهنا تنشأ علاقات جديدة تمثل خرقا للمثل النحوي الأعلى، وهذا الخرق قد يكون بتقديم ماحقه التأخير، أو العكس، أو الحذف، أو التكرير، أو ماقارب ذلك(٣).

---

(١) ينظر الخصائص، ج٢، ص١٩٦، ٣٧٦، وكذلك رأي ابن فارس في الصاحبي، ص ١٧٨،١٧٩. والسيوطي في الأشباه والنظائر، ج١، ص١٩٩.

(٢) ينظر ابن الأنباري، الإنصاف، ج١، ص٩٩، ١١٨، وابن هشام، المغني، ص٤١٤، وابن مالك، التسهيل، ص ١٧٩.

(٣) ينظر فندريس، جوزف، اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٠، ص٢٠٢، وينظر أيضا تمام حسان، الأصول، دراسة أبيستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢، ص١٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد تلجلجت الحيرة بشأن النداء في قلوب النحاة، وترددت في مؤلفاتهم، فتوارثاها عنهم، وتناولها المحدثون(١)، وأجهدوا فيها النفس بالنظر، والأماني بأن يكون النحاة قد أراحوا أنفسهم وأراحونا من هذا العناء الذي لاطائل تحته.

هذه أمثلة تكشف بعد النحاة عن واقع اللغة أحيانا ومجافاتهم المعنى خضوعا للصنعة النحوية.

هذه الصنعة التي دفعتهم إلى تغليط العرب، وتخطئتهم في أقوالهم التي تعارضت مع قواعدهم(٢)، وأكثر من ذلك دفعتهم في كثير من الأحيان إلى رد القراءات وتسفيه القراء... والأمثلة كثيرة:

القارئ الثبت يقرأ: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾(٣) بجر الأرحام. وهي قراءة أحد أئمة القراءات، وقرأها من بعد قراء أثبات(٤).

والنحاة -لاسيما البصريون منهم- (٥) يزورّون عن هذه القراءة؛ لأن فيها عطف ظاهر على مضمر، فيتجرأ بعضهم عليها، فيرفضها، بل يحرّمها، فقد قال المبرد عنها: "لاتحل القراءة

---

(١) ينظر مثلا :

عفيف دمشقية، المنطلقات التأسيسية، ص٢١٩، ومهدي المخزومي، في النحو العربي، قواعد وتطبيق على المنهج الحديث، ص٢١٨.

وبرجستراسر، التطور النحوي للغة العربية، أخرجه وصححه وعلق عليه رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، ١٩٨٢، ص١٢٥، وعبد الرحمن أيوب، دراسات نقدية في النحو العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٧، ص٤٦.

(٢) ينظر في تغليط النحاة العرب، ابن جني، الخصائص، ج٣، ص٢٧٣، ابن الأنباري، الإنصاف، ج١، ص١٨٦ - ١٩١ ، ج٢، ص٤٧١، ٥٦٥.

وينظر مانسبه سيبويه للعرب من الغلط في: محمد عبد الخالق عضيمة، فهارس كتاب سيبويه، ص٤٣.

وهم في ذلك ساهون عن أن اللغة لا تنقاد دوما إلى القياس، ولعل أبا علي الفارسي كان أكثرهم فطنة لهذا الأمر إذ علل (أغلاط العرب) قائلا:

"إنما دخل هذا النحو في كلامهم لأنهم ليست لهم أصول يراجعونها، ولا قوانين يستعصمون بها وإنما تهجم بهم طباعهم على ماينطقون به فربما استهواهم الشيء فزاغوا به عن القصد" السيوطي، المزهر، ج٢، ص٤٩٤.

(٣) النساء، ١. ومثلها كثير ومن ذلك: البقرة، ٢١٧، والنساء، ١٢٧، ١٦٢.

(٤) ينظر توضيح في ابن الأنباري، الإنصاف، ج٢، ص٤٦٣، وابن يعيش، شرح المفصل، ج٣، ص٧٨.

(٥) شاع أن الكوفيين يجيزون هذه القراءة: (ينظر ابن الأنباري، الإنصاف، ج٢، ص٤٦٣)، وفي هذا تعميم؛ فالفراء استقبحها وجعلها من الضرورات، (ينظر معاني الفراء، ج١، ص٢٥٢،٢٥٣).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بها"(١). مما دعا ابن يعيش إلى إظهار عدم رضاه من قوله ذلك، لأن القارئ إمام ثقة، ولاسبيل إلى رد نقل الثقة .... وإذا صحت الرواية لم يكن سبيل إلى ردها(١).

ويحتال لها آخرون بجعلها قسما، أو جعلها مجرورة بباء مقدرة غير الملفوظ بها، وقد حذفت بدلالة أختها عليها، والتقدير: وبالأرحام. ويحتجون على ذلك ببيتين من الشعر مجهولَيْ القائل أوردهما سيبويه، في كل منهما جر اسم بحرف جر مقدر بدلالة حرف جر مذكور(٢).

وكان ذلك رأيهم إذا تصادمت القراءة مع قواعدهم، بعضهم يرفض، بل يسفه القارئ، ويتفه قراءته(٣). وجمهورهم يجهد نفسه بالتأويل، وتقدير المحذوفات حتى تلتقي القراءة وقاعدته.

والأكثر طرافة أن بعضهم كان يصعب عليه تعديل قاعدته بما يتفق والقراءة، في الوقت الذي يسهل فيه عليه رمي القراء بالجهل(٤)، واتهام الكتاب بالخطأ:

ففي آية مشابهة مسابقة وهي قوله تعالى:

﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة﴾(٥).

يدل الظاهر على أن المقيمين معطوفة على الكاف التي هي في محل جر بـ (إلى)، ولكن الصناعة النحوية تنص -كما ذكر- على عدم جواز عطف الظاهر على الضمير المجرور، فاعترض النحاة على هذه القراءة، وخرجوا، وأولوا، ولم يكتفوا بذلك بل قالوا:

"روي عن عائشة عليها السلام أنها سئلت عن هذا الموضع، فقالت: هذا خطأ من الكتاب(٦)".

ويفتعلون نسيجا يحاولون أن يكون مقنعا، فيقولون:

"وروي عن بعض ولد عثمان أنه سئل عنه، فقال: إن الكاتب لما كتب (وما أنزل من قبلك) قال: ما أكتب؟ فقيل له اكتب والمقيمين الصلاة، يعني أن المملي أعمل قوله (اكتب) في (المقيمين)"(٧).

---

(١) ينظر شرح المفصل، ج٣، ص٧٨.

(٢) ينظر المصدر نفسه، ج٣، ص٧٨،٧٩.

(٣) ينظر اعتراضات على القراءات في ابن الأنباري، الإنصاف، ج٢، ص٤٦٣، وفي معاني الفراء، ج١، ص١٤٥، وفي القرطبي، الجامع، ج٥، ص ٧ ، ٨ . وللتوضيح تنظر إحصائية فيها نصيب كل قارئ من تخطئة النحاة، تنظر في: محمد عبد الخالق عضيمة، دراسات في أسلوب القرآن، ص٣٤ ومابعدها.

(٤) ينظر ابن جني، الخصائص، ج١، ص٧٣، فقد قال: القراء أتوا من ضعف درية لا ضعف أمانة.

(٥) النساء، ١٦٢، ويبدو في الآية مشكلة أخرى تتمثل فيما يظهر من عطف (المقيمين) على (الراسخون) أو (المؤمنون).

(٦) ابن الأنباري، الإنصاف، ج٢، ص٤٧١.

(٧) المكان نفسه، وينظر السيوطي، الاقتراح، ص٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتفوح رائحة صناعة هذا الخبر تحاكي الصناعة النحوية ليقر في الذهن أن النحاة في كثير من الأحيان كانت حماستهم الزائدة لصناعتهم تزيغ أبصارهم والبصائر عن دروب الرشاد.

ولايملك المرء أحيانا إلا أن يشفق على النحويين وهم يواجهون بعض الآيات التي خرجت عن النسق القاعدي فيغصون بها ويحارون في أمرها:

يقول تعالى:

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين﴾(١).

ويقول أيضا:

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى﴾(٢). فيهش النحاة لمثل هذا لأن الآيتين توافقان قواعدهم وتدعمانها.

ولكنه سبحانه وتعالى يقول أيضا:

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون﴾(٣) . وهنا تغلب النحاة حيرتهم، وتثور ثائرتهم، إذ كيف يبدو ظاهرا عطف (الصابئون) المرفوعة على (الذين) وهي اسم إن، وحكمه النصب؟(٤)

ثم تصدمهم آية أخرى يبدو فيها اسم إن مرفوعا ليرفعوا عقائرهم بالصراخ:

يقول تعالى: ﴿إنّ هذان لساحران﴾(٥).

وتتوارد آيات أخرى مثل قوله تعالى:

﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين﴾(٦).

وقوله:

﴿ثم عموا وصمّوا﴾(٧).

---

(١) البقرة، ٦٢.

(٢) الحج، ١٧.

(٣) المائدة، ٦٩.

(٤) ينظر في هذه الآية وتخريجاتها:

النحاس، إعراب القرآن، ج١، ص٦٨، وابن الأنباري، أسرار العربية، ص١٥٣، والعكبري، التبيين، ص٣٤١، وابن هشام، شرح الشذور، ص٥١.

(٥) طه، ٦٣. وينظر في تخريجاتها: معاني الأخفش، ج١، ص١١٣، والإمام ابن خالويه، الحجة في القراءات، تحقيق عبد العال سالم مكرم، ط٣، دار الشروق، ١٩٧٩، ص٢٤٢، وابن هشام، شرح الشذور، ص٥١ أيضا.

(٦) البقرة، ١٧٧ ينظر في شأنها: معاني الأخفش، ج١، ص١٥٦،١٥٧، والأمالي الشجرية، ج١، ص٣٤٤، وإعراب النحاس، ج١، ص٢٣١.

(٧) المائدة، ٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقوله: ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾(١).

وينتفض النحاة من هذه المخالفة الصاعقة لقواعدهم، إذ كيف يبدو اسم إن مرفوعا بالألف، وقواعدهم التي شقوا في استقرائها تجعله منصوبا؟ وكيف يعطف منصوب على مرفوع؟ وكيف يكون لفعل واحدٍ فاعلان؟

إن مثل هذه الآيات -لاشك- أرهقت النحاة، وكان واجبهم يحتم عليهم الدفاع عن قواعدهم.. فعجّل هذا ثورتهم على القراء أو الكتاب، فبعد أن يدافعوا ببسالة عن القاعدة النحوية تقديراً وتأويلاً، كانوا يحاولون محاصرة آخر خيوط الشك بأن ينسبوا الخطأ إلى هذا الوجه المرجوح -كما يرون- الذي قرئت به الآية، أو كتبت.

وموقفهم من هذه الآيات أيضا يمثل ذلك، فقد ضجوا منها كاسرة قواعدهم، فتشبث بعضهم بالوهن فيما رواه الفراء عن السيدة عائشة أم المؤمنين أنها سئلت عن قوله تعالى (إن هذان لساحران) فقالت:"يا ابن أخي، هذا خطأ من الكتاب"(٢).

ونسب بعضهم إليها، أو إلى عثمان رضي الله عنه القول: "إن في القرآن لحنا ستقيمه العرب بألسنتها(٣)".

وقد استهجن بعض النحاة أنفسهم(٤) مثل هذا الاتهام، فاستبعدوه، وطعنوا في صحته، فهذا القرآن ﴿لايأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾(٥) .والحديث المزعوم لأم المؤمنين بعيد الثبوت عنها؛ فهذه القراءات موجهة، وهي قراءة السبعة أو الأكثر، فلا يلابسها الخطأ؛ لأنها صحت في العربية وثبتت في النقل.

وأفضل ما وجدت دحضاً لهذه التهمة، وتفنيداً لهذا الزعم قول السيوطي:

"معاذ الله! كيف يظن أولا بالصحابة أنهم يلحنون الكلام فضلا عن القرآن، وهم الفصحاء اللدد؟ ثم كيف يظن بهم ثانيا في القرآن الذي تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم كما أنزل، وضبطوه، وحفظوه وأتقنوه؟ ثم كيف يظن بهم ثالثا اجتماعهم كلهم على الخطأ أو كتابته؟ ثم كيف يظن بهم

---

(١) الأنبياء، ٣، ينظر في شأنهما: معاني الأخفش، ج١، ص٢٦٢، والأمالي الشجرية، ج١، ص١٣٣، وابن الأنباري، البيان في غريب إعراب القرآن، ج٢، ص١٥٨.

(٢) ابن هشام، شرح شذور الذهب، ص ٥١، وينظر القرطبي، الجامع، ج٧، ص١٨.

(٣) شرح الشذور في المكان نفسه.

(٤) نفسه أيضا، ص٥٠، وينظر ابن الأنباري، الإنصاف، ج٢، ص٤٦٣، وفيه توجيهات لمثل هذه القراءات.

(٥) فصلت، ٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابعا عدم تنبههم ورجوعهم عنه؟

ثم كيف نظن بعثمان أن يقرأه ولا يغيره؟ ثم كيف يظن أن القراءات استمرت على مقتضى ذلك الخطأ وهو مروي بالتواتر خلفاً عن سلف وهذا مما يستحيل عقلاً وشرعاً وعادة(١)".

وهناك آيات ليس فيها خلاف قراءات، ولكنها تغذي الصناعة النحوية، إذ يظهر معمول لا عامل ظاهراً له، فينكب عليه النحاة تقديرا، وتكثر اختلافاتهم حوله:

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿انتهوا خيرا لكم﴾(٢) .

فقد ازدحمت حولها آراء النحاة:

(خيراً) عند سيبويه، انتصب بإضمار الفعل المتروك إظهاره.

وقال الفراء: هو نعت لمصدر محذوف. أي: انتهوا انتهاء خيراً لكم.

وقال غيرهما: هو خبر كان محذوفة. أي: انتهوا يكن خيرا لكم.

وحكي عن بعض الكوفيين: أنه نصبه على الحال(٣).

وتتوارد تعليلاتهم تدعم أفكارهم، يعتمدون الصنعة النحوية ليرجحوا وجها ويضعفوا آخر؛ فقول أحدهم إن (خيرا) خبر لكان محذوفة هو رأي بعيد؛ لأنه لايجوز حذف فعل الشرط وجوابه(٤). ورأي الحال ضعيف...(٥) ويغيب الرأي الوجيه، أو يكاد، عندما يعتمد على المعنى في قبول التقدير أو رده، أو بيان نوع المقدر، ومن ذلك أن بعضهم رد رأي الفراء لأن المعنى لايقبله، فهو خطأ فاحش لأن معناه يصير إلى اختيار الانتهاء الذي هوخير للمأمورين به...(٦).

خلاصة الأمر، أن النحاة، مستوفزين ومستثارين للذود عن حمى قواعدهم، لم يألبهوا في سبيل تحقيق هذا الهدف بنوع الوسائل،فحطبوا منها السقيم والصحيح، فأتُوا من هذا الجانب؛ فالنحوي " الذي يخرج وجها من وجوه الإعراب غير مراع إصابة المعنى هو نحوي لم يفهم صنعته ولم يتمثل الغاية من عمله(٧)".

---

(١) الاقتراح، ص٣٩.

(٢) النساء، ١٧١.

(٣) ينظر في ذلك الأمالي الشجرية، ج١، ص٣٤٣، والقيسي، مشكل إعراب القرآن، ج١، ص٢١٤.

(٤) ينظر إعراب النحاس، ج١، ص٤٧٥.

(٥) ينظر القيسي، مشكل إعراب القرآن ، ج١، ص٢١٤.

(٦) ينظر إعراب النحاس، ص٤٧٦.

(٧) مازن المبارك، النحو العربي: العلة النحوية، نشأتها وتطورها، ط٣، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت والقاهرة، ١٩٧٤، ص١٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعل ثورة ابن مضاء القرطبي كانت من هذا الوادي، فقد عاش في كنف دولة غاظتها تأويلات المفسرين، واجتراحاتهم، واختراعاتهم، وخلافاتهم، وبعدهم عن ظاهر النصوص القرآنية، وتحميلها فوق ماتحمل، وحملها على نصرة مذاهبهم، وتحقيق مآربهم، فأعلنوا الثورة! نعم ثورة الحكام على ذلك، ورفعوا لواء المذهب الظاهري(١)، وأحيوا ما اندرس منه، وأحرقوا ما سواه وقالوا:

الاحتكام إلى ظاهر النص لاغير، وكل استبطان وتأويل مرفوض(٢).

وعلى النغم ذاته، سار القرطبي، وهو قاضي قضاة هذه الدولة، على دين حكامه مضى، وثار على النحو للسبب ذاته، ونادى بضرورة تخليصه من علله المتمثلة في طغيان العامل، والعلة النحوية، وما ترتب عليهما من تقدير، وتأويل بالحذف والزيادة مما طال القرآن الكريم، وذلك محرم غاية التحريم.

ووجد القرطبي في ذلك شرفا لثورته، ووجاهة لدعوته، فساق أحاديث نبويّة شريفة في بداية حديثه تشعر بجلالة الأمر الذي يقدم عليه، فهدفه النصيحة، وتغيير المنكر، ووقف التقول على آيات الله، ونقد عمل النحويين.

وصرخ بكل مستخذ أمام سطوة نحاة الشرق، ومستكثر عليه قراعهم، وكفاحهم، وتمثل قائلا:

خل الطريق لمن يبني المنار به وابرز ببرزة حيث اضطرك القدر(٣)

ثم مضى ...

وكانت أول مبارزة له مع نظرية العامل(٤)، فناقشها، ودعا إلى إلغائها، وترتب على ذلك رفضه لما ترتب عليها من التقديرات بالحذف؛ فاعترض على تقدير متعلقات المجرورات(٥)، والضمائر المستترة في المشتقات(٦)، وفي الأفعال(٧)، وتوقف طويلا عند التنازع(٨)،

---

(١) نسبة إلى داود بن علي بن خلف الأصبهاني الملقب بالظاهري، أحد أئمة المجتهدين في الإسلام وسمي مذهبه بذلك لأخذه بظاهر الكتاب والسنة وإعراضه عن التأويل والرأي والقياس، وكان أول من جهر بهذا القول.
وتوفي سنة ٢٧٠ هـ، ينظر الزركلي، خير الدين، الأعلام، قاموس تراجم، ط١٠، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢، ج٢، ص ٣٣٢.

(٢) تنظر مقدمة شوقي ضيف لكتاب الردّ على النحاة، ص١٣ ومابعدها.

(٣) الرد على النحاة، ص٧٥.

(٤) نفسه، ص٧٦.

(٥) نفسه، ص٨٧.

(٦) نفسه، ص٨٨.

(٧) نفسه، ص٩٠.

(٨) نفسه، ص٩٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والاشتغال(١)، وما أضمر من نواصب الفعل المضارع بعد الفاء السببية(٢)، وواو المعية(٣)، ثم دعا إلى إلغاء العلل الثواني والثوالث(٤)، وإلغاء القياس والتمارين غير العملية، وكل مالايفيد نطقا(٥).

ولا مجال إلى استعراض كلّ ما قاله ابن مضاء أو تقييمه، ومعظمه قيم، إلا أن جل كلامه انصب في القضية التي نناقش وهي إسقاف النحاة، واعتسافهم في تقدير المحذوفات دفاعا عن صناعتهم، لا تلبية لمتطلبات المعنى.

ويحسن أن يجمل هنا موقفه من تقدير العوامل المحذوفة وهي لباب نظريته ومناط العناية في هذا البحث.

نظر فيما قدره النحويون من محذوفات، فوجده ثلاثة أقسام:

- محذوف لايتم الكلام إلا به، والمخاطب على علم به ومن أمثلته قوله تعالى:

﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً﴾(٦). وقوله: ﴿ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو﴾(٧).

ثم علق قائلا:

"والمحذوفات في كتاب الله تعالى لعلم المخاطبين بها كثيرة جداً، وهي إذا ظهرت تم بها الكلام، وحذفها أوجز وأبلغ"(٨).

أما النوع الثاني، فقد حل عنده منزلة وسطى؛ فالقول مستغن عنه، تام دونه، وظهوره يعيبه. وقد طال كلامه هنا عن الصنعة النحوية، ونال من اختصاص الحروف، والاشتغال، فعاب على النحاة تقديرهم فعلا قبل زيد يكون عامل نصبه في قولهم: أزيداً ضربته؟

وعرض حجتهم المتمثلة في أن الفعل (ضرب) المتعدي إلى مفعول واحد قد شغل بالضمير، فلا بد من عامل ينصب زيدا، ولا بد من مضمر إذ انعدم الظاهر، ثم يتساءل: "ويا ليت شعري ماالذي يضمرونه في قولهم: أزيدا مررت بغلامه؟ وقد يقوله القائل منا ولا يتحصل له

---

(١) الرد على النحاة، ص١٠٣.

(٢) نفسه، ص١٢٣.

(٣) نفسه، ص١٢٧.

(٤) نفسه، ص١٣٠.

(٥) نفسه، ص ١٣٨.

(٦) النحل، ٣٠.

(٧) البقرة، ٢١٩.

(٨) الرد على النحاة، ص٧٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مايضمر، والقول تام مفهوم، ولايدعو إلى هذا التكلف إلا وضع: كل منصوب فلا بد له ناصب"(١).

وأما النوع الثالث، فقد صب عليه جام غضبه، وأظهر تمحك النحاة في تقديره، ومن ذلك أنهم يقدرون فعلا ينصب المنادى في مثل قولهم: ياعبد الله، وهذا يحرف الكلام عن أصل وضعه، ويجعل النداء خبرا، وهو تقدير فاسد يضر، ولاينفع(٢)".

ثم يناقش الأمر نقاشاً فلسفياً منطقياً فحواه أن افتراض عدمية هذه العوامل المضمرة لاتجيز لها العمل، كما أنّ افتراض وجودها في النفس، وعدم إظهارها يثبت نقص الكلام، فإن رددنا الناقص المزعوم زدنا على الكلام مالم يقله أصحابه، وذلك الادعاء خطأ بين.

وملابسة ذلك في القرآن الكريم حرام نهانا عنه الرسول عليه أتم الصلاة والتسليم بقوله(٣):

"من قال في القرآن فأصاب فقد أخطأ" وفي حديث آخر:" من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار".

وهكذا تلتقي ثورة النحو ثورة الفقه للدعوة إلى هدم التقدير والاقتصار على ظاهر النص القرآني.

والواقع أن مايقوله القرطبي يجد في النفس هوى وقبولاً؛ فثمة محذوفات قدرها النحاة اتحدت في المطالبة بها مستلزمات المعنى والصناعة النحوية معاً، فلا ضير في تقديرها ولاضرر من ذلك. ولكن الانفصام بين صناعة النحو والمعنى قد بدا واضحاً في بعضها الآخر، وهذه كان يجب تجنبها، ورفع نير الصناعة النحوية عنها، ولاسيما أن الأمر يتعلق بالقرآن الكريم، إذ يفترض في النحو أن يكون تابعاً للكلام لامتبوعا، وهذا الموقف أولى بذلك.

---

(١) الرد على النحاة، ص٧٩.

(٢) نفسه، ص ٧٩، ٨٠.

(٣) نفسه، ص٨١، ٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نظرة في تقييم المحدثين لدراسة ظاهرة الحذف عند النحويين

ضاعت صرخات القرطبي طويلا إلى أن تردد صداها في العصر الحديث؛ فقد لقيت انتقاداته هوى في نفوس كثير من الباحثين المحدثين، واستهوتهم ثورته، فاستهدوا بها، ووجدوا فيها متنفساً لحنقهم على منهج النحاة الأوائل، وسطوة نظرية العامل، وما نجم عنها من إيغال في التقدير والتأويل زاد النحو العربي أثقالاً على أثقاله، فترك النحاة ما لا غنى عنه، وأقبلوا على مالاغناء فيه، فترهلت مؤلفاتهم، وتشابكت فيها العلائق والمتسلقات حتى كادت أن تغطي الأصول، ونفر الناس من النحو، وكثر شاكوه، وقل شاكروه، وكان التقدير من أهم دواعي النفور والشكوى.

حمل اللواء مبكراً إبراهيم مصطفى في كتابه إحياء النحو، وأيده في ذلك طه حسين الذي قدم له. وقد حاول إبراهيم مصطفى إحياء النحو بقتل العامل(١). ولم يكن، في كثير مما قاله، بعيدا عن أفكار القرطبي،وذلك خلق الشك في أنه اطلع على مخطوطة القرطبي قبل نشرها(٢).

ثم انهمرت الدعوات إلى إلغاء العامل(٣) -تتخللها آراء حكيمة ترى في إلغاء العامل إلغاء النحو- وانعكس ذلك انتقادات لاذعة للمنهج النحوي العربي القديم بعامة، وآثار ذلك على معالجة ظاهرة الحذف بخاصة.

---

(١) ينظر كتابه إحياء النحو، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٩، ص (و، ن) ومواضع أخرى متفرقة.

(٢) صرح بذلك طه عبد الحميد في: دراسات في النحو، ص٢٣، ٧٢. وألمح اليه إبراهيم السامرائي، النحو العربي نقد وبناء، دار الصادق، ص٦١.

(٣) حظيت قضية العامل باهتمام كبير عند المحدثين فتفكر بعضهم في سبب نشأة العامل:

- منهم من يرى ذلك بسبب التأثر بالنظرية الدينية المبنية على وحدانية الله، فلا بد لكل معمول من عامل، (طه عبدالحميد، دراسات في النحو، مكتبة سعيد رأفت بجامعة عين شمس، ص٥).
- ومنهم من يرى ذلك أثرا للمنطق الأرسطي ولاسيما مقولتا: يفعل وينفعل: التأثير وقبول المؤثر، (محمد عيد، أصول النحو العربي، ص٢٣٩).
- ومنهم من يرى ذلك بأثر الدين والمنطق معا. (عباس حسن، اللغة والنحو، ص١٩٦).
- ومنهم من يرى النشأة لغوية أصيلة ثم تراكمت عليها المؤثرات الأخرى. (أحمد سليمان ياقوت، ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها على القرآن الكريم، عمادة شؤون المكتبات، الرياض، ١٩٨١، ص٧٢).

وتناصر بعضهم على الدعوة إلى إلغائه. ومنهم : شوقي ضيف، الذي تبنى موقف ابن مضاء القرطبي عندما حقق له كتابه: الرد على النحاة، فدعا إلى مادعا إليه القرطبي. (مقدمة الرد على النحاة، ص٤٤-) . ثم دعا إلى تصنيف جديد للنحو يقوم على الانصراف عن نظرية العامل، ص٤٨، وطبق ذلك في كتابيه: (تجديد النحو العربي، دار المعارف، القاهرة، وتيسير النحو التعليمي قديما وحديثا مع منهج تجديده، دار المعارف بمصر).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتمام حسان، الذي اعتاض عن العامل بفكرة التعليق: (اللغة العربية معناها ومبناها، ص١٨٨).

وصرح في كتاب له آخر:"إن التعليق هو الفكرة المركزية في النحو العربي، وإن فهم التعليق على وجهه كاف وحده للقضاء على خرافة العمل النحوي، والعوامل النحوية": (مناهج البحث في اللغة، ص٩٤، وينظر، ص١٨٩).

ومحمد عيد، وهو يرى أن الحركات من تأثير القيم الخلافية بين وظائف الكلمات في الجمل وليست أثرا لعامل، واقترب من فكرة تمام حسان عندما رأى أننا نفهم الوظيفة النحوية للكلمة من خلال صيغتها،وموقعها، ووضعها في الجملة، (أصول النحو العربي، ص٢٦٩).

وغيرهم مثل: (إبراهيم السامرائي، النحو العربي نقد وبناء، ص٢٠٠)، و(مهدي المخزومي، في النحو العربي قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث، البابي الحلبي، ١٩٦٦، ص١٥، ٢٢٩)،

و لم يخل الأمر من دعاة تعقل، وجدوا في إلغاء العامل إلغاء للنحو كله، يقول أحدهم:"يمكن القول بأن! إنكار نظرية العامل فيه إنكار للنحو كله، لأن النحو يقوم في معظم مسائله على العوامل النحوية المختلفة، ولو جرد النحو من هذه العوامل لضاعت مقاييسه، ولاختلت قواعده، واضطربت مسائله". (عبد العال سالم مكرم، القرآن وأثره في الدراسات النحوية، دار المعارف بمصر، ١٩٦٨، ص١٧٠). وعباس محمود العقاد ينظر للأمر نظرة وظيفية إذ يدرك أهمية العامل في فهم المعنى، وأهمية المعنى في تحديد العامل، فيقول:

"فإن العامل حقيقة لا تنفصل عن أثرها في حركات الإعراب، وإن تصحيح الإعراب قد يعين على فهم الكلام كما يعين فهم الكلام على تصحيح الإعراب...". (أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، دار المعارف بمصر، ص١٥٣).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحق أن هذا البحث -وإن وافق المحدثين في بعض انتقاداتهم- إلا أنه يختلف معهم كثيرا في المبدأ الذي انطلقوا منه، وهو مبدأ قائم على تبنيهم أفكار المدرسة الوصفية(١)، ويقينهم أن النحو العربي يجافيها وأنه خلو منها.

لقد صدروا عن مبادئ هذه المدرسة الغربية الحديثة، وقيموا النحو العربي من خلالها، وبعضهم استحلى إشهار وصفيته وتحكيمها في النحو العربي القديم، فهذا تمام حسان مثلا يقول: "والغاية التي أسعى وراءها بهذا البحث أن ألقي ضوءا جديداً كاشفاً على التراث اللغوي العربي كله منبعثاً من المنهج الوصفي في دراسة اللغة"(٢).

وإبراهيم السامرائي يقول:

" وإذا قلنا: إن المنهج يقوم على وصف الظواهر اللغوية، فإن ذلك يعني العزوف عن كل مايبتعد عن الوصف من التأويل والتعليل..."(٣) .

ويؤيده صبحي الصالح في مقدمة الكتاب نفسه(٤).

وقد تقيلت فئة من هؤلاء المحدثين أفكار المدرسة الوصفية الغربية، فمضى بعض المتحمسين يطبق موقف هذه المدرسة من النحو الغربي، على النحو العربي، فانتقدوه بأثر الفلسفة والمنطق في أحكامه، وهزوا الثقة في كثير من تلك الأحكام، بل مضوا بعيدا يشككون في سبب نشأة النحو العربي، وأصالته، وحاولوا تجريد الأصل العربي من الفضل والريادة، فمن قائل: إن فكرته هندية أو فارسية، أو قائل: إنّ رواده غير عرب، أو قائل إنه نشأ في مهاد المنطق أو الفلسفة أو الفقه، أو علم الكلام(٥).

ولا نكابر إذا قلنا إن كثيرا من تلك الأقوال ليست معايب كبرى تجعلنا نطأطئ الرأس خجلا. ولعل العكس هو الصحيح، فخر للنحو العربي أن يرود رواده آفاق الحضارات الأخرى،

---

(١) ينظر في أفكار هذه المدرسة: فرديناند دي سوسير، علم اللغة العام، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، مراجعة النص العربي: مالك يوسف المطلبي، بيت الموصل، ١٩٨٨.

(٢) اللغة العربية معناها ومبناها، ص١٠، وتنظر مقدمة الكتاب نفسه، ص٧.

(٣) النحو العربي، نقد وبناء، ص٨، ويؤكد ذلك ص ٦٢.

(٤) المرجع نفسه، المقدمة، ص٥،٦. وينظر محمد عيد، أصول النحو العربي، ص٥٧ وعلي النجدي ناصيف، سيبويه إمام النحاة، ص٣٩.

(٥) هذه الأقوال مما شاع وأصبح من المشاع، ولايكاد يخلو من بعضه كتاب حديث في النحو، ولعل ماأورده عبده الراجحي يمثل الوجه المعتدل لانتقادات المدرسة الوصفية النحو العربي، فقد أجمل انتقاداتها في أن منهج النحاة تأثر بالمنطق الأرسطي، وأن النحو لم يقعد للعربية كما يتحدثها أصحابها، وأن النحاة اقتصروا على أعصار وأمصار محددة، وخلطوا مستويات التحليل صوتا وصرفا ونحوا... ينظر النحو العربي والدرس الحديث، ص٤٨- .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيمتصوا رحيقها شرقاً وغرباً، فمن قال إن العلم يحصر في مصر، أو عصر؟ إنها حضارة إنسانية متراكمة ليست حكرا لأحد، وتتفاوت الأمم في اختيار للمناسب منها وتأصيله وتطويره. وفخر للنحو العربي وللحضارة العربية الإسلامية عموما أن ينبغ في فيئها علماء عظماء من غير العرب، يشيدون أركان النحو العربي، ويعلون البنيان، فمتى كانت العربية لأب عربي وأم عربية؟

ومتى كان التأليف لخدمة القرآن شرفا يحلل للعرب ويحرم على المسلمين؟

ولكن من النصف أن نذكر أن في أقوال المنتقدين مبالغات كبرى في نشأة النحو، ومنهجه في عهوده الأولى، فعلينا أن نتذكر أن الحفاظ على القرآن وهو أغلى مايملك العرب والمسلمون، والوقوف في وجه اللحن الذي انتشر فيه، وفي الكلام العربي إجمالا عند عامة القوم وخاصتهم، كان يستدعي التفكير بوضع أصول النحو أكثر بكثير من رواية خرافية تنبئ عن ولادته متأثراً بغيره(١).

ومن الحق أن يقال إنه بدأ لحاجة عربية إسلامية، ونشأ في مهاد الحضارة العربية الإسلاميّة، وإنّ رواده كانوا مسلمين عرباً وغير عرب، تآخوا وتآلفوا، واتحدت أهدافهم كما وحدتهم العقيدة.

ومن الحق كذلك أن يقال إن النحو العربي نشأ في بيئة علمية إسلامية يؤثر فيها، ويتأثر، وأن هذه البيئة ماكانت نقلا صرفا، ولا عقلاً محضاً، بل كانت منهما معاً. بل كانت الرواية هي الأساس: القرآن، والحديث، والشعر، واللغة. وقد حرصوا في هذه الرواية على التزام أعلى درجات العلم والتثبت لاسيما فيما يتعلق بالقرآن الكريم والحديث الشريف، ثم كان من الطبيعي أن ترتقي هذه البيئة من مدارج النقل إلى معارج العقل، وانصهرت العلوم معا في حالة من التأثر والتأثير كلاما، وفقها، ونحواً. ولم يكن مستهجناً أن يتأثر ذلك كله بما اطلع عليه علماؤه من أفكار المنطق والفلسفة اليونانية.

وكان النحو صورة لذلك، بدأ قريبا من واقع اللغة، ولكنه مع توالي الزمن وتكاثر المؤثرات بدأ يتزحزح من إطار النقل، ويقترب من إطار العقل ليقع في دائرة الانتقاد.

لقد كان منهج سيبويه وصحبه الأوائل في استخراج القواعد يعتمد على المادة المجموعة، فهو أقرب إلى طبيعة اللغة، واستعمالاتها، وكان ألصق بوصف مايسمع، وإذا قاس حرص على

---

(١) يقطع علي أبو المكارم بأن (أصالة منهج البحث النحوي حتى أواخر القرن الثاني الهجري. شأنها شأن أصالة نشأة التفكير النحوي جملة، لامجال للتردد في القطع بها)، ينظر كتابه، تقويم الفكر النحوي، ص١٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القرب من هذا المسموع، وإذا علل كانت تعليلاته مباشرة، وغير بعيدة عن ظاهر اللغة وواقع الاستعمال.

لقد كانوا يهتمون بما يسمعون، فإذا قاسوا أو عللوا لم يبتعدوا عن ذلك كثيرا، وكان سيبويه يستمد تعليلاته للمسائل التي يعرضها، والآراء التي يراها من كل مايمكن أن تستمد منه التعليلات إلا حقائق الفلسفة، وقضايا العلوم، فهذه وتلك لم تكن بلغت أشدها بعد فيكون لها أثر"(١).

فهو يعلل، ولكن علله "لاتذهب بعيدا وراء التفسير المباشر، وتكاد تتمثل في تعليل الظواهر التركيبية بالرجوع إلى المعنى، أو بكثرة الاستعمال"(٢).

وهذا الاحتكام إلى المعنى، والتزام موافقة الإعراب له، لم يكن يسمح للنحوي "أن يجيز وجوها من الإعراب متعددة دون مراعاة اختلاف المعنى، بله الخروج عنه"(٣).

وعندما يعتمد سيبويه على تعليلات أستاذه فهو كذلك "لم يخرج عن نطاق اللغة، أو يتعد ذوق العرب(٤).

ولكن النحو بعده، تعهده من تعمق فيه، وأسبغ عليه عقلانية ومنطقا، فنأى بالقواعد عن واقع اللغة، ومقتضيات الاستعمال؛

فهذا المبرد يبهر الزجاج، إذ أجاب عن أسئلته برأي سديد، وجواب مقنع، فلم يترك له شكا ولا ثغرة، حتى إذا استوثق منه الاطمئنان التام، عاد فنقض كل إجاباته، وأطاح بها كأنها لم تكن(٥).

وهذا السماع الذي كان مهيمناً على كتاب سيبويه، بدأ ينزوي مع تقادم الزمن، وشح المسموع الموثوق به ليحل محله القياس، فلا نستغرب قول أبي علي الفارسي:

"أخطئ في خمسين مسألة في اللغة، ولا أخطئ في مسألة واحدة في القياس"(٦).

والمنطق، لم يكن له مشهد في جهود النحاة الأولين "فَ متى عهد الناس أن النحو يمزج بالمنطق، وهذه مؤلفات الخليل وسيبويه ومعاصريهما ومن بعدهما بدهر لم يعهد فيها شيء من ذلك(٧)؟

---

(١) علي النجدي ناصف، سيبويه إمام النحاة، ص١٦٣.

(٢) عبده الراجحي، دروس في المذاهب النحوية، ص٢٤١.

(٣) مازن المبارك، العلة النحوية، ص٥٨.

(٤) جعفر عبابنة، مكانة الخليل بن أحمد، ص١٠٣.

(٥) ينظر هذا في الزجاجي، مجالس العلماء، مجلس رقم ٧٦، ص١٢٥.

(٦) ابن الأنباري، نزهة الألباء، ٢٣٣.

(٧) السيوطي، بغية الوعاة، ج٢، ص١٨١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا المنطق بدأ يتسلل ويحاول أن يتغلغل، فهذا أبو علي الفارسي رغم ولعه بالقياس، يوازن نفسه بزملائه من أرباب المنطق فيراهم قد نأوا عنه بعيدا فيقول:

"إن كان النحو مايقوله أبو الحسن الرماني، فليس معنا منه شيء، وإن كان النحو مانقوله فليس معه منه شيء(١)".

وتتفاوت مناهج القوم، وينعكس صدى ذلك على الناس، فيقول بعض أهل الأدب:

"كنا نحضر عند ثلاثة مشايخ من النحويين، فمنهم من لانفهم من كلامه شيئا، ومنهم من نفهم بعض كلامه دون البعض، ومنهم من نفهم جميع كلامه، فأما من لانفهم من كلامه شيئا، فأبو الحسن الرماني، وأما من نفهم بعض كلامه دون البعض فأبو علي الفارسي، وأما من نفهم جميع كلامه فأبو سعيد السيرافي"(١).

ثم أخذ الصراع شكلا علنيا بين دراسة اللغة بواقعها ودراستها بالمنطق في تلك المناظرة الشهيرة بين السيرافي ويونس بن متى(٢).

ثم تقوى شوكة المنطق في العصور المتأخرة، فيوجه المنهج النحوي، ويسيطر على العامل كما مر، فالعامل الذي كان عند الخليل وتلميذه سيبويه "لايعدو أن يكون تفسيراً للظاهرة الإعرابية في لغة العرب، وتحليلا للعلاقات اللفظية والمعنوية والتركيب"(٣)، غدا مع الزمن ميداناً للرياضة العقلية والتعقيد فطغى الجانب الشكلي على الجانب المعنوي. ويطغى المنطق على العلة النحوية، فتصطبغ تعليلات النحاة بكل ماهو بعيد عن واقع اللغة، وغرقوا في ذلك حتى أصبحوا ميدانا للتندر، وغدت علة النحوي مثالا للضعف ومصدرا للسخرية(٤). وانسلت جهودهم من نطاق المعنى إلى الصنعة، وتوجهت عنايتهم "إلى فلسفة الإعراب، وغرقوا في أمور نظرية لاغناء فيها حتى للإعراب نفسه"(٥). وكثرت الخلافات والتخريجات والتأويلات فيما لا يحتكم إلى استعمال، ولايؤيده واقع لغوي، وبدت آثار ذلك جلية في الظاهرة التي يعالجها هذا البحث: ظاهرة الحذف.

وكانت ميداناً خصباً لانتقادات المحدثين من أصحاب المدرسة الوصفية، فهذه المدرسة "لاتقبل إطلاقا بمبدأ التقدير، بل تأخذ بواقع اللغة"(٦).

---

(١) ابن الأنباري، نزهة الألباء، ص٢٣٤.

(٢) ينظر أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ج١، ص١٠٨، ومابعدها.

(٣) محمد خير الحلواني، المفصل في تاريخ النحو العربي، ص ٢٦٥.

(٤) ينظر محمد الخضر حسين، القياس في اللغة العربية، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ١٣٥٣هـ، ص٧٦.

(٥) مازن المبارك، العلة النحوية، ص١٦٢.

(٦) داود عبده، أبحاث في اللغة العربية، ص٢١ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولذلك، فقد لاحق أصحاب هذه المدرسة تقديرات النحاة، وأثبتوا بطلانها، وكان واضحا جدا في انتقاداتهم أنها صدى لانتقادات المدرسة الوصفية الغربية النحو الغربي.

ولعل من الإطالة الوقوف على آراء كل من ساهم في هذه الحملة، ويكتفى بالإشارة إلى بعضها تمثلا:

يقول عبد الرحمن أيوب في أحد المواضع:" إن النحوي قد قال باستتار الفاعل في الفعل خضوعاً للقضية الفلسفية القائلة بأن! الحدث لايوجد بدون ! محدث... وإن قوله بحذف المبتدأ والخبر عند عدم ذكرهما، خضوع لشكلية منطقية هي تحتم وجود الموضوع والمحمول معاً حتى يمكن للقضية أن تكون قضية"(١).

وينتقد إصرار النحاة على وجود مسند ومسند إليه ليكونا ركنين يقابلان ركني القضية المنطقية(٢). ويرى أن ذلك ليس ضروريا، وقد تكفي إيماءة منه إلى شخص ما ليفهم هذا الشخص من خلالها أنه مطلوب منه أن يخرج ويراقب إنسانا معيناً ثم يعود بالخبر.

ولا ترتاح النفس إلى قبول رأيه هذا على إطلاقه؛ لأن علم المخاطب، ودلالة الحال، هي التي جعلت التفاهم ممكنا مع كل ماحذف. "والمحذوف إذا دلت الدلالة عليه كان في حكم الملفوظ به" . ولو قطعت تلك الإيماءة عما أحاط بها من اتفاق سابق، وظروف حال مصاحبة، لما عنت شيئا قاله عن أحادية الإسناد يُذكِّر بما قاله فندريس: نحن نفكر بجمل؛ فبها يتبادل المتكلمان ما، وبها حصلنا لغتنا، وبعضها يتكون من كلمة واحدة تؤدي معنى كاملا(٤).

ه الكلمة في الحقيقة بقيت أثراً دالا على ماتم حذفه، ولو وافقنا عبد الرحمن أيوب مل قد قام على طرف واحد من الطرفين، فكيف نفسر حذف الطرفين معاً في سأل: أما قام زيد؟(٥).

الكلمة بقيت دليلاً على كلام ألقي، ولقد سبق أن تنبه السيوطي إلى هذا،

ما إذا قامت مقام الكلام"(٦).

الحلواني، دار الشرق العربي، بيروت، ١٩٩٢،

ف في آراء برجستراسر، التطور النحوي، ص١٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يعرض مجموعة من الأمثلة يوضح فيها ما دبّ في تأويلات النحاة من فساد، وما وقع فيها من تمحل، ومنها ما قدروه من محذوفات للمبتدأ والخبر في مثل(١):

يمين الله لأزورنك، وبذمتي لأزرونك.

إذ يقدرون خبراً محذوفاً في الأولى، ومبتدأ محذوفاً في الثانية..

ويُظهر فساد رأيهم في تقدير خبر في مثل قولهم: كل رجل وضيعته. وهو مسبوق بهذا، فقد عرض له ابن جني في باب الفرق بين تقدير المعنى وتفسير الإعراب(٢).

وعلى أيّة حال، فإن المحدثين كانوا محقين في بعض ماوجهوه من انتقاد للنحو العربي، لكنهم بتأثير الانتصار الكبير للمدرسة الوصفية أفرطوا وصبوا جهودهم في أمور كان غيرها أولى بها، وغاب عن كثير منهم أنهم يتحدثون عن مناهج مضى عليها أكثر من عشرة قرون من الزمان، وعابوا عليها أنها لاتلتزم بأفكار نشأت في هذا القرن.

ولا يخفى أننا إذا أردنا "أن نحاكم القدامى على عدم الدقة الوصفية، ففي هذا ما لا يخفى من التجني"(٣) . وما هكذا يجب الإصلاح، ولا هكذا يحسن العلاج.

ومن الأفضل التروي كثيرا عند انتقاد جهد النحاة العرب بتأثير مايشيع من مدارس لغوية حديثة، فهؤلاء الذين سارعوا إلى تبني أفكار المدرسة الوصفية، وتحمسوا لها، قبل أن يتمثلوها جيدا ويتفحصوا تراثهم النحوي لموازنته بها، بادروا إلى التشنيع، وتبكيت الضمير، وجلد الذات، وعابوا على النحو العربي -ظالمين- أنه مقفر من أفكار هذه المدرسة، كافر بمبادئها، خلو من مناهجها.. ولو تريثوا، وجدوا في الطلب لوجدوا الصيد، كل الصيد في جوف الفرا، ولطالعتهم بجلاء مواطن كثيرة، تثبت أن الأجداد الأفذاذ قد سبقوا عصرهم، وأن مبادئ الوصفية تتربع في مؤلفاتهم، ومناظراتهم(٤).

---

(١) دراسات نقدية، ص ١٦٠ - .

(٢) ينظر الخصائص، ج١، ص٢٨٣.

(٣) إسماعيل عمايرة، المستشرقون والمناهج اللغوية، دار حنين، ١٩٩٢، ص٥٢.

(٤) ينظر دفاع عن النحو العربي في: عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، ص٥٤-.
وثمة دفاع حميد لنهاد الموسى في كتابه، نظرية النحو العربي، أثبت فيه وجود كثير من مبادئ المدارس اللغوية الحديثة في المصادر النحوية العربية القديمة؛ أصول من البنيوية ص٢٧-، ومن التحويلية ص ٥١-، ومن الوظيفية وسياق الحال ص٨٩- .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو ليس جهد أبي الأسود الدؤلي في ضبط النص القرآني وصفا خالصا قائما على الملاحظة المباشرة إذ قال لكاتبه: إذا رأيتني أفتح شفتي بالحرف فضع نقطة فوقه، فإن ضممتهما فالنقطة بين يديه، وإن كسرتهما فهي تحته، وإن ألحقت الصوت غنة فهما نقطتان(١)؟

أليس هذا الاستقراء العظيم الذي قام به النحاة، وهذه الرحلات الكبرى(٢) التي قاموا بها إلى البوادي لمشافهة الأعراب، والأخذ عنهم، والاحتكام إليهم(٣)، واحترام المسموع منهم، والوقوف على حدوده بمهابة وإجلال في كثير من الأحوال، أليس كل هذا وصفا خالصاً(٤)؟

ألم يكن أحدهم يحار في المسألة، وتبقى تطن في عقله، فلا تهدأ نفسه إلا إذا التقط لها جوابا من فم أعرابي(٥)؟

وهذه الصرخات التي صدرت عن شيوخهم وروادهم الأوائل عند اصطدام المسموع بالصنعة النحوية، فوقفوا إلى جانب اللغة كما هي، أليست وصفا؟

يصف الزجاجي مجلسا جمع الكسائي، والأصمعي، وعيسى بن عمر "فأنقى الكسائي على عيسى بن عمر هذه المسألة: همك ما أهمك. فذهب عيسى يقول: يجوز كذا ويجوز كذا . فقال له الكسائي:

عافاك الله: إنما أريد كلام العرب، وليس هذا الذي تأتي به كلام العرب"(٦).

ويبدو أن هذا النهج عاش طويلاً مع الكسائي الذي قال قولته المشهورة:

---

(١) ينظر السيرافي، أخبار النحويين البصريين، ص١٦.

(٢) ينظر في رحلات الخليل والكسائي مثلا: ابن الأنباري، نزهة الألباء، ص٥٩.

(٣) لإثبات احتكام النحاة إلى المصدر البشري في الاحتجاج، نتذكر أنه طالما كانت الكلمة التي يلقيها البدوي هي القول الفصل في مسائل الخلاف، ولعل المسألة الزنبورية خير دليل على ذلك، إذ اختلف قطبا النحو سيبويه والكسائي، فاحتكم إلى عرب الحطمة فقالوا... وتضاءلت أمام قولهم عبقرية سيبويه، وهضم حقه الأبلج، فمضى كسيف البال، ولم يلبث أن مات.

ينظر في ذلك: الزجاجي ، مجالس العلماء، ص٩، وابن الأنباري، الإنصاف، ج٢، ص٧٠٢، والسيوطي، الأشباه، ج٣، ص٦٥.

(٤) قام جهد سيبويه على الاستقراء، وكان يصرح أحيانا بالاستقصاء مثل "ليس في الدنيا عربي يرفع"، الكتاب، ج٣، ص٢١. وقد يصرح بلفظ الوصف كقوله: "وهذا أكثر من أن أصفه لك" ،ج٢، ص١٠٢، وأسماء بعض كتبهم تدل على الاستقصاء مثل : (ليس في كلام العرب لابن خالويه).

(٥) ينظر في وصف فرحة أبي عمرو بن العلاء عندما سمع كلمة فرجة من أحد الأعراب، ابن الأنباري، نزهة الألباء، ص٣٢.

(٦) الزجاجي، مجالس العلماء، ص١١٤، بتصرف قليل.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"أيّ هكذا خلقت"(١).

ألا تعبّر قولته هذه بوجازة عن قول الوصفيين: إن اللغة يجب أن تدرس كما هي، ويكتفى بوصفها؟ فهذا الكسائي ينظر إلى (أي) قد خلقت بنمط لا يملك أن يحوره، أو يغيره، فيتقبلها كما هي، ويقعد لها كما خلقت، على ما يستكن في صرخته من انزعاج منها، وبرم بها؛ لأنها عصية على قواعده النحوية، أبية على تفسيراته وتعليلاته.

إن كانت أفكار المدرسة الوصفيه هي الحق المطلق، فلعل ما مضى، وغيره كثير، يثبت أننا لم نحرم من فضائلها، بل لعل هذا التمسك الزائد باللغيات، والشواذ، والمسكوكات، وضرورات الشعر، لعل كل ذلك بعض من بركاتها.

ولكن هناك أمراً آخر لا يقل عما ذكر أهمية:

لقد انحسر مدّ المدرسة الوصفية في النصف الثاني من هذا القرن، وسطع نجم المدرسة التوليدية التحويلية(٢): هذه المدرسة تلتقي في كثير من مبادئها بما شاع في منهج النحاة العرب، فقد عابت شكلية المدرسة الوصفية، وعدم اهتمامها بالمعنى، وإصرارها على دراسة اللغة في ظاهرها، فأولت الأساس العقلي اهتماما خاصا، ورأت أن للكلام بنيتين:

إحداهما سطحية، والثانية وهي الأكثر أهمية: البنية العميقة. والفجوة التي قد تبدو بين البنيتين تعالج بالتقدير: زيادة أو حذفا، أو بالتقديم، أو بالتأخير.

وهكذا، فإن بعض القضايا التي شاعت في النحو العربي مثل الأصلية، والفرعية، والعامل، وما يترتب عليها، وجدت قبولا لدى هذه المدرسة واستحسانا، وعاد التقدير ليأخذ مكان الصدارة، وليسامت النحاة العرب الأوائل أحدث المدارس اللغوية، مما دفع إلى إعادة النظر فيما وجه إلى النحو العربي من انتقادات رواد المدرسة الوصفية(٣).

ومع كل ذلك، فيجدر ألا نستخذي أمام انتقادات، أو نزهو أمام إطراءات؛ إذ لايكفي أن يكون نحونا القديم مقفراً من أفكار المدارس اللغوية الحديثة لنبالغ في نقده، بل نقضه، ونئده لنستبدل به غيره.

---

(١) الزجاجي، مجالس العلماء، ص١٨٦، والسيرافي، أخبار النحويين، ص٣٤،٣٥، وابن جني، الخصائص، ج٣، ص٢٩٢، والسيوطي، المزهر، ج٢، ص٣٧٣.

(٢) ينظر في أفكار هذه المدرسة، نعوم تشومسكي، جوانب من نظرية النحو، ترجمة مرتضى جواد باقر، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة البصرة.

(٣) ينظر، عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، ص١٤٢. وحلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص١٧٨، ومحمود فهمي حجازي، علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠، ص١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولايكفي أيضا أن يكون نحونا القديم زاخرا بأفكار تلك المدارس لنقبل كل ماجاء به وما ورد فيه، ونغفل عن تلمس ثغراته لسدها، وعيوبه لإصلاحها.

وعلينا ألا ننسى أن ارتباط لغتنا بالقرآن الكريم يجعلنا في حالة خاصة، خياراتنا فيها ليست مفتوحة، فلا بد أن نقف في التقعيد عند المستوى اللغوي الذي يجعلنا نفهم لغة القرآن. والانصياع إلى مبادئ المنهج الوصفي سيسلمنا حتما إلى متاهات اللهجات المتفاوتة زماناً ومكاناً، والمتفاوتة بقدر لايسمح بالتفاهم بين كل لهجة وغيرها، ولا سبيل إلى الاستفادة منها في فهم لغة القرآن.

ومبادئ المنهج التحويلي، مع أنها تلتقي مناهج التقعيد النحوي العربي، إلا أنها تؤصل مواطن الصعوبة، وتعطيها الشرعية. وإجازة التقدير بإطلاق، تقود إلى التسيب والتشتت. ولعل الحل الأمثل، مازال كامناً في المناهج العربية القديمة ذاتها، ففيها بذور من المناهج الحديثة كافة ، وبالتزام الاعتدال، يمكن أن تهذب الشواذ، وتصفى الشوائب، ونصل إلى أصول نرتضيها تقترب من لغة القرآن، وتبتعد عن كل مالايفيد في النطق للإبانة عن المعاني.

وإصلاح ما يبدو من خلل، لايتنافى مع توقير التراث النحوي والحفاظ عليه، فالجهد النحوي العربي القديم عظيم جدير بالاحترام والتقدير، لكنه لايرقى إلى درجة التقديس. نعم، إنه جهد عظيم، تم في ظروف صعبة، وحاصرته مقيدات، ومؤثرات كثر. وطبيعي أن من يسترجع هذا الجَهد الآن، سيجد فيه ثغرات، فكلما كثر العمل، وعظم، زاد احتمال ظهور الهنات والعثرات.

يصح أن يقال بحذر إن النحاة الأوائل لم يبنوا قواعدهم على استقراء كامل، وأنهم اهتموا باللغيات، وشوارد الأقوال التي تمثل خصوصية مغرقة لإحدى اللهجات، وأنهم أخضعوا كل مسموعهم للقواعد مع استعصاء بعضه لأنه شاذ، أو لأنه يمثل مرحلة من مراحل تطور اللغة(١).

ويجوز القول إنهم تأثروا بالمنطق، والفلسفة بعد الطور التأليفي الأول، فحكموهما في الكلام، واستهووا الخلافات، والمماحكات، واستعرضوا العضلات، وزهوا بالقدرات.

وهناك عذر لمن يقول: إن النحاة اهتموا كثيراً بالشعر مع أنه مركب ضرورة تطغى على القواعد أحياناً، وترهقها في المحاولات اليائسة البائسة في التخريج والتأويل، مع كل ما يصاحب ذلك من ظروف مشاحنات بين الشعراء والرواة والنحاة ...

---

(١) ينظر في ذلك، مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة، ص٢٠١، ومحمد خير الحلواني، الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين وكتاب الإنصاف، دار القلم العربي بحلب، ص٦٣-، وسعيد الأفغاني، في أصول النحو، ط٣، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٤، ص٣٦-.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويُقبل انتقاد النحاة بعدم الاهتمام الكافي بالقرآن والتهاون في اعتماده أساساً للتقعيد، كل هذا ممكن ...

لكن النقد لا يكون بالعمل الدؤوب على تجريد النحاة العرب من فضيلة الابتكار ووصمهم بالنقل والتبعيّة ..

والنقد لا يكون بالدعوة إلى هدم العامل ...(١)

فهذا العامل ضرورة بالغة لنظم اللغة وضبطها وتفسيرها. والخطأ ليس في فكرته، بل في بعض تطبيقها:-

- فقد أصرّ النحاة على أن يكون كلّ كلام خاضعاً للعامل، ولم يستثنوا بعض الأساليب التي لا تبدو فيها العلاقة الإسناديّة واضحة لتسمح بتوزيع العمل النحوي إلى عوامل ومعمولات بشكل مقنع .. فلجأوا إلى التأويل، وأكثروا تقدير المحذوفات، وكانت العبارات تتفلت من أحكامهم، وهم سادرون في ردّها قسراً وعنتاً(٢).

- وقد استمرؤوا الاستعراض بتقليب المعمولات تحت تأثير ما يقدرونه من عوامل محذوفة، غير مهتمين بآثار كل ذلك على المعنى، وما كان همهم أحياناً إلا التآلف بين العامل والمعمول نحويّاً.

- وقد تزمتوا في عدم قبول مبدأ التقديم والتأخير في كثير من العوامل، وتمسكوا بالرتبة، وتشبثوا بتوزيعهم بما افترضوه من عمل الأدوات.

إنّ هذا، وغيره، خلق صعوبات حقيقيّة تتمثل في تحكم نظرية العامل المفرط في المنهج النحوي، لا سيما في العصور النحوية المتأخرة، مما جعل القاعدة في كثير من الأحيان في واد وواقع الاستعمال في واد آخر، ومما جعل الفُجوة عظيمة بين متطلبات المعنى، ومستلزمات العامل، فحصل الانفصام بينهما في الوقت الذي كان يجب أن يكون كلّ منهما دليلاً على الآخر: المعنى يقود إلى الإعراب، والإعراب يدل على المعنى.

ومع ذلك، لا يجوز أن ندعو إلى إلغاء نظرية العامل، بل ندعو إلى تهذيبها وتشذيب علائقها لننتزع من براثنها أساليب نقية، فرضها واقع الاستعمال، فهيمنت عليها قوانين العمل، واعتصرتها عملاً، وتعليلاً، فأثقلت بها كتب النحو، وأرهقت كواهل الدارسين، حتى ضاق الناس وجأروا بالشكوى، فالضرر ليس في فكرة العامل، بل في " أن نسبغ على هذا العامل المصنوع

---

(١) ينظر هذا البحث ، ص ٢٥٢.

(٢) من هذه الأساليب: المدح، التعجب ، أسماء الأفعال ،
تنظر أفكار في شأنها في: تمام حسّان، اللغة العربية معناها ومبناها ، ص١١٣، ٢٢٠، وإبراهيم السامرائي ، النحو العربي نقد وبناء ، ص ١٠٥ ، وعفيف دمشقية ، المنطلقات التأسيسيّة ، ص١٦٣ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ألواناً من القوّة، وصنوفاً من المزايا، تجعله يتحكم بغير حق في المتكلّم، ويفسد عليه تفكيره، ويعيقه في الأداء، ويتناول كلامه الصحيح بالتشويه والتجريح "(١) .

وقد أحسّ القدماء أنفسهم بخطورة هذا العامل، وأبدى بعضهم ما ينم عن عدم القناعة بسلطته(٢).

وحاول بعضهم التقلت، وبدت لديهم الشكوك في أن العامل يكون مقنعاً في كل المواضع، فظهرت فكرة الخلاف عند الكوفيين، وظهرت فكرة القصد إليه عند ابن الطراوة. والسهيلي جعل المنادى منصوباً بهذا العامل المبتكر. وأبو حيان النحوي بدت عليه الحيرة وهو يقول عن الاسم المنصوب بالإغراء: إنه منصوب بالمعنى دون عامل لفظي ...(٣).

إلا أن جمهورهم بدا مقتنعاً بأنه لا بدّ من عامل، فـ " كما يستحيل في الحسيّات الفعل باستطاعة معدومة، والمشي برجل معدوم!، والقطع بسيف معدوم، والإحراق بنار معدومة، فكذلك يستحيل في هذه الصناعة النصب بعامل معدوم، لأن العلل النحوية مشبهة بالعلل الحسيّة"(٤).

ويحسن التذكير هنا بأن الكوفيين، وإن وافقوا البصريين في ضرورة وجود العامل، إلا أنّهم كانوا أكثر منهم مرونة في وضع أحكامه، وشروط عمله؛

فهم يجيزون مثلاً أن يجتمع عاملان على معمول واحد، ومعمولان لعامل واحد، وهم أقلّ حماسةً من البصريين لتقدير المحذوفات ..(٥).

---

(١) عباس حسن ، اللغة والنحو بين القديم والحديث ، ص ٥١.

(٢) مرّ شيء من ذلك ، ينظر هذا البحث ، ص ٢٣٦ ومنه أيضاً :

" حكي أنه اجتمع أبو عمرو الجرمي، وأبو بكر زكريا بن يحيى الفراء، فقال الفراء للجرمي: أخبرني عن قولهم (زيد منطلق) لم رفعوا زيداً؟ فقال له الجرمي : بالابتداء . فقال الفراء: ما معنى الابتداء؟ قال: تعريته من العوامل. قال له الفراء: فأظهره. قال الجرمي: هذا معنى لا يظهر. قال له الفراء: فمثّله إذن. فقال الجرمي: لا يتمثل! فقال الفراء: ما رأيت كاليوم عاملاً لا يُظهر ولا يُتمثل.

ثم سأل الجرمي الفراء عن قولهم: (زيد ضربته) لم رفعتم زيداً؟ .. وما زال يحاصره إلى أن قال: " رفعناه بالعائد على زيد. قال الجرمي: ما معنى العائد؟ قال الفراء: معنى لا يظهر. فقال الجرمي: أظهره. قال الفراء: لا يمكن إظهاره. قال الجرمي : فمثّله . قال الفراء: لا يتمثل . قال الجرمي: لقد وقعت فيما فررت منه." ابن الأنباري، نزهة الألباء، ص ١١٦.

(٣) في فكرة القصد إليه ينظر السيوطي، همع الهوامع، ج٧، ص٣٣ . أما فكرة الخلاف، فهي شائعة كثيراً، ينظر مثلاً ابن الأنباري، الإنصاف، ٢٤٦، ،٢٤٧، ٢٤٨ ، والسيوطي، الأشباه والنظائر ، ج١، ص٢٣٨ .

(٤) ابن الأنباري، الإنصاف، ج١، ص ٢٤٧ .

(٥) ينظر مثلاً المصدر نفسه، المسائل : ١٢ ص ٥٤،٨٢ ص٣٧٠، ٦٥ ص ٤٦٣، ٧٥ ص٥٥٥، ٧٦ ص٥٥٧، ٨٢ ص ٥٩٣ ، ٨٣ ص٥٩٧ ، ٨٥ ص ٦١٥ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد كانوا أقرب إلى توصيف اللغة، وصرخة الكسائي (أيّ هكذا خلقت) التي مرّ ذكرها تثبت ذلك(١). وقد صدق أمين الخولي عندما قال:

" إن الكسائي بإجابته هذه يذكرنا بمدرسة قومه في النحو، وما تميل إليه من التتبع اللغوي، وعدم التأويلات البعيدة، والإمعان المنطقي عند البصرة"(٢). وفي كثير من المسائل التي ذهب إليها الكوفيون كانوا " أقرب إلى الواقع اللغوي، وإلى المنهج النحوي الصحيح "(٣).

ولعلّ ميلهم هذا إلى وصف اللغة، واحترام السماع، والقياس على القليل، والتحرج في ردّ الشواذ، يفسر لنا موقفهم من القراءات التي ردّها إخوانهم البصريّون، " فعلى حين كان أهل الكوفة يفسّرون القرآن تفسيراً يلتزم الدقة في متابعة النصّ، ظهر عند أهل البصرة ميل إلى إكراه النصّ القرآني على قبول معنى خاصّ، والتمحّل في حمله على مطابقة قواعدهم النحويّة"(٤).

فهل يشجع هذا على الالتفات من جديد لآراء الكوفيين، واستصلاح الصفوة منها لترفد انضباط المذهب البصري، وتخفف من غلوائه في التقدير، فيصار إلى خلق التوازن المطلوب بين الصنعة النحويّة والمعنى، ونصل إلى منهج وسط لا إفراط فيه ولا تفريط؟

ويبقى السؤال:

لِمَ لَمْ يعط القرآن المنزلة المثلى في التقعيد النحوي ؟

ندرك أنه " ليس كل جائز فصيح جاء في القرآن "(٥). وأنه " ليس كل لغة توجد في كتاب الله جل وعزّ "(٦). وندرك مشاكل القراءات التي لا تقلّ عن مشاكل اللهجات ...

وندرك أن " أسلوب القرآن معجز، لا يستطيع أحد أن يحيط بكل مراميه ومقاصده، فاحتمل كثيراً من المعاني، وكثيراً من الوجوه"(٧) .

---

(١) ينظر هذا البحث، ص ٢٦٠.

(٢) نقلاً عن مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ، ص ٢٠٣ .

(٣) عبده الراجحي، دروس في المذاهب النحوية ، ص ١٢-.

(٤) مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ، ص٣٥٣ ، والرأي لغيره .

وينظر أيضاً للتوضيح :

عبد العال سالم مكرم، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحويّة ، ص ١٢٤ وما بعدها .

(٥) الشنتمري ، النكت ، ص ٥٠٧.

(٦) نفسه ، ص ٤٥٧.

(٧) محمد عبد الخالق عضيمة، دراسات في أسلوب القرآن، دار الحديث، القاهرة ، ص١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكنا ندرك أيضاً أن النحاة ما وفقوا عندما شغلهم الشعر عن النظر في شواهد القرآن العظيم، وأن تعويلهم على الشعر كان ثغرة نفذ منها الطاعنون بسبب تعدد رواياته، وضروراته(١). وأن الشاهد الشعري لا يمكن أن يكون قويّاً؛ لأنّ الشاعر خاضع لقيود الوزن والقافية، فيلجأ إلى كلّ ضرورة ممكنة لإصحاح شعره(٢).

لقد كان يمكن أن يتخفف النحاة من كثير من الأعباء لو أنهم اعتمدوا القرآن الكريم، لكنهم قصّروا في الإفادة منه إفادة وافية، ولو صنعوا النحو على ما جاء به القرآن، لتخلص الدارسون من كثير من مزالق النحو ومشاكله(٣).

وقد حرموا أنفسهم، وحرمونا من اعتماد أصحّ النصوص للتقعيد النحوي، فالقرآن "أصدق مقياس للبحث في لغة العرب في عصر ظهور الاسلام"(٤) ـ وحالة اللغة العربية عند ظهور الإسلام يجب أن تبحث في القرآن أولاً؛ فهو " أعرب وأقوى في الحجة من الشعر"(٥).

وهو الذي حفظ السليقة اللغوية العربية لما نزل بها، " وصفاها غاية التصفية وارتفع بها في معارج الضبط والإتقان إلى المدى الذي لا يمكن للقوم أن يصلوا إليه، وهيأها بذلك لأن تكون إنسانية ..." و " قد أجمع الناس جميعاً على أن اللغة إذا وردت في القرآن فهي أفصح مما في غير القرآن لا خلاف في ذلك "(٦)؛ فلغة القرآن تختلف كثيراً عن الشعر، وهي تعرض " صورة فذة لا يدانيها أثر لغوي في العربية على الإطلاق"(٧)، والقرآن " حجة في العربية بقراءاته المتواترة، وغير المتواترة ... فالقراءة الشاذة التي فقدت شرط التواتر لا تقلّ شأناً عن أوثق ما نقل إلينا من ألفاظ اللغة وأحكامها"(٨).

أما الاعتراض بأن اعتماد القرآن سيوقعنا في إشكالات القراءات، فيردّ بأن ذلك أرحم من مقارفة إشكالات الاحتجاج بالشذوذ، واللغيات؛ فلماذا نتشبث بقولهم: (أكلوني البراغيث)، ونكثر

---

(١) نفسه ، ص٢٥، بتصرف قليل .

(٢) إبراهيم السامرائي، النحو العربي، نقد وبناء ، ص ١٠٣.

(٣) نفسه، ص ٧٨، ص١٢٨. وقد حاول أحمد مكي الأنصاري الاعتماد على القرآن، لإعادة النظر في بعض القضايا النحوية الخلافية ، ينظر كتابه، نظرية النحو القرآني نشأتها وتطورها ومقوّماتها الأساسية، ١٤٠٥هـ

(٤) ولفنستون، تاريخ اللغات السامية، نقلا عن سعيد الأفغاني، في أصول النحو، ص٧٦.

(٥) معاني الفراء ، ج١، ص١٤.

(٦) السيوطي ، المزهر، ج١، ص٢١٣.

(٧) يوهان فك، العربية ، دراسة في اللغة واللهجات والأساليب ، ترجمة عبد الحليم النجار، مكتبة الخانجي بمصر، ١٩٥١ ، ص٤.

(٨) محمد عبد الخالق عضيمة، دراسات في أسلوب القرآن ، ص ٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيه القول، وله التخريج، ولا نتقبل القراءة في قوله تعالى: ﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾(١) بالخفض؟

كم اقتادنا النحاة إلى غياهب المتاهات لتخريج بيت من الشعر خرج فيه الشاعر عن قواعدهم ضرورة، أو مماحكة، أو بحثاً عن استغراب، فخلد في مؤلفاتهم قدماء ومحدثين يمعنون فيه النظر، ويعملون فيه الفكر، ويجهدون فيه العقل، ويشبعونه تصويباً وتقليباً؟

أليست القراءات أولى بذلك؟ أما وقد وقع المحظور، وتاه النحاة وتهنا معهم في مزالق التأويلات انتصاراً للهجة شاذة، أو صرخة أعرابي، أو أعرابيّة، أو صيحة انفعال، ... فالقراءات أولى وأولى .. إذ طالما أن الأمر أصبح قريباً من رياضة عقلية، وهواية تأويلات، واستكثار أوجه، واستحلاء جدال، فليكن ذلك في إعراب القرآن، لعلنا نزداد له فهماً كلما ازددنا فيه تفكراً وتبصراً وتدبراً، وكل ذلك عبادة.

ثمّ إن في المقدور الاقتصار على الوجه المشهور في القراءة، واعتمادها للتقعيد، والاحتفاظ بباقي القراءات للمستزيد(٢). ويجب تجنب التأويل والتمحّل في الوجه المشهور إلا ما كان لازماً، أو متطلباً هاماً لقاعدة نحويّة، فإن كان " علماء العربية يقررون في إجماع رائع أن القرآن أفصح كلام عربي، وأنه في المكانة العليا من البلاغة، فكيف يتفق هذا مع التأويل والتمحل والتقدير"(٣) ؟

نتذكر أن التأويل، وتقدير المحذوفات في بعض المواضع ضرورة، لكن استهواء التقدير، والتلاعب بالنكر الحكيم، والتصرف في معانيه جور عظيم.. فالقرآن الكريم " فوق كل مستويات التأويل، وأنه فيصل الرأي في صحة الاستشهاد النحوي والبلاغي في ظاهره من غير نظر إلى قلّة، أو كثرة"(٤). والدعوة إلى اعتماده قاعدة أساسية للتقعيد هدف سام يستحق أن يسعى إليه، ففي النطاق اللغوي بخاصّة. يشكل القرآن الأنموذج الأرقى للعربية، الأنموذج الأصيل الثابت، وفي اعتماده حياة للغة المثلى. وقواعدها على سواء.

---

(١) النساء، ١، وقد مرّ ذكر هذه الآية غير مرّة في هذا البحث.

(٢) ينظر ، عفيف دمشقية ، المنطلقات التأسيسيّة ، ص ٨٢.

(٣) عباس حسن ، اللغة والنحو ، ص٩٣، ٩٤ .

(٤) نفسه ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تقييم الجهد البلاغي في دراسة ظاهرة الحذف

- الشواهـد
- الــذوق
- التعليـل
- التقسيم والتنظيم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تنويه

نستذكر هنا أن البحث لجأ إلى تجزئة الحديث عن دراسة الحذف عند البلاغيين إلى خمسة عناصر هي: الحذف قبل عبد القاهر الجرجاني، والحذف عند عبد القاهر الجرجاني، والحذف عند المدرسة البلاغية الأدبية، والحذف عند المدرسة البلاغية الكلامية، والحذف عند الزمخشري.

وتوخّى بذلك رسم صورة شاملة لدراسة البلاغيين لهذه الظاهرة، وقد درج على اختتام الحديث عن كل عنصر من هذه العناصر الخمسة بنظرة تقييميّة خاصّة به.

وهذه وقفة تهدف إلى تقييم الجهد البلاغي في دراسة ظاهرة الحذف بشكل عام. وحتى لا يظنّ بالبحث أنه صدى باهت لأبواق الدفاع الانفعالي عن التراث، أو أنه دعوة طائشة إلى استهواء انتقاده، حتى لا يظنّ بالبحث أيّ من الأمرين، فسيتم النظر في جهد البلاغيين اعتماداً على ما يلي:

- الشواهد
- الذوق
- التعليل
- التقسيم والتنظيم

لنتبين ما لهم ، وما عليهم ، ونعزّز ذلك بالحجة والدليل، وسيكون هناك وقفة قصيرة لمناقشة آراء المحدثين في الجهد البلاغي المتعلق بدراسة الحذف.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشواهد: نوعها، وقيمتها، وتنظيمها:

ناء النحو كثيراً – كما مرّ – بأحمال الشعر عندما جعله المصدر الرئيسي لشواهده في ظاهرة الحذف، وسواها. ولم يكن للقرآن الكريم في تلك الشواهد المكان المرموق الذي يستحقه، فكيف كان صنيع البلاغيين؟

إنّ الأمر المتوقع هو أن يكون القرآن المحور الأساسي للشواهد البلاغية، فهو – دون حاجة إلى تدليل – النموذج الأدبي الأرقى، والبيئة المثلى لإرساء قواعد البلاغة الفضلى. فهل أدرك البلاغيون ذلك؟ وهل التزموه لهم شرعة ومنهاجاً؟

أما نظرياً ، فنعم :-

لقد كان القرآن الكريم المستنبت العظيم لعلوم البلاغة، وكان الدافع الأكبر لنشأتها، ويكفي دليلاً على ذلك أن نستعرض سريعاً أسماء الكتب الأولى التي شقت طريق البلاغة، وأسست لها، ومنها:

مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، وثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني، وإعجاز القرآن للقاضي عبد الجبار، وتلخيص البيان في مجاز القرآن للشريف الرضي...

واستمر ذلك مع توالي القرون إذ توحي عناوين الكتب بالارتباط العظيم بين البلاغة والقرآن الكريم :

دلائل الإعجاز للجرجاني، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي، والتبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن لابن الزملكاني، والطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلوي ... . وليس ذلك عجيباً، فهذه الحركة التأليفية الموارة، وهذه الفرق الإسلامية العظيمة، وهذه الخلافات في الأنظار، والأحكام الشرعية، والمذاهب الفكريّة، كلها تنبع من القرآن، به تستهدي، وبه تحتج، إليه تستند، وعليه تعتمد ...

وتجيء أقوالهم في مقدّمات كتبهم لتشير صراحة إلى أن همّهم الأعظم هو خدمة القرآن الكريم، وأن أهمية البلاغة تتمثل في التدليل على إعجازه ..

فالعسكري – مثلاً – يصدر مقدمة كتابه بالحديث عن البلاغة وأهميتها؛ فهي أحقّ العلوم بالتعلّم، وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله، وما ذلك إلا أنها السبيل إلى معرفة إعجاز كتاب الله، وبغيرها لا يتوصّل إلى معرفة ما أودع اللّه في القرآن الكريم "من حسن التأليف، وبراعة التراكيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف(١)".

---

(١) الصناعتين ، ص ٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والزمخشري يرى أهمية البلاغة، وضرورتها لفهم القرآن، فيقول :

" الواقف على تمام مراد الحكيم – تعالى وتقدس – من كلامه مفتقر إلى هذين العلمين : المعاني والبيان، كل الافتقار، فالويل كل الويل لمن يتعاطى التفسير وهو فيهما راجل(١) ".

وابن القيّم يشير في مقدّمته إلى أنه " لا يمكن أن يعرف فضل القرآن إلا من عرف كلام العرب، وبلاغتهم، وبيانهم، وضروب فصاحتهم، ولأجل هذا بحث في البلاغة لتكون عوناً لمن يريد دراسة القرآن"(٢).

والسكاكي يردد قول الزمخشري السابق عن علمي المعاني والبيان، ويرى فيهما سرّاً عظيماً لروعة القرآن وإعجازه، فهو كما يرى " لم يلتبس تلك الطلاوة، ولا استودع تلك الحلاوة، وما أعذقت أسافله، ولا أثمرت أعاليه، وما كان يعلو ولا يعلى عليه إلا لانصبابه في تلك القواليب، ولوروده على تلك الأساليب"(٣).

وذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك، فصرّح بأنه يؤلف في البلاغة ليُفهم تفسير القرآن، يقول العلوي:" ثم إنّ الباعث على تأليف هذا الكتاب هو أن جماعة من الإخوان شرعوا في قراءة كتاب الكشاف ... فإنه أسسه على قواعد هذا العلم، فاتضح عند ذلك وجه الإعجاز من التنزيل...."(٤).

كلّ هذا، وغيره كثير، يمثل ذلك الارتباط الكبير بين البلاغة وإعجاز القرآن وخدمته، وهي تتجدد من أرباب البلاغة، تؤكد أن أهمية البلاغة تكمن في الإسهام في إفهام القرآن، وأن غايتها العظمى تتمثل في خدمته، وإجلاء إعجازه. ويبدو أن عمرو بن عبيد قد استشرف كلّ هذا مبكراً فطواه بعبارة تشع صدقاً وحرارة إذ قال:

" البلاغة ما بلغ بك الجنة، وعدل بك عن النار"(٥).

هذه أقوالهم .... فهل جاءت شواهدهم المنتقاة مصداقاً لأهدافهم المعلنة؟

أما الروّاد الأوائل، فجاءت شواهدهم منثورة حسب أهدافهم في مؤلفاتهم:

فيها القرآن الكريم، وفيها الحديث الشريف، وفيها الخطبة، وفيها القول المأثور، وفيها الشعر المشهور(٦).

---

(١) الكشاف، ج١، ص ١٦ .

(٢) الفوائد المشوق، ص٧ .

(٣) المفتاح، ص٢٠٥ .

(٤) الطراز، ج١ ص٥ .

(٥) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص١١٤، وابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج٢ ، ص٢٦٠ .

(٦) هكذا كانت أمثلة سيبويه والجاحظ والمبرد.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنذ عهد ابن قتيبة في مؤلفه : تأويل مشكل القرآن، أخذ الحذف له موقعاً مستقلاً، وقد انتقى له ابن قتيبة الكثير من الشواهد، ومعظمها شواهد قرآنية(١). وعلى ذلك مضى الرمّاني الذي امتاز بأنه فصل إيجاز القصر عن إيجاز الحذف، ومثّل لكلّ منهما بأمثلة منفصلة(٢). لكن شواهده كانت قليلة، وقد تناقلها لاحقوه، ورددوها ولم يضيفوا لها كثيراً مفيداً، بل بدا الخلط عند بعضهم وكأنها ردّة خلطت إيجاز القصر بإيجاز الحذف من جديد(٣).

وأما البلاغيون المتأخرون، فقد قلّت الشواهد عند أصحاب المدرسة الكلامية منهم، ولم يكن للشاهد القرآني الصدارة دائماً، بل زاحمه الشعر، فلم يكن له الحضور الذي يستأهله.

لكن روّاد المدرسة الأدبية كانوا على عكس ذلك، إذ كثرت شواهدهم؛ فقد كانوا يعمدون إلى عرض القاعدة باختصار، ثم يتبعونها بأمثلة عديدة. وكان القرآن في معظم الحالات هو المُبْدَى، به يستشهد، وعليه يُبنى، وله الصدارة غالباً.

غير أنّ الأمر الذي يستلزم الوقوف عنده بكثير من الاستغراب، والحيرة، والأسى، هو شواهد الجرجاني :

تكرر القول إن ظاهرة الحذف قلبتها يداه الماهرتان، واستوعبها عقله الفذّ، وحلّلها، وعلّل لها، ونقلها إلى مستشرف طامح، وكل ذلك يشيع الرضا في نفوس قارئيه، ويملؤهم متعة لأذواقهم، ورياضة لعقولهم، لكن الأسى يجوب جنبات نفوسهم وهم يرونه غارقاً في شواهده الشعريّة، يعتصر في تحليلها كلّ جهده المدّخر، ويجود عليها سخياً بفكره المعتصر، ولا يكاد يلتفت إلى الشاهد القرآني، وإن فعل مرّ مرور الكرام، يلمسه برقة ليمضي إلى شاهد شعري آخر يؤسس له ويعلي مقامه.

ويكثر الاستغراب، وتزداد الحيرة عندما نتذكر أن الكتاب في دلائل الإعجاز القرآني، وأنّ صاحبه من شيوخ المتكلمين الذين جبلت عقولهم بفكرة إعجاز القرآن، ووهبوا أنفسهم لإثباته وإبانته.

قد نجد بعض عذر لبعض النقاد والأدباء الذين جعلوا همّهم في إجلاء أهميّة الشعر، وإعلاء شأنه، كالعسكري وابن رشيق القيرواني، وقدامة بن جعفر، وعبد الله بن المعتز ... لكن ما عذر الجرجاني، وهو يؤلف في صميم الإعجاز القرآني، فيحتج له بالشعر، وإن ساق شاهداً قرآنياً جاء فضله في أنه يساوق هذا الشعر، ويسير في ركابه، وينسج على منواله؟(٤)

---

(١) ينظر تأويل مشكل القرآن، ص ١٦٢ – .

(٢) ينظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص ٧٦ – .

(٣) ينظر ابن رشيق، العمدة، ص ٢٥١ – .

(٤) ينظر مثلاً دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد ، ص ١٢٤، ١٢٦، وتحقيق محمود شاكر، ص١٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ما عذره وقد حرمنا من قدرته العظيمة على التحليل، والتعليل، واستنطاق خفايا النفوس، ووهب ذلك للشعر دون القرآن؟

ما عذره وقد أورد لحذف المبتدأ خمسة عشر شاهداً، كلها شواهد شعرية، ليس بينها شاهد قرآني واحد؟(١).

لا شك في أن هذه تبقى أسئلة حارّة حائرة ملفعة بالأسى، ومسكونة بالاستغراب ...

بقي أن نشير إلى آفتين أخريين ساهمتا في فتّ عضد الشواهد البلاغية في ظاهرة الحذف، وقلّلا من قيمتها وهما :

- تكرار الشواهد :

وهذه ظاهرة شاعت كثيراً، وعاشت في كتب البلاغة عبر رحلتها الطويلة؛ فالشاهد الذي يلقيه سيبويه في القرن الثاني الهجري، يتلقفه البلاغيون عشرة قرون، ويدور في مؤلفاتهم برتابة مملة تجعل الباحث يتوقع أن يصادفه أنّى نظر(٢).

والرماني يجري موازنة بين قوله تعالى: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾(٣)، وقول العرب : القتل أنفى للقتل، ويحاول إثبات براعة النصّ القرآني، وتفوّقه، ويعلل لذلك بميزات في مبناه، ومعناه، فيتشبث بهذا المثال البلاغيون من بعد، وتراه متربعاً في صدور كتبهم(٤) ، ولم يكلفوا أنفسهم عناء استبصار مثال آخر. واكتفوا بأن جعلوا وكدهم في اعتصاره، مستكثرين من مزاياه، مشققين مفرعين، يتباهى لواحقهم باستكثار الميزات حتى وصلت عند المتأخرين منهم إلى عشرين(٥) . وما من شك في أن مثل هذا النهج يثير الغيظ، ويقود إلى الجمود، ويبعث الملل.

وأما الآفة الأخرى، فتتمثل في أن المتأخرين من أصحاب المدرسة الكلامية، قد غرقوا في "علمنة" البلاغة، فأترعوها بالقواعد، والقوانين، والأقسام، والفروع، حصروا بذلك همهم، ولم يعتنوا باستنطاق شواهد جديدة، أو على الأقل نقل شواهد قديمة، لذلك جاءت الشواهد عندهم قليلة، والاهتمام فيها ينصب في صحة الشاهد ومطابقته القاعدة، وهذا دفعهم أحياناً إلى صناعة

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز ، تحقيق محمد رشيد، ص١١٢، وتحقيق محمود شاكر ١٤٦ - .

(٢) من ذلك قول الشاعر : اعتاد قلبك من ليلى عوائده .... وقول الآخر : ديار ميّة إذ ميّ مساعفة ... ينظر سيبويه، الكتاب، ج١، ص٢٨٠، ٢٨١، ج٢، ص٢٤٧. وازن بالجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد، ص١١٢، ١١٣، ومحمود شاكر، ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٣) البقرة ، ١٧٩.

(٤) ينظر هذا البحث، ص١١٥.

(٥) ينظر، مثلاً، السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ، ج٣، ص ١٦٦ - .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مثال بائس باهت لا حياة فيه ولا رواء، ولا روح أدب، ولا جوهر بلاغة، كأن يتمثلوا للحذف الناجم عن السرعة التي يقتضيها المقام بقول أحدهم للصياد : غـزال .

ويتكرر هذا المثال في كتبهم، ويختلفون في تحليله، ويتناسون النبع الثرّ في القرآن الكريم، وما فيه من فائض الأمثلة التي وقع فيها الحذف ناجماً عن المباغتة، وضيق المقام إغراءً وتحذيراً .... ويتناسون ينابيع الأدب شعراً ونثراً، فلا يستحضرون مثالاً آخر، وكأنّ هذه الينابيع قد جفت كجفاف الصحراء التي اصطادوا منها (مثال الغزال).

الـذوق

يتوقع أن يكون الاهتمام بالذوق من صميم البحث البلاغي؛(١) فالبلاغة تبحث عن الجمال في الأدب، والجمال يحتكم كثيراً إلى الذوق السليم، وقد أدرك البلاغيون ذلك، وجعلوا للذوق والطبع – نظريّاً – صدارة في أحكامهم، وتعليلاتهم، مدركين أنّ الأدب يعتمد على الذوق، وللملكة الصائبة نصيب فيه عظيم، لذلك ينبغي أن يقاس بمعايير لا تبعد عن هذا ...

وقد بدا هذا النهج جلياً في أقوال البلاغيين .. فالجرجاني مثلاً عاد بالبلاغة إلى الذوق والموهبة والطبع، وذلك عنده لا يناله إلا " الأعراب الخُلّص، والأقوام طبعوا على البلاغة، وأوتوا فناً من المعرفة في ذوق الكلام هم بها أفراد."(٢)

والجرجاني يجعل للذوق آخر وصية حارّة في كتابه الدلائل، وكأنه يؤخره لأهميته، وليكون آخر العهد، فيخصص له موضعاً رائعاً مضمونه أن العمدة في إدراك البلاغة، هو الذوق، والإحساس الروحاني.(٣) ويصف فيه ضيق الصدر، وقلّة الحيلة مع أولئك الذين يصطرخون غير مقتنعين بمواطن الجمال، ولا قادرين على إدراكه، فيستعظم داءهم، ويستبعد دواءهم، لأن الأمر في النهاية عائد إلى الذوق والفطرة(٤) ثم يعرض أمثلة فيها ألطاف الحذف وغيره، يعقب عليها بأن صاحب الذوق إذا صادفها " أنق لها، وأخذته الأريحيّة عندها، وعرف لطف موقع الحذف..."(٥).

والقزويني، يعقد تنبيهاً فحواه أن الذوق هو المعيار في البلاغة، ويشير فيه إلى آراء الجرجاني، والسكاكي(٦).

---

(١) مصطفى الجويني، البلاغة تأصيل وتجديد ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، ١٩٨٥، ص٦.

(٢) دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد، ص١٧٠، ومحمود شاكر، ص.٢٢٢.

(٣) نفسه، تحقيق محمد رشيد، ص٤١٨، ومحمود شاكر، ص ٥٤٦.

(٤) نفسه ، تحقيق محمد رشيد، ص ٤١٩، ومحمود شاكر، ص٥٤٩ ،٥٥٠.

(٥) نفسه ، تحقيق محمد رشيد، ص ٤٢٠، ومحمود شاكر، ص٥٤٩.

(٦) الإيضاح، ج١، ص٦٣ ، ٦٤ ، وينظر توضيح آخر في ج٤، ص١٤٧ ، ١٤٨ وهو لمحمد عبد المنعم خفاجي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما السبكي، فإنه لفرط مماسته يبدأ الحديث عن هذا الموضوع في باكورة كتابه، وترى الذوق بين يديه فيصلاً في الأحكام، فهو يتحدث عن جمال البيئة المصريّة، وأثرها في تنمية الموهبة وتغذية الذوق..(١).

وحتى السكاكي، فإنه يردّ الإعجاز القرآني في أحد الأوجه إلى الذوق(٢).

هذا كلامهم نظريّاً، وهو محل اتفاق وإكبار، فماذا كان عند التطبيق؟

وأما الجرجاني، فقد بقي على عهده، إذ اتخذ الذوق مصباحاً يستضيء به، ومعياراً دقيقاً يحتكم إليه، فهو بحق " لم يتخلّ عنه الذوق الأدبي الذي يسير بالقارئ نحو تلمس صفات الجمال في العمل الأدبي، وذلك حيث لا تجدي القاعدة ولا ينفع القياس"(٣).

وقد كان الذوق سيّد جهده، وموجهه، فأسعفه ذلك في الخلاص من جمود التقعيد، وجفاف التنظير، وبدا كتاباه كأنهما " يخلوان خلواً تاماً من جفاف النظريات وقواعد العلوم، بل لكأنهما روضان مونقان يرفان بالنضرة والعطر والضياء"(٤).

وكان حريصاً على استثارة الذوق البلاغي إذ يدعو القارئ إلى انتأمل " في أساليب الحذف، ويستشعر روعتها، ويحاول أن يطرد من وهمه ذكر المحذوف، ثم يعود فيتأملها وقد ذكر المحذوف، ثم يتأمل الفرق بين الحالين، ولا شك أن منهج عبد القاهر مفيد للذوق البلاغي إذ يعوده على! النظر والتأمل في الأساليب وتذوقها حتى يصل بنفسه إلى بلاغة الكلام، والحكم عليه، والانفعال به"(٥).

وابن الأثير، وهو يمثل المدرسة الأدبية، كان الذوق عنده مقدماً مبجلاً، إذ اعتمد على ذوقه في حشد كثير من أمثلة الحذف، وكان يستثير عبرها الأذواق، ويستنهض بها الهمم لتحسس مواطن الجمال ... ويرمي من روائها إلى استثارة الملكات، وصقل المواهب، وصناعة الأدباء(٦).

---

(١) شروح التلخيص، شرح السبكي، ج١، ص٦.

(٢) المفتاح، ص٥١٢ ، ٥١٣.

(٣) بدوي طبانة، البيان العربي، ص ٢٣٦، ... وللتوضيح أكثر يرجع إلى أحمد مطلوب، عبد القاهر الجرجاني، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٣، ص٢٠٥ ، وما بعدها.

(٤) شوقي ضيف، البلاغة العربية تطور وتاريخ، ص ٢١٨.

(٥) عبد العزيز عرفة، الذوق عند عبد القاهر الجرجاني، دار الطباعة المحمديّة بالأزهر، ١٩٨٣، ص٣٨٢ .

(٦) ينظر للتوضيح، أحمد مطلوب، مناهج بلاغية، ص٢٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما كان العلوي عنه ببعيد، فهو يحلق شارحاً محللا معللا يعطي أحكاماً أملتها عليه تجربته وذوقه وحسّه الصافي. ومع أنه يحكم العقل في مناقشاته إلا أنه يجنح للذوق كثيراً ...(١)

وشهاب الدين الحلبي كان كذلك قريباً من رفيقيه، فارتضى منهجاً يقوم على" تربية الملكة الأدبية، وصقل الذوق، وتهذيبه بحفظ النصوص البديعة، والاطلاع على الأساليب الرفيعة وتقليدها في أوّل الأمر، والإبداع بعد أن تكتمل الأداة ويستوي عود الأديب"(٢).

وأما أصحاب المدرسة الكلامية فشأنهم مختلف عمّا سبق؛

لقد بدأ الرازي رسم خطهم إذ حرف البلاغة عن الذوق، ونزع عنها ثوبها الأدبي القشيب، وحوّلها إلى الضبط والتحديد، فبدأت البلاغة تفقد قدرتها على تذوق البلاغة(٣).

ثم جاء السكاكي، وملخصو كتابه، وشرّاح التلخيص، فظهرت الفجوة عندهم بين النظر والتطبيق، وبدأت خيوط الذوق تتلاشى لتنسج مكانها خيوط علمية جافّة، فأصبح القارئ ينتقل في كتاب المفتاح للسكاكي من الجزء الأوّل وهو في النحو، إلى الجزء الثاني في الصرف، إلى الثالث في البلاغة فلا يرى كبير فرق في الأسلوب.

ويحسّ أنه يتعامل مع علم بقيود صارمة، وقواعد جامدة، إذ تتصدر القاعدة الحديث، ثم يليها مثال، أو بعض أمثلة قلّما يلطف من أجوائها حسن تحليل، أو إشارة إلى مواطن الجمال، أو إسعاد القارئ لتذوق ذلك واستعذابه.

وأما الشرّاح من بعد، فقبل أن تخدعنا صرخاتهم عن أهمية الذوق، تفجعنا تطبيقاتهم فقلما يلقون له بالاً، أو يخصونه بتعليل. فالسبكي مثلاً لم يطبق ما نادى به، ولم يخرج عن منهج السكاكي..(٤).

" ولن يستطيع الباحث أن يؤمن بدعوته إلى الذوق بعد أن يقرأ الكتاب؛ لأن نزعته فيه نزعة عقلية"(٥).

ولعلّ هذا الإفراط في مجافاة الذوق هو الذي أثار حنق بعض المحدثين على روّاد هذه المدرسة، فبالغوا في انتقادهم، فالزيات مثلاً، ترحّم على عهد البلاغة الأوّل ورواده الأدباء، وصب جام غضبه على المتأخرين وبدت في كلامه مغالاة، لاح فيها نماء عصبية إذ أشار إلى البلاغة الذوقية عند الجرجاني، والعسكري، وابن الأثير ... ثم هجم عنيفاً على من تبعهم،

---

(١) أحمد مطلوب، شروح التلخيص، ص ٥١٣.

(٢) أحمد مطلوب، مناهج بلاغية، ص ٢١٠ .

(٣) ينظر، المرجع نفسه، ص٢٤٤، والبلاغة عند السكاكي للمؤلف نفسه، ص٢٤٨، وبدوي طبانة، البيان العربي، ص٣٣٦.

(٤) ينظر أحمد مطلوب، مناهج بلاغية ص٢٩٤، وبدوي طبانة، البيان العربي، ص ٣٥٣-٣٥٥.

(٥) أحمد مطلوب، البلاغة عند السكاكي ، ص ٣٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووصمهم بأنهم خضعوا لنحائزهم الأعجميّة، ففلسفوا البلاغة لا لشيء غير الفهاهة والحذلقة.....(١).

التعليل

يجدر التنويه أولاً بأن هذا الحديث له علاقة قويّة بالحديث السابق عن الذوق البلاغي، بل هو مكمّل له، والأمثلة التي ستعرض هنا يُوضح كثير منها الجانب التطبيقي لنظرة البلاغيين للذوق واعتمادهم عليه في إصدار الأحكام.

مضى القول إنّ الروّاد الأوائل الذين أشاروا إلى ظاهرة الحذف، وخصصوا لها حيزاً في مؤلفاتهم، كانت عنايتهم تنصب في معظمها على حشد الأمثلة، وتحديد موطن الحذف فيها، وردّ المحذوف، وقلّما تطرقوا إلى التعليل لهذا الحذف، وتبين عناصر الجمال فيه.

وجاءت أولى المحاولات الجادّة للتعليل على يد الرمّاني الذي، وإن قلّت شواهده، إلا أنه برع في التعليل لبعضها، فنبّه على جمال الحذف، وبين مزاياه، وفضله على الذكر(٢).

وقد عاشت تعليلاته ما يقرب من قرن من الزمان، تدور في مؤلفات البلاغيين من بعده، لا يزيدون عليها جديداً، ولا يبتعدون عنها كثيراً، بل يكادون أن يكرروها كما هي(٣). إلى أن تناول الجرجاني هذه الظاهرة بحذقه وذوقه العظيمين، فبسط فيها القول، واعتنى بالتعليل للحذف(٤)، وعنى نفسه بكشف النقاب عن محاسنه، وكان يطوف بالقارئ بإصرار كي يتفهم هذه المحاسن، ويتشربها، ليقتنع بأن الحذف أبلغ من الذكر، وأن له من المزايا والألطاف ما يجعل الذكر مستثقلاً مسترذلاً(٥).

ويمثل ما قاله الجرجاني العصر الذهبي للتعليل لهذه الظاهرة، فالذين جاؤوا من بعده روّاد المدرسة الأدبية اعتمدوا كثيراً على ما قال، ورددوه، وإن حاولوا التجديد فما كان بمقدورهم أن يحلقوا عنه بعيداً، بل طافوا في حلقته، واستعانوا بكثير من تعليلاته وأمثلته، بل استعادوها أحياناً كما هي(٦).

---

(١) ينظر، أحمد حسن الزيات، دفاع عن البلاغة ، ص ٥٤ .

(٢) ينظر النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ص٧٦،٧٧.

(٣) ينظر مثلاً، القيرواني ، العمدة ، ج١، ص٢٥١.

(٤) مر ذكر هذه التعليلات في هذا البحث ، ص١١٢ – .

(٥) ينظر مثلاً دلائل الإعجاز، ص١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٩ .

(٦) ينظر ابن الأثير، المثل السائر، ج٢، ص٧٦،٧٧، والجامع، ص١٢٤، ويوازن بدلائل الإعجاز، ص١١٢، والعلوي، الطراز، ج٢، ص٩٢ ، ويوازن بدلائل الإعجاز، ص ١١٦. والمثل السائر، ج٢، ص٩١، والطراز، ج٢، ص١٠٤، ويوازن بدلائل الإعجاز، ص ١١٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما روّاد المدرسة الكلامية، فقد دبّ الجفاف في دراستهم للحذف، وسرت فيها روح العلم الجامدة؛ إذ كثيراً ما كانوا يعرضون القاعدة، ويستعرضون الخلافات حولها، ثم يطرحون لها مثالاً، أو أمثلة بعضها مكرور، وبعضها الآخر مصنوع، وقلّما اهتموا بالتعليل، أو التنبيه على عناصر الجمال، وإن علّلوا، فهو كثيراً ما يكون تعليلاً علميّاً يجهد من يحاول تفهمّه ؛

ففي قوله تعالى: ﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلم﴾(١) ، يعلل السكاكي لهذا الحذف تعليلاً منطقياً فيقول:

" أي بما لا ثبوت له، ولا علم الله متعلق به نفياً للملازم وهو المنبأ به بنفي لازمه وهو وجوب كونه معلوماً للعالم الذات لو كان له ثبوت بأيّ اعتبار كان"(٢).

وقد تظهر لديهم تعليلات في صلب المنطق والفلسفة :

يقول تعالى: ﴿ولا تقولوا ثلاثة﴾(٣).

وقف القزويني على هذه الآية، ورجح أن تكون كلمة (ثلاثة) صفة لمبتدأ محذوف أي : ولا تقولوا لنا آلهة ثلاثة.

ويتضح من ذلك أنه يتعمد عدم تقديرها خبراً لمبتدأ محذوف أي : ولا تقولوا هم ثلاثة؛ لأن في ظاهر هذا اعتراضاً على العدد فقط، دون أن يطال الاعتراض وجود آلهة. لكن السبكي ردّ عليه بحديث يقطر منطقاً إذ قال :

" وفيما قاله (القزويني) نظر، لأن نفي كونهم آلهة ثلاثة يصدق بألا يكون للآلهة الثلاثة وجود بالكليّة؛ لأنه من السالبة المحصّلة، فمعناه ليس آلهتكم ثلاثة، وذلك يصدق بألا يكون لهم آلهة"(٤).

إن هذا التعليق، وإن كان مقنعاً، إلا أن النفس تأنف منه، لأنه جرّد البلاغة من رياش الأدب، وخلع عليها جمود المنطق، فغدت متوناً كزّة، وعلماً جافاً. وفي مثل هذا إثبات جليّ لتردّي الحالة التي وصلت إليها دراسة ظاهرة الحذف على أيدي البلاغيين المتأخرين، وفيه دليل واضح على طغيان المنطق، واستقواء الفلسفة، مع انكماش الروح الأدبية، والتعليلات الذوقية الجماليّة التي تنمي الإحساس بالجمال، وتذكي الرغبة في تذوقه.

وقد كانت تبدو أحياناً عندهم بوادر، يتحررون فيها من الجفاف والجمود، ويعللون ببساطة مقنعة .. كأن يقولوا :

---

(١) يونس، ١٨ .

(٢) ينظر السكاكي، المفتاح، ص ٢٨٠.

(٣) النساء، ١٧١.

(٤) شروح التلخيص، شرح السبكي ، ج٣، ص ١٢-.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حُذف لمجرد الاختصار(١) . أو بدليل ما قبله. وفي قوله تعالى: ﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾(٢) يقول السكاكي : " أصل الكلام خلطوا عملاً صالحاً بسيء، وآخر سيئاً بصالح؛ لأن الخلط يستدعي مخلوطاً، ومخلوطاً به، أي تارة أطاعوا وأحبطوا الطاعة بكبيرة، وأخرى عصوا وتداركوا المعصية بالتوبة"(٣).

وقد يتجاوز بعضهم بنظره أسوار العلم، ويخترق بفكره أسرار الذوق، فيأتي بما يعجب، ومن ذلك تعليل القزويني لحذف المسند إليه إذ يعتد لذلك أسباباً ثم يقول:" وإما لاعتبار آخر لا يهدي إلى مثله إلا العقل السليم، والطبع المستقيم"(٤).

فهذه العبارة، مع اختصارها، تنقل التعليل نقلة بعيدة، وتردّه إلى تخوم تعليقات الجرجاني، الذي استوت الظاهرة بين يديه ملفعة بألطاف ساحرة أخاذة باهرة، قد يسرنا جمالها، ولا نستطيع التعليل لها.

وتضعنا هذه العبارة أمام سؤالين :

- هل نستطيع أن نعلل بالعقل دائما لمواطن الحذف ؟
- هل يجوز ألا نعلل بل نكتفي بإحالة ذلك إلى الذوق؟

لعلّ في كلّ من الموقفين بعض صواب؛ فالتعليل ضروري، ويجب ان يكون له قواعد وأحكام يعتمد عليها، ويقاس مستواه بها، لتسهم في صناعة الأدب الرفيع، واستشفاف البلاغة فيه، ولتكون هناك أرضية مشتركة للنقاد تميز الأدب الجيد من غيره.

إلا أن هناك هامشاً مقبولاً للذوق، إذ يسحرنا الجمال أحياناً، ونعجز عن التعليل له، وتفهم كنهه، وذلك يعود إلى الذوق والطبع والميل الفطري والإحساس الروحاني. وقد أحسّ البلاغيون بهذا فقالوا :

" قد توجد لبعض الكلام حَوبة في السمع، وهشاشة في النفس، لا توجد مثلها لغيره منه، والكلامان معاً فصيحان، ثم لا يوقف لشيء من ذلك على علّة"(٥).

وينقل عن ابن سلام أنه كان " يردّ البلاغة إلى شيء تجده، ولا تحدّه، ويصدق رأيك فيه دون أن تستطيع تعليله "(٦).

---

(١) القزويني، التلخيص، ص ٢١٧ .

(٢) التوبة، ١٠٢.

(٣) المفتاح، ص ٢٨٠، ٢٨١.

(٤) القزويني ، الإيضاح ، ج٢، ص٥.

(٥) الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد، بيان إعجاز القرآن، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، ص٢٤.

(٦) أمين الخولي ، فن القول، ص٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكنّ الاحتكام مطلقاً إلى مثل هذا سيقودنا إلى التسيب، فلا معنى للقول:
إن الحذف هنا مقبول لأنه مستذاق ومستلطف وحسب. ثم هناك أمر آخر:
من لنا بالذوق الرفيع الذي يميز الغرر والعرر، ومن أين يتأتى لنا دائماً الذوق السليم الذي يستعذب الماء الزلال ولا يدّعي مرارته؟

فلا بدّ إذا من عناصر جمالية يحتكم إليها، و"لا بدّ لكلّ كلام تستحسنه ولفظ تستجيده من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة، وعلة معقولة وأن يكون لنا إلى العبارة عن ذلك سبيل، وعلى صحة ما ادعيناه من ذلك دليل(١). ومن هنا يظهر فساد الاعتماد على الذوق مطلقاً، أو التعليل دون الاستئناس به.

وقد أجمل محمد بركات أبو علي هذا الأمر، وبين خطورة الاعتماد على ذوق دون تعليل، أو العكس، ودعا إلى الجمع بينهما، واعتمادهما معاً فقال:

" ولهذا فإنّ صاحب الذوق غير المعلّل، لا يفي بإبراز المعنى في البلاغة العربية، ولا يقوم بعملية التوصيل والتبليغ، كما أن المعلّل، أو المفسّر، أو القادر على الشرح للمعاني من غير ذوق لا يؤثر في غيره، وهذا ما جمّد البلاغة العربية في قوالب ومصطلحات، إذ الذين عرضوا لها في تقسيمات صاحبهم التعليل، والتفسير، والتقسيم من غير ذوق فكانت البلاغة العربية المتفلسفة، أو البلاغة العربية التي جرت على يد الأعاجم، وهي سميت ببلاغة العجم لعدم توافر الذوق لأصحابها .... وبالمقابل البلاغة العربية التي أشار الدارسون إلى معانيها من غير تعليل أو تفسير فإنها بقيت غير مقنعة للمتلقي ....(٢).

الجانب النفسي في التعليل

بقيت إشارة ضرورية لا بدّ منها تتمثل في الجانب النفسي للتعليل؛ فالأدب عموماً من النفس الإنسانية وإليها، ولا مجال لإنكار الأثر النفسي في إصداره وتلقيه، والحذف إحدى الظواهر الهامة التي يتضح فيها هذا الأثر، إنها ظاهرة مفعمة بالانفعالات النفسيّة، وبيئة خصبة لتبين آثارها، ومظاهرها، فهل تنبه البلاغيون إلى ذلك؟

---

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد، ص٣٣، ومحمود شاكر، ص٤١.

(٢) مفهوم المعنى، دار البشير، ص ٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن المتمعن في الجهد النقدي البلاغي العربي عموماً لن يصعب عليه أن يجد مواضع ظهر فيها بجلاء إدراك النقاد والبلاغيين أهمية الجوانب النفسية في إنشاء الأدب، ونقده، وتبيّن بلاغته، لكن لم يكن لهم – فيما أعلم – جهد مستقلّ(١).

ويهمنا هنا الجهد البلاغي بعامّة، وما انعكس منه على ظاهرة الحذف بخاصّة. أما الصورة الإجمالية فتبدي تفهم البلاغيين للأثر النفسي في أجواء البلاغة، ويكفي للتدليل على ذلك التذكير بتعريفهم المتأخر للبلاغة، فهي كما قالوا:

" مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته"(٢).

ومراعاة مقتضى الحال، لا شك؛ تدخل فيها الأحوال النفسيّة للمتكلم والمستمع والأجواء النفسية المحيطة. وقريب من هذا في التدليل على الأثر النفسي قولتهم المشهورة:"لكل مقام مقال"(٣).

وأما انعكاس الأثر النفسي في تعليلاتهم فقد بدا واضحاً منذ عهد مبكر، وتجلّى ذلك عند شيوخهم كالرماني، والجرجاني(٤) وغيرهما، إذ تصادفنا تعليلات للحذف محورها الآثار النفسية كالرغبة في المحافظة على نشاط السامعين وتشوقهم، أو الرغبة في خلع أردية الضباب على الكلام لشحذ الخيال، وإطلاق العنان له فيكتسب الكلام تفخيماً، أو تعظيماً، أو تهويلاً ... وتنزع النفس في ذلك منازع شتى.

فهم يرون أن كثيراً من الحذف يقع قصد الإبهام، وفي ذلك تحليق لا تطاله الكلمات ولا تطاوله، والتعليل له مهما سما يبقى قاصراً، والوصف مهما دقّ يظلّ عاجزاً ... يقولون في حذف الصلة من قولهم : بعد التي واللتيا:

" وما حذفوا الصلة إلا من أجل إرادة الإبهام ... وكأنها بلغت مبلغاً لا تطيق العبارة على وصفه"(٥).

---

(١) ينظر مجيد عبد الحميد ناجي، الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، ص ٥.

(٢) القزويني ، التلخيص ، ص٣٣ ، وشروح التلخيص، السعد والسبكي، ج١، ص١٢٢، وينظر توضيح في الإيضاح، ج١، ص٤١.

(٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج١، ص١٣٦.

(٤) وردت هذه التعليلات في مواضعها في هذا البحث، وقد أُحيل إليها غير مرّة .

(٥) العلوي، الطراز، ج٢، ص٨٥، ويوازن بالسكاكي، المفتاح، ص٢٨٠، والقزويني، الإيضاح، ج٣، ص١٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومنذ أن أومض الرماني قائلاً:" الحذف ... أبلغ من الذكر لأن النفس تذهب فيه كل مذهب"(١) ، والبلاغيون يتضوؤن بما قال، فالخطابي مثلاً يكرر كلام الرماني كما هو،(٢) وابن رشيق القيرواني يتمثله فيقول:" لأن نفس السامع تتسع في الظنّ والحساب، وكل معلوم فهو هين"(٣). وفي قوله تعالى:﴿ لو أن لي بكم قوّة﴾(٤)، يقول الشريف الرضي: " الحذف ههنا أبلغ من الذكر؛ لأنه يوهم المتوعد بعظيم الجزاء، وبغليظ النكال، ويصرف همّه إلى ضروب العقاب، ولا يقف عند جنس من أجناس المحذوفات المتوقعات..."(٥).

والعلوي يردد هذه الفكرة كثيراً، إذ البلاغة في تفلت العبارة من أصفادها، وتخففها من أثقالها، والحذف يبقى أبلغ من كل مقدّر ممكن، يقول:

" أيّ شيء من هذه الأمور قدرته، فإنك لا تجد له من البلاغة، وإن بالغت في الإفصاح به الذي تجده في مذاق الفصاحة مع الإبهام، من جهة أن الوهم يذهب معه كلّ مذهب لما فيه من المحتملات الكثيرة"(٦).

ثم يطبق كلامه هذا على قوله تعالى:﴿ فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾(٧) قائلاً:

" يريد أنه بلغ مبلغاً تقاصرت العبارة عن كنهه، فحذف ذاك، وأقام الإبهام مقامه؛ لأنه أدل على البلاغة فيه كما قررناه"(٧).

ويلح العلوي على هذه النكتة النفسيّة البديعة، ليزيد القارئ قناعة بما يحسّ به؛ فالإبهام أوقع في النفس، وأملأ لها، وأبعد أثراً، فيقول :

" اعلم أن المعنى المقصود إذا ورد في الكلام مبهماً فإنه يفيد بلاغة، ويكسب إعجازاً وفخامة، وذلك لأنه إذا قرع السمع على جهة الإبهام فإن السامع له يذهب في إبهامه كل مذهب"(٨).

وفي جهد الجرجاني يتمثل جيداً الاهتمام البالغ بالأثر النفسي للحذف؛ فقد غاص الرجل بمهارة فائقة إلى خفايا النفس الإنسانية، وتسلل إلى خباياها، واستنطق مكنوناتها، واستلهمها

---

(١) النكت في إعجاز القرآن ، ص ٧٦.

(٢) بيان إعجاز القرآن ، ص ٥٢.

(٣) العمدة ، ج١، ص ٢٥١.

(٤) هود، ٨٠.

(٥) تلخيص البيان في مجازات القرآن، تحقيق محمد عبد الغني حسن، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٥ ، ص١٦٣.

(٦) الطراز ، ج٢، ص٨٠، وينظر في المكان نفسه تعليله أيضاً لقوله تعالى: (والمؤتفكة أهوى، فغشاها ما غشّى). النجم، ٥٤.

(٧) طه، ٧٨.

(٨) الطراز، ج٢، ص ٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انفعالاتها، فجلاّها، وجعلها كتاباً مفتوحاً ساطع السطور. لقد استبطن تجاويف نفس الأديب، وجاب شطآنها والأعماق، وتمثل خلجاتها، وأظهرها قائدة له، توجه كلامه حذفاً وذكراً.

ولا يكاد يخلو تعليل للجرجاني من الأثر النفسي، حتى إنه لم يدع للتابعين فضيلة جديدة مزيدة، فاكتفى أرباب البلاغة بعده باتباعه، واقتفوا أثره، وساروا على خطاه(١).

وقد وجد منهم من يدعو صراحة إلى تحكيم النفس في تذوق جمال الحذف؛ فابن الأثير مثلاً، يحث القارئ على تلمّس جمال الحذف بالرجوع إلى أطواء النفس قائلاً:

"وأنت تحسّ هذا من نفسك إذا تأملته"(٢).

وجهد الجرجاني هذا، يظهر بجلاء قصور المتأخرين من أصحاب المدرسة الكلامية الذين جاءت تعليلاتهم، كما مرّ، تعليلات منطقية، أو مكرورة باهته، أو نحويّة عاجزة عن إدراك أن البلاغة غير النحو، فانئسارهم لمستوى الصواب والخطأ في العبارة وفق ما تمليه أحكام النحو، جعلهم بمنأى عن التحليق بما يناسب قمم البلاغة، لا سيما في القرآن الكريم؛ فالقرآن "استحدث لنفسه نحواً خاصّاً به، ونسقاً في الأداء ليس مألوفاً في غيره من الكلام ... وقد أضاف إمكانات كبيرة للنحو بالمفهوم الجمالي التركيبي، واستحدث طرقاً فنيّة للربط بن المفردات وبين الجمل والعبارات"(٣).

ولم يدلل القوم على إدراكهم " أنّ هذا القرآن إنما يعلّل إيجازه، وإطنابه وتوكيده، وإشاراته وإجماله، وتفصيله .... يعلل كل ذلك وما إليه بالأمور النفسيّةلا غير، وما قام من تعليل مثل هذا على الأصل النفسي فهو الدقيق المنضبط، وما جاوز ذلك فهو ادعاء وتمحّل أو أشبه بذلك غالباً .."(٤).

ولعلّ مردّ ذلك هو أن القرآن رسالة موجهة إلى الإنسان، تؤثر في نفسيته، وتحاول امتلاكه ترغيباً أو ترهيباً، وتجوب أعماقه، وخفاياه، لذلك جاء يراعي " قواعد نفسيّة عن مظاهر الاعتقاد، ومسارب الانفعال، ونواحي التأثير، وجوانب الانقياد، وألمّ من هذا بما أيّد حجته وأظهر دعوته ..."(٤).

ولذلك، كان حريّاً بالبلاغيين أن يوجهوا همّهم الأعظم نحو هذه اللفتات النفسيّة الإنسانية، ويتلمسوا آثار ما حذف على النفس، وكيف تغلبها ترهيباً، وترغيباً، وتكثيفاً، وتهويلاً، وتعظيماً، واستخفافاً، واستلطافاً... .

---

(١) يحسن الرجوع إلى ذلك في هذا البحث، فقد أحيل إليه أيضاً غير مرّة.

(٢) المثل السائر، ج٢، ص ٩٦.

(٣) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤، ص٤٣.

(٤) أمين الخولي، مناهج تجديد ، ص ٣٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي الحذف الوارد في غير القرآن، كان يجب ألا يغيب عن بالهم أن الأدب مرآة النفس، وأن سطوره هي معالم أنوارها وأغوارها، وأبياته هي مفاتيح مكنوناتها، فـ " ليس هناك شك في أن الأسرار اللغوية أسرار نفسية، وأن ما في الثانية من إيماض وتفلّت أو سنوح ونعومة، وكل ما تجده من أحوال الحسّ كائن في الأولى، وهو ما نعبّر عنه مجازاً بالإشعاع، والإيماء، والإشارة، وما شابه ذلك بما نحاول به أن نلتقط اختلاجة الحسّ من العبارة ونسميه أسراراً بلاغية"(١).

وحصر البلاغة في التركيب الظاهر نظر قاصر؛ لأن " قيمة الشكل البلاغي ليست معطاة في الكلمات التي يتكون منها، إذ إنها تتوقف على الهامش القائم بين هذه الكلمات وبين ما يتلقاه القارئ في ذهنه متجاوزاً لها في الآن ذاته. إنها عملية تسام أو تجاوز دائم للشيء المكتوب"(٢). إنها دعوة إلى الإبحار في أعماق المتكلم والمخاطب والظروف النفسيّة المصاحبة للموقف الكلامي الظاهرة منها والكامنة.

ولعلّ هذا يظهر وجاهة تلك الدعوة التي تنصّ على ربط البلاغة بعلم النفس، وقد تبنت هذه الفكرة، وروّجت لها كوكبة من المحدثين الذين رأوا أن الأنظار البلاغية لا تكون دقيقة إلا إذا جابت أقطار النفس، واستقطرتها دقائق الأسرار ...(٣).

ويحسن التنويه بأن بعضهم قد أحسّ – محقاً – بخطورة الغلو في الاعتماد على التحليل النفسي، فأحسن الاحتراس إذ دعا إلى الاعتدال حتى لا يفقد درس البلاغة قيمته ويتلاشى في أحضان علم النفس(٤).

ولهذا الرأي قدر من الوجاهة كبير؛ فإن فرّطنا في استضاءات علم النفس عزّ علينا الفهم، وإن أفرطنا في ذلك غلبنا الخيال .... فلا بدّ من القسط والاعتدال.

---

(١) محمد أبو موسى ، دلالة التراكيب، ص ٣.

(٢) صلاح فضل ، بلاغة الخطاب وعلم النصّ، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٦٤، آب، ١٩٩٢، ص٥٧.

(٣) منهم : أحمد أمين، والعقاد، والرافعي، وطه حسين، وأمين الخولي، والزيات، ومحمد خلف الله، وحامد عبد القادر، وعز الدين اسماعيل. وقد جمع أفكارهم وعرضها فتحي عبد القادر في: بحوث ومقالات في البلاغة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص ١١٠.

(٤) ينظر في ذلك المرجع نفسه ، ص ١١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التقسيم والتنظيم

عانت ظاهرة الحذف أول أمرها من الفوضى، وعدم الدقة في التعريف والتحديد والتنظيم، فقد جاءت هذه الظاهرة في كتب أوائل الدارسين -كما مر- ملاحظات منثورة، وأمثلة اختلط فيها إيجاز الحذف بإيجاز القصر. وبدا شيء من تنظيم عند ابن قتيبة، اتضح أكثر عند الرماني، وتجلى بين يدي الجرجاني(١).

ثم جمحت بالقوم بعد ذلك رغبة عارمة في التقسيم والتنظيم، فأصبح ذلك لديهم، -لاسيما أصحاب المدرسة الكلامية- هدفا لاوسيلة. ففاضت كتبهم بالتقسيمات والتفريعات، والتنظيمات المنطقية، فنسي القارئ أنه في رياض الأدب، وأفنان الفنّ، ووجد نفسه قسرا في أحضان العلم ومنطقه وصرامته.

والحقيقة أن التنظيم لايعد مثلبة إن كان وسيلة لإجلاء الموضوع والوصول به إلى غايته، لذلك فإن عناية أصحاب المدرسة الأدبية بالتقسيم والتنظيم لا تقابل بالنفور وإن بدا عند بعضهم بعض مغالاة؛ لأنها أقرب إلى التقسيمات الذوقية؛ فالحذف يدرس في موضع واحد، وتتوالى تقسيماته وتفريعاته، يتوارد فيها الفرع إلى أصله، والشكل إلى شكله، في وسط يشيع فيه التآلف والتناسق.

لكن الأمر مختلف عند المدرسة الكلامية؛ فالتنظيم والتقسيم هنا محط العناية، يقف البلاغي عنده، ويجعله وكده، ويستفرغ له جهده(٢).

لقد بدا الخضوع لهواية التقسيم عند السكاكي، الذي جعل الجملة محورا أدار حولها أبحاث علم المعاني، فالتزم خطته ملخصو كتابه، وشراح التلاخيص، فاستقرت على مايلي: أحوال الإسناد، أحوال المسند إليه، أحوال المسند، أحوال متعلقات الفعل، القصر، الإنشاء، الفصل والوصل، الإيجاز والإطناب والمساواة(٣).

إن هذا التقسيم، بما فيه من حصر منطقي، وإن بدا أنه يسعف في لم أطراف المواضيع، وزم جميعها، والإحاطة بدقة بها، إلا أنه أضر كثيراً بدراسة الظواهر البلاغية، لاسيما ظاهرة الحذف، ذلك أنهم كانوا مضطرين إلى التحدث عنها في كثير من هذه المواضع التي ارتضوها

---

(١) يحسن الرجوع إلى بدايات هذا الفصل لاستذكار هذا الحكم.

(٢) يسهل استنتاج هذا من مجرد نظرة إلى بعض فهارس كتبهم.

(٣) القزويني، الإيضاح، ج١، ص٥٥، وقد ذكر البحث هذا سابقاً.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أقساماً منفصلة؛ فهي تدرس عندهم في أحوال المسند إليه، وفي أحوال المسند، وفي أحوال متعلقات الفعل، وفي باب الإيجاز والإطناب والمساواة(١).

وهذا -لاشك- يجزّئ الظاهرة، وينثرها أشلاء ممزقة، فهي تتبعثر بشكل مؤلم، وتتكرر بشكل مؤذٍ، وتتحول إلى نتف يسيرة، يضطر الدارس إلى اللهاث وراءها في هذه المواضع، ولم أشلائها المبعثرة بلا رحمة، وذلك يضنيه، ويجعل من الصعب عليه تشكيل صورة لها دقيقة غنية.

ويزيد الأمر سوءا أن هذه الدقة المتناهية في ضبط المواضيع، وحصرها، لم تسلم منهجهم من التناقض أو الخلل، فمع الإصلاح الذي سعى له القزويني(٢)، وحاول فيه إنقاذ منهج السكاكي من الخلل حين أخر الفصل والوصل، والايجاز والاطناب والمساواة، وقدم عليها الإنشاء، أقول مع ذلك، فإن الحذف بقي يئن تحت هذا التناقض؛ فهو يقع في الإنشاء كما يقع في الخبر، فكيف يجوز بحثه في الثاني ويغفل ذلك في الأول؟

وهناك أمر آخر، لقد جعلوا للفعل بابا مستقلا بحثوه فيه مع متعلقاته(٣)، ومعلوم أن الفعل مسند، وكان حقه عند الحديث عن ظاهرة الحذف مثلا أن يبحث في أحوال المسند، ولكن تقسيمهم الملزم لهم، جعلهم ينزعونه من بابه، ويضعونه في باب آخر. وهذا يزيد منهجهم خللاً واضطراباً. وقد تنبه قدماؤهم إلى هذا الخلل(٤)، لكنهم لم يملكوا إلا الانصياع لهذا المنهج وعدم الخروج عليه.

وقد كان يمكن للاحقين منهم تدارك عثرات السابقين في التقسيم لولا أن منهج التأليف المتأخر أساسا قام على فكرة التلخيص، وشروح التلخيص(٥).

هذا المنهج الذي ألحق ضرراً عظيماً بالبلاغة العربية، فحرمها التجديد، وحرم عليها حتى إصلاح الخلل كما هو الحال هنا، فأطفأ جذوتها، وطمس زهوتها.

ذلك أن الملخص محكوم بمنهج المصنف، لايستطيع الانفكاك منه، أو التحليق بعيداً عنه، فهو مأسور له يساوقه، ويدور في فلكه.

ثم يأتي الشارح فيكون مأسورا لمأسور، فتزداد الحلقة ضيقا، وتتزاحم الدوائر الخانقة ليغدو النفاذ منها مستحيلا، فيبدأ الشارح منهم التحليق وكأنه عصفور في قفص، أعطي الحرية،

---

(١) مر ذكر هذا سابقا في هذا البحث، ينظر ص١٦٨.

(٢) ينظر ذلك، أحمد مطلوب، شروح التلخيص، ص٢٩٣.

(٣) ينظر السكاكي، المفتاح، ص٢٢٤.

(٤) ينظر توضيح لذلك في، أحمد مطلوب، شروح التلخيص، ص٦٣٥.

(٥) سبقت إشارة إلى هذا، وتعليق عليه في هذا البحث، ص ١٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ورسمت له ضيقة الحدود، فإن آنس في نفسه قوة جناح، حلّق ليصطدم بتلك الحدود، ويعود كسيراً مهيضاً من حيث بدأ.

وهكذا بدأت التلخيصات والشروح والتقارير يأكل بعضها بعضا؛ فالمنهج الأساسي قائم صارم، والكل ملزم بالتزامه، والسعيد من يتمكن من الانفلات منه والابتعاد عنه قليلا لكن ليعود إليه ويطوف حوله.

وإن وجد ذهن مشحوذ، أو قريحة متقدة، أو طموح إلى تفرد، أو رغبة في المساجلة، أو هواية للمماحكة. فالميدان لا يمتد إلا بالمقدار الذي يسمح به المنهج المقلد، فكثر الزحام، وتكسرت الأقلام، وكانت فرص الاستهام محصورة في نقاشات مكرورة مقهورة في تعريف، أو تدقيق حد من الحدود، أو صحة مثال. وتنفخ في كل ذلك نفثات فلسفية أو شرعية أو نحوية. وزهرة البلاغة تذوي ثم تذوي، وتستنصر ولا معين، رغم جلبة الخيل وكثرة الضوضاء حولها، ولكنها جعجعة تسمع، وطحين لايرى.

نظرة في تقييم المحدثين لدراسة ظاهرة الحذف عند البلاغيين

على النهج ذاته الذي سار عليه البحث في شأن النحو، يمضي هنا متمثلا أن النظرة الصائبة إلى التراث غير الديني، يجب أن تتركز على تقديره لاتقديسه، ومحاكمة آراء المحدثين يجب أن تتم على هذا الأساس، ومما يؤسف له أن كثيرا من البحوث عن البلاغة "لاتكاد تتجاوز تاريخها ومنطق عصرها، بل كثيرا مانقع أسيرة لوهم كبير يعد جزءا من الوهم الأعظم في علاقتنا بالتراث عامة، إذ نرى في بعض تجلياتها الفائقة الصورة الكاملة لأقصى مايمكن أن تصل إليه المعرفة العلمية بظواهر اللغة والأدب(١)".

إن من يقدس التراث، ويراه عليا عن الأخطاء، عصيا على الإصلاح، مخطئ. ولكن الذي يستهين به، ويستحلي انتقاده، ويستسهل استبداله أو هدمه أكثر خطأ.

إن الصورة التي عرضها منهج المدرسة الكلامية للبلاغة العربية صورة قاتمة، وانتقادات المحدثين لهذا المنهج -على قسوتها- ليست ظالمة(٢). وإن أكبر اعتذار يمكن أن يقدم عنها هو ماقاله فتحي عبد القادر الذي يرجو ألا "تغلو في القول، ونشتط في الحكم، ونفعل كما فعله كثير من علماء البلاغة والنقد المعاصرين لنرمي بلاغة المتأخرين بالجفاف والجمود، وننسب إليها عقم

---

(١) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص٨.

(٢) ينظر مثلا: بدوي طبانة، البيان العربي، ص٣٤٧، ومصطفى جويني، البلاغة العربية تأصيل وتجديد، ص٢٢٠، وفضل حسن عباس، البلاغة (علم المعاني)، ص٥٩، وعبد الفتاح لاشين، البهاء السبكي وآثاره البلاغية والنقدية، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٩٧٣، ص٣، وأحمد مطلوب، البلاغة عند الجاحظ، ص١٦٥، والبرقوقي، عبد الرحمن، مقدمة التلخيص للقزويني، ص٣، ومحمد عبد المنعم خفاجي، مقدمة الإيضاح للقزويني، ص٨، ومنير سلطان، بلاغة الكلمة والجملة والجمل، منشأة المعارف بالإسكندرية، ص١٠٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأذواق، وفساد الطباع إلى غير ذلك من أوصاف نقضي بتجنبها واطراحها، وإنما نرى أن بلاغة المتأخرين تمثل روح عصر، وفكر جيل، ولا تخلو من الإفادة من حيث يستعان بها على تقييد المطلق، وحصر الشائع"(١).

لقد أحسن فتحي عبد القادر وصف أزمة هذه البلاغة. فهل أحسن الاعتذار؟

إن توسيع دائرة الاتهام لتشمل العصر والجيل لاتجعل الخطأ صوابا ولاتقوم اعوجاجا.

هذا أنموذج لما يوافق البحث فيه انتقادات المحدثين، لكن البحث لايوافق كثيرا منهم في إطلاق هذا الحكم على البلاغة العربية عامة، فقد رأينا أن منهج المدرسة الكلامية يمثل أحد المظاهر لهذه البلاغة، ولا يمثلها كلها. وأن يقصر المحدثون أنظارهم على هذا النهج، والحكم على البلاغة من خلاله خطل واضح. بل إن بعضهم يعلن صراحة أن هناك منهجاً واحداً في البلاغة هو منهج السكاكي وصحبه(٢).

والبحث يأسى على هذه الجهود العظيمة التي تبددت، وهي تبحث في تأثر البلاغة العربية بغيرها؛ فالمحدثون يبذلون جهوداً كبيرة في تتبع أثر الثقافات غير العربية الإسلامية في كتابات البلاغيين، ويستهلكون المدخر من جهودهم في إثبات ذلك، أو نفيه، وتتضارب آراؤهم بشكل يجعل القارئ يرثي لحالهم، ويشفق عليهم، وتتدافع منه التساؤلات بحسرة:

ما الذي يجنونه من هذا الضجيج؟ وما الذي يعود على القارئ من هذا التناقض؟

إنهم يجهدون أنفسهم في متابعة ترجمات كتابي أرسطو: الخطابة والشعر، ويحددون تواريخها، ويوازنون بينها وبين كتابات البلاغيين العرب، ويتحسسون الخيوط المتشابهة، ثم يخرجون من ذلك شيعا(٣):

شيعة ترى التأثر ماثلا واضحا، فتسارع إلى القول وهي تغمز من طرف خفي:

ألم نقل لكم؟ إن العرب ليس لهم أصالة في موضع ما، وهاهم يرضون من الغنيمة بنقل تراث الأمم الأخرى.

---

(١) بحوث ومقالات في البلاغة، ص٩٥.

(٢) ينظر منير سلطان، بلاغة الكلمة والجملة والجمل، ص١١.

(٣) الأقوال في هذا كثيرة جدا، وقد قام بعض الباحثين بجمعها:

يحسن النظر في محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف، البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢، ص٧ ومابعدها، وقد كرر المؤلفان الكلام ذاته في كتابهما: نحو بلاغة جديدة، مكتبة غريب، القاهرة، ص٦-. وينظر، مجيد عبد الحميد ناجي، الأثر الإغريقي في البلاغة العربية من الجاحظ إلىابن المعتز، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٧٦، ومعظم الكتاب يدور حول هذه الفكرة. وقد دافع شفيع السيد ببسالة عن أصالة البحث البلاغي العربي، ينظر كتابه، البحث البلاغي عند العرب تأصيل وتقييم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٧، ص٩٢-١٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وشيعة أخرى تدفع التهمة، وتبرئ التراث العربي من التأثر، وتنزهه عن الانفتاح على الثقافات الأخرى كأن ذلك جريرة ، وعيب يندى له الجبين.

وشيعة ثالثة تحاول خلق التوازن بين الأصالة والتأثر.. والأمر في كل ذلك لم يورد مورده، فتأثر العرب بغيرهم أمر واقع لامحالة، ولايعيبهم ذلك، بل العيب أن ينعزلوا عن غيرهم، ولا يستفيدوا من تجارب سابقيهم.

وقد سارعت فئة من المحدثين إلى انتقاص جهد البلاغيين القدامى دون حق:

فبعضهم ينتقد البلاغيين القدامى، وعندما يقدم البديل يتكئ على كلامهم، ويكرر أقوالهم؛ فأحدهم يرى أن عبد القاهر يبين جمال الحذف، ولكنه لايعلل له، فيتطوع هو إلى التعليل قائلا: "فالمحذوف تدل عليه قرائنه، فإذا ذكر كان ثقيلاً في موضعه؛ لأنه تعريف لما عرف، فالكلمة الخالية من الفائدة كالثقيل تؤذي العين بوجوده، فإذا لم تبصره في موضع كان يتوقع وجوده فيه، وجدت لذلك من الأنس والمحبة مايغمر القلب سروراً"(١).

والجرجاني يقول عن مبتدأ محذوف:

"ثم إنك ترى نصبة الكلام وهيأته تروم منك أن تنسى هذا المبتدأ، وتراك تتوقاه توقي الشيء يكره مكانه، والثقيل يخشى هجومه"(٢).

وما أظن التعليل الأول إلا استقالة في ظلال تعليل الجرجاني هذا.

وبعضهم لاينكر أن له نظرات عميقة ثاقبة، وآراء سديدة صائبة في ظاهرة الحذف، ولاسيما في التعليل لها(٣)، لكنهم قساة على البلاغيين إذ رفضوا كثيرا من تعليلاتهم، وعدوها تمحكات(٤)، بل استهجنوا منهم أن يشيروا إلى المحذوفات، وأن يردوها، واستكثروا عليهم أن يلتفتوا إلى عناصر العبارة ويتفقدوها لرد الغائب منها، ورأوا ذلك من أساليب العربية(٥) التي لاتحتاج إلى تقدير محذوفات.

وموقفهم ذلك عصي على الفهم، إذ كيف يتم الجمع بين التعليل لجمال الحذف، وعدم الاقتناع بوجود محذوف أصلا؟ وهم يشنعون عليهم أن قعدوا، وقسموا وفرعوا، ويرون البلاغة فوق كل ذلك، وأنها أسمى من أن تحيط بها حدود، وأرق من أن تقيدها قيود(٦).

---

(١) عبد الفتاح لاشين، المعاني في ضوء أساليب القرآن، ط٤، المكتبة الأموية، ١٩٨٣، ص٢٠٧.

(٢) دلائل الإعجاز، ١١٦،١١٧.

(٣) ينظر رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، منشأة المعارف بالإسكندرية، ص ٨١-٩٠.

(٤) نفسه، ص٨٩.

(٥) نفسه، ص٩٠، ٨٢.

(٦) نفسه، ص٨٤-٨٨، وينظر تامر سلوم، نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، دار الحوار، ص١٣٦-.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعل الأصوب هو أن البلاغة تحتاج إلى قدر من التحديد والتقعيد، وخط الرسوم التي تهدي البليغ والناقد، وترشد الشداة إلى دروب الجمال، وتشدهم إلى ماينشدون من رياض الأدب الرفيع والبلاغة العالية.

ويبدو أن مواقف هذه الفئة وحدتها كانت ردة فعل للمتأخرين من البلاغيين الذين قطعوا صلة البلاغة بذرا الفن، وجروها غصبا إلى قيودالعلم. ثم إن البلاغيين ماكانوا غافلين عن إدراك ثقل المحذوفات إن ظهرت، فهم يشيرون إلى أن البلاغة تكمن في تجنب ذكر المحذوف وكم ردد الجرجاني ذلك، ورددده صحبه من بعده! فابن الأثير مثلا يصرح بهذا قائلا:

"فمن شرط المحذوف أنه متى ما أظهر. صار الكلام إلى شيء غث لايناسب ماكان عليه أولا من الطلاوة والحسن"(١).

وبعضهم ينتقد البلاغيين القدامى ولا يقدم بديلا مقنعا:

فقد سبق القول إن القدماء أول عهدهم بتعريفات البلاغة كانت عباراتهم فطرية انفعالية، كأن يقولوا: انبلاغة كلمة تكشف عن البقية. وقد التقط أحد الباحثين هذا التعريف، فقرأه: البلاغة كلمة تكشف عن البغية، علما بان التعريف ورد في كتب البلاغة المتقدمة بلفظ (البقية)(٢) ولم يرد بلفظ (البغية) إلا في عروس الأفراح للسبكي(٣)، ولعله تصحيف. وكان يمكن أن يحمله الباحث على ذلك، ويرجح التعريف الأول الذي يدل على الإشارة والإيجاز، إلا أنه حمله على الثاني، فشنع على البلاغيين، وجعلهم ميداناً للهزء والسخرية، ثم قدم تعريفا بديلا للبلاغة هو:

"الكلام المعبر عن إحساس الناس بالحسن"(٤). ولا مراء في أن هذا التعريف لاتبدو فيه الدقة التي تتأى به عن النقد.

وبعض المحدثين يردد القول إن البلاغة العربية تقوم على نظرات جزئية(٥). نعم، إنها النغمة ذاتها التي ترى التراث العربي الإسلامي قائما على الجزئية، والعقل العربي الإسلامي قاصرا. وإن كان لأصحاب هذا الرأي بعض حق في تركيز البلاغيين على التمثيل بآية أو بيت أوجملة، فإن ذلك ليس صحيحاً بإطلاق، بل الواقع أن بعض البلاغيين قد تجاوز ذلك، وسوف

---

(١) المثل السائر، ج٢، ص٧٧.

(٢) ينظر مثلا، ابن رشيق القيرواني، العمدة، ج١، ص٢٤٢، وابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٤، ص١٩٠.

(٣) ينظر شروح التلخيص، ج١، ص١٢٧.

(٤) أمين الخولي، فن القول، ص١٩٧.

(٥) ينظر المرجع السابق، ص٥٣، ودرويش الجندي، علم المعاني، ١٧٣، ورجاء عيد، فلسفة البلاغة، ط٢، ص٩٧، وينظر نعمة رحيم العزاوي، النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨، ص٤١٨-.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يكون لهذا الأمر وقفة في مكان لاحق، ويكفي أن نشير هنا إلى قول للجرجاني يصرح فيه بضرورة النظرة الشمولية للوصول إلى حكم صادق، فهو يقول: "واعلم أن من الكلام مأنت ترى المزية في نظمه، والحسن كالأجزاء من الصبغ تتلاحق وينضم بعضها إلى بعض، حتى تكثر في العين فأنت لذلك لاتكبر شأن صاحبه فلا تقضي له بالحذق والأستاذية وسعة الذرع وشدة المنة حتى تستوفي القطعة وتأتي على الأبيات"(١).

وإن كان لأقوال المحدثين في هذا الشأن بعض حق، فلعل مرد ذلك إلى النماذج التطبيقية التي اعتمدها البلاغيون، فأكثرها يتشكل من بيت شعري، أو آية قرآنية، وقلما تجد فيها نصوصا كاملة.

بقيت إشارة لعلها مفيدة، وهي تتعلق بدعوات الإصلاح عند المحدثين للبلاغة، وتيسيرها، فإن بعضها هدف إلى الإساءة إليها من حيث ادعى حرصه على إصلاحها. ولا يفهم إلا ضمن هذا ماذهب إليه سلامة موسى إذ دعا إلى إحلال المنطق مكان البلاغة(٢).

تماماً كما دعى إلى إلغاء الإعراب، ورآه لعبة بهلوانية للذهن والنسان(٣).

وبعض الدعوات الإصلاحية كانت شكلية، كأن يطلق اسم الأسلوب على المعاني والبديع، واسم الخيال على البيان(٤).

وبعض دعوات الإصلاح -لاشك- لها شرعيتها ووجاهتها كالدعوة إلى ربط البلاغة بقدر مناسب من علم النفس، وتخليصها من قواعد الفلسفة، وجفاف المنطق(٥).

وعلى كل حال، فإن الإصلاح ميسور لمن أخلص في ذلك النية، وجدّ في استصلاح السبيل، فنحن بحاجة إلى الاعتدال كي ننجح في التصويب والتجديد.

شيء من المنطق يفيدنا في إحسان التبويب والتنظيم، ويخلصنا من الاستطراد والتسيّب، ويسوق المنهج على أساس يحترم العقل، ويسلسل الأفكار بما يساهم في تجليتها وترسيخها.

وشيء من علم النفس يفيد أيضا؛ لأننا أمام قضية صدرت عن الإنسان، ويفترض أن ترد إليه، وهي متأثرة في الحالين، وكثير من خفاياها لايفهم إلا بفهم خبايا نفسه وخلجاتها حباً وكرهاً، ورغبة، ورهبة، ووَجداً وحقداً، وألماً، وأملا.

---

(١) دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد، ص٧٠، ومحمود شاكر، ص٨٨.

(٢) ينظر البلاغة العصرية واللغة العربية، ط٣، ١٩٥٨، ص٥٢، ٥٥، ٥٧، ١٨٧.

(٣) سلامة موسى، البلاغة العصرية، ص١٤٨.

(٤) محمد عبد المنعم خفاجي وعبد العزيز شرف، البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، ص١٨٢.

(٥) ينظر دعوات الإصلاح في: فضل حسن عباس، البلاغة العربية فنونها وأفنانها، علم البيان والبديع، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٥، ص٣٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا بد من استنهاض الذوق والاحتكام إليه، وربط ذلك بمحاولة التعليل ما أمكن، والقول الأخير هنا، كما في النحو، يتعلق بالقرآن الكريم ويتمثل في أن البلاغيين كان عليهم أن يوجهوا اهتماماً أكبر للبلاغة في القرآن، والنظر إلى أسلوبه نظرة خاصة، فيقربون منه أحكام النحو، ويبنون عليه معايير البلاغة.

وكان عليهم النفاذ إلى نظرات أعمق في أسلوب القرآن الكريم بشكل عام، تجعله أنموذجاً للقاعدة لا أسيرا لها، وترتقي بالنحو للبحث عن المعاني، وبالبلاغة للبحث عن الفن والجمال.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحذف بين النحو والبلاغة

هذه إلماعة تهدف إلى تلمس مدى الالتقاء أو الافتراق بين النحاة والبلاغيين في دراستهم لظاهرة الحذف، وفضل كل فريق على الآخر، وإلى أي حد وفق كل منهما في دراسةالحذف وفقا لما يمليه عليه منهجه، وما تتطلبه أهدافه، وقواعد علمه وأدواته، وإلى أي مدى التزم بذلك، فلم يتجاوزه، أو يتقاصر عنه.

ولعل مما يفيد أولا استعراض بعض أوجه الشبه البارزة بين العلمين؛ لأن ذلك -لاشك- ينعكس على ظاهرة الحذف؛ فهي إحدى القضايا الهامة في كلا العلمين، وما يتعرض له كل منهما بشكل عام ينعكس عليها.

وتطالعنا بجلاء أوجه تشابه بينهما تصل إلى حدود التماس والالتقاء، ويشمل ذلك البدايات، كما يشمل الظروف والمؤثرات، بل يصل إلى حدود المنهج وما طرأ عليه من تطورات.

أما البدايات فقد شهدت نشأة العلمين في رحم واحدة، ذلك أن حركة التأليف العظمى التي شبت مع القرون الهجرية الأولى دارت حول القرآن الكريم، فالتقت عليه جهود اللغويين، والنحاة والمفسرين، والبلاغيين.

واحتضن النحو بدايات البلاغة، وما هو إلا قرن من الزمان حتى ظهرت للبلاغة خصوصيتها، ومؤلفاتها المستقلة، ومضى العلمان معا يتأثران بما يحيط بهما، فينعكس صداه عليهما.

لقد تأثرا مثلا بالبيئة العلمية المحيطة المترعة بعلوم الكلام والفلسفة، والمنطق والفقه فصحّت بدايات النحو، وكان أقرب إلى روح اللغة وطبيعتها، ثم بدأ التيار العقلي الفلسفي يتسلل إلى الدراسات النحوية إلى أن طغى عليها أخيرا فامتلأت كتب النحو بالنقاشات الفلسفية المضنية التي تنم عن رياضة عقلية رفيعة، لكنها لاتخدم النحو كثيراً، ولاتهتم بالمعنى كما ينبغي.

والبلاغة كان هذا شأنها، بدأت ملاحظات منثورة، مازالت تلقى من يلتقطها ويجمعها، ثم مستها مؤثرات الفلسفة المحيطة بها، وانعكس ذلك على أساليب البلاغيين، واصطرع التيار الأدبي والتيار الكلامي إلى أن تغلب الأخير، وغدت الشروح البلاغية أقرب إلى روح المنطق والفلسفة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو الشبه بين العلمين فيما ظهر من آثار لاختلاف المناهج يتمثل في المدارس:
إذ ظهرت في النحو مدارس نحوية تعكس تغاير أوجه النظر في المسائل تبعاً لتغاير الأدوات، فكانت المدرسة البصرية، والمدرسة الكوفية، ثم تكاثرت المدارس، أو استكثر منها فكانت المدرسة البغدادية، والمصرية، والشامية، والأندلسية(١).

وكذا كان شأن البلاغة، فقد ظهر -كما مر- تياران عامان متغايران، اصطلح على تسمية أحدهما المدرسة الأدبية، والآخر المدرسة الكلامية، ويبدو أن مدرستي البلاغة أقرب إلى المدارس الفكرية منها إلى المكانية(٢).

وتظهر أوجه شبه تتمثل في وجود قمة للتأليف، أو مابدا لهم أنه القمة، في كل علم، تراءى لهم أن ذلك كان آخر المطاف، فتوقفت الجهود المبدعة، ودارت حول التلخيص والشروح والحواشي والتقارير.

يتمثل ذلك في النحو في ألفية ابن مالك في القرن السابع الهجري، إذ استقطبت الجهود النحوية التي تلتها قروناً طويلة.

وفي البلاغة كان المفتاح للسكاكي في القرن السابع الهجري أيضا، وتلخيص القزويني له، كانا رسوماً حصرت الجهود البلاغية اللاحقة لهما في إطارهما، فاقتاتت عليهما، وغدت شروحا لهما، وتقارير على شروحهما.

ويبدو وجه الشبه كذلك في هواية النظم، إذ جمحت بالنحاة رغبة في التجديد، فتفتقت أذهانهم عن نظم القضايا النحوية شعرا وأهم المنظومات ألفية ابن مالك. ولم يشأ أرباب البلاغة حرمان علمهم من هذا أيضا، فنظموا العديد من المنظومات في تلخيص القزويني(٣). وقد ساهم في النظم مشاهير العلماء، فللسيوطي أرجوزة سماها: (عقود الجمان في علم المعاني والبيان) وهي شبيهة بألفية ابن مالك، وله شرح لها أيضا(٤).

وتغلغلت أوجه الشبه إلى كل هذا، وغيره من أدق التفاصيل، فكما كان في النحو مسائل رياضية عددية يتباهون بها سارع البلاغيون إلى اختراع أمثالها(٥).

---

(١) كتب عبد الرحمن السيد في المدرسة البصرية، ومهدي المخزومي في الكوفية، ومحمود حسني في البغدادية، وعبد العال سالم مكرم في مصر والشام.....

(٢) بعض المحدثين يرى وجود مدارس مكانية فالخولي في فن القول ص١٠٣ ومناهج تجديد، ص٢٤٤، يؤمن بوجود مدرسة مصرية، وأحمد مطلوب في شروح التلخيص، ص ٧، ٥٠، يراها مصرية شامية، أو مشارقة ومغاربة ومصر والشام.

(٣) ينظر أحمد مصطفى مراغي، تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، ص٣٤- .

(٤) ينظر طه عبد الرؤوف سعد، مقدمة الأشباه والنظائر للسيوطي، ص ح.

(٥) ينظر الأشباه والنظائر، ج٣، ص١٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكما كان للنحاة مناظراتهم المشهورة التي تقود إلى نهاية المغلوب كمداً وحزناً، كان للبلاغة ذلك أيضا(١).

وقبل أن يضج قارئ بالتذمر قائلا: ماشأن كل هذا وظاهرة الحذف؟ يحسن الاستذكار أن ظاهرة الحذف قضية هامة في كلا العلمين تدور معهما هذه الدورات مجبورة مقهورة، وتتأثر بما يتأثران به، وينعكس ذلك عليها، فبعد أن كانت تنبض بالحياة على يد صاحب الكتاب الذي يقلب فيها النظر حريصا على أن تظل في وسطها اللغوي، فيدرسها وفق مايمليه الاستعمال، ومقتضى الحال، وسنن العرب، غدت أمثلة مبتورة، أو مصنوعة لخدمة القاعدة، أو أداة لأحد الألغاز، أو رقما لإحدى المسائل أو جزءا من قطعة منظومة كزّة تأنف منها النفس ولا تقبل عليها.

وبعد أن حلق بها الجرجاني إلى الآفاق، فبهرت بين يديه الناظرين سناء وسنى، هوت إلى الدرك الأسفل على أيدي الملخصين والشراح وأصحاب المنظومات من البلاغيين المتأخرين.

ودوائر الشبه تتسع بين العلمين لتطال تقييم المحدثين لهما عموما، ولدراسة كل منهما لظاهرة الحذف بخاصة، فكما اتهم النحو بنشأته، فجرد بعضهم العرب من الفضل إذ قصروا جهدهم على مجرد النقل، كذلك اتهمت البلاغة، فطعن في أصلها، ونشأتها.

وما لاقاه النحاة من انتقاد يتعلق بإغراقهم في بحوث الفلسفة والمنطق، وخضوعهم لها لاقاه البلاغيون وبشكل أشد قسوة.

والمغالاة التي بدت في انتقاد جهد النحاة بدا مثلها أو أشد منها في انتقاد البلاغيين وتتزاحم الصور لتتراءى أمامنا كأننا بصدد الحديث عن علم وأحد، لاعلمين.

فكيف نظر القدماء أنفسهم إلى هذا الأمر؟ وهل شعروا أنهم حقيقة أمام علمين منفصلين، فدرس كل علم ظاهرة الحذف تحت مرمى هذا الفهم؟

أما البدايات فلم تشهد هذه الحيرة، إذ نشأ العلمان في حجر واحد تحت ظلال القرآن الذي كان المورد الأعظم لحركة التأليف الناشئة في علوم اللغة عموما، وبشكل توحدت فيه الغايات، وإن اختلفت فيه السبل، فالغاية العظمى هي خدمة القرآن الكريم، ومحاولة فهمه، والتدليل على إعجازه، واستنباط الأحكام الشرعية منه.

وماكان التخصص معروفاً، أو مقبولاً، أو حتى ممكناً، فهي علوم شابة متآخية تتوافد أنظارها إلى مورد واحد ثم تنسلك شعباً متقاربة حينا، متمازجة أحايين.

---

(١) تنظر تفاصيل مناظرة بين السعد التفتازاني والسيد الشريف الجرجاني في: أحمد مطلوب، البلاغة عند السكاكي، ص١٥٧، وأمين الخولي، فن القول، ص٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والنحو والبلاغة أختيّان تتمثل فيهما جليّا هذه الوَحدة في البدايات: كان النحو أسبق إلى الوجود؛ لأن الحاجة إليه ظهرت قبلاً؛ فاللحن أول مانشأ دب في حركات الأواخر، فتنادى القوم لردّ الخطر، ودرء المحظور، فكان النحو الذي استوى على سوقه، وشب عن طوقه، ووقف شامخاً متمثلا في الكتاب.

والمتتبع لما أورده سيبويه في الكتاب، يصدر عن ري بأن النحو والبلاغة يتحدان معاً في جنابه، فالإشارات البلاغية تذرع الكتاب عرضاً وطولا(١)، وهي منصهرة في النحو، ملتحمة معه، إذ تلتفت صناعة النحو إلى تنظيم الكلمات في الجملة بقدر يؤكد أن "النحو قبل عبد القاهر كان بسبيل من العناية بنظام الكلمات إلى جانب عنايته بضبط أواخرها، وأن هذا أوضح كثيرا وأغلب، إذ يبدو أن سيبويه كان قد أدرك من قبل أثر تنظيم الكلمات في المعنى الذي هو قوام النحو"(٢).

والحذف، وهو محط العناية، كثر جريه ودورانه في كتاب سيبويه، فكم التفت إليه صاحب الكتاب، يحلل ظاهرته، ويعلل لها، ويستحضر أمثلتها، ويستنطقها! وكانت تعليلاته أقرب إلى روح البلاغة، كالتخفيف والاختصار، واقتات أساطين البلاغة على أمثلته، فتصدرت كتبهم، وعاشت إلى يومنا هذا، ورددوا مصطلحاته كالإيجاز والمجاز، والتوسع والاختصار، بل إن مصطلحي المسند والمسند إليه اللذين عزف عنهما النحاة بعد سيبويه، التقطهما البلاغيون، فصار لهما الصدارة في كتبهم، وحقق لهم سيبويه رغبتهم في الانمياز عن النحويين، والتفرد بمصطلحات خاصة بهم(٢).

وأكثر من هذا فإن هناك رأيا عرضه بعض المحدثين، وأرى له مايبره، وهو يتمثل في أن التنظيم العام الذي ارتضاه السكاكي، والتزمه البلاغيون اللاحقون، كان قد استلهمه من تنظيم سيبويه لكتابه.

ولعل كل مامضى هو الذي جعل أحمد المراغي يطمئن إلى أن سيبويه هو واضع علمي المعاني والبيان، فارتضى ذلك، وجعله عنواناً في كتابه احتج له طويلا(٣).

ثم اتسعت حركة التأليف، وتنوعت، وتعمقت، ونحت بها طبيعة الأمور إلى التخصص، فبدأ مسار النحو والبلاغة يتضحان، ويأخذ كل منهما له شكلا مميزا، ويتخذ له قضايا خاصة.

---

(١) ينظر مثلا: باب اللفظ للمعاني، ج١، ص٢٤، والاستقامة من الكلام والإحالة، ج١، ص٢٥، واستعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى لاتساعهم في الكلام وللإيجاز والاختصار، ج١، ص٢١١. ولتبين أثر النحاة عامة في البحث البلاغي يحسن الرجوع إلى: عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، دار نهضة مصر لطبع والنشر، القاهرة.

(٢) عفت الشرقاوي، بلاغة العطف في القرآن الكريم، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١، ص١٧،١٨.

(٣) ينظر كتابه تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، ص٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبدأ أقطاب العلمين يرون في استمرار التمازج أمرا مزعجا، يضجون بسببه شاكين، ويصطرخون من هنا وهناك بأن ثمة خصوصية لكل علم ينبغي ألا يتطفل عليها العلم الآخر، ومنطقة حراماً لكل فريق يجب ألا يتسلل إليها، أو يتدخل في شؤونها الفريق الآخر.

وممن أشار إلى ذلك من البلاغيين ابن الأثير، إذ أوضح أن "موضوع كل علم هو الذي يسأل فيه عن أحواله التي تعرض لذاته.."(١)، ثم استعرض عدة مواضيع إلى أن وصل إلى النحو فقال: "وموضوع النحو هو الألفاظ والمعاني، والنحوي يسأل عن أحوالهما في الدلالة من جهة الأوضاع اللغوية"(١).

وعن البيان يقول:"وعلى هذا فموضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة، وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية.."(١).

ويلخص الأمر داعياً إلى التخصص قائلا:

"وكذلك يجري الحكم في كل علم من العلوم، وبهذا الضابط انفرد كل علم برأسه ولم يختلط بغيره"(٢).

هذا التخصص كما يرى يجدر أن يلتزمه العالم لأنه إن تعداه، وقع فيما لاتحمد عقباه، وغدا مرتعاً للغمز واللمز، وهاهو ابن الأثير نفسه يتصدى لابن جني إذ خانه التوفيق في أحد تعليقاته البلاغية، فقرّعه ابن الأثير، وشنع عليه، ثم قال:

"لكنّ فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو الإعراب"(٣).

هذه العبارة تكشف جليا أن كلا من العلمين قد غدا له خطه وحرمه، وأن في الالتزام بذلك مأمناً من الوقوع في الأخطاء التي قد تصل إلى الخطايا. وهاهم البلاغيون يذودون عن عملهم تدخلات النحاة وقد أعلنوها صراحة:

---

(١) المثل السائر، ج١، ص٢٦.

(٢) المثل السائر، ج١، ص ٢٦. وينظر، ج٢، ص٣٧٧ في كلام مشابه.

(٣) نفسه، ج١، ص٣٦٨ والأمر يدور حول بيتين للمتنبي هما:

كل جريح ترجى سلامته إلا جريحاً دهته عيناها

تبل خدي كلما ابتسمت من مطر برقه ثناياها

يقول ابن الأثير "بلغني عن أبي الفتح بن جني رحمه الله أنه شرح ذلك... فقال: إنها كانت تبزق في وجهه.... وماكنت أظن أن أحدا من الناس يذهب وهمه وخاطره حيث ذهب وهم هذا الرجل وخاطره، وإذا كان هذا قول إمام من أئمة العربية تشد إليه الرحال فما يقال في غيره؟" وفي موقف آخر، يهاجم ابن الأثير (ثعلب) في كتاب الفصيح، ويشنع عليه تخبطه في مسائل بلاغية، ثم يحاول رفع اللوم عنه قائلا: "إن أسرار الفصاحة لاتؤخذ من علماء العربية، وإنما تؤخذ منهم مسألة نحوية أو تصريفية، وماجرى هذا المجرى، وأما أسرار الفصاحة فلها قوم متخصصون بها" ينظر المثل السائر، ج١، ص٢٨٠،٢٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"النحاة لا فتيا لهم في مواقع الفصاحة والبلاغة، ولا عندهم معرفة بأسرارهما من حيث إنهم نحاة"(١).

وتأصل لديهم الفصل، فتكررت أقوال لهم كثيرة:

"إن ذلك من حظ النحوي"(٢). "وذلك وظيفة النحوي"(٣).

وإذا كان ابن الأثير شديد الحماسة إلى استقلال البلاغة عن النحو، فإن فئة من النحاة لم تكن أقل منه حماساً إلى استقلال النحو عن البلاغة، فابن هشام مثلاً يدعو صريحاً إلى أن يتوقف النحوي عند حدود موضوعاته ولا يتطفل على العلوم الأخرى فيقول:

"الحذف الذي يلزم النحوي النظر فيه هو ما اقتضته الصناعة"(٣)، يقصد الصناعة النحوية. ويضع أمثلة يرى في تطرق النحوي لها فضولاً وتدخلاً غير محمود في التفسير، ثم ينتقل إلى علم البيان فيقول:

"وكذا قولهم (النحاة) يحذف الفاعل لعظمته، وحقارة المفعول أو العكس، أو للجهل به، أو للخوف عليه، أو منه، ونحو ذلك، فإنه تطفل منهم على صناعة البيان(٤)".

ويعرض أمثلة يبين فيها افتراق منهج النحوي عن البلاغي، فلكل منهما متطلباته ومستلزماته ويعلق على أحد الأمثلة قائلا:

"فيجب أن يقدر المفسر في نحو زيداً رأيته مقدماً عليه، وجوز البيانيون تقديره مؤخراً عنه وقالوا لأنه يفيد الاختصاص حينئذ"(٥).

ويقول في مثال آخر مفرقاً وجهة نظر البيانيين عن النحويين:

"ويخص البيانيون الاستئناف بما كان جواباً لسؤال مقدر نحو قوله تعالى:

﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون﴾(٦)، فإن جملة القول الثانية جواب لسؤال مقدر تقديره: فماذا قال لهم؟ ولهذا فصلت الأولى فلم تعطف عليها(٧)".

---

(١) المثل السائر، ج٢، ص١٥٢، وينظر، ص٣٧٧ في ميز الجهد النحوي عن البلاغي.

(٢) شروح التلخيص، السبكي، ج١، ص٣٨٨.

(٣) نفسه، ج١، ص١٦٣، وينظر كذلك ج١، ص٣٨٣،٣٨٤ للتوضيح.

(٤) مغني اللبيب، ص٨٥٣.

(٥) مغني اللبيب، ص٦٨٧.

(٦) الذاريات، ٢٤،٢٥.

(٧) مغني اللبيب، ص٤٢٧،٤٢٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا الوعي للتخصص، وهذا التواصي بالحرص عليه، والدعوة إليه، وهذا النفور من الامتزاج... هذا كله لم يجعل الفصل بين العلمين حقيقة واقعة. وإن بدا نظريا أن الفصل ممكن، فقد عز عند التطبيق وامتنع، ووجد كل فريق نفسه يجوب في أرجاء الفريق الآخر.

أما النحاة، فقد توسموا خطا رائدهم، فترى بذوره البلاغية في كتبهم قد غدت أشتالا يانعة، وترددت عندهم مصطلحات البلاغة وأغراضها، ومقاماتها، فعاشت في كتبهم أنيسة غير مجفية، وأكثر مايتمثل ذلك في ظاهرة الحذف:

فابن جني يتنبه إلى أمور احتفى بها البلاغيون من بعد، ودارت في كتبهم دوراناً ثابتا لأهميتها، فكان السباق لها، الذي شق طريقها، ودق أبوابها، ومنها باب عنوانه: "باب في الاكتفاء بالسبب من المسبَّب، وبالمسبَّب من السبب"(١). وقد صدره بقوله: هذا موضع من العربية شريف لطيف، وواسع لمتأمله كثير، وكان أبو علي رحمه الله يستحسنه ويعنى به، وذكر منه مواضع قليلة، ومر بنا نحن منه ما لانكاد نحصيه"(١).

ثم عرض له أمثلة منها قوله تعالى:

﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾(٢). لو قصر ابن جني نظره على ماتقتضيه صنعة النحو، لمر على هذه الآية سريعا، ولم يعقب؛ فظاهر أمرها ثبات عناصرها كل في مكانه، ولا تستدعي صناعة النحو تقدير محذوفات، لكن نحويا حاذقا كابن جني لم يفته أن يستبطن الآية، ويغوص في أعماق المعنى ليجد أن الاستعاذة بالله لاتكون عند القراءة بل قبلها فقال:

"وتأويله، والله أعلم، : فإذا أردت قراءة القرآن. فاكتفي بالمسبب الذي هو القراءة من السبب الذي هو الإرادة"(٣).

وعلى النهج نفسه، قدر محذوفات في آيات أخرى(٤).

وقد يحدث العكس أي: أن يذكر السبب ويحذف المسبَّب، كما في قوله تعالى:

﴿إني أراني أعصر خمرا﴾(٥). قال ابن جني : "وإنما يعصر عنباً فيصير خمراً. فاكتفي بالمسبب الذي هو الخمر من السبب الذي هو العنب"(٦).

---

(١) الخصائص، ج٣، ١٧٣.

(٢) النحل، ٩٨.

(٣) الخصائص، ج٣، ص١٧٣، وينظر كذلك، ج٢، ص٢٢٠، ٤٢٤، ٤٢٥.

(٤) منها: المائدة، ٦، والبقرة، ١٩٦، ٦٠ وغيرها، انظر المصدر نفسه، ج٣، ص١٧٣ ومابعدها.

(٥) يوسف، ٣٦.

(٦) الخصائص، ج١، ص١٧٧، وانظر أمثلة أخرى في المكان نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا الفتح لأبي الفتح، تقلب في كتب البلاغة طويلا(١)، وعزز سبقا جديداً للنحاة فحواه أن النحوي قد لايكتفي بفرائض صنعته النحوية، فيبتغي نفلا مفيداً وحميداً، فيرود، ويوفق، ويتبع.

وقد بداعند بعض النحاة تعليلات هي في صميم البحث البلاغي، يقول ابن الأنباري في باب مالم يسم فاعله:

"إن قال قائل: لم لم يسم الفاعل؟ قيل: لأن العناية قد تكون بذكر المفعول... وقد تكون للجهل بالفاعل، وقد تكون للإيجاز والاختصار وإلى غير ذلك"(٢).

وفي الحذف في باب المدح والذم يقول:

"إنما فعلوا ذلك طلباً للتخفيف والإيجاز، لأنهم أبداً يتوخون الإيجاز والاختصار في كلامهم"(٣).

ويقف مطولا عند حذف الجواب في قوله تعالى:

﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعا﴾(٤).

فيقول: "حذف الجواب أبلغ في المعنى من إظهاره، ألا ترى أنك لو قلت لعبدك:

(والله لئن قمت إليك). وسكت عن الجواب، ذهب فكره إلى أنواع من العقوبة والمكروه من القتل والقطع والضرب والكسر. فإذا تمثلت في فكره أنواع العقوبات وتكاثرت، عظمت الحال في نفسه، ولم يعلم أيها يتقي، فكان أبلغ في ردعه وزجره عما يكره منه. ولو قلت: والله لو قمت إليك لضربتك، وأظهرت الجواب لم يذهب فكره إلى نوع من المكروه سوى الضرب، فكان ذلك دون حذف الجواب في نفسه، لأنه قد وطن له نفسه فيسهل ذلك عليه"(٥).

قد يعتذر عن طول هذا النص المنقول، مافيه من جلال المعنى، وبعد النظر، والتحرر من قيود النحو التي وجدناها أغلالا عند مناقشة الصنعة النحوية.

فهذا نحوي لبى حاجات صناعته، وكان يمكن أن يقول: في الآية جواب محذوف، ويمضي، حتى دون أن يشغل نفسه أو يعنيها بتقديره. لكنه -غير مذموم- آثر أن يقدر المحذوف، وأن يعلل له، فربط بين النحو والمعنى بأقوى الأواصر، وظهر النحو والبلاغة في كلامه منسجمين تمام الانسجام.

---

(١) انظر مثلا: شروح التلخيص، السعد والمغربي والسبكي، ج٣، ص١٩٧.

(٢) أسرار العربية، ص ٨٨.

(٣) نفسه، ص١٠٥.

(٤) الرعد، ٣١.

(٥) الإنصاف في مسائل الخلاف، ج٢، ص٤٦١،٤٦٢. وينظر في حذف الجواب أيضا ص٤٦٠ في المصدر نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولو تتبعنا ملحوظات السيوطي حول الحذف، فإننا سنجد لديه أيضا في كثير من المواضع سعيا واعيا إلى مناقشة هذه الظاهرة خارج حدود الصناعة النحوية؛ فقد كانت له خطرات ونظرات تنم عن فهم عميق وذوق سليم للترابط العضوي بين النحو البلاغة إذ فصل القول مثلا في حذف المفعول به اقتصارا واختصارا، وأوضح ذلك بما لا يستدعي مزيدا(١).

وقد وفق في أحد المواضع حين حط رحاله عند الحديث عن المقام ومايتطلبه من كلام، فقال: "إن مقام الإيجاز يباين مقام الإطناب والمساواة، وخطاب الذكي يباين خطاب الغبي، فكما يجب على البليغ في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع، فكذلك الواجب عليه في خطاب الإجمال والإيجاز أن يجمل ويوجز.."(٢).

لاشك في أن من يقرأ هذا، يحتاج أن يتذكر بأن قائل هذا الكلام نحوي، وأنه مستل من كتاب جل مسائله في النحو... فالكلام كما نرى في صميم البلاغة.

ولانريد أن نمضي بعيدا، فالأمثلة وافرة الكثرة، وكلها يفصح أن النحاة أمسكوا بخيوط البلاغة، فتجاوزوا ظاهر النصوص، وقدروا مايكملها، ويزينها، وعللوا له، وأبانوا أغراضه، وارتقوا بالقواعد لتلحق بالمعاني، وأثبتوا أنهم ليسوا في كل الأحوال أسرى قيود صناعتهم. وحتى أولئك الذين أوصوا باحترام قيود الصناعة وعدم تجاوزها، وجدوا أنفسهم يقعون فيما يفرون منه. يقول تعالى: ﴿فجعلناهاحصيداً كأن لم تغن بالأمس﴾(٣).

كان يمكن أن يمر النحاة سريعا بهذه الآية، فلايستوقفهم شيء، لأن صناعتهم لاتستدعي تقديرا، إذ لايبدو أن في ظاهر الآية معمولا يطلب عاملا، أو عاملا يطلب معمولا، بل كل عناصرها مستوفاة ظاهريا... وذلك أدعى لهم أن يتنكبوا الفضول. لكن فرط إحساسهم اللغوي، وسلامة طبائعهم أبت عليهم إلا اكتناه المعاني والوقوف على دقائقها، وما جل منها، فأبحروا وراء المعنى، ولحموا النحو بالبلاغة وقدموا المسألة مزهرة زاهية يحار المرء كيف كانت مخفية ففتحوا لها الأكمام؛

يقول ابن هشام: "في الآية إيجاز ومجاز، وتقديرهما: فجعلنا زرعها في استئصاله كالزرع المحصود، فكأن زرعها لم يلبث بالأمس، فحذف مضافان، واسم كأن، وموصوف اسم المفعول، وأقيم فعيل مقام مفعول؛ لأنه أبلغ منه"(٤).

---

(١) ينظر الأشباه والنظائر، ج٢، ص١٧٥.

(٢) نفسه، ج٤، ص٢٢،٢٣.

(٣) يونس، ٢٤.

(٤) شرح شذور الذهب، ص١٠٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهنا نستحضر ماقاله ابن هشام منتقدا النحاة بأنهم يجعلون حدود صناعتهم وراء ظهورهم، ويتسللون إلى العلوم الأخرى. نعم قد يرهق هذا النحو، ويكثر مسائله، ويظهره متطفلا على غيره، لكن أحبب به من تطفل إن كان يخدم المعنى، فيتجلى ماالتبس منه، ويكشف عما رق وحلا! فذلك كله أرحم كثيرا من المغالاة في تقدير الصنعة النحوية.

ونترك النحاة لنلتفت قليلا إلى البلاغيين، ونلاحظ إن كانوا قد آمنوا بحدود عملهم، فالتزموها ولم يتجاوزوها، فنجد أن فئة منهم آمنت يقينا بأن النحو هو القاعدة الأساسية للبلاغة، فلا تصح البلاغة إلا بالنحو، ولاتبنى إلا على أسسه السليمة.

وقد تمثل الجرجاني هذا، فهب إلى نصرة النحو، ونادى بضرورة الاعتناء به، والإقبال عليه، وقسا على الصادين عنه، المنفرين منه، ووصفهم بأنهم بذلك كمن يصدون عن سبيل الله، ويبتغون إطفاء نوره. يقول مصورا حال هذه الفئة:

"وأما النحو فظنته ضربا من التكلف، وبابا من التعسف... وآراء لو علموا مغبتها، ومانقود إليه لتعوذوا بالله منها، ولأنفوا لأنفسهم من الرضا بها، ذاك لأنهم بإيثارهم الجهل بذلك على العلم في معنى الصاد عن سبيل الله، والمبتغي إطفاء نور الله تعالى"(١).

وعن أهمية النحو يقول:

"أما زهدهم في النحو، واحتقارهم له، وإصغارهم أمره، وتهاونهم به، فهو أشبه بأن يكون صدا عن كتاب الله، وعن معرفة معانيه، وذلك لأنهم لايجدون بداً من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه، فالألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها.."(٢) بل يصل به الأمر إلى حد الوصل بين النحو وقداسة القرآن الكريم(٣).

ثم لايترك موقفه هذا متجردا للنظر، بل يسارع إلى تطبيقه، فيجعل النحو المحور العام لنظريته في النظم، ويستفرغ في ذلك الجهد، والصفحات الطوال، ثم يخلص إلى القول:

"ليس النظم شيئا إلا توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني الكلم"(٤).

وقد يتبادر إلى الذهن أن موقف الجرجاني هذا ليس مستغربا، وهو في الأصل عالم في النحو كما هو في البلاغة... لكنا سنقف على آراء كثيرة لبلاغيين آخرين تركوا حدود البلاغة والتفتوا إلى النحو يقلبون الآراء في مسائله، ويرصدون الخلافات حولها، ويستعيدون أقوال النحاة، وأمثلتهم، ويحشون بها مؤلفاتهم.

---

(١) دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد، ص ٦،٧، ومحمود شاكر، ص٨.

(٢) نفسه، تحقيق محمد رشيد، ص٢٣، ومحمود شاكر، ص٢٨ بتصرف قليل.

(٣) نفسه، تحقيق محمد رشيد، ص ٤٠٤، ومحمود شاكر، ص ٥٢٦.

(٤) نفسه، تحقيق محمد رشيد، ص٤٠٣، ومحمود شاكر، ص ٥٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم ينج من هذا أيضا، حتى دعاة الانفصال والاستقلال كابن الأثير، وقد سبق أن أشار هذا البحث إلى كلامه الذي تقيل فيه آراء النحاة وردد تعليقاتهم، بل نقل بعضها كما هي فكانت تعليلاته في البلاغة رجعا خافتا باهتا لتعليلات النحاة(١).

وأما البلاغيون المتأخرون من أصحاب المدرسة الكلامية، فقد جعلوا كتبهم مسارح رحبة لآراء النحاة، حتى إن هذه الكتب تصلح لدراسة اختلافات النحاة، إذ جمعت في صعيد واحد يسهل دراستها والموازنة بينها.

إنهم يعرضون آراء النحاة، ويستعرضون خلافاتهم، وأكثر من ذلك، فقد كانوا أحيانا يتصدون لهم، ويناقشون أقوالهم، ويخطئونهم، ولعل في عرض المثال التالي -على إزعاجه- مايكفي لتصوير البلاغيين قد تجاوزوا كل حدود البلاغة وهجرو آفاقها، ومضوا بعيدا منكفئين في مزالق النحو، متناسين أهداف علمهم وغاياته:

يقول السبكي:

"ذكر المصنف (يقصد السكاكي) ماحذف فيه المسند إلى الفاعل كقوله تعالى:

﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي﴾(٢). أصله: لو تملكون تملكون، فحذف المسند وهو الفعل، فانفصل الضمير في أنتم، وتملكون المذكورة تفسير. وإنما قلنا ذلك لأن (لو) إنما يليها الفعل. وما ذكره المصنف رأي الزمخشري وجماعة، وليس مذهب البصريين. قال ابن عصفور: لايلي (لو) إلا الفعل ظاهرا. فأما المقدر فلا يلي إلا نادراً. ونقل ابن الضائع تصريح البصريين بامتناعه فصيحا. ويجوز نادرا نحو: لو ذات سوار لطمتني. لكن ابن مالك جوزه. وقيل في الآية تقدر (كان) الناقصة. أصله: كنتم. فحذفت كان واسمها، وأنتم تأكيده. قال الشيخ أبو حيان:

وحذف المؤكد وبقاء التأكيد مختلف في جوازه. قلت: ذلك في التأكيد المعنوي، أما اللفظي فقد يجوز جزما مثل: قم أنت. إذ لاسبيل لإبراز هذا الفاعل،....(٣).

ويمضي طويلاً طويلاً يناقش الأمر، ويعرض المزيد من الآراء، ويتطوع بالمزيد من الردود(٤).

---

(١) ينظر، مثلا، المثل السائر، ج٢، ص٨٦، ٩٣، ٩٥، ٩٦، والجامع الكبير، ص١٣٢.

(٢) الإسراء، ١٠٠.

(٣) شروح التلخيص، السبكي، ج٢، ص١٠.

(٤) لعل هذا المثال وحده كاف لإثبات عدم دقة القول:" إن البلاغيين لايلتفتون إلى ما يحرص عليه النحاة من إبراز الكلام في صورة مثالية تلتزم القواعد في صرامة ودقة".

ينظر هذا الرأي في: عبد الحكيم راضي، نظرية اللغة والنقد الأدبي، ص ٢٠٦، فكيف إذا علمنا أنه لاتكاد صفحة تخلو من الشروح من مثل هذا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والأمر يكاد يكون دخيلا على النحو نفسه؛ لأنه في صميم الصناعة النحوية التي لا يتطلبها المعنى، وقد سبقت الإشارة إلى أن مثل هذه المواضع مما يؤاخذ عليه النحاة، ويسجل عليهم فيه انصياعهم لمتطلبات صناعتهم وعدم مراعاتهم المعنى.

فإن كان الأمر كذلك في النحو، فما شأن البلاغة به؟ هذا مع استنكار أنهم في كثير من المواضع التي تحتاج إلى التحليل، أو التعليل، أو حتى التمثيل ضنوا واكتفوا بالإشارات ومضوا. وهاهم هنا يلقون العصي فيما لايجدي البلاغة، ولاهي ملزمة به.

ويبدو الأمر أكثر غرابة عندما نرى النحو يرسم للبلاغة حدود مواضيعها، فإن قال النحاة إن حذف الفاعل لايجوز، أقر البلاغيون بذلك فاستبعدوا الفاعل من مجال الحذف، وبدوا مستعبدين لقانون النحو(١).

وعلى أية حال، فإن الأمر لايخلو من وجود فئة من الفريقين فهمت حدود العلمين، وأدركت أبعاد علاقتهما معاً، وقد بدت عندهم بعض صحوات، فانجلت لهم الأمور بشكل أكثر وضوحا، إذ رأوا العلاقة بين النحو والبلاغة علاقة تواصلية تكاملية لاتعني فناء أحدهما أو اندغامه بأخيه، ولا تفرض مجافاته طالما أن قوتهما واحد وهو الجملة أو النص الأدبي، لكن أنظارهما مختلفة لاختلاف غاياتهما؛ فهُما "وإن اشتركا في تعلقهما بالألفاظ المركبة لكن نظر أحدهما مخالف لنظر الآخر؛ فالنحوي ينظر في التركيب من أجل تحصيل الإعراب لتحصيل كمال الفائدة، وصاحب المعاني ينظر في دلالته الخاصة، وهو مايحصل عند التركيب من بلاغة المعاني وبلوغها أقصى المراتب"(٢).

وشبيه بهذا ماأوضحه السبكي من حدود للعلمين ومهام كلّ منهما إذ قال:

"اعلم أن علم العربية كما قال الزمخشري يرتقي إلى اثني عشر علما، غير أن أصولها أربعة: اثنان يتعلقان بالمفردات هما اللغة والتصريف، ويليهما الثالث وهو علم النحو، فإن المركبات هي المقصود منه وهي كالنتيجة لهما ثم يليها علم المعاني"(٣).

ثم يحاول أن يطرد ماتبادر إلى الذهن من عدم أهميةعلم المعاني أو امتزاجه بالنحو فيقول:

"ولعلك تقول: أي فائدة لعلم المعاني؟ فإن المفردات والمركبات علمت بالعلوم الثلاثة، وعلم المعاني غالبه من علم النحو. كلا، إن غاية النحوي أن ينزل المفردات على ما وضعت له. ويركبها عليها، ووراء ذلك مقاصد لاتتعلق بالموضع مما تتفاوت به أغراض المتكلم على أوجه

---

(١) ينظر مثلا: شروح التلخيص، السبكي، ج١، ص٢٨١.

(٢) العلوي، الطراز، ص١٧،١٨.

(٣) شروح التلخيص، السبكي، ج١، ص٥١،٥٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لاتتناهى، وتلك الأسرار لاتعلم إلا بعلم المعاني، والنحوي وإن ذكرها فهو على وجه إجمالي يتصرف فيه البياني تصرفاً خاصا لايصل إليه النحوي"(١).

فالنظر على هذا متراكم متراكب، لكل من هذه العلوم منهجه وحدّه، لكن اللاحق منها يعتمد على جهد السابق؛ فعلم المعاني بعد اللغة والصرف والنحو، إذ يتراءى بعد انتهاء مهامها "مقاصد لاتتعلق بالوضع مما تتفاوت به أغراض المتكلم على أوجه لا تتناهى، وتلك الأسرار لاتعلم إلا بعلم المعاني"(١).

ولعل هذا هو مقصد ابن مالك حين رأى أن علم اللغة "نوع قريب المأخذ، يكفي في تحصيله بعض قوة"(٢). بينما علم البلاغة "لايدرك إلا بعدد جمة مع فضل إلهي في ضمن كثرة مراجعات وطول ممارسات"(٢).

إن هذا يمكن أن يفسر بأن النحوي يحرس صحة التركيب، واتساقه مع أحكام اللغة، حتى إذا اطمأن إلى ذلك أسلم التركيب للبلاغي الذي يحرص على أن يحلق بعيدا بحثا عن المعنى أو الجمال يستذوقه فيجليه ويحليه لغيره.

وقد وردت لهم أمثلة، أدرك فيها النحوي حدّه فوقف عنده، واعتمد البلاغي على جهد النحوي فنظر في المعنى وتبصر، فرأى غير مارآه النحوي، وقدر غير ماقدر.

يقول تعالى:

﴿ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم﴾(٣). تذهب فئة من النحاة إلى أن ثلاثة خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة(٤).

إن هذا التقدير يرد للنحوي ضالته فيكتفي به. إلا أن البلاغي يقلب الأمر على وجوهه، ويرى أثر هذا التقدير على المعنى فلا يرضيه ذلك، فيبحث عن تقدير آخر ليصح المعنى؛ فتقدير النحوي يوحي بأن النهي موجه إلى عدد الآلهة، لاتعددها، ولذلك فإن الجرجاني يجري نقاشا طويلا يمتد صفحات لهذا الأمر في كتابه الدلائل، ومقصده الأول في ذلك توجيه النهي ليس إلى العدد فقط، بل إلى التعدد أيضا؛ لأن التقدير النحوي عنده ليس بمستقيم "وذلك أنا إذا قلنا: ولاتقولوا آلهتنا

---

(١) شروح التلخيص، السبكي، ج١، ص٥١.

(٢) المصباح، ص٣.

(٣) النساء، ١٧١.

(٤) القيسي، مشكل إعراب القرآن، ج١، ص٢١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثلاثة، كان ذلك والعياذ بالله شبه الإثبات أن ههنا آلهة من حيث إنك إذا نفيت فإنما تنفي المعنى المستفاد من الخبر عن المبتدأ، ولا تنفي معنى المبتدأ"(١).

ويوضح أكثر، فيبين أننا بذلك "نفينا أن تكون عدة الآلهة ثلاثة، ولم ننف أن تكون آلهة، جل الله تعالى عن الشريك والنظير... وإذا أدى هذا التقدير إلى هذا الفساد وجب أن يعدل عنه إلى غيره. والوجه -والله أعلم- أن تكون ثلاثة صفة مبتدأ، ويكون التقدير: ولا تقولوا لنا آلهة ثلاثة أو في الوجود آلهة ثلاثة، ثم حذف الخبر الذي هو لنا أو في الوجود.... فبقي ولا تقولوا آلهة ثلاثة، ثم حذف الموصوف الذي هو آلهة فبقي: ولاتقولوا ثلاثة"(٢).

واضح أن النحوي لمس هذه الآية سريعا، فقدر المحذوف، ورده لتستقيم له القاعدة النحوية، وقد اهتم بالمعاني القريبة، ووجد أنه غير معني بأن يعني نفسه بالنفاذ إلى مابعُد منها.

أما البلاغي، فهو يحوم حول التركيب يقلب ظهره إلى بطنه، شكله إلى جوهره، ليوجهه نحو المستوى الأمثل من الصواب.

وهذا مثال ثان:

في مثل قوله تعالى:﴿ولو أن قرآنا سيرت به الجبال﴾(٣)، أو قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾(٤)، ينظر النحوي المسكون بهاجس المحافظة على سلامة قاعدته النحوية، ينظر إلى التركيب فيرى فعل شرط لم يأت له جواب، فيسارع إلى القول: إن الجواب محذوف. وقد يقدره، ويرده، أو يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول: إنه حذف لعلم المخاطب.

يأتي البلاغي، فلا يشفي ذلك غليله، فيستهويه التحليل، ويجد نفسه ملزماً بالتعليل، وإظهار الدليل، فيتخطى حدود النحو، ويوضح أن الحذف وقع لتكثير الاحتمالات وتوسيع دائرة الوهم، وإطلاق الخيال يسبح في كل مجال ليتصور الجواب، وكل هذا يحشد التفخيم والتعظيم والتهويل فتذهب النفس فيه كل مذهب، ولو ذكر لكان هيناً محصوراً(٥).

---

(١) دلائل الإعجاز، ص٢٩٠، ويحسن الموازنة بالرازي، نهاية الإيجاز، تحقيق بكري شيخ أمين، ص٣٤٦، والقزويني، الإيضاح، ج٢، ص١٠٧.

(٢) دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد، ص٢٩٠،٢٩١، ومحمود شاكر، ص٣٧٩.

(٣) الرعد، ٣١.

(٤) الأنعام، ٢٧.

(٥) ينظر مثلا: الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص٧٧، وابن رشيق القيرواني، العمدة، ج١، ص٢٥١، وابن الأثير، المثل السائر، ج٢، ص١٠١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على مثل هذا النهج، يمكن الموازنة بين الجهد النحوي والبلاغي، وترسيم الحدود بينهما(١)، وفي استحضار الأمثلة التي مضت للفريقين دلائل كافية. بل يكفي استذكار تلك الشواهد التي التقطها الجرجاني من سيبويه، لنرى كيف كان سيبويه يكتفي بتعيين المحذوف في التركيب، بينما يخيم عنده الجرجاني، يكشف عنه الأستار ويستلهمه الأسرار، ويتسلل برفق إلى حنايا النفس الإنسانية، ويقفنا على أدق الانفعالات الوجدانية ليصل بنا إلى القناعة بأن الحذف سما بالكلام، وألقى عليه أردية اللطف والسحر(٢).

وهناك أمر آخر، وهو يتمثل في أن النحوي يتنبه إلى الحذف، ويجد نفسه ملزماً بتعيين المحذوف عندما يصطدم التركيب اللغوي بالقاعدة النحوية، فيبدو فيها الخلل: كأن يغيب في الظاهر عنصر من عناصرها تستلزمه الصناعة النحوية، عاملاً كان أو معمولا، وهنا ينبري النحوي للدفاع عن قاعدته، ورد الاعتبار إليها، والتدليل على اتساقها واطرادها، فيعين المحذوف الذي تستدعيه، ويرده لتصح نصبة الكلام، وما تجاوز هذا تطوع يحمد له إن أجاد فيه، ولا يؤاخذ عليه إن لم يأت به.

أما البلاغي، فهو ملزم بأكثر من هذا، إذ كثيرا ما يلجأ إلى التقدير لا لأن الصناعة النحوية تطلبه، وتستلزمه، بل لأن التحام المعاني يستدعيه، وهذا يتمثل جيدا في القصص القرآني، إذ يطوى كثير من الأقوال، والمواقف، والأحداث، ويبدو جليا براعة الإعجاز القرآني، حين تتضامّ عناصر مابقي من الكلام، لتشي بما حذف منه، فتهدي إليه، وتدل عليه، فيسارع البلاغي إلى تقدير هذه المحذوفات لتتألف الخيوط التي تربط الأحداث فتأتلف من جديد.

إن براعة البلاغي تظهر في هذا المجال، إذ يتحسس بدقة الثغرات التي بدت في ظاهر النص، ثم يستلهم ما أبقي الدليل على ماألقي، ويستجمع كل ما يستطاع من قرائن لفظية وحالية، ويستحضر مناسبة الآيات، وقد يستنطق مواقف أخرى مشابهة، ليحشد كل ذلك آلات تسعده في ردم الفجوات التي بدت في المبنى الظاهر، ويستنسج بها خيوطا تعيد للنسيج لحمته وسداه، مع المحافظة على رونقه وبهاه.

---

(١) مازالت قضية الحدود بين النحو والبلاغة تلقى اهتماما كبيرا، فقد كثر الحديث حولها، فئة تنادي بدمج العلمين، وفئة ثانية تدعو إلى إلحاق جزء منهما بالآخر، وفئة ثالثة توصي بالفصل بين العلمين..... يحسن الرجوع إلى: عبد الفتاح لاشين، التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، دار المريخ للنشر، الرياض، ص٢٢٧-٢٤٨.

(٢) يحسن الرجوع إلى دراسة الجرجاني لظاهرة الحذف في هذا البحث، ص ١٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويظهر أكثر ذلك في حذف الجمل التي سبقت الإشارة إلى أنها تشيع في القرآن الكريم، وتقل كثيرا في غيره(١)؛ لأن حذف جمل بكاملها يشرخ النصوص، وقد يسبب اضطرابا في المعاني، ولا يتأتى هذا الحذف بمنتهى الدقة واللطف إلا في الإعجاز القرآني.

ويؤمل أن يكون في الأمثلة التي سبق عرضها لحذف الجمل عند المدرسة الأدبية مايكفي للتدليل على براعة البلاغيين في متابعة المحذوفات، وتقديرها، وحتى يتجنب البحث التكرار، يكتفي بالإحالة إليها في موضعها لتدبرها واستخبارها(٢).

ولعل هذا يسمح بالإطمئنان إلى أن البلاغيين قد حاولوا الانفكاك من أسر الجملة الواحدة، والنظر بشمولية إلى النص، فبزوا بذلك النحويين الذين كانوا أكثر انئساراً للجملة وأشد انكساراً أمام حدودها.

وليس ذلك غريبا، فالبلاغة تقوم أساسا على مراعاة الكلام لمقتضى الحال، وقد بدا البلاغيون منسجمين مع أبعاد علمهم، ومتطلبات تخصصه إذ كانت لهم أنظار موفقة في الأسلوب الأفضل للكلام وذلك باستحضار مستلزمات مقتضى الحال، فالتفتوا جيدا إلى تطبيق مقولتهم المشهورة: لكل مقام مقال.

لقد أدرك البلاغيون أهمية ذلك، فمنذ أن قال بشر بن المعتمر:

"إنما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من مقال"(٣)، منذ ذلك، وهذه الفكرة تدور في مؤلفاتهم دورانا يكاد يكون ثابتا، ويقع صداها على أفكارهم ولفتاتهم.

فقد أكدها الجاحظ مثلا إذ قال:

"ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل آلة من ذلك مقاماً"(٤).

ووقف عندها السكاكي، مطولا مفصلا، ومما قاله:

"وإن كان مقتضى الحال طي ذكر المسند إليه، فحسن الكلام تركه... وكذا إن كان المقتضى ترك المسند فحسن الكلام وروده عاريا عن ذكره... وكذا إن كان المقتضى عند انتظام الجملة مع

---

(١) ينظر هذا البحث، ص١٤٦.

(٢) ينظر هذا البحث، ص١٤٦.

(٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص١٣٦.

(٤) نفسه، ج١، ص١٣٨،١٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أخرى فصلها، أو وصلها، والإيجاز معها، أو الإطناب"(١).

وبتذكر أقوالهم حول المواقف التي يحسن فيها الإيجاز، والأخرى التي يجمل فيها الإطناب، نلمس جانب المغالاة في أقوال من اتهمهم بأنهم محبوسون في إطار الجملة الواحدة، وأن نظرتهم كانت جزئية لم تتجاوز الجملة إلى مايجاورها من جمل أو إلى النص بشكل أشمل(٢).

نعم، في هذه الأقوال شيء من تعميم، فما نحن بصدده هنا يشير إلى غير ذلك، فالمقام، ومقتضيات الحال في نظر البلاغيين تدخل في البناء الكلي للكلام، وتتغلغل إلى أساسه لتجعله موجزاً، أو مطنباً وفي هذا -لاشك- تجاوز النظرة الجزئية إلى الأسلوب بشكل عام(٣).

وقد نصوا صراحة على ذلك فقالوا:

"اعلم أن إخراج الكلام على مقتضى الحال يكون تارة بالإيجاز، وتارة بالإطناب، وتارة بالمساواة"(٤).

كما يجدر ألا ننسى أن بعض البلاغيين كانت لهم نظرات موفقة في السياق العام، فالجرجاني مثلا درس الحذف ضمن نظرية عامة هي نظرية النظم، وكان الحذف أحد عناصرها والسياق عنده "لايعتبر أن الكلمة نقطة البدء -كما يظن- وإنما العكس هو الصحيح؛ فالسياق هو نقطة البدء بحيث لايمكن وجود كيان للتعبير إلا من خلاله، وحينئذ من الواجب رصد السياق ثم البحث عن الألفاظ وعلاقاتها فيه ثانية"(٥).

واهتمام البلاغيين، والجرجاني شيخهم، بالسياق العام "كان يرمي إلى رصد الإمكانات التعبيرية في اللغة، وماينتج عنها من تطبيقات في الكلام الإبداعي والإخباري على سواء، وهي إمكانات تهتم بالتنوعات التي تقوم على أساس فردي، وإنما تهتم بالمحيط الأسلوبي العام الذي يرتبط بموقف كلامي... تتحرك على أساسه الصياغة لتستقر في سياقات محددة"(٦).

ولذلك فإن كثيرا من مباحثهم اتصل بشكل مباشر بالأسلوب وتركيبه، وقد بدا أنهم متفهمون متطلبات السياق، والمقام، وسمات الأسلوب عندما قرنوا حديثهم عن الحذف بالحديث

---

(١) السكاكي، المفتاح، ص١٦٩، وينظر للإيضاح، القزويني، الإيضاح، ج١، ص٤١، وشروح التلخيص السعد والسبكي، ج١، ص١٢٢.

(٢) يحسن الرجوع إلى هذا البحث، ص ٢٩٠.

(٣) مر مثال جيد للسكاكي، ينظر هذا البحث، ص ١٨٠.

(٤) شروح التلخيص، السبكي، ج٣، ص١٦٠.

(٥) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص٢٤٢.

(٦) نفسه، ص٢٤٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عن الذكر(١). "وكان لعبد القاهر في هذا المبحث أصالة وابتكار تعطي له الأحقية في أن تتجاور مباحثه مع أحدث ماتناولته الدراسات الأسلوبية المعاصرة"(٢).

ونخلص مما سبق إلى القول: إن ظاهرة الحذف لقيت عناية وافرة من النحويين والبلاغيين على سواء. وقد بدت أنظارهما متقاربة كثيرا، وساهمت في ذلك عوامل عديدة، فالبلاغة نشأت في منابت النحو، وعلوم النحو والصرف والبلاغة والتفسير كانت متمازجة تلتقي كثيرا على المادة، وتوحدها الغايات، والعالم الواحد كان يبرع فيها جميعا فيحار المرء في أي علم يسلكه!

ومع مرور الزمن، أحس أصحاب كل علم بخصوصيتهم، إلا أن الافتراق والانفصال ما كانا ممكنين تماماً، لاسيما في علمي النحو والبلاغة. لكنْ ظهرت عند الفريقين -أحيانا- الصورة التكاملية المثلى التي يجب أن تكون عليها العلاقة بينهما إذ ينصبّ همّ النحوي على صحة العبارة، ويوجه البلاغي همه نحو دقائق معانيها، ومواطن الجمال فيها، ويتلمس مطالب السياق، وخصائص التراكيب وسمات الأساليب.

---

(١) ينظر الجرجاني مثلا في دلائل الإعجاز، تحقيق محمد رشيد، ص١٢٦، ومحمود شاكر، ص١٦٤.

(٢) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص٦، وينظر ص٣٩ أيضا، وينظر كذلك للتوضيح، محمد عبد المنعم خفاجي ورفيقاه، الأسلوبية والبيان العربي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٢، ص٥، ٧، ٨٣، ١٠٣، وغيرها. وينظر موقع نظرية الجرجاني في علم اللغة الحديث في:
جعفردك الباب، الموجز في شرح دلائل الإعجاز، نظرية الإمام الجرجاني وموقعها في علم اللغة الحديث، مطبعة الجيل، دمشق، ١٩٨٠، ص ١١٢- .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة

تابع هذا البحث ظاهرة الحذف في النحو والبلاغة من بدايات ما وصلنا من تدوين نحوي وبلاغي إلى القرن العاشر الهجري. ووصلَ ذلك بالحاضر؛ إذ استأنس بآراء المحدثين في هذه الظاهرة، وتقييمهم الجهد النحوي والبلاغي في دراستها.

وقد أظهر البحث أن النحاة عنوا بهذه الظاهرة، فعرضوا أسبابها، وأدلتها، وضوابطها، وأبدوا تحفظاتهم على حذف بعض العناصر النحوية. وقُرن ذلك بأمثلة تطبيقية من القرآن الكريم أوردها النحاة، وقدروا فيها المحذوفات.

وأظهر البحث كذلك أن البلاغيين اهتموا بهذه الظاهرة؛ إذ وردت إشارات إليها منذ بدايات التأليف البلاغي، واحتلت مكاناً بارزاً مع توالي الأعصار، وتغاير الأنظار.

وقد تبين أن الحذف ظاهرة لغويةواقعية لم يختلقها النحاة، إلا أن منهجهم في السماع والتقعيد شابته بعض شوائب: من ذلك اعتمادهم الكبير على الشعر، ومد القواعد المستقراة منه لتشمل القرآن الكريم وعموم النثر.

ووضع البحث معياراً لتقييم الجهد النحوي يتمثل في مراعاة المعنى والصنعة النحوية معاً، فتبين أن النحاة وفقوا أحيانا في خلق الانسجام بين متطلبات المعنى ومستلزمات صناعة النحو، إلا أنهم أحياناً أخرى انحازوا إلى صناعتهم فقدروا مالا يتطلبه المعنى. ولحق بذلك نص الذكر الحكيم أذى عظيم.

وأما البلاغيون فقد بدت عند روادهم محاولات التعريف والتحديد والتمثيل والتعليل لهذه الظاهرة، وبرز منهم الرماني علماً اهتدى به كثير من لاحقيه واقتدوه.

وعندما تناول عبد القاهر الجرجاني لواء هذا الأمر لقيت ظاهرة الحذف على يديه عناية عظمى، وظهرت في أجلى صورها وأحلاها، إلا أنه لم يعن بالشاهد القرآني كما ينبغي.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم انشعبت البلاغة بعده مسلكين: المدرسة الأدبية، والمدرسة الكلامية. واهتم كل من الفريقيين بهذه الظاهرة، لكن اختلف منهاجاهما:

فالفريق الأدبي عُني بالشاهد القرآني، ودرس الظاهرة موحدة، ونظر إليها بشمولية. أما الفريق الكلامي، فلم يُعن كثيرا بالشاهد القرآني، ولم يدرس الظاهرة على صعيد واحد، بل نثر الحديث عنها عبر عناصر عدة.

وكانت تعليلات الفريق الأدبي لهذه الظاهرة أقرب إلى روح البلاغة والذوق، بينما اتسمت تعليلات الفريق الكلامي بالتحديد العلمي وصبغة المنطق.

وأما الزمخشري فقد اعتمد على تقدير المحذوفات لنصرة مبادئ المعتزلة، وكفح آراء خصومهم.

وقد وافق هذا البحث المحدثين في بعض انتقاداتهم للجهد النحوي في دراسة هذه الظاهرة، إلا أنه أبدى تحفظه على حماس بعضهم للمدارس اللغوية الحديثة.

وكذلك تفهم هذه البحث بعض انتقادات المحدثين للجهد البلاغي في دراسة هذه الظاهرة، إلا أنه أظهر مغالاتهم في ذلك.

وكانت لهذا البحث وقفة حاول من خلالها توضيح العلاقة بين علمي النحو والبلاغة في دراسة ظاهرة الحذف، فتبين أن أنظار الفريقين اختلطت أحيانا، وفي أحيان أخرى بدا كل فريق مدركا حدوده، ومتطلبات علمه فالتزمها.

ملحوظة أرجو تقبلها فالفقد البناء يسهم في الارتقاء :-
أرى أن عنوان الرسالة كان يناسب مع مضمونها أو لنقل كمثله تمهيداً واضحاً في الرسالة
قيمة وفيها جهد واضح مميز ولكنها تتكلم عن ظاهرة الحذف بشكل عام فالمفروض أن
تكون هذه الرسالة بـ "ظاهرة الحذف : دراسة نقدية" . والعنوان يشير إلى أنها
في القرآن الكريم وهذا يدل على أن الباحث سيقوم بدراسة هذه الظاهرة وعرضها وتصنيفها
وكيف جاءت في القرآن وهذا ما نجده يظهر بأستكمال في هذه الرسالة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- الآلوسي، محمود شكري، الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر، مكتبة دار البيان، بغداد ودار صعب، بيروت.
- إبراهيم رفيدة، النحو وكتب التفسير، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان، ١٩٨٠.
- إبراهيم السامرائي، المدارس النحوية أسطورة واقع، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٧.
- إبراهيم السامرائي، النحو العربي، نقد وبناء، دار الصادق.
- إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٩ .
- ابن أبي الإصبع المصري، عبد العظيم بن عبد الواحد، بديع القرآن، تحقيق حفني محمد شرف، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ١٩٥٧.
- ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله محمد، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق مصطفى جواد وجميل أسعد، مطبعة المجمع العلمي العراقي،١٩٥٦.
- ابن الأثير، أبو الفتح ضياء الدين، المثل السائر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت، ١٩٩٠.
- ابن الأنباري، كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن محمد، أسرار العربية، تحقيق محمد بهجت البيطار، مطبعة الترقي بدمشق، ١٩٥٧ .
- ابن الانباري، كمال الدين أبو البركات، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، نشرة محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت، ١٩٩٣.
- ابن الأنباري، كمال الدين أبو البركات، البيان في غريب إعراب القرآن، تحقيق طه عبد الحميد طه، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠.
- أحمد أحمد بدوي، من بلاغة القرآن، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.
- أحمد أمين، فجر الإسلام، ط ١٠ ، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٩ .
- أحمد بدوي، عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية، مكتبة مصر بالقاهرة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- أحمد الزيات، دفاع عن البلاغة، مطبعة الرسالة ، ١٩٤٥ .
- أحمد سليمان ياقوت، ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها على القرآن الكريم، عمادة شؤون المكتبات، الرياض، ١٩٨١.
- أحمد فالح مطلق، ظاهرة الحذف في الجملة العربية، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٨٥.
- أحمد فليح، الحذف في الحديث النبوي الشريف، من كتاب رياض الصالحين، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن، ١٩٨٧.
- أحمد محمد الحوفي، الزمخشري، دار الفكر العربي، ١٩٦٦.
- أحمد مصطفى المراغي، تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، شركة البابي الحلبي بمصر، ١٩٥٠.
- أحمد مصطفى المراغي، علوم البلاغة، البيان والمعاني والبديع، ط٤ ، المكتبة المحموديّة التجارية، القاهرة ١٩٧٩.
- أحمد مطلوب، البحث البلاغي عند العرب، دار الجاحظ، بغداد، ١٩٨٢.
- أحمد مطلوب، البلاغة عند الجاحظ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٣ .
- أحمد مطلوب، القزويني وشروح التلخيص، منشورات مكتبة النهضة ببغداد، ١٩٦٧.
- أحمد مطلوب، مناهج بلاغية، وكالة المطبوعات ، الكويت ، ١٩٧٥.
- أحمد مكي الأنصاري، نظرية النحو القرآني، نشأتها وتطورها ومقوماتها الأساسية، ١٤٠٥هـ.
- الإسكندري، أحمد بن محمد، الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال، (حاشية على كشاف الزمخشري) ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٧ .
- الأعلم الشنتمري، أبو الحجاج يوسف بن سليمان، تحقيق زهير عبد المحسن سلطان، معهد المخطوطات العربية، الكويت، ١٩٨٧
- إسماعيل عمايرة، المستشرقون والمناهج اللغوية، دار حنين، ١٩٩٢
- الأشموني، أبو الحسن علي بن محمد، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، شركة عيسى البابي الحلبي بمصر.
- أمين الخولي، فنّ القول، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- أمين الخولي، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، دار المعرفة، ١٩٦١.
- الباقلاني، أبو بكر محمد بين الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر.
- بدوي طبانة، البيان العربي، ط٤، المكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨.
- بدوي طبانة، العسكري ومقاييسه البلاغية، القاهرة، ١٩٥٢.
- بيرجستراسر، التطور النحوي للغة العربية، أخرجه وصححه وعلق عليه رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض.
- تامر سلوم، نظرية اللغة والجمال في النقد العربي، دار الحوار.
- تشومسكي، نعوم، جوانب من نظرية النحو، ترجمة مرتضى جواد باقر، وزارة التعليم العالي، جامعة البصرة.
- تمام حسّان، الأصول، (دراسة إبيستمولوجية لأصول الفكر اللغوي العربي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢.
- تمام حسّان، اللغة العربية معناها ومبناها، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩.
- ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى، مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، ط٣، منشورات محمد الداية، بيروت، ١٩٦٩.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، أسرار البلاغة، صححها وعلق الحواشي محمد رشيد رضا ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٨.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، أسرار البلاغة، تحقيق هـ. ريتر، مطبعة وزارة المعارف، استانبول، ١٩٥٤.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز، صحح أصله محمد عبده ومحمد محمود الشنقيطي، وعلق حواشيه محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٨٤.
- الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، المقتصد في شرح الإيضاح، تحقيق كاظم بحر المرجان، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٢.
- جعفردك الباب، الموجز في شرح دلائل الإعجاز، نظرية الإمام الجرجاني وموقعها في علم اللغة الحديث، مطبعة دار الجيل، دمشق، ١٩٨٠.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، ط٢، دار الهدى، بيروت.
- جولد تسيهر، مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبد الحليم النجار، ط٢، دار اقرأ، بيروت، ١٩٨٣.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق أحمد محمد شاكر، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٣
- ابن حزم، علي بن أحمد، الفصل في الملل والنحل، ط٢ ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٥ .
- أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٢ مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٩.
- حسن عون، اللغة والنحو، دراسات تاريخية وتحليلية مقارنة، مطبعة رويال بالإسكندرية، ١٩٥٢.
- حفظي اشتية، ظاهرة الحذف في العربية: حذف الاسم في النحو العربي، رسالة ماجستير، معهد الخرطوم الدولي، السودان، ١٩٩٠.
- الحلبي، شهاب الدين محمود، حسن التوسل إلى صناعة الترسل، تحقيق أكرم عثمان.
- حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨ .
- حلمي خليل، الكلمة، دراسة لغوية معجمية، ط٢، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣.
- أبو حيّان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي، ارتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق مصطفى أحمد النماس، ١٩٨٤ .
- أبو حيّان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، صيدا وبيروت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن خالويه، أبو عبد الله الحسين بن أحمد، إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، المكتبة الثقافية، بيروت .
- ابن خالوية، الحسين بن أحمد، الحجة في القراءات، تحقيق عبد العال سالم مكرم، ط٣، دار الشروق، ١٩٧٩.
- خديجة الحديثي، دراسات في كتاب سيبويه، وكالة المطبوعات ، الكويت .
- الخطابي ، أبو سليمان حمد بن محمد، بيان إعجاز القرآن، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) تحقيق محمد خلف اللّه، ومحمد زغلول سلام، ط٢ ، دار المعارف بمصر، ١٩٦٨.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة تاريخ ابن خلدون.
- خليل عمايرة، العامل النحوي بين مؤيديه ومعارضيه، جامعة اليروموك.
- داوود عبده، أبحاث في اللغة العربية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٣.
- داوود عبده، التقدير وظاهر اللفظ، مجلة الفكر العربي، مجلد١، عدد٨، ١٩٧٩، ص١٤.
- درويش الجندي، علم المعاني، ط٢، مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ١٩٦٢.
- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي، الاشتقاق، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة المثنى، بغداد ١٩٧٩ .
- دي سوسير، فرديناند، علم اللغة العام، ترجمة يوئيل غريز، بيت الموصل، ١٩٨٨.
- رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط١ + ط٢.
- ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٤ ، دار الجيل ، بيروت.
- الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى، النكت في إعجاز القرآن، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، ط٢ ، دار المعارف بمصر، ١٩٨٦ .
- رمضان عبد التواب، بحوث ومقالات في اللغة، ط٢ ، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٨٨ .
- الزجاج، أبو إسحق إبراهيم بن السري، إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج، تحقيق إبراهيم الأبياري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٦٣.
- الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحق، أمالي الزجاجي، تحقيق عبد السلام هارون، المؤسسة العربية الحديثة، ١٣٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن، الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك مكتبة دار العروبة، القاهرة، ١٩٧٩.
- الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن، الجمل في النحو، تحقيق علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، ودار الأمل، ١٩٨٤.
- الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن، اللامات، تحقيق مازن المبارك، ط٢، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥.
- الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن، مجالس العلماء، تحقيق عبد السلام هارون، ط٢، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار المعارف بالرياض، ١٩٨٣.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أ بو الفضل إبراهيم، ط٢، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت، ١٩٧٢.
- الزركلي، خير الدين، الأعلام، (قاموس تراجم)، ط١٠، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢.
- الزمخشري، ابو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأ ويل، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٧.
- الزمخشري، ابو القاسم محمود، المفصل في علم العربية، ط٢، دار الجيل، بيروت.
- ابن الزملكاني، كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، تحقيق خديجة الحديثي، وأحمد مطلوب، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٤.
- ابن الزملكاني، كمال الدين عبد الواحد، التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٦٤.
- أبو زيد الأنصاري، سعيد أوس، النوادر في اللغة، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، دار الشروق، بيروت، ١٩٨١.
- السبكي والسعد والمغربي، شروح التلخيص، جمع فرج الله زكي، مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ، ١٩٣٧ .
- سعيد الأفغاني، في أصول النحو، ط٣، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٤.
- السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلميّة، بيروت ، ١٩٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن سنان الخفاجي، أبو محمد عبد الله بن محمد، سرّ الفصاحة، شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة ، ١٩٦٩ .
- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، نتائج الفكر في النحو، تحقيق محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام .
- سيبويه، أبو بشر عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، ط٣، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٩٨٨ .
- السيّد أحمد عبد الغفار، ظاهرة التأويل وصلتها باللغة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندريّة.
- السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله، أخبار النحويين البصريين، تحقيق فريتس كرنكو المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٣٦.
- السيوطي : جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت، ١٩٨٧.
- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن، الأشباه والنظائر في النحو، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهريّة بالقاهرة، ١٩٧٥.
- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن، الاقتراح في أصول النحو، تحقيق أحمد سليم الحمصي، ومحمد أحمد قاسم، جروس برس، ١٩٨٨.
- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٤.
- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن، شرح شواهد المغني، تصحيح وتعليق الشيخ محمد محمود الشنقيطي، مكتبة الحياة، بيروت.
- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى ورفيقيه، شركة البابي الحلبي. بمصر.
- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق عبد السلام هارون وعبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت ١٩٧٥ - ١٩٨٠
- ابن الشجري، ابو السعادات هبة الله بن علي، الأمالي الشجرية، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٤٩هـ.
- الشريف الرضي، محمد حسين بن موسى، تلخيص البيان في مجازات القرآن، تحقيق محمد عبد الغني حسن، شركة عيسى البابي الحلبي بمصر، ١٩٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- شفيع السيد، البحث البلاغي عند العرب، تأصيل وتقييم، دار الفكر العربي القاهرة، ١٩٨٧.
- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠.
- شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥.
- شوقي ضيف، تجديد النحو العربي، دار المعارف، القاهرة.
- شوقي ضيف، تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا مع نهج تجديده، دار المعارف بمصر.
- شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف بمصر، ١٩٦٨.
- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٦٤، آب، ١٩٩٢.
- طاهر حمودة، ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، الدار الجامعية للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٨٢.
- طاهر حمودة، دراسة المعنى عند الاصوليين، الدار الجامعية للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٨٢.
- طه عبد الحميد طه، دراسات في النحو، مكتبة سعيد رأفت بجامعة عين شمس.
- أبو الطيب اللغوي، عبد الواحد بن علي، مراتب النحويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٥.
- الطيبي، شرف الدين الحسن بن محمد، التبيان في البيان، تحقيق توفيق الفيل، وعبد اللطيف لطف الله، ذات السلاسل، ١٩٨٦.
- عادل العوا، المعتزلة والفكر الحر، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٨٧.
- عباس حسن، اللغة والنحو بين القديم والحديث، دار المعارف بمصر، ١٩٦٦.
- عباس محمود العقاد، أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، دار المعارف بمصر.
- عبد الجبار الهمذاني، عماد الدين أبو الحسن، شرح الأصول الخمسة، تحقيق عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٦٦.
- عبد الرحمن أيوب، دراسات نقدية في النحو العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٧.
- عبد السلام محمد هارون، معجم شواهد العربية، مكتبة الخانجي بمصر، ١٩٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- عبد العال سالم مكرم، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، دار المعارف بمصر، ١٩٦٨.
- عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢.
- عبد العزيز عرفة، الذوق عند عبد القاهر الجرجاني، دار الطباعة المحمدية بالأزهر، ١٩٨٣.
- عبد الفتاح الحموز، الحذف في المثل العربي، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان.
- عبد الفتاح الحموز، ظاهرة التأويل في القرآن الكريم، مكتبة الرشد، الرياض، ١٩٨٤.
- عبد الفتاح الحموز، المبتدأ والخبر في القرآن الكريم، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٦.
- عبد الفتاح الحموز، معجم الأفعال التي حذف مفعولها غير الصريح في القرآن الكريم، دار الفيحاء، ودار عمار، عمان، ١٩٨٦.
- عبد الفتاح لاشين، البهاء السبكي وآراؤه البلاغية والنقدية، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٩٧٣.
- عبد الفتاح لاشين،التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، دار المريخ للنشر، الرياض.
- عبد الفتاح لاشين، المعاني في ضوء أساليب القرآن، ط٤، المكتبة الأموية، ١٩٨٣.
- عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة.
- عبد الكريم بكار، أثر القراءات السبع في تطور التفكير اللغوي، دار القلم، دمشق، ١٩٩٠.
- عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث، بحث في المنهج، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٨.
- عبد الواحد حسن الشيخ، دراسات في البلاغة عند ضياء الدين بن الأثير، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٦.
- أبو عبيدة، معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تعليق محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي بمصر.
- العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، الصناعتين، تحقيق محمد مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن عصفور الإشبيلي، علي بن المؤمن، ضرائر الشعر، تحقيق السيد إبراهيم محمد، ط٢، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ١٩٨٢.
- ابن عصفور الإشبيلي،المقرب، تحقيق أحمد عبد الستار الجواري، وعبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧١.
- عفت الشرقاوي، بلاغة العطف في القرآن، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١.
- عفيف دمشقية، تجديد النحو العربي، معهد الإنماء العربي، لبنان، ١٩٨١.
- عفيف دمشقية، المنطلقات التأسيسية والفنية إلى النحو العربي، معهد الإنماء الصناعي، ١٩٧٨.
- ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١٥، دار الفكر، ١٩٧٢.
- العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي.
- العكبري، أبو البقاء عبد الله التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين، تحقيق عبد الرحمن بن سلمان العثيمينين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦.
- العكبري، أبو البقاء عبد الله مسائل خلافية في النحو، تحقيق محمد خير الحلواني، دار الشرق العربي، بيروت، ١٩٩٢.
- العلوي، يحيى بن حمزة، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مطبعة المقتطف بمصر، ١٩١٤.
- علي أبو المكارم، تقويم الفكر النحوي، دار الثقافة، بيروت.
- علي البدري، بحوث المطابقة لمقتضى الحال، ط٢، المكتبة الحسينية بالقاهرة، ١٩٨٤.
- علي جواد الطاهر، منهج البحث السائر، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٨٢.
- علي النجدي ناصف، سيبويه إمام النحاة، مكتبة نهضة مصر بالفجالة.
- علي النجدي ناصف، من قضايا اللغة والنحو، مكتبة نهضة مصر بالفجالة.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق مصطفى شويمي، مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٤ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- الفراء ، ابو زكريا يحيى بن زيد، معاني القرآن، تحقيق أحمد يوسف النجار، ط٢، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٠ .
- فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، (علم البيان والبديع)، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٥.
- فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، (علم المعاني) دار الفرقان، للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٥ .
- فك، يوهان، العربية، دراسة في اللغة واللهجات والأساليب، ترجمة عبد الحليم النجار، مكتبة الخانجي بمصر، ١٩٥١ .
- فندريس، جوزف، اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٠ .
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، أدب الكاتب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط٤، مطبعة السعادة بمصر، ١٩٦٣ .
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله، تأويل مختلف الحديث، تحقيق محمد زهري النجار، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣.
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله، تأويل مشكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق محمد مفيد قميحة ونعيم رزرور، دار الكتب العلمية، ١٩٨٥.

- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، دار الحديث، القاهرة،١٩٩٤.
- القزويني، محمد عبد الرحمن الخطيب، الإيضاح في علوم البلاغة، ط٢، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
- القزويني، محمد عبد الرحمن الخطيب، التلخيص في علوم البلاغة، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت.
- القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، ١٩٥٠ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن قيم الجوزية، عبد الله محمد بن أبي بكر، بدائع الفوائد، إدارة الطباعة المنيرية.
- ابن قيم الجوزية، عبد الله محمد بن أبي بكر، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، تصحيح محمد بدر الدين النعساني، مطبعة السعادة، بمصر ، ١٣٢٧هـ.
- كمال بشر، دراسات في علم اللغة (القسم الثاني)، ط٢، القاهرة، ١٩٧١.
- كوركيس عواد، سيبويه إمام النحاة في آثار الدارسين خلال اثني عشر قرناً، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٧٨.
- مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، دار الفكر.
- مازن المبارك، النحو العربي، العلة النحوية، نشأتها وتطورها، ط٣، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت والقاهرة، ١٩٧٤.
- ابن مالك، أبو عبد الله محمد جمال الدين، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، تحقيق محمد كامل بركات، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧.
- ابن مالك، بدر الدين محمد بن محمد، المصباح في علم المعاني والبيان والبديع، المطبعة الخيرية، ١٣٤١ هـ.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، البلاغة، تحقيق رمضان عبد التواب، ط٢، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٥.
- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، ١٣٨٦-١٣٩٩هـ.
- مجيد عبد الحميد ناجي، الأثر الإغريقي في البلاغة العربية من الجاحظ إلى ابن المعتز، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٧٦.
- مجيد عبد الحميد ناجي، الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، المؤسسة الجامعية، بيروت، ١٩٨٤.
- محمد أبو موسى، دلالة التراكيب، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٩.
- محمد بدري عبد الجليل، المجاز وأثره في الدرس اللغوي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠.
- محمد بركات أبو علي، الصورة البلاغية عند السكي، مكتبة الرسالة، عمان، ١٩٧٩.
- محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- محمد الخضر حسين، القياس في اللغة العربية، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، ١٣٥٣هـ.
- محمد خير الحلواني، الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين وكتاب الإنصاف، دار القلم العربي بحلب.
- محمد خير الحلواني، المفصل في تاريخ النحو العربي، (الجزء الأول قبل سيبويه)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٩.
- محمد الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ط٢، ١٩٦٩.
- محمد عبد الخالق عضيمة، دراسات في أسلوب القرآن، دار الحديث، القاهرة.
- محمد عبد الخالق عضيمة، فهارس كتاب سيبويه ودراسة له، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٧٥.
- محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤.
- محمد عبد المنعم خفاجي ورفيقاه، الأسلوبية والبيان العربي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٢.
- محمد عبد المنعم خفاجي ورفيقاه، البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢.
- محمد عبد المنعم خفاجي ورفيقاه، نحو بلاغة جديدة، مكتبة غريب، القاهرة.
- محمد عيد، أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء القرطبي، وضوء علم اللغة الحديث، عالم الكتب، ١٩٧٨.
- محمد عيد، الاستشهاد والاحتجاج باللغة، رواية اللغة والاحتجاج بها في ضوء علم اللغة الحديث، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٨.
- محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٧.
- محمود أحمد السيد، شؤون لغوية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٨٩.
- محمود حسني، احتجاج النحويين بالحديث، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، عدد(٣،٤)، ١٩٧٩.
- محمود السعران، علم اللغة، (مقدمة للقارئ العربي)، دار المعارف بالإسكندرية، ١٩٦٢.
- محمود سليمان ياقوت، التراكيب غير الصحيحة نحوياً في الكتاب لسيبويه، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- محمود فهمي حجازي، علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٧٠.
- مرتضى آية الله، الزمخشري لغوياً ومفسراً، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٧.
- المرتضى، علي بن الحسين، أمالي المرتضى، (غرر الفوائد ودرر القلائد)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧.
- مصطفى الجويني، البلاغة تأصيل وتجديد، منشأة المعارف بالاسكندرية، ١٩٨٥.
- مصطفى الجويني، المعاني، (علم الأسلوب)، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٣.
- مصطفى الجويني، مناهج التفسير، منشأة المعارف بالإسكندرية.
- مصطفى الجويني، منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه، دار المعارف بمصر.
- ابن مضاء القرطبي، أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن، الرد على النحاة، تحقيق شوقي ضيف، ط٣، دار المعارف.
- مكي بن أبي طالب القيسي، مشكل إعراب القرآن، تحقيق حاتم صالح الضامن، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧.
- منى إلياس، القياس في النحو، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨.
- منير سلطان، بلاغة الكلمة والجملة والجمل، منشأة المعارف بالاسكندرية.
- مهدي صالح السامرائي، المجاز في البلاغة العربية، دار الدعوة، حماة، ١٩٧٤.
- مهدي المخزومي، في النحو العربي قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث، عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٦.
- مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ط٢، شركة البابي الحلبي بمصر، ١٩٥٨.
- الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي.
- ميشال زكريا، بحوث ألسنية عربية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ١٩٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد، إعراب القرآن، تحقيق زهير غازي زاهد، مطبعة العاني ببغداد، ١٩٧٧.
- النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد، شرح أبيات سيبويه، تحقيق وهبة متولي عمر سلامة، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٥.
- نعمة رحيم الغزاوي، النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٨.
- نهاد الموسى، أبو عبيدة، معمر بن المثنى، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ١٩٨٥.
- نهاد الموسى، الأعراف، أو نحو اللسانيات الاجتماعية في العربية، مجلة مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، ١٩٨٥.
- نهاد الموسى، الخطأ في العربية، نموذج من التردد بين منازل المثال والواقع، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت، السنة ٣١، ١٩٨٣.
- نهاد الموسى، ظاهرة الإعراب في اللهجات العربية القديمة، مجلة الأبحاث، الجامعة الأمريكية، ١٩٥٣.
- نهاد الموسى، فيها قولان، أو أضواء على مسألة التعدد في وجوه العربية، مجلة أفكار، عمان، عدد ٢٨، تموز ١٩٧٥.
- نهاد الموسى، نحو منهج في تحقيق قراءة الشعر، مجلة دراسات الجامعة الأردنية، مجلد ٦، أيار، ١٩٧٩.
- نهاد الموسى، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، ط٢، دار البشير ومكتبة وسام، الأردن، ١٩٨٧.
- ابن هشام، جمال الدين بن هشام الأنصاري، الإعراب عن قواعد الإعراب، تحقيق رشيد عبد الرحمن العبيدي، دار الفكر، ١٩٧٠.
- ابن هشام، جمال الدين، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، نشرة محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٥، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٦.
- ابن هشام، جمال الدين، شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، نشرة محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٣، مؤسسة الطباعة والنشر، دار الهجرة، إيران، ١٤١٤ هـ.
- ابن هشام، جمال الدين، شرح قطر الندى وبل الصدى، نشرة محمد محي الدين عبد الحميد.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- ابن هشام، جمال الدين، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، ط٦، دار الفكر، ١٩٨٥.
- ابن وهب الكاتب، أبو الحسن إسحق بن إبراهيم، البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، ١٩٦٧.
- ابن يعيش، موفق الدين بن يعيش النحوي، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، ومكتبة المتنبي، القاهرة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ABSTRACT

THE PHENOMENON OF OMISSION IN THE HOLY QURAN

Hefdhi Hafedh Ishtaiah

Supervised By:

Prof. Mohammad B. H. Abu-Ali

This study deals with the different views of grammarians and rhetoricians concerning Omission in general and its application in the Holy Quran in particular. The study includes three chapters. The first deals with the omission of grammarians.

In this chapter the views of grammarians were discussed: their evidences, their restraints and their cautions, in a number of omissions. It was necessary to compare the past with the present from verses in the Holy Quran, and this required the collections of omissions of the grammarians for comparing their theoritical speech with the applications.

The second chapter deals with omissions as used by Rhetorcians. This necessiated a preface to prove that briefing is an Arab literary tasts. Then the views of Rhetoricians before Abdul Qahir Al-Jurjani omissions as used by him, Omissions as used by the rhetorical literary school, omissions used by the literary scholastic school and omissions used by Al-Zamalkhari. The talk about each was ended by an evaluation view.

The third chapter dealt with evaluating the work of grammarians and rhetoricians in the Omission phenomenon.

The grammarians showed that omission is a factual phenomenon in the language, and was not a mere support to grammar rules. Their work was

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

evaluated in accordance with the balance and their harmony between the meaning and the grammatical work. They succeeded at times, but they also failed.

It was necessary to link the past with the present, and accordingly I presented the views of the moderns and compared them with old grammarians.

٤٠٩٤٩٦

As for rhetorical effort, I gathered in this chapter the evaluations in the first chapter in four items; evidences, tasts, reasoning and division with orderliness.

At the end, I tried to show the demarcation between grammar and rhetoric in the phenomenon of omission. This showed that both branches mingled many times; and there were place where there were ambiguatity. Each judged the case according to their methods and views.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit